الرحلة الحجازية

الجزء الثالث

تأليف

محمد السنوسي

(1267 هـ/ 1851 م ـ 1318 هـ/ 1900 م)

تحقيق

علي الشنوفي

مبرز ودكتور دولة في الآداب
استاذ محاضر بكلية الآداب بتونس

نشر

الشركة التونسية للتوزيع

1398 هـ / 1978 م

طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية



الشيخ محمد بن عثمان السنوسي

الفهرس العام

المقدمة

« ولكن هذا الاثر الجليل على علو مكانته لم
يتح له ما اتيح لبعض آثاره الاخرى من النشر .
فلعل هذا الدين يوفي به مستقبل الايام (1) » .

محمد الفاضل ابن عاشور

نقتصر في تقديمنا لهذا الجزء الثالث والاخير من الرحلة الحجازية على تحليل لمحتواه . غير اننا نرى واجبا علينا التذكير بانه سبق لنا عندما اخرجنا للناس الجزء الاول من هذه الرحلة (2) ان صدرناه بمقدمة باللغة الفرنسية تحدثنا فيها عن مخطوط الرحلة الذي لم نعثر الا عن نسخة واحدة له هي النسخة الكاملة المحفوظة بدار الكتب الوطنية بتونس تحت عدد 3.346

وقد ذكرنا بتلك المناسبة انه لم يتيسر لنا مقابلة تلك النسخة التي اعتمدناها في التحقيق الا مع ما نشره زين العابدين السنوسي بخصوص ترجمة الامير عبد القادر الحسني (3) بصحيفة العرب نقلا عن الرحلة الحجازية وقدم لذلك بالنص التالي :

---

1) ـ انظر : محمد الفاضل ابن عاشور ، اركان النهضة الادبية بتونس ، مطبعة النجاح ، تونس 1381 ص : 3

2) ـ انظر : محمد السنوسي ، الرحلة الحجازية ، الجزء الاول ، تحقيق علي الشنوفي ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1391 ـ 1976 .

3) ـ انظر اسفله : ص : 114 ـ 150 بترقيم المخطوط ، نص ترجمة الامير عبد القادر الحسني



زين العابدين السنوسي

« الح علينا كثير من الاصدقاء في نشر ما لم ينشر من مؤلفات والدنا المرحوم محمد السنوسي . وكنا نود ذلك لولا اننا لم نتمكن من جمعها كلها اذ لم نجد من مؤلفاته الا ما بقي مبعثرا من مسوداتها الاصلية واكثرها غير منظم ولا متصل . اما مبيضات هاتيك المؤلفات فقد تلاعبت به الايدي في مدة طفولتنا وفقد من العائلة تماما . ورغما عن اجتهادنا في جمعه لم نتوفق بعد لاتمام ذلك العمل . وعسانا نجد ممن يمتلك بعضها معونة لنا على جمعها وسننشرها ان شاء الله بمجرد استيفائهـــا .

« على اننا راينا ان نقدم لقراء العرب بين الفترة والاخرى مقتطفات من فصول تلك التآليف سوف يشعر قراؤها زيادة على ما فيها من الفائدة انها مكتوبة بلهجة مخالفة للهجة الصحافة والكتاب اليوم . ذلك انها مكتوبة بقلم مسحه 44 يد من ايدي السنين . وقد مات صاحبه منذ ربع قرن تغير في اثنائها الاسلوب الكتابي وان لم تتغير اللغة (1) » .

ترجمـة محمـد السنـوسي

ولئن نحن بسطنا القول على حياة المؤلف وآثاره في دراستنا باللغة الفرنسية بعنوان : « مفكر تونسي من اهل القرن التاسع عشر ، محمد السنوسي ، حياته وآثاره » (2) فذلك لا يغنينا عن التذكير هنا ولو في ايجاز بترجمته . لقـــد ولد محمد بن عثمان بن محمد السنوسي بحاضرة تونس في 22 ذي القعدة سنة 1267 ـ 18 سبتمبر سنة 1951 . نشأ في بيت علم . ومع ان شهرة عائلتـــه بتونس تجددت عليها العصور في خدمة العلم فقد ظن البعض من معاصري المؤلف ان بيت السنوسي قدمت من طرابلس الغرب وان لها علقة مع الطريقة السنوسية وردا على هذا الظن الناتج عن المشاكلة اللفظية قال المؤلف :

« ان اصل مقدم اجدادي كان من المغرب منذ اربعمائة سنة . ومبدا اقامتهم كان في جهات الكاف وزواياهم لا زالت مشاهدها مزارة مثل زاوية سيدي عساكر دفين قلعة سنا وزوايا اصوله وفروعه الذين تنقلوا للكاف مدة في خدمة العلم وآخرهم هنالك الشيخ سيدي عثمان بن الحاج محمد بن احمد بن مهنية دفين جامع الشيخ حرز الله ، كان في خطة الافتاء . ثم تنقلوا لحاضرة تونس منذ اكثر من مائة سنة في الخدمات العلمية . وتقلبوا في خطط القضاء الى هذا العهد » (3)

1) ـ انظر : زين العابدين السنوسي ، كتاب مقالات العرب ، ج : 8 الحلقة الاولى ، نشر دار العرب ، تونس 1343 ـ 1925 ، ص : 373 ـ 382 .

2) ـ السلسلة الرابعة للتاريخ ، المجلد التاسع عشر ، نشريات الجامعة التونسية ، سنة 1977

3) ـ انظر : محمد السنوسي ، الاستطلاعات الباريسية في معرض سنة 1889 ، المطبعة الرسمية سنـة 1309 ـ 1891 ، ص : 21 .

وتولى جده وابوه القضاء المالكي . والتحق بجامع الزيتونة فصار من انجب خريجه وبه جلس للتدريس بعد ان احرز شهادة التطويع سنة 1287 / 1870 .

وذاع صيته فعينه المشير الصادق باي معلما للامير محمد الناصر باي . وفي 30 محرم 1291 ــ 19 مارس 1874 انتخبه استاذه محمد بيرم الخامس كاتبا اول لمجلس جمعية الاوقاف . وفي 5 شعبان 1293 ــ 26 اوت 1976 عين محررا لجريدة الرائد التونسي . وتواصل نشاطه بالمؤسستين الى ان انفصل عنهما في 5 رجب سنة 1298 ــ 3 جوان سنة 1881 لما يئس من الوزير مصطفى بن اسماعيل اذ لم يجد في مناصرته عونا على الاصلاح .

وانتصبت الحماية الفرنسية بتونس فتاقت نفس محمد السنوسي الى هجرة البلاد فما كان من الدولة اولا الا منعه وتعلل باداء فريضة الحج فاذن له بالسفر وغادر تونس في 7 رجب 1299 ــ 25 ماي 1882 وآب اليها من رحلته الحجازية في 26 ربيع الاول الموافق للخامس من فيفري 1883 . واذاك التحق بوظيفه الذي كان تخلى عنه بجمعية الاوقاف وعين مدرسا بجامع حمودة باشا المرادي .

وفي 18 جمادي الثانية 1302 ــ 4 افريل 1885 تزعم المظاهرة الاحتياجية الكبرى ضد النظام البلدي ووصلها بحركة جمعية العروة الوثقى . وفي 6 شعبان 1302 ــ 21 ماي 1885 القت السلطات الفرنسية القبض عليه وعزلته عن وظيفته ونفته مدة ثلاثة اشهر الى قابس دخل اثرها في مناصب قضائية بالمحكمة المختلطة ثم بالعدلية التونسية .

وفي ماي 8 ذي القعدة 1306 ــ 6 جويلية 1889 رحل الى باريس لمشاهدة المعرض العام بها وعاد الى تونس في 6 ذي الحجة 1306 ــ غرة اوت 1889 . ثم بقي على نشاطه الفكري والقلمي الى وفاته ليلة السبت 24 رجب سنة 1318 ــ 17 نوفمبر سنة 1900 . وقد نظم الشيخ حمودة تاج الابيات التالية لتكتب على قبر صديقه المرحوم محمد بن عثمان السنوسي (1) : (من بحر البسيط)

قف واعتبر بامام العلم والادب ... ما للبصائر والابصار في حجب
قد كان صاحب هذا الرمس بين ذوي ... الآداب والفضل مثل الشمس والشهب
قد كان علامة الدنيا وواحدها ... ورب كل كمال دون ما ريب
فما رات مقلة الايام ابهج من ... سنا السنوسي في عال من الرتب

---

1) ــ انظر : المجلة التونسية ، المجلد : 8 ، سنة 1901 ، سنة 1901 ص : 103 .

زان الكتابة مثل ابن الخطيب وقد	اربى عليه باعلى الشعر والخطب
الى دماثة اخلاق مطهرة	كانها ندرة في معدن الذهب
حتى اتى هادم اللذات يطلب رو	ح المجد حقا كما شاءت يد النوب
فآب يرجو الرضى من فضل خالقه	ولاذ بالمصطفى المختار خير نبي
وبات مرتحلا والفال ارخه	اقم باعلى جنان الخلد في رجب

اما تاريخ تاليف الرحلة الحجازية فالقرائن الموجودة بالصفحتين الثالثة والرابعة من نص الجزء الاول تفيد ان ذلك كان في نوفمبر عام 1885 . واما تصميم هذه الرحلة فقد بينه محمد السنوسي في قوله :

« وقد جعلت هاته الرحلة انموذجا وجزئين وخاتمة للتعريف بمن جمع بيني وبينهم البين . والانموذج في مزية السفر والجزء الاول فيما رايته من قسم ايطاليا المعتبر والجزء الثاني في الآستانة وآسيا الصغرى المشرفة بالحجاز الاشهر » (1) .

والمراد بالخاتمة في كلام المؤلف انما هو الجزء الثالث الذي استعنا في تحققنا لنصه بمجموعة من المصادر والمراجع هي التي اثبتنا قائمتها بالصفحات 13 ــ 14 ــ 15 من المقدمة التي وضعناها باللغة الفرنسية للجزء الاول من هذه الرحلة (2) . وقد احترمنا لغة المؤلف التي تغلب عليها احيانا صبغة الاسلوب التونسي المتداول في عصره . وحافظنا في تحقيقنا لهذا الجزء الثالث على الترقيم الاصلي للمخطوط وهو الترقيم المثبت بالطرة بين معقفين . فنحن اعتمدنا ذلك الترقيم في جميع احالاتنا من تعاليق وفهارس . كما اننا حرصنا على تحقيق الاعلام وتقسيم النص الى فقرات تواكب تسلسل الافكار . ووضحنا العبارات الغامضة واثبتنا تعاليق على كل ما راينا انه جدير بالتوضيح وذيلنا نص هذا الجزء الثالث المتبوع بتقاريظ الرحلة الحجازية بفهارس لما ورد ذكره من الآيات القرانية والاحاديث النبوية والاشعار والمصنفات والصحف والاعلام والاماكن والبلدان والمنشآت والطوائف والقبائل والشعوب والدول . واثبتنا عقب ذلك فهرسين احدهما لصور من وجدنا صورته من بين الاعلام المترجم لهم ، والثاني لمحتوى كامل هذا الجزء الثالث مرقما بترقيم صفحات المخطوط . اما الفهرس العام فقد صدرنا به هذا الكتاب .

---

1) ــ انظر تحقيقنا للرحلة الحجازية ، الجزء الاول ، ص : 26 ــ 27 اسباب القيام بالرحلة .

2) ــ انظر المرجع نفسه . مع الاشارة الى ان هذا العمل قد تناوله في جزء منه وهو الخاص بترجمة الشيخ محمد ظافر الشاب الباحث الاستاذ سعيد غراب في رسالة كفاءة في البحث قدمها سنة 1971 امام كلية الاداب والعلوم الانسانية بتونس باشراف الاستاذ الدكتور احمد عبد السلام .

تحليل محتوى الجزء الثالث والاخير من الرحلة الحجازية

احتوى هذا الجزء على مائتين واثنتين وخمسين صفحة (252) ضمنها محمد السنوسي التعريف بخمسة وعشرين من الرجال الاعلام المشاهير في العلم والحديث والادب والسياسة والحرب الذين اجتمع بهم اثناء رحلته او ورد ذكرهم فيها . وفي ذلك قال ما يلي :

« اعلم انه ينبغي للمسافر ان يكون بالمرصاد من الرجال الذين لا يمكن له الاجتماع معهم بغير السفر اذ كثير منهم لا يخرج من بلاده . فاذا بلغ السائح الى اي بلاد وقف نظره في خاصتها (1) » .

ثم قال ما يلي :

« ان هذا الامر من اعظم مقاصد السواحين فاني اسأل الرجل عن قراءاته واقرائه وبذلك اتوصل الى اجمال مرتبته في العلوم حتى يمكن لي ان آخذ عنه ما يساعد به الحال (1) » .

لقد اهتم محمد السنوسي في رحلته بمن لاقى من العلماء والمحدثين والاولياء والصلحاء فذكر تأليفهم وعدد الاجازات العلمية التي حصل عليها وخاصة في رواية الحديث . وهي اجازات من شانها ان تؤهل صاحبها للتدريس في الفن الذي اخذت فيه . وهو بذلك قد تناول الاغراض التقليدية المعتادة اذ ان هذا النوع من الاهتمامات هو الذي ظهر ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي عند كتاب الرحلات العرب الذين امتلأ وطابهم من علم الحديث وارتووا من علم التصوف .

ذلك ما نجده في هذا الجزء الثالث وهو شبيه بما حوته رحلة العياشي (2) التي تعتبر بمثابة الموسوعة في العلوم الاسلامية والتصوف اذ هي رحلة ضبط فيها مؤلفها مراحل قوافل الحاج من المغرب الى مكة المكرمة وأحيا فن الرحلة الحجازية . وقد سلك مسلك العياشي جماعة منهم ابو العباس احمد بن محمد بن ناصر الدرعي (3) في رحلته الحجازية التي سجل فيها خبر حجاته الاربع وكان يحفظ نص رحلة العياشي ويرويه عن ظهر قلب . واحمد القادري (4) صاحب

---

1) — انظر اسفله ص : 1 من نص هذا الجزء الثالث .

2) — توفي سنة 1679

3) — توفي سنة 1717

4) — توفي سنة 1721

الرحلة المسماة : نسمة الآس في حجة سيدنا ابي العباس . وعبد المجيد بن علي الزبدي (1) صاحب بلوغ المرام الى بيت الله الحرام (2) .

والغالب على الظن ان محمد السنوسي قد اطلع على هذه الرحلات ان لم يكن جميعها فعلى الاقل رحلة العياشي . وقد نبهنا الى الطريقة التي توخاها في تصنيفه الرحلة فقال ما يلي :

« وفرعت طريقة عذراء ولم ارجح مما وقفت عليه طريقة على اخرى . ولست اريد بهذا ثلما لما رايته من الرحلات (3) » .

والجدير بالذكر في هذا الصدد ان المؤلف قد صدق في مقالته بالرغم من انه تناول الاغراض التقليدية المعتادة عند اصحاب هذا الفن. فنحن لما عمدنا الى هذا الجزء الثالث قسمنا ما به من تراجم الى اربعة اقسام : قسم جمعنا به صنف الرجال من اهل الطرق الصوفية . وقسم ثان خصصناه لمن تغلب عليه نزعة الادب التقليدي . وقسم ثالث جمعنا فيه الرجال المنتمين الى الادباء المحدثين . والقسم الرابع هو الذي افردناه لرجال السياسة والحرب . واتضح لنا من خلال تراجم الاقسام الاربعة ان المؤلف مبدع في بحثه لشخصية من يترجم له فهو لا يقتصر على اعطائنا معلومات عن حياة العين المترجم له ولا يكتفي باثراء اسانيده بل هو يمزج ذلك بمناقشة مسائل يبدو انها كانت تشغل بال معاصريه .

ولنا شهاهد على ذلك هو ما ورد في الصنف الاول اعني رجال طرق المتصوفة فقد اشتمل هذا القسم على ترجمة علمين من اعلام الطرق الصوفية هما الشيخ حسن ظافر (4) والشيخ محمد ظافر (5) . وقد افضى الحديث عن شخصية هذين الشيخين بمحمد السنوسي الى اسهاب القول عن الطرق الصوفية فبين موقفه الشخصي منهما ومن التصوف (6) واكد احجامه عن اقامة افضلية بين اولياء الله (7) واخبرنا انه يساند الطرق الصوفية ويتمسك بانتسابه الى الطريقة القادرية (8)

---

1) ـ توفي سنة 1750

2) ـ انظر :
Sadok (Muhammad al-hadj), **le genre « Rihla »**, in **B.E.A. n° 40, nov. déc. 1948**
Blachère (Régis), **Extraits des principaux géographes arabes**, Beyrouth, Paris, 1932, p. 314 et suiv.

3) ـ انظر : تحقيقنا للرحلة الحجازية ، الجزء الاول ، ص : 4 .

4) ـ انظر اسفله نص هذا الجزء ، ص : 2 وما بعدها .

5) ـ انظر اسفله نص هذا الجزء ، ص : 6 وما بعها .

6) ـ انظر اسفله نص هذا الجزء ، ص : 10 ـ 52

6) ـ انظر اسفله نص هذا الجزء ، ص : 26 ـ 30

8) ـ انظر اسفله نص هذا الجزء ، ص : 30 ـ 32

وفي هذا المقام يبدو المؤلف خبيرا بشؤون مختلف الطرق الصوفية فقد وضح ان الطرق الثلاث المدنية والرحمانية والتجانية هي طرق متفرعة عن الطريقة الخلوتية وقدم عقب ذلك عرضا عن تكوين المريدين ثم اوضح كيفية دخوله الى الطريقة القادرية منذ سنة 1280 ــ 1864 . وبين ان ذلك حصل عن طريق الشيخ ابي محمد البارودي (1) امام جامع قصر المحمدية وعدد اسباب امتناعه من مغادرة الطريقة القادرية رغم معرفته التامة لاحزاب الامام ابي الحسن الشاذلي وفي ذلك قال ما يلي :

« قلت وبما قررته من اول الاستطراد الى آخره لم تزل لجنة الله عقيدة سالمة مع جميع اولياء الله رضي الله عنهم اجمعين . وقد اخذت الطريقة القادرية عن الصالح الشيخ ابي محمد عبد القادر البارودي امام سراية المحمدية منذ سنة ثمانين . ولازمت الورد القادري مع ان لي اذكارا باجازات واسانيد اخرى وهي بعض احزاب الامام الشاذلي . ولازمت مفارقته الشاذلية كما لازمت الدور الاعلى للشيخ الاكبر وحزب النووي . ولم ازل ارى الجد يقصر في زيارة مقامات الاولياء اينما كنت متمسكا باذيال جميعهم تمسك التجاء الى فضلهم رضي الله عنهم جميعا . وانا على يقين مما عليه نفسي الامارة بالسوء التي لم تف لربها بالقيام بواجباته واجتناب منهياته . ولذلك طالما امتدحت الاولياء وآل البيت ودعوت بجاههم ونظمت سلسلة الاشراف في قصيدة شهيرة اثبتها في مسامرات الظريف (2) » .

فالطريقة القادرية التي ينتسب اليها المؤلف هي اشهر الطرق لانها اكثرها انتشارا في العالم الاسلامي نظرا الى ان فروعها منتشرة في الهند وفي افريقيا السوداء . وهي ايضا اقدم الطرق الصوفية اذ يرجع تأسيسها الى القرن السادس الهجري الموافق للقرن الثاني عشر الميلادي اسسها الشيخ الفقيه الحنبلي الصوفي عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة 561 هـ ــ 1166 م .

فكل طريقة صوفية لها مؤسسها وهذا المؤسس يعتمد على تقليد لصاحب من اصحاب الرسول صلعم (3) وترجع تعاليم كل طريقة الى شيخها الخاص اذ لكل طريقة

---

1) ــ لم نعثر على ترجمة الشيخ عبد القادر البارودي وغاية ما وصلنا الى معرفته تراجم المشائخ عثمان واحمد وحسن البارودي اثبتها ابن ابي الضياف في الجزء الثامن من كتابه اتحاف اهل الزمان) ص : 73 ــ 79 ــ 101 ــ 160 .

2) ــ انظر اسفله ص : 41 ــ 42 من نص هذا الجزء الثالث .

3) ــ انظر اسفله ص : 14 من نص هذا الجزء الثالث .« وجميع الاصول والفروع يرجع بطريق السند الى عين الرحمة عليه الصلاة والسلام ... »

شيخ ومقدمون واخوان ومريدون . ولا بد لكل مريد يرغب في الانتماء الى طريقة من شيخ يرشده . ويقضي المريد ثلاث سنوات قبل اخذ العهد . فيقضي السنة الاولى في خدمة القوم الصوفية والثانية في خدمة الله والثالثة في مراقبة قلبه (1) .

وقد اهتم الشيخ محمد السنوسي بهذه القضية وفي ذلك قال ما يلي :

« سئل سيدي ابو الحسن الشاذلي (2) فقيل له : من شيخك ؟ فقال : اما فيما مضى فكان سيدي عبد السلام بن مشيش (3) . واما الآن فانا استقي من عشرة ابحر خمسة سماوية وخمسة ارضية . اما السماوية فجبرائيل وميكائيل واسرافيل وعزرائيل والرمح . واما الارضية فابوبكر وعمر وعثمان وعلي والنبي صلعم (4) » .

وكان المؤلف معجبا بالشيخ ابراهيم الرياحي (5) يرى فيه النموذج للصوفي المثالي وقال عنه بخصوص موقفه من الطرق ومن مسالة الانتقال من واحدة الى اخرى ما يلي : « وكان شيخ مشائخنا سيدي ابراهيم الرياحي عرض عليه بعض التلاميذ التجانية ان احد تلاميذه الشيخ محمد ذهب لا يرى التنقل من طريقة القادرية فاستحسن الشيخ ذلك من تلميذه (6) » .

وكان الشيخ ابراهيم الرياحي منخرطا قبلا في سلك الطريقة الرحمانية فخرج منها وهو في الخامسة والثلاثين من عمره (7) وسلك الطريقة التجانية لكنه لم يفعل ذلك الا عن شروط فيها الضمان المؤكد لنجاحه في الدنيا بحصول الجاه والكسب وصلاح الذرية مع ما يضمن له الفوز وسعادة الاخرة (8) وقد بين الشيخ محمد السنوسي شروط الشيخ ابراهيم الرياحي واحدة واحدة حين قال :

---

1) — انظر : اسفله ص : 34 — 36 من نص هذا الجزء الثالث .
انظر : الهجويري ، كشف المحجوب ، ص : 54
انظر ايضا : البير نصري نادر ، التصوف الاسلامي ، بيروت 1960 ، ص : 33

2) — توفي الشيخ ابو الحسن الشاذلي سنة 1258 م.

3) — توفي الشيخ عبد السلام بن مشيش سنة 1227 م .

4) — انظر اسفله ص : 11 من نص هذا الجزء الثالث .

5) — ولد الشيخ ابراهيم الرياحي سنة 1181 هـ . — 1767 م . وتوفي سنة 1266 هـ . 1849 م .
انظر اسفله ص : 25 من نص هذا الجزء الثالث

6) — انظر اسفله ص : 32 من نص هذا الجزء الثالث

7) — كان ذلك سنة 1216 هـ. — 1802 م. .

8) — انظر : محمد البهلي النيال ، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ، تونس 1965 ، ص : 323 — 332

« وقد وقفت على تقييدها منقولا من خطـه وهذا نصه :

1 ــ طلبت من الله تعالى دوام رؤية النبي صلعم بلا شك ولا تلبيس

2 ــ وطلبت عليك يا رب التصرف بالاسم الاعظم .

3 ــ وطلبت عليك يا رب المعرفـة لك التامة على ان تكون مقامـا لا حـالا ... (1) » .

ان تقديم المقام على الحال في كلام الشيخ ابراهيم الرياحي يفسر بان الاحوال موهوبة متقبلة كالمراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشـوق والانس والطمانينة والمشاهدة واليقين بينما المقامات وهي منازل فهي مكتسبة كالتوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضى وهي مراحل تدريجية تبلغ اليها النفس البشرية الباحثة عن الله مبدع الوجود (2) .

ذلك ان نظرية المقامات والاحوال كان ابدعها في القرن الثالث الهجري ذو النون المصري (3) . والجدير بالذكر في هذا الصدد ان القرن الثالث الهجري كان حافلا برجالات الصوفية المبتكرين لاركان عقيدة التصوف الاسلامي تلك العقيدة التي نعثر عليها بحق مع بشر الحافي (4) وكان يدعو الى الزهد والى العدول عن الجهاد والحج للتفرغ للتوكل والورع . وفي هذا القرن الثالث الهجري ظهر السري السقطي (5) وهو مؤسس مدرسة التصوف في بغداد والاستاذ الاول في تعليم التوحيد . وظهر ايضا ابو يزيد البساطي (6) الذي الح على ميدان المشاهدة وفي نظره ان الانسان في امكانه ان يشاهد الذات القدسية اذ الروح تترك نفسها يتقمصها الله وفي ذلك قال : « سبحاني ، سبحاني ما اعظم شاني ! ». وقد ذكر الشيخ محمد السنوسي قضية سند ابي يزيد البسطامي فقال :

---

1) ــ انظر محمد السنوسي ، مسامرات الظريف بحسن التعريف ، الجزء الاول ، تونس (1880) ، ص : 154 ــ 156 .

2) ــ انظر عبد المعطي ، شرح المنازل ، طبعة القاهرة ، 1954
انظر ايضا : دائرة المعارف الاسلامية ، ط. 2 ج 3 ، ص : 85 مقال : حـال .
انظر ايضا : ابو نصر عبد الله بن علي السراج ، كتاب اللمع، ط. مصر 1960، ص : 538 .

3) ــ توفي سنة 245 هـ. .

4) ــ توفي سنة 226 هـ. .

5) ــ توفـي سنـة 251 هـ.

6) ــ توفي سنـة 261 هـ .

« على انا لو اقتصرنا على كلام الشيخ في ترك الوسائط لربما اشكل علينا الحال فيما نقل عن ابي يزيد البسطامي من انه قال :

« انما وصلت الى ربي تركت جميع الوسائط وصرت اتلقى من الحضرة الالاهية بلا واسطة » .

« وناهيك به من رجل خرج من الزهد في اربعة ايام حيث انه في يوم الاول زهد في الدنيا وفي الثاني في الآخرة وما فيها وفي الثالث زهد فيما سوى الله. ففي اليوم الرابع لم يبق له سوى الله فهام فسمع هاتفا يقول :

« يا ابا يزيد لا تقوى معنا » .

فقـــال :

« هذا الذي اريـــد » .

فسمع قائلا يقول : « وجدت وجدت » .

« فلو جرينا على ظاهرة اقوال هؤلاء السادة لصح لنا ان نقول : « ان با يزيد البسطامي الاهي لا سند له في طريقه وعلى قياسه نقول في غيره . لكن ليست هذه جادة العارفين بالله المحافظين على سند الطريق » . (I)

لقد ادت مثل تلك الاوضاع الى الانصراف عن التوحيد الخالص ودفع كل ذلك الى الالتجاء الى تاليه الاحياء وتقديس الاموات وسيطرت هذه الافكار لا على العامة فقط بل على الخاصة ايضا من ائمة وعلماء وفقهاء فكان للحركة الصوفية تأثير كبير في اعادة عنصر الاتحاد الشخصي مع الاله الى صلب الحياة الدينيـة للمسلم . وقد قاومت عبقرية الامام ابي حامد الغزالي (2) هذاالاتجاه فترة من الزمن الى ان اظهر احمد ابن تيمية (3) فعارض المذهب الصوفي المتطرف اشد معـارضة وكذلك فعل من بعده محمد بن عبد الوهـاب (4) .

I) ـ انظر اسفله ص : I3 ـ I4 من نص هذا الجزء الثالث .

2) ـ توفـي سنـة IIII م.

3) ـ توفي سنـة I328.

4) ـ ولد سنة III5هـ. ـ 7I03 م. وتوفي سنة I206 هـ. ـ I792 م. انظر ترجمته بدائـرة المعـارف الاسلاميـة ، ط. 2 ج : 3 ص : 699 ـ 70I
انظر ايضا .

Laoust (Henri), **Les schismes dans l'Islam**, Payot, Paris 1965, p. 321-332.

فيقظة الفكر العربي الاسلامي في عصر النهضة هي يقظة ترجع في المنطلق الى تلك الدعوة الدينية السياسية التي بداها الشيخ محمد بن عبد الوهاب منذ ان تمت البيعة سنة 1157هـ ـ 1744 م. بينه وبين الامير محمد بن سعود لنصرة كلمة الله . والدعوة الوهابية هي دعوة تجديد قامت على اساسين اولهما العودة الى التوحيد ومعنى ذلك تطهيره من البدع التي لها صلة بالتقرب الى الاولياء والنذر للصلحاء وبناء الاضرحة وزيارتها وبالاجمال مكافحة عمل الطرق أما الاساس الثاني من الدعوة الوهابية فهو فتح باب الاجتهاد ومعنى ذلك تحرير العقل من ضغوط التقاليد . وقد حمل الشيخ محمد بن عبد الوهاب لواء هذه الدعوة الى التوحيد والاجتهاد ولم يلبث ان حولها الى برنامج سياسي لمقاومة استبداد الحكام الاتراك تحت شعار الخلافة العثمانية الاسلامية .

نعم لقد كان اسلام افراد الشعب في مختلف اصقاع العالم الاسلامي يتمثل في الانتساب الى احدى الطرق الصوفية فالمنتسب الى الطريقة كان عليه ان يحضر حلقات الاذكار والاوراد وفي المساهمة في تلك الرياضات فوائد تحصل له اهمها تدعيم ثقافته الاسلامية التي قوامها الايمان بالتوحيد وبالرسالة المحمدية وباعجاز القران وبالقدر خيره وشره وبالبعث واليوم الاخر (1) وفي هذا الصدد قال الشيخ محمد السنوسي ما يلي :

« وقد قسم القوم الانتساب الى المشائخ واخذ الطرق منهم الى اربعة اقسام : احدها اخذ المصافحة والتلقين للذكر للتبرك وللنسبة فقط . ويصح الانتساب ايضا بالاتباع والمشاركة ولو في شيء يسير مع المحبة لهم . وهذا مصداق قول الشاذلي : من قرأ حزبنا فله ما لنا وعليه ما علينا . اي ما لنا من الحرمة وما علينا من الرحمة . وهذا جاء في كل طريق . ثانيها اخذ رواية بقراءة كتبهم من غير حل لمعانيها وقد يكون ايضا للتبرك او للنسبة فقط . وثالثها اخذ دراية كتبهم لادراك معانيها فقط . ورابعها اخذ تدريب وتهذيب وترق في الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة والفناء في التوحيد والبقاء (2) » .

لقد اخذت الطرق الصوفية ابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي وخلال القرون الموالية تهتم بالحاجات الدينية لافراد الناس فانضم الفقهاء والعلماء الى تلك الطرق وساهموا في مجابهة فكرة الحلولية المتطرفة . وهذا معنى قول الشيخ

---

1) ـ انظـــــــر :

Gardet (Louis), **Les hommes de l'Islam, édit. Hachette**, Paris 1977, p. 310 et suivantes.

2) ـ انظر اسفله ص : 38 من نص هذا الجزء الثالث

محمد السنوسي بخصوص مقالة ابي يزيد البسطامي : « لكن ليست هذه جادة العارفين بالله المحافظين على سند الطريق » . (I) نعم ليست جادة العارفين بالله تلك التي سلكها البسطامي وذلك ما ادى بالحلاج ولي الله الى الموت مصلوبا سنة 309 هـ . وكان قد سلك طريق ابي يزيد البسطامي الى حد انه اعلن الحلول وقال : « انا الحـــق » .

فابتداء من القرن الخامس عشر الميلادي الى مطلع القرن العشرين صار الناس في كامل اقطار العالم الاسلامي بما في ذلك اهل المدن والقرى والارياف خاضعين على السواء لهيمنة الطرق الصوفية لكن تلك الهيمنة كانت لها ابعاد ايجابية تمثل اهمها في الدور الروحي الذي كان من نصيب الطرق الصوفية باقطار المغرب العربي فقد تضاعف هو الآخر بتاثير سياسي اذ منذ القرن السادس عشر الميلادي مثل مشائخ الطرق الصوفية نوعا من السلطة المحلية الاهلية المحببة عند الشعب الاكثر اقترابا اليه من السلطة الرسمية العثمانية بتونس والجزائر ومن السلطة المخزنية بالمغرب الاقصى .

ولقد كان الناس باقطار المغرب ينسبون لمشائخ الطرق الكرامات ويدعون ان لهم قدرة على معرفة المغيبات وكشف النقاب عن خطرات القلوب لكن الى جانب ذلك كان الناس يجدون لدى الطريقة الصوفية حماية روحية واجتماعية ورعاية سياسية ونوعا من التثقيف العربي الاسلامي كانوا يتلقونه في الزوايا التي كانت تقوم مقام المدارس التعليمية فلقنتهم ثقافة عربية اسلامية هي ثقافة مصطبغة بطابع الجمود دون شك ولكنها على الرغم من جمودها قامت بـــدور ايجابـــي تمثل في الحفاظ رغم الاعاصير من كل نوع على مقومات تلك الثقافة الاصيلة باكملهـــا .

نعم قد اثارت عدة مفاهيم جوهرية في التصوف الاسلامي احترازات كبيرة في عالم الفقهاء ورجال الشرع وذلك مثل مفهوم المعرفة وهو مفهوم يعني المعرفة الشخصية الممتازة التي قد تنزع الى ان تاخذ مكان السنة النصية وكذلك مفهوم الزهد وهو معنى قد يفصل المؤمن عن جميع الفرائض الاجتماعية ويقوده الى حياة التقشف والخلوة . وكذلك ايضا مفهوم الاباحة وهو مفهوم التناقض الذي قد يجرد المؤمن عن الفرائض المكتوبة للشرع . لذلك انما استطاع التصوف فرض نفسه بان تقدم محترما لمعطيات الشريعة المنزلة احتراما اكمل (I) .

I) ـ انظر اسفله ص : I3 ـ I4 من نص هذا الجزء الثالث

I) ـ انظـــــر :
Laoust (Henri), Les schismes dans l'Islam, Payot, Paris, 1965, p. 395.

غير ان تاثير الطرق الصوفية قد ساهم في خلق ذهنية من نوع خاص هي تلك التي ابرز سماتها الخضوع والاستسلام والزهد في المصير الدنيوي للشعوب حتى انتهى الامر بالعديد من الطرق الصوفية الى التحالف مع السلط العثمانية ثم السلط الاستعمارية الامر الذي جعل الكثير من الدول الاسلامية تاخذ اليوم حذرها وتحترز من تاثير هذه الطرق وتقاليدها لانها ترى في ذلك حواجز معرقلة للرقي الاجتماعي والنمو الاقتصادي بل ان بعض تلك الدول عمد الى تحجير الطرق او الى محاولة تحجيرها . وبالرغم من ذلك مازلنا نشاهد نشاط بعض الطرق الصوفية يتجدد مثل ما هو الامر بخصوص الطريقة الخلوتية والطريقة الرفاعية بمصر والطريقة الدرقاوية بالمغرب الاقصى والطريقة الشاذلية بتونس وطريقة المريدين بالسنيغال.

ولئن كان هذا التاثير قد وجد بالفعل فان النزاهة تفرض ان نذكر باحد المظاهر التي بها اضاف رجال التصوف الاسلامي لبنات جديرة بالتقدير الى صرح الفكر العربي الاسلامي منذ القرن الثالث الهجري الموافق للقرن التاسع الميلادي . ذلك المظهر هو الذي تجلى في كتاب الرعاية لحقوق الله لابي عبد الله الحارث بن اسد المحاسبي (1) فقد درس المحاسبي ما للنفس والقلب والعقل من علاقات متينة وبذلك اعان على تحليل نفسية الصوفية وبالتالي على تحليل الاهواء البشرية على اساس امعان النظر في القلب البشري .

ولا بد هنا من التذكير بشان ابي القاسم الجنيد كبير متصوفة عصره (2) اذ لنا ان نقارن الجنيد بالمحاسبي مع ان ابا القاسم الجنيد لم يكشف القناع عن العميق من فكرته وكان في ذلك سالكا مسلك التقية وهو بما قدمه من تعليم مقام على الادراك الصافي والتحكم المطلق في النفس قد وضح اسس النظم الصوفية التي ظهرت من بعد عند الخلف الصوفي حتى عصر مؤلف الرحلة الحجازية وفي هذا الصدد قال الشيخ محمد السنوسي ما يلي :

« وقد وقفت على جملة في تاليف صاحبنا العالم الفاضل الشيخ محمد المكي ابن مصطفى بن محمد بن عزوز وشح بها مقدمة كتابه في الطريقة الرحمانية استحسن ايرادها هنا لحسن موقعها وهذا نصها : الباب السادس من المقدمة في اسانيد الطرق المشهورة وبيان رجوعها الى اصل واحد . اعلم ان الطرق الموصلة الى رضى الله تعالى وسكنى دار النعيم كثيرة ولا طماعية لي في احصاء اسمائها

---

1) — توفي سنة 243 هـ . / 857 . انظر ايضا كتاب العلم للحارث بن اسد المحاسبي حققه وقدم له محمد العابد مزالي . طبع الدار التونسية للنشر — تونس والشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر — سنة 1975 . انظر ايضا تقديم هذا الكتاب للشاذلي بويحي بحوليات الجامعة التونسية عدد 15 عام 1977 .

2) — توفي سنة 298 هـ.

فضلا عن معرفة اسانيدها وانما مرادي هنا ان اذكر اسانيد مشهورها ليعرف ان اصلها واحد وهو الامام سيد الطائفة ابو القاسم الجنيد قدس الله سره فهي رحم واحدة ابوها الروحي الامام المذكور فمسى ينشا بمعرفة انتظام الكل في ذلك العقد الفريد تسليم بعضنا لبعض وترك التعصب حتى لا يسلق بعضنا بعضا بألسنة حـــداد (1) » .

ومن ناحية اخرى قد شن الشيخ محمد السنوسي حملة انتقادية عنيفة ضد منحرفي السلوك من بين المريدين والمقدمين المتصرفين وفي هذا الصدد قال ما يلـــي :

« ولا يتعفف الواحد منهم عن أكل اموال الناس بالباطل اكلا لا يجتمع مع نيل المدد في بطن واحد بل لا يتعفف الواحد منهم عن الغيبة والنميمة والكبر والعجب واظهار المؤانسة بالدعارة على الخنى وغير ذلك من المحرمات المجمع عليها بل لا يتعفف عن زيارة محبوبته او محبوبه من الغلمان وما يستتبع ذلك من الفسوق والعصيان الممنوع بنص القران . (2) ... واذا علمت حالة المريد الطالب للمدد بين يدي شيخ التربية فلا يمتري عاقل في انها ليست حالة من نشاهدهم يتهافتون على الاخطار تهافت الفراش على النار وهم بين يدي مقدمي طرقهم يتعاطون اللهو واللعب ولا نزيد شيئا آخر ولا يعرف المقدم ولا التلميذ من العقبات الا انجاد الارض ولا يعرفون من الطريق الا الاوراد التي يقع عليها الاجتماع ان لم يصحبها شيء من عوارض الامتناع ...(3) .

كما اننا نعلم ونحن نقرا هذا الجزء الثالث من الرحلة الحجازية امرا ذا بال هو ردود فعل معاصري محمد السنوسي بخصوص موقفه من الطرق الصوفية . فلقد قص علينا المؤلف المجادلة التي دارت بينه وبين الخصم الذي كتم اسمه على قراء هذا الجزء . الا انه اعلمنا ان ذلك النقاش جرى بحضور صديقه الشيخ المكي بن عزوز (4) .

اما الصنف الثاني وهو المتعلق باصحاب النزعة التقليدية من شيوخ العلم فقد عد ثلاثة عشر علما هم الشيخ عصمت افندي التركي (5) الذي سمي قاضيا بالمدينة المنورة سنة 1298 / 1882 . وقد تعرف عليه المؤلف اثناء السفر في الطريق

---

1) انظر اسفله ص : 39 من نص هذا الجزء الثالث

2) ـ انظر اسفله ص 34 من نص هذا الجزء الثالث

3) ـ انظر اسفله ص 37 من نص هذا الجزء الثالث .

4) ـ انظر اسفله ص : 45 وما بعدها من نص هذا الجزء الثالث

5) ـ انظر اسفله ص : 52 ـ 57 من نص هذا الجزء الثالث

الى البقاع المقدسة . ثم الشيخ محمد الادهم الشامي (1) تعرف عليه المؤلف اثناء السفر عند الخروج من بور سعيد . ثم الشيخ رحمة الله الهندي (2) صاحب كتاب اظهار الحق .وكان من كبار شيوخ التدريس بمدرسة خندريسة بمكة المكرمة . ثم الشيخ حبيب الرحمان الهندي (3) وبمناسبة الترجمة لهذا العلم قدم المؤلف بيانا عن برامج التعليم الاسلامي ومناهجه بالهند . ثم الشيخ عبد الجليل براده الفاسي (4) وقد وصفه المؤلف بانه اديب الحجاز وهو الذي اقترح على المؤلف نظم قصيدة في المخترعات . ثم الشيخ علي الوتري (5) وهو شيخ بغدادي الاصل مدني المولد والمنشا قام بعدة رحلات منها رحلة الى تونس سنة 1286 / 1870 واخرى الى الجزائر والمغرب الاقصى سنة 1206 / 1879 . ثم الشيخ علي الخربوطي (6) والشيخ محمد بالي (7) المفتي الحنفي بالمدينة المنورة ومولاي ادريس بن عبد الهادي الفاسي (8) قاضي الجماعة بمدينة فاس ، وقد تعرف عليه المؤلف بمناسبة القيام بفريضة الحج اثناء زيارته للمدينة المنورة . ثم الشيخ محمد الشنقيطي (9) الذي استقر بالمدينة المنورة ثم الشيخ تاج الدين الياس (10) وكان امام الحرمين الشريفين منذ سنة 1278 / 1862 . ثم الشيخ محمد الطنطاوي المصري (11) وكان من كبار مشائخ علم الحديث . ثم الشيخ ابو بكر العطار الدمشقي (12) . وقد كان زاره المؤلف اثناء مروره بمدينة دمشق الشام .

اما الصنف الثالث من التراجم فهو صنف الرجال المنتمين الى الادباء المحدثين المجددين في ميدان الفكر والثقافة ويعد هذا الصنف ترجمة اربعة اعلام مشاهير لا غير الا انه صنف تتجلى لنا من خلاله ميول الشيخ محمد السنوسي باعتبار اعجابه بالمخترعات العلمية . فقد كان شديد الادراك لصميم الحياة الغربية ذواقة

---

1) ـ انظر اسفله ص : 57 ـ 60
2) ـ انظر اسفله ص : 61 ـ 69
3) ـ انظر اسفله ص : 71 ـ 76
4) ـ انظر اسفله ص : 76 ـ 84
5) ـ انظر اسفله ص : 84 ـ 92
6) ـ انظر اسفله ص : 103 ـ 105
7) ـ انظر اصفله ص : 105
8) ـ انظر اسفله ص : 107 من هذا الجزء الثالث .
9) ـ انظر اسفله ص : 109 من نص هذا الجزء الثالث .
10) ـ انظر اسفله ص : 111 من نص هذا الجزء الثالث .
11) ـ انظر اسفله ص : 166 من نص هذا الجزء الثالث .
12) ـ انظر اسفله ص : 168 من نص هذا الجزء الثالث .

لالوانها وافانينها ومما يدل على دقة ملاحظته تلك المعلومات والانطباعات التي ياتينا بها بين الفينة والاخرى خلال نص رحلته الحجازية ومن ذلك اخبارنا بان النزل (الاوتيلات) لم تكن موجودة بمدن الحجاز عندما مربها واعلامنا بان التلغراف انما دخل مدينة مكة المكرمة سنة 1298 / 1881 فقط . (1)

ومن جهة اخرى كان الشيخ محمد السنوسي ميالا لمن كانوا يناضلون في سبيل الرقي والاصلاح بالحرف والكلمة ولنا على ذلك شاهد هو تلك المقالات التي دبج بها افتتاحيات الرائد التونسي وجريدة الحاضرة والتي جمعها في كتابيه المفقودين غرر الفرائد بمحاسن الرائد والرياض النضرة بمقالات الحاضرة . وكان المؤلف معجبا بالسيد جمال الدين الافغاني وبالاستاذ الامام محمد عبده . ومما يلفت النظر في هذا المقام ابتداؤه بترجمة المعلم بطرس البستاني قبل الافغاني وعبده بينما بطرس مسيحي الدين والعادة الجارية ان التراجم تخصص للاعلام المسلمين لا النصارى . ونحن نلمس هنا آمرات دالة على سمة تفكير الشيخ محمد السنوسي وعلى شدة اهتمامه بالموضوعية . فقد كان يعتبر ان المعلم بطرس البستاني الرجل المسيحي قد افاد اللغة العربية وثقافتها . ولذلك لم يتحرج المؤلف فخصه بترجمة (2) . ثم ترجمة للسيد سعدي زاده رشدي البغدادي (3) وكان تعرف عليه بتونس . ثم ترجم للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده (4) . ثم ترجم للسيد جمال الدين الافغاني (5) .

اما الصنف الرابع والاخير وهو الذي افردناه لرجال السياسة والحرب فيعد ستة أعلام هم ابراهيم ادهم افندي (6) ثم الامير عبد القادر الحسني (7) ثم

---

1) – اما سكة الحديد فقد وصلت الى المدينة المنورة سنة 1325 – 1907 .
انظر محمد بن الخوجة ، الرزنامة التونسية ، ط. تونس 1329 ، ص 11

2) – انظر اسفله ص : 171 – 174 من نص هذا الجزء الثالث .

3) – انظر اسفله ص 176 – 177 من نص هذا الجزء الثالث .

4) – انظر اسفله ص : 178 – 181 من نص هذا الجزء الثالث . وللمقارنة انظر ايضا : عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الاسلام ، طبعة مصر بدون تاريخ ، ص : 530 – 538 . انظر ايضا :
Laoust (Henri), **Les schismes dans l'Islam**, Paris 1965, p. 342-343.
Gardet (Louis), **Les hommes de l'Islam**, Hachette 1977, p. 334 et suivantes.

5) – انظر اسفله ص : 182 – 194 من نص هذا الجزء الثالث . انظر ايضا للمقارنة عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الاسلام ، ص : 490 – 495. انظر ايضا :
Laoust (Henri), **Les schismes dans l'Islam**, p. 339 et suivantes.
Gardet (Louis), **Les hommes de l'Islam**, p. 332 et suivantes.

6) – انظر اسفله ص : 112 – 113 من نص هذا الجزء الثالث .

7) – انظر اسفله ص : 114 – 146 من نص هذا الجزء الثالث .

الشيخ محمود حمزة (1) ثم الشيخ سليم العطار (2) ثم احمد عرابي باشـا (3) ثم الشيخ محمد احمد (4) . والجدير بالذكر بخصوص هذا الصنف هو ان الشيخ محمد السنوسي قد اهتم بصفته رجل صحافة واعلام باحداث عصره الاجتماعية والسياسية سواء منها التي اتصلت باحداث بلاد الجزائر او التي تعلقت باحداث الشرق الاوسط مصر والشام والسودان . وهو في تقديمه لتلك الاحداث اغفل ذكر مصادره الامر الذي لا يمكن من ضبط موقفه بالتدقيق .

فهذه التراجم الخمس والعشرون قدمت لنا بصفة غير مباشرة صورة دقيقة وفية عن الشيخ محمد السنوسي نفسه فهو الرجل الذواقة ذو السمو الثقافي وقوة الشخصية قد اختار لنفسه من بين تيارات عصره مسلكا ذا مظهر تقليدي يمتاز باحترامه لاولي الامر ويعكس اهتمامه البالغ بمذهب اهل السنة والجماعة . فهو المسلم المجدد وهو السني المتماشي مع حاجة الوقت وتفكير العصر وهو مع ذلك يشعر بجاذبية محببة نحو الطريق الصوفية في نطاق الطريقة القادرية . وهو الى ذلك يؤيد هـذا الاتجاه برغبته المفرطة في التنويه بفضائل آل البيت والعديد من الشخصيات اصحاب نزعة المحافظة .

والجدير بالذكر في هذا المقام هو ان مبعث هذا الاتجاه عند الشيخ محمد السنوسي انما هو ثقافته ونوعيتها تلك الثقافة المتينة في العلوم التي برز فيها اولئك الاعلام الذين خصهم بالتعريف في هذا الجزء الثالث من الرحلة الحجازية . ففي الاستشهادات المسهبة وفي الكثرة الوافرة من الاسانيد التي اوردها عبر هذا الجزء وكذلك في الاجازات التي اجتهد في الحصول عليها في كل ذلك تكمن اهمية القيمة التاريخية الثقافية لهذا التصنيف .

ذلك ان الشيخ محمد السنوسي له نزعة تجديدية ملحوظة رغم تعلقـه المتين باهداب السنة وبالتيار المحافظ . وتتلخص تلك النزعة التجديدية في اعتنائه بخصائص التمدن الغربي واخباره عن بعض المكتشفات والمخترعـات

---

1) ـ انظر اسفله ص : 150 ـ 152 من نص هذا الجزء الثالث .

2) ـ انظر اسفله ص : 159 ـ 166 من نص هذا الجزء الثالث .

3) ـ انظر اسفله ص : 202 ـ 241 من نص هذا الجزء الثالث .
انظـر ايضـا :
Laoust (Henri), **Les schismes dans l'Islam**, p. 342.

4) ـ انظر اسفله ص : 196 ـ 201 من نص هذا الجزء الثالث .
انظـر ايضـا :
Laoust (Henri), **Les schismes dans l'Islam**, p. 348-352.
انظر ايضا : عبد المتعال الصعيدي ، المجددون في الاسلام ، ص : 586 ـ 589 .

العلمية وتطبيقاتها في صميم الحياة . وكان المؤلف يسعى دوما في ابلاغ ضافي المعلومات عن تلك المكتشفات والمخترعات الى معاصريه ولهذا الغرض خصص الجزء الاول من هذه الرحلة حيث بين سر تقدم الغربيين .

ان الشيخ محمد السنوسي ليس شيخا زميتا متعصبا انه رجل علاقات نراه اثناء رحلته الحجازية يجتهد في تحقيق الاتصال بالغير من الرجال اللامعين باعمالهم في سبيل الاصلاح والتنظيم على الصعيدين الاخلاقي والتقني قصد تحسين ظروف الحياة الاجتماعية . وشيء آخر امتاز به المؤلف هو انه لم يكن شيخا تقليديا يفضل الانزواء والفرار من الاتصال برجال السياسة والحكم بل مثل هذه العزلة قد تجنبها الشيخ محمد السنوسي بفضل ممارسته للكتابة الصحفية .

ويمكن القول من جهة اخرى ان الشيخ محمد السنوسي رجل ملتزم سياسيا بمعنى انه رجل يناصر يقظة المسلمين من نوم الغفلة قصد تحرير البلاد الاسلامية من الهيمنة الغربية . ومهما يكن من الراي في هذا المقام ومهما يكن الحكم الذي يمكن اصداره بشأن هذا الرجل . فكتابه الرحلة الحجازية وخاصة منه هذا الجزء الثالث هو كتاب له طرافته وله قيمته النسبية اذ لم يكتف فيه المؤلف بتقليد من سبقه من كتاب الرحلات العرب بل ان كلفه بالآداب العربية قد دفعه الى اقامة لوحة ادبية حية نابضة لكامل مناطق العالم الاسلامي في القرن التاسع عشر وعلاوة على هذا المظهر الادبي هناك المظهران التاريخي والنفساني . وكل ذلك يدل على سمو الشيخ محمد السنوسي الثقافي وعلى دقة ملاحظته وعلى قوة شخصيته (1) .

---

1) ـ انظر : محمد الفاضل ابن عاشور ، اركان النهضة الادبية بتونس ، ص : 33 .

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

الجزء ... من الرحلة ...

اخبرنا ... [illegible]

اعلم انه ينبغي للمسافر ان يكون باحثا عما من احوال الذين لا يمكنه له
الاجتماع معهم بعض الشيوخ الذين كثير منهم لا يخرج من بلاده بل ان ابلغ المشايخ
الى ان البلاد ... من نظر ... ضبطها العهد ... الذي
... لقاء من ... رجال السياحة وكذلك ... الجهلة
الذين العلم ... له ... في جمع امورهم وكان شيخنا ... رضي الله عنه
الكتب التي ... وكنت ... فقال لي انا كنت ...
... الاجتهاد ... كتابا
... فقال ... كنا ...
لصعوبة على ... ان
ان ... رجال شيخنا ... اهل ... الجهة
فقلت له يا سيدي ... اعظم ... فقال الرجل
... الى ... العلوم ...
ان ... وان لم يكن ... عن
... كل ... السياحة ...
منكر وانما يمكن ان يكون هذا ... السياحة ...
كثير الرجال ...

لرزليا

تقاريظ الرحلة

الحمد لله والصلاة والسلام على أكمل خلق الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد فلما أن الرحلة المعروفة من الناظم التونسي وتسمى الرحلة الحجازية المزينة بالرحلة الحجازية وفرغ كتبها ... [illegible] بالمحضرة كان ... من العلماء الأمجاد وفحول الرجال الأنجاد ... [illegible] ذلك الديوان تنبيها على ما فيه من خبايا الدهر ... إلا أنه لا يصل إلى أيدينا منها إلا الغير اليسير وإنما ثبتنا بعض ما وصل ... [illegible] من جملة ما كتبه الشيخ الماهر الفقيه الأديب الكاتب الشيخ السيد محمد ... [illegible] على الرحلة الحجازية ونصه

الحمد لله على نواله والصلاة والسلام على محمد وآله

المستطاع ... [illegible] الفاضل الجليل والحكيم النبيل الأديب الفاضل البارع ... [illegible] والكريم بلا منازع .. ... [illegible] الأدباء ... [illegible] أخونا الشيخ السيد محمد ... [illegible] الشريف. أدام الله ... [illegible] من كل نفيس كمالا ... [illegible] والسلام التام ... [illegible] عليكم مع رحمة الله وبركاته وأزكى تحياته. هذا وقد اطلعنا على رحلتكم الحجازية ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible] ... [illegible] للتامل ... [illegible] على ... [illegible] خطا ... [illegible]

... [illegible] والله ... [illegible] عنكم ... [illegible] والسلام من ... [illegible] أخيكم محمد ... [illegible] في ... [illegible] سنة ١٣٠٢

ومن ذلك ما كتبه الماهر ... [illegible] التونسي ... [illegible] في ... [illegible] عليه ... [illegible]

... [illegible] ... [illegible]
... [illegible] ... [illegible]
... [illegible] ... [illegible]
... [illegible] ... [illegible]

[1] [1]

بسم الله الرّحمن الرّحيم
وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم

الجزءُ الثالثُ من الرّحلة الحجازيّة

الْخَاتِمَةُ فِي التَّعْرِيفِ بِالرِّجَالِ الَّذِينَ اجْتَمَعْتُ بِهِم عدَا (1) مَنْ مَضَى لَهُمْ ذِكْرٌ .

اعْلَمْ أنَّهُ يَنْبَغِي لِلْمُسَافِرِ أنْ يَكُونَ بِالْمِرْصَادِ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِينَ لاَ يُمْكِنُ لَهُ الاجْتِمَاعُ مَعَهُمْ بِغَيْرِ السَّفَرِ إذْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ لاَ يَخْرُجُ مِنْ بِلاَدِهِ فَإذَا بَلَغَ السَّائِحُ إلَى أيِّ الْبِلاَدِ دَقَّقَ نَظَرَهُ فِي خَاصَّتِهِ .

[حال جهلة العلم]

لَطِيفَةٌ : قَدِ اتَّفَقَ لِي أنِّي حَضَرْتُ طَعَامَ أحَدِ مَشَاهِيرِ رِجَالِ السِّيَاسَةِ . وَكُنَّا نَتَذَاكَرُ فِي أحْوَالِ جَهَلَةِ المُدَّعِينَ

(1) بالأصل : عدى .

الْعِلْمِ فَذَكَرْتُ لَهُ قِصَّةً حَصَلَتْ لِي مَعَ أَحَدِهِمْ ، وَكَانَ شَيْخًا قَدْ سَأَلْتُهُ عَنِ الْكُتُبِ الَّتِي أَقْرَأُهَا ، وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ بِصَدَدِ الْإِقْرَاءِ . فَقَالَ لِي « إِنِّي كُنْتُ مُدَّةَ الْجِدِّ وَالاجْتِهَادِ أَقْرَأْتُ بَعْضَ شَرْحِ الشَّيْخِ خَالِدٍ عَلَى الأَجْرُومِيَّةِ (2) . فَقُلْتُ لَهُ « إِنَّهُ كِتَابٌ فِيهِ مَسَائِلُ مُهِمَّةٌ مِثْلَ مَسْأَلَةِ الْوَضْعِ » فَقَالَ لِي : « نَحْنُ لَمَّا وَصَلْنَا إِلَيْهَا تَرَكْنَاهَا لِصُعُوبَتِهَا عَلَى الطَّلَبَةِ » .

ثُمَّ رَأَيْتُ مِنْ جَلِيسِي عَلَى الطَّعَامِ تَغَيُّرًا وَلَمْ يَتَرَيَّثْ أَنْ قَالَ لِي :« كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ تَسْأَلَ رَجُلاً شَيْخًا طَاعِنًا فِي السِّنِّ عَنْ أَحْوَالِهِ الْعِلْمِيَّةِ ؟». فَقُلْتُ لَهُ :« يَا سَيِّدِي ! إن هَذَا الأَمْرَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ السُّيَّاحِ فَإِنِّي نَسْأَلُ (كَذَا) الرجُلَ عَنْ قِرَاءَتِهِ وَإِقْرَائِهِ وَبِذَلِكَ نَتَوَصَّلُ إِلَى إِجْمَالِ مَرْتَبَتِهِ فِي الْعُلُومِ حَتَّى يُمْكِنَ لِي أَنْ نَأْخُذَ عَنْهُ مَا يُسَاعِدُ بِهِ الْحَالُ ». فَسَكَنَتْ بِذَلِكَ نَفْسُهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سُكُوتُهُ عَنِ اسْتِحْسَانٍ . إلا أن ذَلِكَ عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ مَزَايَا السِّيَاحَةِ حَبَّ مَنْ حَبَّ أَمْ كَرِهَ مَنْ كَرِهَ . وَإِنَّمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْفَصْلُ لَمْ يُدْرَجْ فِي قَوَانِينِ السِّيَاحَةِ .

وَقَدْ كُنْتُ أَسْأَلُ الرَّجُلَ عَنْ حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ سُؤَالاً بَاتًّا وَلاَ
[2] أَرَى عَالِمًا أَوْ فَاضِلاً إلا يَبْهَشُ [2] لِذَلِكَ وَيُجِيبُ عَنْهُ أَحْسَنَ
إِجَابَةٍ . وَهَا أَنَا أَذْكُرُهُمْ عَلَى تَرْتِيبِ الاجْتِمَاعِ بِهِمْ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

---

(2) الأجرومية نسبة إلى محمد بن داود الصنهاجي بن أجروم ، نحوي مغربي ولد سنة 672/1273 وتوفي سنة 723/1323 بفاس حيث درس النحو والقراءات وهو مؤلف المقدمة التي تحمل اسمه وهو تأليف صغير عرض فيه نظما اعراب الكلمات ، وقد تناول المقدمة بالشرح عديد من النحاة ممن جاء بعد ابن اجروم من بينهم الشيخ خالد فبلغ الشروح ستين . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2، III ، 719 .

الشيخ محمد ظافر

[ترجمة الشيخ حسن ظافر]

هُوَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ حَسَنِ بْنِ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الوَهَّابِ ظَافِرُ المَدَنِيُّ (1) أَصْلُهُ مِنْ قَبِيلَةِ الظَّوَافِرِ مِنْ عَرَبِ الحِجَازِ. وَهُوَ ذُو بَيْتٍ أَصِيلٍ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ. وَكَانَتْ وِلاَدَةُ وَالِدِهِ الشَّيْخِ حَسَنٍ بِالمَدِينَةِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَةٍ وَأَلْفٍ (2) وَقَرَأَ بِهَا وَسَلَكَ طَرِيقَ أَهْلِ اللّهِ. وَطَلَبَ الفَتْحَ الرَّبَّانِيَّ عَلَى يَدِ كَثِيرٍ مِنَ الأَسَاتِيذِ. وَارْتَحَلَ فِي ذَلِكَ إِلَى الدِّيَارِ المَغْرِبِيَّةِ فَاجْتَمَعَ بِالشَّيْخِ أَحْمَدَ التِّجَانِيِّ (3). وَأَخَذَ عَنْهُ طَرِيقَتَهُ فِي طَلَبِ الفَتْحِ الإِلَهِيِّ. فَشَرَطَ عَلَيْهِ أَنْ لاَ يَزُورَ أَحَدَ الأَوْلِيَاءِ. وَأَنَّهُ إِنْ زَارَ أَحَدًا انْقَطَعَ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ المَدَدِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ حَسَنٌ كَثِيرَ الزِّيَارَاتِ. قَالَ: فَقَبِلْتُ ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولَ طَاعَةٍ وَنَفْسِي غَيْرُ سَاكِنَةٍ إِلَيْهِ. وَالْتَزَمْتُ عَدَمَ

---

(1) ولد محمد ظافر المدني بمسراتة في شعبان سنة 1244/فيفري 1829 . انظر أسفله ص 6 .

(2) يوافق سنة 1780 .

(3) بالأصل : التيجاني ، وهو أبو العباس أحمد التجاني ولد في عين ماضي بالجزائر الجنوبية سنة 1150/1737 وتوفي في فاس سنة 1230/1815 ودفن بزاويته بفاس . وهو صوفي أنشأ الطريقة التجانية وهي تعتبر فرعا من الخلوتية . ومن كتب الطريقة التجانية : جواهر المعاني وبلوغ الاماني في فيض الشيخ التجاني : المعروف كذلك : بالكناس : . القاهرة . 1345/1926 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ، ج 4، ص 784–785 .

الزِّيَارَةِ . إلاَ أنِّي فِي بَعْضِ الأَيَّامِ لَمْ أَشْعُرْ بِنَفْسِي إلا وَأنَا فِي مَقَامِ سَيِّدِنَا إدْرِيسَ (1) بَانِي فَاس رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ . وَعِنْدَمَا شَعُرْتُ بِذَلِكَ اعْتَرَانِي غَمٌّ عَظِيمٌ لانْقِطَاعِ وَصْلَتِي مِنْ أُسْتَاذِي فَبَقِيتُ مُفَكِّرًا فَسَمِعْتُ صَوْتًا يَقُولُ : « قَدْ جَاءَكَ الْفَتْحُ » فَنَظَرْتُ وَرَاءَ الضريحِ فَلَمْ أجِدْ أحَدًا فَخَرَجْتُ أنْظُرُ لِنَفْسِي أُسْتَاذًا . فَأَخَذْتُ طَرِيقَةَ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عِيسَى (2) وَلاَزَمْتُ الذِّكْرَ عَلَيْهَا .

وَكُنْتُ فِي بَعْضِ الأَيَّامِ أجُولُ فِي طُرُقِ فَاسَ فَاعْتَرَضَنِي ثُعْبَانٌ كَجِذْعٍ مِنَ النَّخْلِ مِنْ قَبِيلِ الخَوَارِقِ فَرَدَدْتُهُ بِيَدِي وَقُلْتُ فِي نَفْسِي «إنِّي لاَ أطْلُبُ إظْهَارَ الخَوَارِقِ وَمُرَادِي إنَّمَا هُوَ الوُصُولُ إلَى اللَّهِ » . وَاحْتَرْتُ فِي أمْرِي فَرَأَيْتُ فِي النَّوْمِ مَنْ أرْشَدَنِي إلَى مَوْلاَيَ العَرَبِيِّ (3) وَلَمْ أعْلَمْ أنَّهُ مِنْ صُلَحَاءِ الْوَقْتِ .

وَلَمَّا اسْتَيْقَظْتُ سَأَلْتُ عَنْهُ فَإذَا المَسْؤُولُ مِنْ تَلاَمِيذِهِ

[3] وَقَالَ لِي : « إنَّهُ مَوْلاَيَ العَرَبِيُّ ابْنُ أحْمَدَ[3]الشَّرِيفُ الدرْقَاوِيّ الزرْوَالِيُّ مُقِيمٌ بِزَاوِيَتِهِ عَلَى جَبَلِ زَرْوَالَ بَعِيدٌ عَنْ فَاسَ بِمَرْحَلَتَيْنِ » .

وَسَاعَدَنِي عَلَى الذَّهَابِ إلَيْهِ . وَعِنْدَ وُصُولِنَا إلَى عَيْنٍ جَارِيَةٍ تَحْتَ الجَبَلِ قَالَ لِي : « إن عَادَةَ الزائرِينَ أنْ يَغْتَسِلُوا

---

(1) ادريس الثاني أسس مدينة فاس وفيها توفي سنة 828/213 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 3 ص 1057–1058 .

(2) محمد بن عيسى ينتسب إلى إدريس الثاني مؤسس مدينة فاس ولد سنة 1477/872 وتوفي سنة 933 انظر : محمد البهلي النيال ، **الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي** ، تونس 1965/1384 ، ص 334–336 .

(3) العربي بن أحمد الشريف الادريسي الدرقاوي نسبة إلى كنية أحد أجداده أبي درقة ، ولد بفاس وتتلمذ للشريف علي بن عبد الرحمان الجمل من أهل الطريقة الشاذلية ثم أسس الطريقة الدرقاوية فرعا من الشاذلية ، وتوفي سنة 1823/1239 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 2 ص 165 .

هُنَا». وَكُنْتُ يَوْمَئِذٍ أجِدُ ضَعْفًا فَقُلْتُ فِي نَفْسِي : «إنَّ قَلْبِي بِهِ جَنَابَةٌ لاَ يَغْسِلُهَا الْمَاءُ وَأنَا جِئْتُهُ لِتَطْهِيرِهِ فَكَيْفَ أهْتَمُّ لِشَأنِ الظَّاهِرِ». وَدَخَلْتُ عَلَيْهِ بِدُونِ اغْتِسَالٍ . وَلَمَّا رَأيْتُهُ تَرَامَيْتُ عَلَى أقْدَامِهِ نُقَبِّلُهَا وَنَسْألُهُ أنْ يَأخُذَ بِيَدِي . فَقَالَ لِي: «مِنْ أيِّ البِلاَدِ أنْتَ ؟» فَقُلْتُ لَهُ «مِنَ المَدِينَةِ» فَقَالَ: إنَّا لَوْ جَاءَنَا كَلْبٌ مِنَ المَدِينَةِ لأكْرَمْنَاهُ كَيْفَ وَقَدْ جِئْتَنَا أنْتَ» .

وَأحْسَنَ قَبُولَهُ وَلَقَّنَهُ وَأمَدَّهُ إلَى أنْ نَالَ الفَتْحَ الربَانِيَّ عَلَى يَدَيْهِ . وَكَانَ اجْتِمَاعُهُ بِهِ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُمَا يَوْمَ الأحَدِ الثَّالِثِ وَالعِشْرِينَ مِنْ صَفَرٍ سَنَةَ أرْبَعٍ وَعِشْرِينَ وَمِائَتَيْنِ وَألف (1) فَأقَامَ عِنْدَهُ تِسْعَ سِنِينَ ثُم أذِنَهُ الأسْتَاذُ بِزِيَارَةِ الْمَدِينَةِ فَأقَامَ ثَلاَثَ سِنِينَ . وَتَوَارَدَ عَلَيْهِ الْفُقَرَاءُ فِي طَلَبِ تَلْقِينِ الطَّرِيقَةِ . فَامْتَنَعَ إلَى أنْ سَمِعَ مِنْ تِلْقَاءِ الحَجَرَةِ المُشَرَّفَةِ «وَذَكِّرْ فَإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ» (2) وَعِنْدَ ذَلِكَ لَقَّنَ طَرِيقَةَ أسْتَاذِهِ .

وَرَجَعَ إلَيْهِ فَلَمْ تَمْضِ عَلَيْهِ إلا بِضْعَةُ أشْهُرٍ وَتُوُفِّيَ مَوْلاَيَ العَرَبِيُّ الدرْقَاوِيُّ لَيْلَةَ الثُّلاَثَاءِ الثَّانِي وَالعِشْرِينَ مِنْ صَفَرِ الخَيْرِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَلاَثِينَ (3) وَدُفِنَ بِزَاوِيَتِهِ مِنْ بُوفَرْبَح (4) مِنْ بَنِي زَرْوَالٍ رِضِّه . وَبَعْدَ ثَلاَثَةِ أيَّامٍ مِنْ وَفَاتِهِ أقِيمَ تِلْمِيذُهُ مَقَامَهُ يُلَقِّنُ الطَّرِيقَةَ عِدَّةَ سِنِينَ . ثُم تَنَقَّلَ بِالطَّرِيقَةِ إلَى طَرَابُلُسَ (5) فَنَشَرَهَا ثُم ارْتَحَلَ إلَى مِصْرَ وَتَنَقَّلَ مِنْهَا إلَى مُسْرَاتَه (6) وَأقَامَ هُنَالِكَ زَاوِيَتَهُ . وَاعْتَكَفَ عَلَى نَشْرِ الطَّرِيقَةِ المَدَنِيَّةِ حَيْثُ إنَّهَا نُسِبَتْ إلَيْهِ .

---

(1) يوافق : 9 أفريل 1809 .

(2) القرآن : الذاريات ، 51 : 55 .

(3) يوافق 28 أكتوبر سنة 1823 .

(4) كذا بالأصل .

(5) طرابلس الغرب بليبيا .

(6) مسراتة احدى المدن بليبيا .

[خبر شاعر تونس محمود قابادو مع الشيخ حسن ظافر]

وَفِي أَثْنَاءِ إِقَامَتِهِ هُنَالِكَ ارْتَحَلَ إِلَيْهِ شَاعِرُ تُونِسَ الْعَالِمُ الْمُفْتِي بِهَا أُسْتَاذُنَا الشَّيْخُ مَحْمُودُ بْنُ عَلِيٍّ قَابَادُو (1) الشَّرِيفُ عَلَى حِينِ شَبَابِهِ وَحَصَلَتْ [4] لَهُ عَلَى يَدِهِ مَبَادِي مِنَ الْفَتْحِ [4]
تَأَخَّرَتْ عَنْهُ بَعْدَ حِينٍ . أَخْبَرَنِي أُسْتَاذُنَا الْمَذْكُورُ عَلَيْهِ رَحْمَةُ اللَّهِ أَنَّهُ كَانَ فِي وَقْتِ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ بَيْنَ يَدَيْ أُسْتَاذِهِ تَفِيضُ عَلَى لِسَانِهِ مَقَالاَتٌ شِعْرِيَّةٌ فِي الْحَضْرَةِ الإِلَهِيَّةِ فَيَأْخُذُ الْقَلَمَ وَالْقِرْطَاسَ لِيَكْتُبَهَا وَبَيْتُ الذِّكْرِ مُظْلِمٌ فَيَرَى حَوْلَ قَلَمِهِ نُوراً يَجْرِي مَعَ الْقِرْطَاسِ كُلَّمَا جَرَى قَلَمُهُ لِلْكِتَابَةِ . وَكَانَ الشَّيْخُ كَثِيراً مَا يَنْهَاهُ عَنْ ذَلِكَ . وَقَدْ كَانَ امْتَدَحَ الشَّيْخَ بِقَصِيدَةٍ ذَكَرَ فِيهَا سَنَدَهُ فِي الطَّرِيقَةِ .

وَنَقَلَ لِي بَعْضُ الأَصْدِقَاءِ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « لَمَّا نَظَمْتُ الْقَصِيدَةَ أَخَذْتُهَا مَعِي وَقَصَدْتُ بِهَا مَحَلَّ الشَّيْخِ . وَقَبْلَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ رَأَيْتُ التَّلاَمِيذَ مُشْتَغِلِينَ فِي عَمَلِ بِنَاءِ الزَّاوِيَةِ هُنَالِكَ . فَقُلْتُ فِي نَفْسِي إِنَّ الْخِدْمَةَ لاَ أَقْدِرُ عَلَيْهَا وَإِنْ لَمْ أَخْدِمْ رُبَّمَا يَنْسِبُونَنِي إِلَى التَّكَبُّرِ . وَبَعْدَ أَنْ أَدَّيْتُ تَحِيَّةَ الشَّيْخِ قَالَ لِي : « أَنَا لاَ أَطْلُبُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلا مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ . هَاتِ قَصِيدَتَكَ » فَأَخْرَجْتُهَا مِنْ جَيْبِي وَنَاوَلْتُهُ إِيَّاهَا رضهما » .

[قصيدة قابادو في مدح الشيخ حسن ظافر]

وَحَيْثُ إِنَّ هَاتِهِ الْقَصِيدَةَ لَمْ يَشْمَلْهَا دِيوَانُ شِعْرِ الشَّاعِرِ الْمَذْكُورِ وَوَجَدْتُهَا عِنْدَ وَلَدِ الأُسْتَاذِ أَرَدْتُ أَنْ أَتَيَمَّنَ بِذِكْرِهَا

(1) محمود قابادو (1227/1813–1287–1871) شاعر تونسي كان ميالا إلى التصوف . انظر : محمد الفاضل ابن عاشور ، اركان النهضة الأدبية بتونس – تونس 1965 ، ص : 5–10 .

هُنَا وَقَدْ طَرَّزَهَا بِبَيْتٍ إذَا جَمَعَتْ أوَائِلَ الحُرُوفِ مِنْهُ كَانَ قَوْلُهُ : [من الكامل]

أسْتَاذُنَا المَدَنِيُّ أتَى بِطَرِيقَةٍ كَالشَّمْسِ عَمَّ العالَمِينَ سَنَاها

وَهْيَ هَذِهِ (1) [مِنْ بَحْرِ الطَّوِيلِ]

إلَيْكَ وَمِنْكَ الحَمْدُ رَبِّي مَدَا الدَّهْرِ
تَعَالَيْتَ فَرْدًا فِي الجَمَالِ وَفِي القَدْرِ
سَمِعْنَا أطَعْنَا رَبَّنَا بِشُهُودِنَا
لِذَلِكَ (2) قَدْ غِبْنَا عَنِ الحَمْدِ وَالشُّكْرِ
تَجَلَّيْتَ مِنْ بَعْدِ البُطُونِ بِظَاهِرٍ
وَوَاعَجَبَا أنَ الظُّهُورَ مَعَ السِّتْرِ
إلَهِي عَلَى أصْلِ الوُجُودِ وَرُوحِهِ
وَوَاسِطَةِ التَّكْوِينِ صَلِّ بِلاَ حَصْرِ
ذَكَرْتَ لَنَا فِي الذِّكْرِ رِفْعَةَ قَدْرِهِ
كَذَا الوَارِثُونَ القَائِمُونَ مَعَ الأمْرِ
نَعَمْ أرْضِهِمْ عَنَّا بِأزْكَى تَحِيَّةٍ
تُبِيحُ لَنَا نَظْمًا بِسِمْطِهِمِ الدُّرِّي
إمَامٌ غَدَا لَيْلُ السُّلُوكِ بِشَمْسِهِ
نَهَارًا فَدَعْ عَنْكَ السُّلُوكَ مَعَ الفَجْرِ
لَهُ الخَمْرُ وَهُوَ الكَأسُ إذْ طَالَمَا سَقَى
مُرِيدًا مِنَ الصِّرْفِ الزُّلاَلِ مِنَ الخَمْرِ

---

(1) بالأصل : هاذه .

(2) بالأصل : لذالك .

مَحَا رَيْنَ أَبْصَارِ الْقُلُوبِ فَأَصْبَحَتْ
بِهِ رَاحَةُ الأَرْوَاحِ فِي اللَّيْلِ كَالبَدْرِ
دَعَانَا بِأَمْرِ اللَّهِ فِي حَالِ فِطْرَةٍ
فَجَرَّ مُجِيبَ الأَمْرِ وَالضِّدُّ فِي أَمْرِ
نَشَاوَى بِذِكْرِ الْعَهْدِ وَالخَمْرَةِ الَّتِي
سَقَانَا فَيَا لِلَّهِ مِنْ ذَلِكَ السُّكْرِ
يُرِيدُ بِنَا خَيْرًا وَرِفْقًا وَرِفْعَةً
سَرِيعًا وَذَا أَمْرٌ عَجِيبٌ لِمَنْ يَدْرِي
أَفِي سَلَفٍ كَانَ الَّذِي شَاهَدُوهُ مِنْ
سَنَى شَيْخِنَا كَلاَّ وَذُو الجَحْدِ فِي خُسْرِ
تَبَارَكَ مَنْ أَبْدَاهُ لِلْخَلْقِ مِنَّةً
وَلَكِنْ أَصَمَّ القَلْبِ عَنْ ذَاكَ فِي وَقْرِ (1)
أَتَاهُ مِنَ الإِكْرَامِ أَشْرَفَ آيَةٍ
وَمَا هِيَ إِلاَّ الفَتْحُ وَالشَّرْحُ لِلصَّدْرِ
بِسَاطُ التَّرَجِّي بَعْدَ مَا قِيلَ قَدْ غَدَا
إِلَى الطَّيِّ مِنْهُ الآنَ قَدْ زَادَ فِي النَّشْرِ
طَرِيقٌ مَتَى أَطْنَبْتَ فِي وَصْفِ حُسْنِهِ
عَجِزْتَ وَقَالَ القَلْبُ حَدِّثْ عَنِ البَحْرِ
رَعَى اللَّهُ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ فَهْوَ مِنْ
رِجَالٍ بِحِزْبِ اللَّهِ أُوعِدَ بِالنَّصْرِ
يَحِنُّ لِتَصْرِيحِي بِهِ الْقَلْبُ شَائِقًا
لَهُ وَمِنَ التَّعْظِيمِ أَصْبُو إِلَى السِّتْرِ

(1) الوقر : مص : الصدع في الساق . النقرة أو الصدع في الحجر أو العظم وغيرهما . ج : وقور . يقال : في صدره وقر ، أي حقد .

قَدِ اسْتَوْجَبَ الإِرْثَ الخُصُوصِيَّ شَيْخُنَا
مِنَ العَرَبِيِّ الدرْقَاوِيِّ مُرْتَفِعِ الْقَدْرِ
تَلَقَّى وِلاَهَا عَنْ عَلِيٍّ الجَمَلِ الذي
مِنَ الْعَرَبِيِّ بْنِ أَحْمَدَ فَازَ بِالسِّرِّ
كَذَا عَنْ أَبِيهِ أَحْمَدَ فَازَ وَهْوَ عَنْ
سَنَا قَاسِمٍ أَعْنِي الْخَصَاصِيَّ ذَا الصبْرِ
إِلَى عَابِدِ الرحْمَانِ فِي فَاسَ وَهْوَ عَنْ
مُحَمَّدٍ جَدِّ الأَحْمَدِ الأَوَّلِ الذِّكْرِ
لِيُوسُفَ مِنْ مَجْرُوفِ فَاسَ وَنَشْرِهَا
إِلَيْهِ مِنَ الصنْهَاجِيِّ يَالَهُ مِنْ نَشْرِ
شُمُوسٌ لأَمْجَادِ وِرَاثَتِهِ كَمَا
لأَمْجَادٍ مِنْ زَرُّوقَ أُجْلِسَ بِالصدْرِ
مِنَ الحَضْرَمِيِّ زَرُّوقُ قَدْ فَازَ وَهْوَ مِن
وَرِيثِهِ يَحْيَى الْقَادِرِيِّ بِلاَ نُكْرِ
[6] سَقَاهُ عَلِيُّ بْنُ فَاسَ كَأْسَ إِرْثِهَا [6]
عَنِ الأَبِ ذِي الْعَلْيَا مُحَمَّدِ الْبَحْرِ
عَنِ الْبَاهِلِيِّ دَاوُدَ عَنْ أَحْمَدَ الَّذِي
هُوَ ابْنُ عَطَاءِ اللَّهِ لِلَّهِ مِنْ وِتْرِ
مِنَ السَّيِّدِ الْمُرْسِيِّ عَنِ الشَّاذِلِيِّ مَنْ
هُوَ الْقُطْبُ وَالأَفْلاَكُ مِنْ حَوْلِهِ تَجْرِي
إِلَى ابْنِ مَشِيشِ القُطْبِ مَنْ كَانَ إِرْثُهُ
مِنَ الْمَدَنِيِّ الزيَّاتِيِّ شَيْخِهِ فَلْتَدْرِ
لَهُ مِنْ تَقِيِّ الدِّينِ أَعْنِي مُغَيِّرًا
بَدَتْ وَهْوَ فَخْرُ الدِّينِ خَصَّهُ بِالْفَخْرِ

عَنِ الْقُطْبِ نُورِ الدّيـنِ مَـنْ كَانَ إرْثُهُ
مِـنَ الْقُطْبِ تَاجِ الدّيـنِ يَالَهُ مِـنْ حِـبْرِ
إلَى القُطْبِ شَمْسِ الدّينِ بِالتُّرْكِ من حضَرٍ
مِـنَ الْكَامِلِ القَزْوِينِـيِّ يَا صَاحِ بِالأمْرِ
لِقُطْبِ أبِـي إسْحَاقَ فِـي بَصْرَةٍ بَدَتْ
مِـنَ السَّيِّدِ الْمَرْوَانِـيِّ أَلْوِيَـةُ الْفَخْـرِ
من القُطْبِ مَن يُدْعَى (1) سَعِـيداً وَإرْثُهُ
من القُطْبِ سَعْدٌ جَلَّ مِـنْ عارِفٍ يَـدْرِي
يَصْـدُرُ مِــنْ فَتْـحِ السُّعُـودِ بِسِـرّهَا
وَهْـوَ مِـنَ الْغَزْوَانِـيِّ إذْ جَاءَ عَنْ إثْرِ
نَعَـمْ وَهْــوَ عَـنْ قُطْـبِ البَرِيَّةِ جَابِرٌ
وَمِـنْ حَسَنٍ سِـبْطِ النَّبِـيّ خُصَّ بِالجَبْـرِ
سَمَـا عَـنْ عَلِـيٍّ وَهْـوَ وَالِدُهُ الَّــذِي
تَلَقَّـى عَـنِ الْمُخْتَـارِ فِـي السِّرّ وَالجَهْرِ
نَبِـيّ جَمِـيـعِ الْكَـوْنِ مِـنْ صُبْحِ نورِهِ
تَنَفَّسَ وَهْـوَ الأصْلُ مِـنْ قَبْضَةِ الأمْـرِ
إلَهِـي فَأبْلِـغْـهُ صَـلاَةً بِـقُـدْرَةٍ
تَفِـي وَكَـذَا الأَتْبَـاعَ فِـي مُـدَّةِ الدهْرِ
هَدَوْا إذْ هُـدُوا فَاللَّــهُ لَمَّــا أقَامَهُـمْ
عَلَـى قَدَمِ التَّصْـرِيـفِ بِالْبِـرّ وَالْيُسْرِ
أئِمَّتَنَـا فِــي الدّيـنِ قَامُــوا بِنَصْرِهِ
فَجَازَاهُمُ عَنَّـا الْمُهَيْمِـنُ بِالنَّصْرِ (2)

---

(1) بالأصـل : يـدعـي .
(2) هذا القصيد به 42 بيتا .

وَكَانَتْ وَفَاةُ الشَّيْخِ رضـه فِي السَّاعَةِ الرابِعَةِ مِنْ لَيْلَةِ الثُّلاثَاءِ السَّادِسِ وَالعِشْرِينَ مِنْ جُمَادى الأولَى سَنَةَ ثَلاثٍ وَخَمْسِينَ وَمائتَيْنِ وَأَلْف (1) وَدُفِنَ فِي زَاوِيَتِه مِنْ مِسْرَاتَةَ وَخَلَّفَ عِدَّةَ أَبْنَاءٍ . خَلَفَهُ مِنْهُمْ وَلَدُهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدٌ صَاحِبُ التَّرْجَمَةِ .

[ترجمة الشيخ محمد ظافر]

وَكَانَتْ وِلادَتُهُ بِمِسْرَاتَةَ فِي شَعْبَانَ الْمُعَظَّمِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَمائتَيْنِ وَأَلْف (2) وَبَعْدَ وَفَاة وَالِده أُقِيمَ مَقَامَهُ لِتَلْقِينِ [7] الطَّرِيقَةِ المَدَنِيَّةِ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ عَمٌّ لَهُمْ بِالمَدِينَةِ المُنَوَّرَةِ فَآبُوا إِلَيْهَا وَبِهَا قَرَأَ صَاحِبُ التَّرْجَمَةِ عَلَى الشَّيْخِ عَلِيِّ الوِتْرِي بَعْضَ مَبَادِي العَرَبِيَّةِ بَعْدَ تَجَاوُزِ عَصْرِ الشَّبَابِ .

أَخْبَرَنِي الشَّيْخُ عَلِيٌّ المَذْكُورُ أَنَّهُ كَانَ كَثِيرًا مَا يُمَثِّلُ لَهُ فِي إِقْرَائِه النَّحْوَ بِزَيْدٍ عَلَى عَادَةِ النُّحَاةِ . وَكَانَ بِالحَرَمِ الشَّرِيفِ أَحَدُ شُيُوخِ المَغَارِبَةِ يُقْرِي دُرُوسًا فِقْهِيَّةً .وَكَانَ مُعْتَادًا فِي أَثْنَاءِ كَلامِه أَنْ يَقُولَ زِيد بِكَسْرِ الزَّاي وَسُكُونِ الدَّالِ يُرِيدُ بِه الأَمْرَ مِنَ الزِّيَادَةِ بِلِسَانٍ مَغْرِبِيٍّ وَكَانَ صَاحِبُ التَّرْجَمَةِ يَسْمَعُ دُرُوسَهُ الفِقْهِيَّةَ . فَلَمَّا حَضَرَ عِنْدَ شَيْخِه الشَّيْخِ عَلِيِّ الوِتْرِيِّ قَالَ لَهُ عَلَى جِهَةِ الاسْتِفْهَامِ «هَلْ زَيْدٌ يَخْدِمُ فِي جَمِيعِ العُلُوم» . فَتَعَجَّبَ الأُسْتَاذُ مِنَ السُّؤَالِ وَاسْتَعَادَهُ مِنْهُ فَأَوْضَحَ لَهُ أَنَّهُ سَمِعَهُ عَنِ المَغْرِبِيِّ فِي إِقْرَاءِ الفِقْه وَكَانَ عَادَ بِلَفْظِ المَغْرَبِيِّ فَلَمْ يَسَعْهُ إِلاَّ أَنَّه أَفْهَمَهُ مُرَادَ المَغْرَبِيِّ وَذَكَرَ

(1) يوافق : 28 أوت سنة 1837 .

(2) يوافق : فيفري سنة 1829 .

لَهُ « أن لَفْظَ زَيْدٍ الَّذِي نَذْكُرُهُ لَكُمْ إِنَّمَا نَعْنِي بِهِ عَلَمًا مِثْل مُحَمَّدٍ وَصَالِحٍ » .

وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ قِرَاءَتَهُ كَانَتْ قَلِيلَةً . وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ وَرَدَ عَلَيْهِ خَبَرُ الفَرَجِ بَعْدَ الشِّدَّةِ بِوِلاَيَةِ السُّلْطَانِ عَبْدِ الحَمِيدِ (1) وَهُوَ مِنَ التَّلاَمِيذِ الشَّاذِلِيَّةِ فِي الطَّرِيقَةِ الْمَدَنِيَّةِ (2) فَاسْتَحْضَرَهُ إِلَى الآسِتَانَةِ وَاسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِهِ لِمَا عَرَاهُ مِنَ المَخَافَةِ مِنْ حَاشِيَةِ السَّلْطَنَةِ حَتَّى إِنَّهُ يَبِيتُ عِنْدَهُ أَمَامَ بَيْتِ مَنَامِهِ حَيْثُ يَبِيتُ السُّلْطَانُ مَعَ حَرِيمِهِ . وَحَصَلَتْ لَهُ بِذَلِكَ وَجَاهَةٌ عُظْمَى بِالآسِتَانَةِ وَجَرَتْ لَهُ جِرَايَةُ كِرَاءِ المَسْكَنِ وَمَا تَدْعُو (3) إِلَيْهِ نَفَقَتُهُ مَعَ إِجْرَاءِ طَعَامِ الأَكْلِ مِنَ المَطْبَخَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مُلاَزِمٌ لِخُوَيصَةِ نَفْسِهِ مُحَافِظٌ عَلَى مَكَانَتِهِ بِالتَّبَاعُدِ عَنِ الأُمُورِ الدوْلِيَّةِ وَالوِسَاطَاتِ مَا أَمْكَنَهُ .

وَقَدِ اجْتَمَعْتُ بِهِ بِالآسِتَانَةِ أَوَائِلَ شَهْرِ رَمَضَانَ المُعَظَّمِ سَنَةَ تِسْعٍ وَتِسْعِينَ وَمَائَتَيْنِ وَأَلْفٍ (4) فَوَجَدْتُهُ رَجُلاً فَاضِلاً خَيِّرًا مُتَوَاضِعًا مُقْتَصِدًا فِي سَائِرِ أَحْوَالِهِ مَعَ مَا لَهُ مِنَ الشُّهْرَةِ بِالغِنَى . وَلاَ يَتَعَاطَى أَخْبَارَ [8] الدَّوْلَةِ إِلا مَعَ عَشِيرَتِهِ وَبَنِي [8]
جِنْسِهِ . يَتَحَامَى السِّعَايَةَ وَيَتَجَافَى السَّعْيَ بِالقَدْرِ المُمْكِنِ . وَلَهُ وَلَعٌ بِأَخْبَارِ الأَوْلِيَاءِ وَالطُّرُقِ وَكَثْرَةِ الأَذْكَارِ . وَلَهُ مُخَالَطَةٌ لِكَلاَمِ القَوْمِ مَعَ حُسْنِ فَهْمٍ لِمَشَارِبِهِمْ بِسَبَبِهِ . سَأَلْتُهُ عَنْ

---

(1) عبد الحميد الثاني (1257/1842–1336/1918) دامت خلافته من 1876 إلى 1909 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ، ج 1 ص 65–67 ، مقال : ج. دوني .

(2) الطريقة المدنية هو الاسم الاول للطريقة الشاذلية . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ج 4 ص 700–705 .

(3) بالأصل : تدعوا .

(4) يوافق أواخر جويلية سنة 1882 .

قَوْلِ الشَّاذِلِيِّ (1) فِي حَفِيظَتِهِ «فَأَسْأَلُكَ بِهَا وَبِالآيَاتِ وَبِالأَسْمَاءِ كُلِّهَا وَبِالعَظِيمِ مِنْهَا أَنْ تَجْعَلَ اللاَّمَ طَوْعَ يَدِي وَالأَلِفَ الحَاكِمَ عَلَيَّ وَالنُّقْطَةَ وَصْلَةً مِنْكَ إِلَيَّ» غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَحْضُرْهُ فَهْمُ ذَلِكَ وَهْوَ مُتَمَسِّكٌ بِالطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَصْلُ الطَّرِيقَةِ المَدَنِيَّةِ مُتَصَدٍّ لإِعْطَاءِ الطَّرِيقَةِ المَدَنِيَّةِ.

وَقَدِ اسْتَجَزْتُهُ فِي عُمُومِ الأَحْزَابِ الشَّاذِلِيَّةِ بِسَنَدِهِ فِيهَا عَنْ وَالِدِهِ فَأَجَازَ لِي بِذَلِكَ أَوَائِلَ شَوَّالَ. وَأَوْقَفَنِي عَلَى عِدَّةِ رَسَائِلَ كَتَبَهَا. مِنْهَا رِسَالَةٌ فِي شَرْحِ بَعْضِ جُمَلٍ تَصَوُّفِيَّةٍ مِنْ مَقَالاَتِ مَوْلاَيَ العَرَبِيِّ. وَمِنْهَا رِسَالَةٌ جَمَعَ بِهَا فَتَاوَى فِي إِسْنَادِ مَا عَلَيْهِ الطَّرِيقَةُ المَدَنِيَّةُ إِلَى الشَّرْعِ. وَمِنْهَا رِسَالَةٌ فِي بَيَانِ أن الطَّرِيقَةَ المَدَنِيَّةَ فَرْعٌ مِنَ الشَّاذِلِيَّةِ. وَقَدْ قَصَدَ فِيهَا مَقْصِداً لَطِيفاً فِي بَيَانِ أن الطُّرُقَ كُلَّهَا مُوصِلَةٌ إِلَى اللَّهِ وَبِذَلِكَ لاَ يَنْبَغِي التَّفْضِيلُ بَيْنَهَا.وَأَوْدَعَهَا بَعْضَ الأَحْزَابِ الشَّاذِلِيَّةِ وَالمَنَاقِبِ وَالأَوْرَادِ وَبَيَانَ مَسْلَكِ وَالِدِهِ وَسَمَّاهَا «الأَنْوَارَ القُدُسِيَّةَ فِي تَنْزِيهِ طُرُقِ القَوْمِ العَلِيَّةِ».

وَلَمَّا أَطْلَعَنِي عَلَيْهَا طَلَبَ مِنِّي أَنْ نُصْلِحَ لَهُ مِنْهَا مَا عَسَى أَنْ نَرَاهُ فِيهَا. فَكَتَبْتُ لَهُ عَلَيْهَا كِتَابَةً وَأَوْضَحْتُ بِهَا الغَرَضَ الأَصْلِيَّ مِنْهَا مَعَ بُرْهَانِهِ مِمَّا لَمْ يَقَعِ اسْتِيفَاؤُهُ (2) فِي الرِّسَالَةِ وَهَذَا نَصُّ مَا كَتَبْتُهُ: «سُبْحَانَ مَنْ أَفَاضَ أَنْوَارَهُ القُدُسِيَّةَ * عَلَى مَنِ اخْتَصَّهُمْ بِالمَرَاتِبِ العَلِيَّةِ * وَأَنَارَ قُلُوبَ المُهْتَدِينَ بِطُلُوعِ شُمُوسِ اليَقِينِ * فِي آفَاقِ مَعَارِفِهِمْ الرَّبَّانِيَّةِ * نَحْمَدُهُ حَمْدَ عَارِفٍ بِوِحْدَانِيَّةِ

(1) أبو الحسن علي الشاذلي (593/1196–656/1258) أصله من غماره ببلاد الريف من المغرب الأقصى. انظر: محمد البهلي النيال، **الحقيقة** ... ص 229–247.

(2) بالأصـــل: استيفاءه.

الأُلُوهِيَّةِ * سَالِكَ سَبِيلَ الوُصُولِ إِلَى إِدْرَاكِ المَعَارِفِ الصَّمَدِيَّةِ *
نَاهِجَ مَنْهَجِ اليَقِينِ بِأَنْ لاَ وُجُودَ عَلَى الإِطْلاَقِ لِغَيْرِ الرَّبِّ
الخَلاَّقِ * تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ [9] المُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ [9]
قَدِيرٍ * لاَ يُحَاطُ بِحَقِيقَةِ أُلُوهِيَّتِهِ بِالتَّدْبِيرِ * وَأَنَّى لِلإِدْرَاكِ
الحَادِثِ أَنْ يَصِلَ إِلَى مَعْرِفَةِ كُنْهِهِ القَدِيمِ * (وَلاَ يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَاتِ
وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ (1)) وَمَا هِيَ إِلاَّ
آيَاتُ رُبُوبِيَّتِهِ قَدْ عَمَّتْ جَمِيعَ الأَكْوَانِ * لاَ يَتَمَارَى فِي
وُجُودِهَا الجَاهِلُونَ وَأَهْلُ العِرْفَانِ * وَإِنَّمَا اخْتَلَفَتْ مَرَاتِبُ
العَارِفِينَ * بِمِقْدَارِ رُسُوخِ اليَقِينِ * وَالتَّرَقِّي إِلَى مَقَامِ
الشُّهُودِ وَإِفْرَادِ الوِجْهَةِ إِلَى الحَيِّ المَعْبُودِ * لاَ إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ
رَبُّ الأَرْبَابِ وَإِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ *

فَإِذَا أَمْعَنَ العَارِفُ فِي سَمَاءِ المَعَارِفِ تَحْلِيقًا * وَدَبَّرَ فِي طُرُقِ الفَهْمِ تَحْقِيقًا * وَأَبْلَى سَنَابِكَ يَعْمُلاَتِ التَّبَصُّرِ وَالإِدْرَاكِ * لِلْوُصُولِ إِلَى مَشَارِبِهِمِ المُخْتَلِفَةِ بِحَسَبِ الانْفِكَاكِ * وَجَرَى مَعَ مَسِيلاَتِ يَنَابِيعِهَا * بَلَغَ إِلَى وَحْدَةِ اجْتِمَاعِ مَشَارِعِهَا * بِالتَّوَصُّلِ إِلَى مَعْرِفَةِ الرَّبِّ * وَالتَّيَقُّنِ بِأَنْ لَيْسَ لِوَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي غَيْرِ الطَّرِيقِ المُوَصِّلَةِ مِنْ أَرَبٍ * عَلَى أَنَّ مَنْبَعَ الإِفَاضَةِ عَلَى الجَمِيعِ * هُوَ المَشْرَبُ الأَهْنَى الَّذِي أَجْرَاهُ عَلَى يَدِ حَبِيبِهِ الشَّفِيعِ *

فَمَنْ عَلِمَ اتِّحَادَ المَنْبَعِ وَالمَآلِ * لاَ يَهُمُّهُ اخْتِلاَفُ مَشَارِعِ الأَعْمَالِ * وَلَيْسَتْ طُرُقُ العَارِفِينَ إِلاَّ مَنَاهِلَ كُلُّهَا جَرَى مِنْ مَنْبَعِ الإِفَاضَةِ عَلَى أَكْمَلِ صِفَةٍ * وَمَآلُ جَمِيعِ المُتَمَسِّكِينَ

---

(1) القرآن : البقرة 2 : 255 .

بِهَا هُوَ الوُصُولُ إلَى المَعرِفَةِ * وَبِذَلِكَ لَمْ يَبِنْ لِمَنْ سَلَكَ هَذَا السَّبِيلَ * وَجْهٌ يَخُوضُ بِهِ فِي التَّفْضِيلِ * إنْ كَانَ عِلْمُ مَا جَرَى لِكُلِّ طَرِيقٍ مِنَ السَّلْسَبِيلِ * وَهَيْهَاتَ لِلسَّابِحِ فِي ذَلِكَ الخِضَمِّ * أنْ لاَ يَغْرَقَ وَيَعُودَ إلَى النَّوْمِ * إذْ مَا مِنْ طَرِيقٍ إلاَّ وَلِلَّهِ فِيهِ أسْرَارٌ * أفَاضَهَا عَلَى صَاحِبِهِ بِإفَاضَاتِ الأنْوَارِ * كُلُّهَا يَجْرِي وِفْقَ رِضَا الربِّ الكَرِيمِ * وَلاَ يَتَوَلاَّهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ *

عَلَى أنَّهُ خَائِضٌ لُجَّةَ التَّفْضِيلِ فِيمَا بَيْنَهُمَا سَابِحٌ إلَى غَيْرِ غَايَةٍ * وَأسْرَارُ العَالَمِ [10]القَدِيمِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ لَيْسَ لَهَا نِهَايَةٌ * وَسَالِكُ سَبِيلِ السَّلاَمَةِ * لاَ يَتَكَلَّفُ غَيْرَ إجْلاَلِ طُرُقِ اللَّهِ وَتَعْظِيمِ مَنْ أجْرَى اللَّهُ عَلَى يَدِهِمْ الكَرَامَةَ * لاَ يَشِينُ أحَدًا بِالانْتِقَاصِ * وَاللَّهُ أعْلَمُ بِمَا لَهُ بِأوْلِيَائِهِ مِنَ الاخْتِصَاصِ * فَذَلِكَ قَدْ مَنَحَهُ اللَّهُ بِالأسْرَارِ القُدُسِيَّةِ * فِي تَنْزِيهِ طُرُقِ القَوْمِ العَلِيَّةِ [10]

وَيَا حَبَّذَا مَا فِي هَاتِهِ الأنْوَارِ مِنْ آيَاتِ الاسْتِبْصَارِ * أنْوَارٍ جَلَّتْهَا قَرِيحَةُ العَارِفِ بِرَبِّهِ * السَّالِكِ مَسَالِكَ قُرْبِهِ * مُرْشِدِ السَّالِكِينَ وَقُدْوَةِ المُهْتَدِينَ * إلَى طَرِيقِ رَبِّ العَالَمِينَ * مُلَقِّنِ الطَّرِيقَةِ المَدَنِيَّةِ * بِمَعَارِفِهِ السَّنِيَّةِ * وَالمُجْرِي عَذْبَ مَشَارِبِهَا مِنْ حُسْنِ مَوَارِدِهِ * بِمَا تَلَقَّاهُ عَنِ المُقَدَّسِ وَاحِدِهِ * صَاحِبِ المَجْدِ الوَافِرِ * الشَّيْخِ مُحَمَّدِ أفَنْدِي ظَافِرٍ * لاَ زَالَتْ مَفَاخِرُ بَيْتِهِ فِي ابْتِهَاجٍ وَاحْتِمَاءٍ *(كَشَجَرَةٍ أصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (1) .

(1) القرآن : سورة إبراهيم ، : 14 24 . نص الآية : كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السمــاء .

فَقَدْ رَأَيْنَا أيُّهَا الأسْتَاذُ بِرِسَالَتِكَ الأنْوَارِ القُدُسِيَّة * مَا هَدَانَا بِالوُقُوفِ عَلَيْهِ إلَى تَنْزِيهِ طُرُقِ القَوْمِ العَلِيَّة * فَلِلَّهِ مَا فِيهَا أوْدَعْتُمُوهُ * وَلَوْلاَ قُصُورِي لَقُلْتُ قَدْ عَرَفْنَا بِهَا فَضْلَكَ وَإنَّمَا يَعْرِفُ الفَضْلَ مِنَ النَّاسِ ذَوُوهُ * شَكَرَ اللَّهُ سَعْيَكُمْ * وَأخْصَبَ بِالتَّرَقِّي إلَى مَرَاتِبِ العِرْفَانِ رَعْيَكُمْ * وَأدَامَ بِكُمْ النَّفْعَ العَامَ * إلَى جَمِيعِ الأنَامِ * حَرَّرَهُ العَبْدُ الضَعِيفُ * مُحَمَّدُ السَّنُوسِيَ خَادِمُ العِلْمِ الشَّرِيفِ * فِي دَارِ خِلاَفَةِ الإسْلاَمِ * أخَذَ اللَّهُ بِيَدِهِ فِي كُلِّ مَقَامٍ * وَكُتِبَ أوَائِلَ شَوَّالَ 1299 (1) .

اسْتِطْرَادٌ فِي هَذَا المَوْضُوعِ
[الأفضلية بين الأولياء]

اعْلَمْ أن اللَّهَ قَدِ اخْتَصَّ مِنْ عِبَادِهِ مَنْ شَرَّفَهُمْ بِوِلاَيَة فَكَانُوا هُمُ الأوْلِيَاءَ . وَمَا مِنْ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إلا وَلِلَّهِ بِهِ عِنَايَةٌ تَقْتَضِي أنْ تَكُونَ لَهُ خُصُوصِيَّةٌ وَلِذَلِكَ قَالَ العَارِفُ بِاللَّه أحْمَدُ ضِيَاءُ الدِّينِ النَّقْشَبَنْدِي فِي كِتَابِهِ (**جَامِعِ أصُولِ الأوْلِيَاءِ**) : «وَاعْلَمْ أن لِكُلٍّ مِنَ الأوْلِيَاءِ خُصُوصِيَّةً وَهِمَّيَّةً
[11] فِي الحَيَاةِ وَالمَمَاتِ كَنَقْشِ الحَقِيقَةِ [11] وَالإلْقَاءِ فِي بَحْرِ الوَحْدَةِ وَالفَنَاءِ وَالاسْتِغْرَاقِ لِشَاه نَقْشَبَنْدِي مُحَمَّدٍ بَهَاءِ الدِّينِ (2) وَقُوَّةَ التَّصَرُّفِ وَالإمْدَادِ لِعَبْدِ القَادِرِ الجِيلاَنِي (3) .

---

(1) يوافق أواخر أوت سنة 1882 .

(2) هو محمد بن محمد بهاء الدين البخاري (1317/717–1389/791) مؤسس الطريقة النقشبندية ، أما لقبه : شاه فمعناه رئيس روحاني . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ج 3 ص 899–900 .

(3) هو محيي الدين أبو محمد بن أبي صالح ، فقيه حنبلي (470/8–1077–561/1166) . انظر : **دائرة المعارف** ، ط 2 ج 1 ص 70–72 .

وَقُوةِ الوَارِدَاتِ وَالعِلْمِ لِعَلِيّ أبِي الحَسَنِ الشَّاذُلِيّ (1) وَخَرْقِ العَادَةِ وَالفُتُوَّةِ لِحَضْرَةِ أحْمَدَ الرِّفَاعِيّ (2) هـ. (3) .

وَهَكَذَا ((وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلاَّ هُوَ (4)) وَلاَ شَكَّ أنَّ الخُصُوصِيَاتَ الَّتِي يُمْكِنُ لَنَا أنْ نَطَّلِعَ عَلَيْهَا فِي الخَارِجِ لاَ يُمْكِنُ لَنَا أنْ نَهْتَدِيَ بِهَا إلَى تَحْقِيقِ مَقَامَاتِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بَلْ إنَّ مَقَامَاتِهِمْ الرَّفِيعَةَ مَعْدُودَةٌ مِنْ أسْرَارِ الغَيْبِ الَّتِي لاَ يَطَّلِعُ عَلَيْهَا أوْ عَلَى بَعْضِهَا إلاَّ مَنِ اخْتَصَّهُ اللَّهُ بِفَتْحٍ مِنْ عِنْدِهِ . وَآثَارُهُمُ الدَّالَةُ عَلَى مَا لَهُمْ من الخُصُوصِيات لاَ يَجْزِمُ بِهَا المُتَحَفِّظُ مِنَ التَّجَرِّي عَلَى التَّحَكُّمِ فِي مقاماتهم بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ .

وَلِذَلِكَ قَالَ صَاحِبُ الأُصُولِ مَا هَذَا لَفظُهُ : « قَالَ شَمْسُ الدِّينِ الحَنَفِيُّ إنَّ اللَّهَ قَدْ أطْلَعَنِي عَلَى مَقَامِ عَبْدِ القَادِرِ وَعَلَى مَقَامِ أبِي الحَسَنِ الشَّاذُلِيّ فَوَجَدْتُ مَقَامَ أبِي الحَسَنِ الشَّاذُلِيّ أعْلَى مِنْ مَقَامِ عَبْدِ القَادِرِ . قَالَ : وَذَلِكَ لأن سَيِّدَنَا عَبْدَ القَادِرِ سُئِلَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ : يَا سَيِّدِي مَنْ شَيْخُكَ ؟ فَقَالَ : أمَّا فِيمَا مَضَى فَكَانَ سَيِّدِي أحْمَدَ الرِّيَاسِي (5) وَأمَّا الآنَ فَأنَا أسْتَقِي مِنْ بَحْرَيْنِ بَحْرِ النُّبُوَّةِ وَبَحْرِ الفُتُوَّةِ وَيَعْنِي بِبَحْرِ النُّبُوَّةِ النَّبِيّ (صلعم) وَبَحْرِ الفُتُوَّةِ عَلِيّ بْنِ أبِي طَالِبٍ (6) رضـه .

---

(1) انظر أعلاه ص 8 تعليق رقم 1 .

(2) أبو العباس أحمد بن علي الرفاعي ، مؤسس الطريقة الرفاعية توفي سنة 1183/578 باقليم واسط . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 1 ج 4 ص 1236–1237 .

(3) بالاصل : اه.

(4) القرآن : سورة المدثر ، 74 : 31 .

(5) كـذا بالأصـل .

(6) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2 ، ج 1 ص 392–397 .

وَقَالَ : سُئِلَ سَيِّدِي أَبُو الحَسَنِ الشَّاذُلِيُّ . فَقِيلَ لَهُ : مَنْ شَيْخُكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا فِيمَا مَضَى فَكَانَ سَيِّدِي عَبْدَ السَّلاَمِ بْنِ مَشِيشٍ (1) . وَأَمَّا الآنَ فأنا أَسْتَقِي مِنْ عَشَرَةِ أَبحُرٍ خَمْسَةٍ سَمَاوِيَّةٍ وَخَمْسَةٍ أَرْضِيَّةٍ . أمَّا السماوية فجبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ وعزرائيلُ والرّمحُ (2) وأمّا الأرضيةُ فأبوبكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ (3) والنبي (صلّعم) .

وقال أبُو العبّاسِ المُرْسِي (4) « جُلْتُ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ فرَأَيْتُ أبَا مَدْيَنٍ (5) مُتَعَلِّقًا بِسَاقِ العَرْشِ فَقُلْتُ : مَا عُلُومُكَ وَمَا مَقَامُكَ ؟ فَقَالَ : أَمَّا عُلُومِي فأَحَدٌ وسَبْعُونَ عِلْمًا . وَأَمَّا مقامي فَرَابِعُ الخُلَفَاءِ [12] وَرَأْسُ السَّبْعَةِ أبْدَالٍ (6) قلتُ: فما تقول في سَيِّدي الشَّاذُلِيّ ؟ قال : زَادَ عَلَيَّ بِأَرْبَعِينَ عِلْمًا هُوَ البَحْرُ الَّذِي لاَ يُحَاطُ بِهِ . وقالَ المحققون عَبْدُ القَادِرِ أعْلَى . وَاللّهُ أعلمُ بمقامهم وَمَنَاصِبِهِم وَأَحْوَالِهِمْ وَأَعْدَادِهِمْ هـ » . [12]

فَأَنْتَ تَرَى الاخْتِلاَفَ بَيْنَ العَارِفِينَ بِاللَّهِ فِي مَقَامَاتِ الأوْلِيَاءِ فَمَا بَالُكَ بِآحَادِ عُلَمَاءِ الظاهِرِ أَوْ آحَادِ النَّاسِ فِي التَوَصُّلِ إلَى مَعْرِفَةِ مَقَامَاتِهِمْ ؟ وَلِذَلِكَ كَانَ مِنْ وَاجِبِ تَعْظِيمِهِمْ وَاحْتِرَامِهِم التَّفْوِيضُ لِلَّهِ أدَبًا مَعَهُ فيما يَتَعَلَّقُ

(1) عبد السلام بن مشيش الحسني ، أحد أقطاب التصوف الشعبي بالمغرب الأقصى ، توفي سنة 1227/625 ودفن بزاويته بجبل العلم من أرض بني عروس جنوب غرب تطوان . قيل تتلمذ له أبو الحسن الشاذلي . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 94 .

(2) انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 2 ص 372—373 .

(3) انظر : بشان أبي بكر : **دائرة** ... ط 2 ج 1 ص 112—114 وبشأن عثمان : **دائرة** ... ط 1 ج 3 ص 1077—1080 وبشان عمر : **دائرة** ... ط 1 ج 3 ص 1050—1052 .

(4) أبو العباس المرسي (616—686) صوفي أندلسي ولي القطابة الشاذلية بمصر . انظر : محمد البهلي النيال : **الحقيقة** ... ص 233 .

(5) أبو مدين شعيب بن الحسين الاندلسي (1126/520—1197/594) صوفي توفي بتلمسان . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 141—142 .

(6) أبدال ج. بدل . هؤلاء الابدال هم رجال الغيب ، والمشهور أن الأبدال عددهم أربعون . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 97 .

بِمَقَامِهِمْ وَمَقَالِهِمْ سِيَّمَا وَمِنَ المَرْوِيِّ قَالَ تَعَالَى : « أَوْلِيَائِي تَحْتَ قِبَائِي لاَ يَعْرِفُهُمْ غَيْرِي » وَالاسْتِقَاءُ مِنْ كَثْرَةِ البُحُورِ وَقِلَّتِهَا مِنَ الخُصُوصِيَّاتِ الَّتِي لاَ يُمْكِنُ لأَمْثَالِنَا الحُكْمُ بِمُقْتَضَاهَا وَإِنْ كَانَتْ مَزَايَا .

فَالمَزِيَّةُ لاَ تَقْتَضِي الأَفْضَلِيَّةَ وَلاَ يَنْبَغِي أَنْ نَنْسُبَ إِلَيْهِمْ الانْسِلاَخَ عَنِ الأُسْتَاذِ لِقَوْلِ الشَّيْخَيْنِ : « كَانَ شَيْخِي فِيمَا مَضَى فُلاَنٌ . وَأَمَّا الآنَ فَأَنَا كَذَا وَكَذَا » . لأَنَّ ذَلِكَ المَقَالَ لَيْسَ فِيهِ إِلاَّ أَنَّ صَاحِبَهُ قَدْ وَصَلَ إِلَى رَبِّهِ وُصُولاً لَمْ يَبْقَ مَعَهُ مُحْتَاجاً إِلَى التَّمَسُّكِ بِطَرِيقِ أُسْتَاذِهِ . وَلَمْ يُنْكِرْ أَنَّ وصولَه الأَوَّلِيَّ كَانَ بِوَاسِطَةِ أُسْتَاذِهِ الَّذِي هُوَ سَنَدُهُ الحَقِيقِيُّ فِي الوُصُولِ . وَلِذَلِكَ نَسَبَ إِلَيْهِ الأَمْرَ المَاضِيَ . وَمَا زَالَ أَصْحَابُ الأَسْرَارِ يُحَافِظُونَ عَلَى سِلْسِلَةِ هَذَا الاتِّصَالِ الحَقِيقِيِّ وَإِلاَّ لَكَانَ أَبُو العَبَّاسِ المُرْسِي تِلْمِيذُ الشَّاذُلِيَّ وَقَفَ فِي سَنَدِهِ إِلَى شَيْخِهِ بِنَاءً عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ السَّابِقِ كُلِّهِ . وَلَكِنْ تَرَى سِلْسِلَةَ المُرْسِي تَتَّصِلُ بِجُمْلَةِ أَسَاتِيذِ الشَّاذُلِيِّ بِوَاسِطَةِ أُسْتَاذِهِ سَيِّدِي عَبْدِ السَّلاَمِ بْنِ مَشِيش . وَهَكَذَا يُقَالُ فِي سَنَدِ جَمِيعِ الطُّرُقِ القَادِرِيَّةِ وَالرِّفَاعِيَّةِ وَالنَّقْشَبَنْدِيَّةِ . وَإِنْ رُوِيَتْ عَنْ بَعْضِهِمْ مِثْلُ هَاتِهِ المَقَالاَتِ كَمَقَالَةِ الجِيلِيِّ السَّابِقَةِ .

وَلَعَلَّ مِنْ هَذَا البَابِ مَا حُكِيَ عَنِ الشَّيْخِ أَحْمَدَ التِّجَانِيِّ بَعْدَ وُصُولِهِ بِتَلْقِينِ الشَّيْخِ مَحْمُودِ الكُرْدِيِّ بِسَنَدِهِ فِي الطَّرِيقَةِ الخَلْوَتِيَّةِ (1) مِنْ أَنَّ النَّبِيَّ (صلعم) أَخْبَرَهُ

(1) الطريقة الخلوتية هي فرع من فروع الطريقة السهروردية التي أسسها عبد القاهر السهرودي المتوفى سنة 1167م. وقد ظهرت الطريقة الخلوتية على يد ظاهر الدين المتوفى سنة 1397م. بخراسان ثم انتشرت بتركيا . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ج 4 ص 700—705 .

[13] بِأَنَّـهُ هُوَ مُرَبِّيهِ وَكَافِلُهُ . وَأَنَّهُ لاَ يَصِلُهُ شَيْءٌ مِنَ اللَّهِ إلا عَلَى يَدَيْهِ وَبِوَاسِطَتِهِ (صلـعم). وَقَالَ لَهُ «لاَ مِنَّةَ لِمَخْلُوقٍ عَلَيْكَ مِنْ أَشْيَاخِ الطُّرُقِ فَأَنَا وَاسِطَتُكَ وَمُمِدُّكَ عَلَى التَّحْقِيقِ فَاتْرُكْ عَنْكَ جَمِيعَ مَا أَخَذْتَ مِنْ جَمِيعِ الطُّرُقِ ه. بِلَفْظِ الرِّمَاحِ . [13]

وَلَوْ وَقَفَ العَارِفُونَ بِاللَّهِ عِنْدَ ظَاهِرِ أَقْوَالِ هَؤُلاَءِ السَّادَةِ لَمَا أَسْنَدُوا طَرِيقَةَ الشَّاذُلِيِّ لأَسْتَاذِهِ وَلاَ أَسْنَدُوا طَرِيقَةَ الجِيلِيِّ لأَسْتَاذِهِ كَمَا لاَ يُسْنِدُ بعضُ النَّاسِ طَرِيقَةَ التِّجَانِي لأَسْتَاذِهِ الكُرْدِيِّ رضيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مَعَ نُبُوِّ مَقَامِ الشَّيْخِ التِّجَانِي عَنِ الانْسِلاَخِ عَنْ أَسْتَاذِهِ حَتَّى إن الشَّيْخَ كَنْسُوسَ المَغْرِبِيَّ لَمَّا أَجَابَ الشيخَ مُحَمَّدَ البَكَّايَ عَن اعتِرَاضِهِ عَلَى الطَّرِيقَةِ التِّجَانِيَّةِ أَنَّهَا طَرِيقٌ غَيْرُ مَعْلُومٍ . قَالَ فِي جَوَابِهِ مَا لَفْظُهُ : «وَأَخَذَهُ الطَّرِيقَةَ الخَلْوَتِيَّةَ مُتَّصِلُ السَّنَدِ مَرْفُوعُ العُمَدِ مِنْ شَيْخِهِ سَيِّدِي مَحْمُودٍ الكُرْدِيِّ المَغْرِبِيِّ الحَنَفِيِّ إِلَى سَيِّدِ الوُجُودِ (صلـعم)» . كَمَا هُوَ مَذْكُورٌ فِي **جَوَاهِرِ المَعَانِي** وَغَيْرِهِ . وَلَمَّا سَرَدَ فِي **الجَوَاهِرِ** ذَلِكَ السَّنَدَ العَظِيمَ أَنْشَدَهُ : [من البحر الطويل]

أُولَئِكَ آبَائِي فَجِئْنِي بِمِثْلِهِمْ
إِذَا جَمَعَتْنَا يَا جَرِيرُ المَجَامِعُ (1)

عَلَى أَنَّا لَوِ اقْتَصَرْنَا عَلَى كَلاَمِ الشُّيُوخِ فِي تَرْكِ الوَسَائِطِ لَرُبَّمَا أَشْكَلَ عَلَيْنَا الحَالُ فِيمَا نُقِلَ عَنْ أَبِي يَزِيدِ البِسْطَامِي (2)

(1) البيت للفرزدق الشاعر الاموي (20/641–110/728) وهو من نقائضه مع جرير . قال جرير للفرزدق : قصيدة تعد 70 بيتا مطلعها :

ذكرت وصال البيض والشيب شائع ... ودار الصبا من عهدهن بلاقع

فأجابه الفرزدق بقصيدة تعد 47 بيتا مطلعها :

منا الذي اختير الرجال سماحة ... وخيرا اذا هب الرياح الزعازع

ومنها قوله في البيت الثامن : أولئك آبائي .... انظر : كتاب **النقائض نقائض جرير والفرزدق** ، ج 2. ط. ليدن 1909 . ص 685–705 .

(2) أبو يزيد البسطامي (ت 261/874) : صوفي شهير . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 . ج 1 . ص 166–167 .

من أنَّه قالَ : «إنّي لمَّا وَصَلْتُ إلَى رَبِّي تَرَكْتُ جَمِيعَ الوَسَائِطِ وَصِرْتُ أتَلَقَّى مِنَ الحَضْرَةِ الإلَهِيَّةِ بِلاَ وَاسِطَةٍ» . وَنَاهِيكَ بِهِ مِنْ رَجُلٍ خَرَجَ مِنَ الزُّهْدِ فِي أرْبَعَةِ أيَّامٍ حَيْثُ إنَّهُ فِي اليَوْمِ الأوَّلِ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا وَفِي الثَّانِي فِي الآخِرَةِ وَمَا فِيهَا وَفِي الثَّالِثِ زَهِدَ فِيمَا سِوَى اللَّهِ . فَفِي اليَوْمِ الرَّابِعِ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى اللَّهِ فَهَامَ فَسَمِعَ هَاتِفًا يَقُولُ : «يَا أبَا يَزِيدِ لاَ تَقْوَى مَعَنَا» فَقَالَ : هَذَا الَّذِي أرِيدُ «فَسَمِعَ قَائِلاً يَقُولُ : «وَجَدْتَ وَجَدْتَ» .

فَلَوْ جَرَيْنَا عَلَى ظَاهِرِ أقْوَالِ هَؤُلاَءِ السَّادَةِ لَصَحَّ لَنَا أنْ نَقُولَ : إنَّ أبَا يَزِيدِ [14] البِسْطَامِيّ إلاَهِيٌّ لاَ سَنَدَ لَهُ فِي طَرِيقِهِ [14]
وَعَلَى قِيَاسِهِ نَقُولُ فِي غَيْرِهِ لَكِنْ لَيْسَتْ هَذِهِ (1) جَادَّةُ العَارِفِينَ بِاللَّهِ المُحَافِظِينَ عَلَى سَنَدِ الطَّرِيقِ . وَنَصُّ عِبَارَةِ **جَامِعِ الأصُولِ** (2) : «اعْلَمْ أنَّ مَنْ لاَ يَعْرِفُ أبَاهُ وَأجْدَادَهُ فِي الطَّرِيقِ فَهُوَ مَطْرُودٌ وَكَلاَمُهُ دَعْوَى غَيْرُ مَقْبُولَةٍ وَرُبَّمَا انْتَسَبَ إلَى غَيْرِ اللَّهِ فَيَدْخُلُ فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ «لَعَنَ اللَّهُ مَنِ انْتَسَبَ إلَى غَيْرِ أبِيهِ» . وَقَدْ أجْمَعَ السَّلَفُ كُلُّهُمْ عَلَى أنَّ مَنْ لَمْ يَصِحَّ لَهُ نَسَبُ القَوْمِ وَلاَ أذِنَ فِي أنْ يَجْلِسَ لِلنَّاسِ لاَ يَجُوزُ لَهُ التَّصَدُّرُ إلَى إرْشَادِ النَّاسِ وَلاَ أنْ يَأخُذَ عَلَيْهِمْ عَهْدًا وَلاَ أن يُلَقِّنَهُمْ ذِكْرًا وَلاَ شَيْئًا مِنَ الطَّرِيقِ إذِ السِّرُّ فِي الطَّرِيقِ إنَّمَا هُوَ ارْتِبَاطُ القُلُوبِ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ إلَى الرَّسُولِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إلَى حَضْرَةِ الحَقِّ جَلَّ جَلاَلُهُ . فَمَنْ لَمْ يَدْخُلْ سِلْسِلَةَ القَوْمِ غَيْرُ مَعْدُودٍ مِنْهُمْ .هـ.

---

(1) بالاصل : هاذه .

(2) **جامع أصول الأولياء** لأحمد ضياء الدين النقشبندي : انظر أعلاه : ص 10 .

وَلِذَلِكَ تَرَى تَوَاصُلَ الطُّرُقِ كُلِّهَا بِالأَسَانِيدِ فَمَعَ كَوْنِ الشَّيْخِ المَدَنِيِّ تَلَقَّى الإِذْنَ بِالتَّلْقِينِ مِنَ الحُجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بِقَوْلِهِ تعَ ‹وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ (1)› هُوَ يَنْتَسِبُ فِي سَنَدِ طَرِيقَتِهِ إِلَى مَوْلاَيَ العَرَبِيِّ وَكِلاَهُمَا فِي طَرِيقَتِهِمَا يَنْتَسِبُ لِلشَّاذُلِيِّ وَمَعَ كَوْنِ الشَّاذُلِيِّ قَالَ تِلْكَ المَقَالَةَ السَّابِقَةَ هُوَ يَنْتَسِبُ فِي سَنَدِهِ إِلَى ابْنِ مَشِيشٍ. فَمَرْجِعُ الطُّرُقِ المُتَّصِلَةِ بِالشَّاذُلِيِّ إِلَى الطَّرِيقَةِ الشَّاذُلِيَّةِ وَكَذَلِكَ نَقُولُ فِي المُتَّصِلِ بِالجِيلِيِّ مَرْجِعُهُ لِلطَّرِيقَةِ القَادِرِيَّةِ وَمَرْجِعُ الطَّرِيقَةِ الرَّحْمَانِيَّةِ إِلَى الخَلْوَتِيَّةِ حَيْثُ يَتَّصِلُ بِهَا سَنَدُ مَوْلاَيَ ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَانِ كَمَا يَتَّصِلُ بِهَا سَنَدُ الشَّيْخِ التِّجَانِيِّ بِوَاسِطَةِ الشَّيْخِ مَحْمُودٍ الكُرْدِيِّ .

وَجَمِيعُ الأُصُولِ وَالفُرُوعِ يَرْجِعُ بِطَرِيقِ السَّنَدِ إِلَى عَيْنِ الرَّحْمَةِ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وَالوَاسِطَةُ العُظْمَى الَّذِي مِنْ بَابِهِ دَخَلَتْ جَمِيعُ التَّعَرُّفَاتِ لأَهْلِ المَعْرِفَةِ فَنَالُوا الكَمَالَ فِي حَضْرَةِ الجَلاَلِ . وَالكُلُّ مِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِلَيْهِ . وَتَمَسُّكُ العَارِفِينَ بِالسَّنَدِ الحَقِيقِيِّ مَعَ وُصُولِهِمْ إِلَى المَعْرِفَةِ وَصُدُورُ مَا صَدَرَ مِنْ [15]مَقَالاَتِ شُيُوخِهِمْ أَوْ مَقَالاَتِ أَنْفُسِهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ [15]
دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ تِلْكَ المَقَالاَتِ لَمْ يُرَدْ بِهَا الانْسِلاَخُ عَنِ الأُسْتَاذِ المُوَصِّلِ سِيَّمَا مَعَ العِلْمِ بِمَا لَهُمْ مِنَ الأَدَبِ مَعَ مَقَامِ الشيخوخةِ وَحِفْظِ قُلُوبِ الشُّيُوخِ لاسْتِكْمَالِ شَرَفِ النَّسَبِ إِلَى الآبَاءِ الرُّوحَانِيِّينَ . شعر [من البحر الرمل]

نَسَبٌ أَقْرَبُ فِي شَرْعِ الهَوَى   بَيْنَنَا مِنْ نَسَبِي مِنْ أَبَوَيْ

قَالَ فِي **جَامِعِ الأُصُولِ** «مَنْ تَرَكَ حُرْمَةَ الشُّيُوخِ فَقَدْ أَظْهَرَ رَقْمَ شَقَاوَتِهِ وَذَلِكَ لاَ يُخْطِي ه» وَقَدْ رَأَيْتُ فِي أُرْجُوزَةِ

---

(1) القرآن : سورة الذاريات ، 51 : 55 .

إجَازَاتِ الشَّيْخِ أحْمَدَ بْنِ قَاسِمِ التَّمِيمِيِّ البُونِيِّ (1) فَصْلاً عَجِيباً فِي عَدَمِ صِحَّةِ السَّنَدِ الجَارِي عَلَى خَرْقِ العَادَةِ كالأسَانِيدِ الوَاصِلَةِ إلَى السَّمْهَرُوشِ (2) وَالأسَانِيدِ المَأخُوذَةِ عَنِ الأمْوَاتِ مِنْ أكَابِرِ الشُّيُوخِ وَلَوْ كَانَتْ فِي عَالَمِ المِثَالِ لأنَّ مِثَالَهَا لَيْسَ حَقِيقِيّاً وَهْوَ فَصْلٌ قَالَ فِي أوَّلِهِ : « فَصْلٌ

[من بحر الرجز]

وَعِنْدِي فِي طَرِيقِ القَوْمِ مَا هُوَ أقْرَبُ بِغَيْرِ لَوْمِ
لكنْ على سَبِيلِ خرْقِ العَادَةِ أذْكُرُهُ تَبَرُّكاً بِالسَّادَةِ
وَهوَ لدَى التَّحْقِيقِ وَالإتْقَانِ ليس بشيْءٍ قَالَهُ الزَّرْقَانِي
في الجنِّ قلتُ وَكذَا في الإنْس فَالكَمُّ وَاحِدٌ فَكُنْ ذا أُنْسِ
صَافَحَهُ الوَالدُ وَهوَ صَافَحَهْ وَالِدُهُ ذُو العِلْمِ وَالمُنَاصَحَهْ
صَافَحَهُ طِرَادُنَا الزِّيَابِي صَافَحَهُ النَّبِيُّ بِلاَ ارْتِيَابِ
يَقْظَةً وَهْوَ بِزَرْفُوفِ مِنْ سِرِّهِ قدْ مَلَيْتُ ظُرُوفِي

وَلَعَلَّهُ لِهَذَا السِّرِّ وَقَفَ الرِّجَالُ فِي مَوَاقِفِ أسَانِيدِهِمِ الظَّاهِرَةِ كَيْفَ وَالعَارِفُونَ مِنْ تَلاَمِيذِ الجِيلِي وَالشَّاذُلِي وَمَنْ عَلَى شَاكِلَتِهِمَا كُلُّهُمْ يَمُتُّ لِلَّهِ بِسَنَدِ أسْتَاذِهِ القَائِلِ إنَّ شَيْخِي فِيمَا مَضَى فُلاَنٌ وَأمَّا الانَ فَأنَا كَيْتَ وَكَيْتَ . وَغَايَةُ مَا يُقَالُ إنَّ تِلْكَ المَقَالاَتِ مِنْهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ دَالَّةٌ لأمْثَالِنَا عَلَى كَوْنِهِمْ قَدْ وَصَلُوا إلَى المَطْلُوبِ وَصَارَ بَصَرُ الوَاحِدِ مِنْهُمْ غَيْرَ مَحْجُوبٍ ۞ وَأيْنَ هَذَا مِنَ الدَّلاَلَةِ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ المَقَامِ فِي حَضْرَةِ المَلِكِ [16]العَلاَّمِ ۞ وَنَحْنُ فِي عِمَايَةِ [16]

(1) أحمد بن قاسم التميمي البوني توفي سنة 1726/1139 ببونة مسقط رأسه وتسمى اليوم عنابة . عالم فاضل له تصانيف منها : نظم الخصائص النبوية ، ونظم الشمائل ، وفتح الباري في شرح غريب البخاري ... انظر : الزركلي ، **معجم الأعلام** ، ج 1 ص 189 .

(2) كذا بالأصل .

الحجاب * ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الأَلبَابِ (1)﴾ وَقَدْ نَقَلَ الشَّيْخُ كَنْسُوسُ التِّجَانِي أَنَّهُ لاَ يَلْزَمُ مِنَ الأَفْضَلِيَّةِ الظَّاهِرَةِ الأَفْضَلِيَّةُ البَاطِنَةُ بَلِ الوَاجِبُ عَلَيْنَا مَحَبَّةُ الجَمِيعِ وَالوُقُوفُ عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ هـ. » .

هَذَا بِالنَّظَرِ إِلَى مَقَامِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ . وَالشَّوْطُ أَبْعَدُ إِنْ أَرَادَ الوَاحِدُ مِنَّا أَنْ يَنْظُرَ فِي أَيِّهِمْ أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ . وَهُوَ نَظَرٌ فِيمَا اخْتَصَّ بِهِ العِلْمُ القَدِيمُ وِفْقَ الإِرَادَةِ الأَزَلِيَّةِ . وَأَنَّى لَنَا وَهَذِهِ الغَايَةَ الَّتِي يَعْثُرُّ دُونَهَا الجَوَادُ . وَهِيَ مَوْقِفُ أَصْحَابِ السَّدَادِ . وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ كَنْسُوسُ التِّجَانِيُّ فِي رِسَالَتِهِ مَا لَفْظُهُ : « فَالتَّفْضِيلُ تَوْقِيفِيٌّ مَا وَرَدَ مِنَ الشَّارِعِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْنَا بِهِ وَمَالاَ فَلاَ هـ » .

وَهُنَا نَذْكُرُ مَسْأَلَةَ كَوْنِ الوَاحِدِ مِنَّا يَعْتَقِدُ تَفْضِيلَ أَحَدٍ بِعَيْنِهِ تَفْضِيلاً عَامًّا أَوْ تَفْضِيلَ وَاحِدٍ عَلَى آخَرَ مُعَيَّنٍ فَنَقُولُ : هَذِهِ شَرِيعَتُنَا المُطَهَّرَةُ الَّتِي أَتَى بِهَا خَيْرُ المُرْسَلِينَ قَدْ تَكَفَّلَتْ لَنَا بِبَيَانِ مَا تَصِلُ إِلَيْهِ عُقُولُنَا فَأَوْضَحَتْ لَنَا فِي تَفَاضُلِ الخَلْقِ مَا أَوْجَبَتْ عَلَيْنَا اعْتِقَادَهُ وُجُوبًا شَرْعِيًّا نَدِينُ اللَّهَ بِهِ فِي الإِيمَانِ بِمَا جَلَّهُ بِهِ رَسُولُهُ وَمَنِ اخْتَلَّتْ عَقِيدَتُهُ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ نَاكِثُ العَهْدِ ﴿وَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ (2)﴾ .

وَفِي جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ لِلإِمَامِ اللَّقَانِي (3) بَيَانُ هَاتِهِ العَقِيدَةِ عَلَى مَذْهَبِ الأَشْعَرِيِّ (4) رضه وَذَلِكَ قَوْلُهُ [بحر الرجز]

---

(1) القرآن : سورة البقرة ، 2 : 269 . وسورة آل عمران ، 3 : 7 .

(2) كذا بالأصل ونص الآية : فمن نكث فإنما ينكث على نفسه . القرآن : سورة الفتح ، 48 : 10 .

(3) هو إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني أبو الامداد برهان الدين فاضل متصوف مصري مالكي توفي سنة 1631/1041 . له كتب منها جوهرة التوحيد . ط. وهو منظومة في العقائد . انظر : الزركلي **الأعلام** ، ج 1 ص 21 .

(4) بخصوص المذهب الأشعري انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 715–716 .

وَأَفْضَلُ الخَلْقِ عَلَى الإِطْلاَقِ   نَبِيُّنَا مُجَلٌّ عَنِ الشِّقَاقِ
وَالأَنْبِيَا يَلُونَهُ فِي الفَضْلِ   وَبَعْدَهُمْ مَلاَئِكَةُ ذِي فَضْلِ
هَذَا وَقَوْمٌ فصلوا إِذْ فَضَلُوا   وَبَعْضُ كُلٍّ بَعْضُهُ قَدْ يَفْضُلُ

إِلَى أَنْ قَالَ :

وَصَحْبُهُ خَيْرُ القُرُونِ فَاسْتَمِعْ   فَتَابِعِيٌّ فَتَابِعٌ لِمَنْ تَبِعْ
وَخَيْرُهُمْ مَنْ وَلِيَ الخِلاَفَةَ   وَأَمْرُهُمْ في الفضلِ كَالخِلاَفَةِ[17] [17]
يَلِيهِمُ قَوْمٌ كِرَامٌ بَرَرَةْ   عِدَّتُهُمْ سِتٌّ تَمَامَ العَشَرَةْ
فَأَهْلُ بَدْرِ العَظِيمِ الشَّأْنِ   فَأُحُدٌ فَبَيْعَةُ الرِّضْوَانِ
وَالسَّابِقُونَ فَضْلُهُمْ حَقًّا عُرِفْ   كَمَا مِنَ القُرْآنِ نَصًّا قَدْ أُلِفْ

وَتَفَاصِيلُ هَاتِهِ المَسْأَلَةِ فِي **الشَّرْحِ الكَبِيرِ** لِلنَّاظِمِ وَلَيْسَ المَقَامُ هُنَا مَقَامَ بَسْطِهَا وَإِنَّمَا نَقُولُ : يَجِبُ عَلَى المُسْلِمِ أَنْ يَعْتَقِدَ أَفْضَلِيَّةَ نَبِيِّنَا عَلَى جَمِيعِ الْخَلْقِ ثُمَّ بَقِيَّةِ الأَنْبِيَاءِ ثُمَّ المَلاَئِكَةِ ثُمَّ الفَضْلُ لِلْخُلَفَاءِ الراشدِينَ ثُمَّ بَقِيَّةِ العَشَرَةِ المُبَشَّرِينَ بِالجَنَّةِ ثُمَّ أَهْلِ بَدْرٍ (1) ثُم أَهْلِ أُحُدٍ (2) ثُمَّ أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ (3) ثُمَّ السَّابِقِينَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ثُمَّ بَقِيَّةِ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ثُمَّ التَّابِعِينَ وَأَفْضَلُهُمْ أُوَيْسُ القَرَنِي (4) الَّذِي شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ صلعم بالوِلاَيَةِ فَلَمْ يَكُنْ فِي الأُمَّةِ مَقْطُوعٌ بِوِلاَيَتِهِ بِخَبَرِ الصَّادِقِ غَيْرُهُ رضه ثُمَّ بَعْدَ التَّابِعِينَ تَابِعِ التَّابِعِينَ وَهُمْ أَهْلُ القُرُونِ الثَّلاَثَةِ الَّتِي وَرَدَ الحَدِيثُ بِأَفْضَلِيَّةِ أَهْلِهَا وَوَجَبَ اعْتِقَادُ أَفْضَلِيَّتِهِمْ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ .

---

(1) بخصوص أهل بدر انظر : **دائرة المعارف** ، ط 2 ج 1 ص 892 .
(2) بخصوص أهل أحد انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ج 3 ص 1037—1038 .
(3) بخصوص بيعة الرضوان انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 146—147 .
(4) أويس القرني : تابعي مات في معركة صفين مع علي ابن أبـي طالب . انظر : **محمد البهلي النيال** ، الحقيقة ... ص 39 .

وَإِنَّمَا الخِلاَفُ فِي أَنَّ هَذِهِ الأَفْضَلِيَّةَ هَلْ هِيَ بِالنِّسبةِ إِلَى المَجْمُوعِ أَوِ الأَفْرَادِ. وَإِلَى الثَّانِي ذَهَبَ الجُمْهُورُ عَلَى مَعْنَى أَنَّ خَوَاصَّ التَّابِعِينَ أَفْضَلُ مِنْ خَوَاصِّ تَابِعِ التَّابِعِينَ وَعَوَامَّهُمْ أَفْضَلُ مِنْ عَوَامِّهِمْ. وَهَكَذَا إِذَا قَابَلْتَ كُلَّ فَرْدٍ بِمَنْ هُوَ مِثْلُهُ. وَأَمَّا إِنْ قُلْنَا إِنَّ الفَضْلَ إِنَّمَا هُوَ لِلْمَجْمُوعِ فَلاَ نَظَرَ فِيهِ لِلأَفْرَادِ وَقَدْ تَكُونُ أَفْضَلِيَّةُ المَجْمُوعِ بِالنَّظَرِ إِلَى الأَعْيَانِ وَالخَوَاصِّ. وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلاَ يَكُونُ أَعْيَانُ تَابِعِ التَّابِعِينَ أَفْضَلَ مِنْ أَعْيَانِ التَّابِعِينَ وَلاَ أَعْيَانُ مَا بَعْدَهُمَا مِنَ القُرُونِ أَفْضَلَ مِنْ أَعْيَانِهِمَا فَلاَ يُمْكِنُ أَنْ يُتَصَوَّرَ عَلَى كِلاَ القَوْلَيْنِ أَفْضَلِيَّةُ أَحَدٍ مِنْ غَيْرِ أَهْلِ القُرُونِ الثَّلاَثَةِ عَلَى أَعْيَانِهَا وَخَوَاصِّهَا.

وَأَمَّا حَدِيثُ «أُمَّتِي كَمَثَلِ المَطَرِ لاَ يُدْرَى أَوَّلُهَا خَيْرٌ أَمْ آخِرُهَا أَوْ لاَ يُدْرَى الخَيْرُ فِي أَوَّلِهَا أَمْ فِي [18] آخِرِهَا (1)» [18]
فَفُسِّرَ الخَيْرُ بِالنَّفْعِ وَلِلْعُلَمَاءِ فِيهِ كَلاَمٌ طَوِيلٌ عَرِيضٌ لَيْسَ هَذَا مَحَلَّهُ وَلِلَّهِ دَرُّ الطِّيبِيِّ (2) فِي تَقْرِيرِ الحَدِيثِ المَذْكُورِ عَلَى مَعْنَى الكِنَايَةِ عَنْ شِدَّةِ الالتِحَامِ الَّذِي يَحْصُلُ بِهِ الرَّبْطُ الدِّينِيُّ.

فَإِذَا تَكَامَلَ رَصُّ الالْتِحَامِ بَيْنَ الأُمَّةِ تَكُونُ بِحَيْثُ إِذَا انْتَثَرَ عِقْدُ انْتِظَامِهَا مِنْ أَيِّ فَرْدٍ سَوَاءٌ كَانَ مِنَ الأَعْيَانِ الخَوَاصِّ أَوِ العَوَامِّ فَإِنَّ ذَلِكَ يُخِلُّ بِنِظَامِ شَرَفِ الأُمَّةِ. وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ لِكُلِّ وَاحِدٍ دَخْلٌ فِي هَذَا الرصِّ المُحْكَمِ فَلاَ يُدْرَى بِاشْتِبَاهِ الأَحْكَامِ أَوَّلُ الأُمَّةِ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهَا إِذْ لِكُلِّ وَاحِدٍ دَخْلٌ فِي الائْتِلاَفِ. وَعَلَى هَذَا فَلاَ دَخْلَ لِهَذَا الحَدِيثِ

(1) حديث شريف.
(2) هو أحمد بن أحمد الطيبي، فاضل دمشقي، توفي سنة 1573/981. انظر: الزركلي، **الأعلام**، ج 1 ص 88.

فِـي أفْضَلِـيَّةِ بَعْضِ النَّاسِ عَلَى بَعْضٍ وَمَدَارُهُ عَلَى اتِّحَادِ الإِسْلاَمِ وَالتِحَامِـهِـمْ بِأخُوَّةِ الدِّينِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَتَخْصِيصُ حَدِيثِ أفْضَلِيَّةِ القُرُونِ الثَّلاَثَةِ يَدْخُلُ فِـي تَعْمِـيمِ الأُمَّـةِ فَتَكُونُ بَقِـيَّةُ القُرُونِ مَا عَدَا الثَّلاَثَةَ الأَوَّلَ الخَيْرُ فِـي أوَّلِـهَـا وَفِـي آخِرِهَا بِحَيْثُ إنَّ بَقِـيَّةَ العُصُورِ لاَ مَانِـعَ مِـنْ أنْ يَكُونَ فِـي مُتَأخِّرِهَا مَنْ هُوَ أفْضَلُ مِـمَّنْ كَانَ فِـي مُتَقَدِّمِـهَا وَ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِـيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (1) .

وباب الفضل غيرُ مقصور على أحد فمن يدّعي الاقتصار عليه فقد حجّر واسعا ومع ذلك تعيين الفرد الفاضل المفضول ، مما لا يُتَوصّل إليه بمجرّد العقول ، وإذا كان أمر الولاية في الشريعة غير مقطوع به فضلا عن كونه يجب اعتقاده لأحد بخصوصه فكيف يسوغ الحكم بأنّه فَضَّلَ فلانا على من سواه ممّن ماثله من أهل الله المعاصرين له أو السابقين عنه أو اللاحقين له بمجرّد حسن الظنّ أو الاعتماد على سعة الفضل بالإمكان إذ الإمكان وسعة الفضل لا يختصّان بأحد والكلام إنّما هو في اختصاص الأفضلية العامّة لواحد بعينه والاقتصار بحسن الظنّ عليه خاصّة مع أنّ الألفاظ العامّة الواردة عن وليّ من أولياء الله في تفضيله عن السابق واللاحق[19]هي لعمومها قابلة التخصيص [19]
بحال من الأحوال أو مقام من المقامات وقبولها للتخصيص مانع من اعتقاد عمومها إذ هي دليل طرقه الاحتمال ، وعند ذلك يسقط بها الاستدلال ، إذ أنّ صفة الأفضلية العامّة إنّما تحصل لأحد بعينه بتفضيل من عند الله تعلق به سابق إرادته الأزلية مثل ما ورد في فضل الصحابة والقرون الثلاثة. وهذا أمر حجبه الله عن إدراك عقولنا . ولذلك ورد النهي والتحذير من دعوى الولاية لمن لم يتّصف بها . وقيل إنّه يموت على سوء الخاتمة. وكذلك وقع التحذير من كون الرجل ينسب غير الولي إلى الولاية افتياة على الله .

(1) القرآن : سورة الحديد ، 57 : 21 .

وطريق معرفتها هو كون الشخص يثبتها لنفسه أو أنّه ظهرت عليه الكرامة بأمر خارق للعادة مقرون بدعوى الولاية . وإذا لم يكن واحد ممّا ذكر فلا يسوغ لمسلم أن يدّعي في شخص الولاية بمجرّد حسن الظنّ فيه لأنّ ممثّل ذلك لا يكفي فيه حسن الظنّ حيث إنّ فيه وصلة مع الله ربّما لم تكن سيّما إن لم يدّعها الشخص أو لم يظهر عليه شيء من أماراتها . وليس من أماراتها لبس المرقّعات أو التقشّف أو صبغ اللحا أو تطويلها . نعم إن ادّعاها صاحبُ ذلك فلِمُحسِنِ الظنّ تصديقُه بدون توقُّف على كرامة . والله أعلم بعباده .

ومن مقالات الشيوخ « اعتقد ولا تنتقد ولا تطمئنّ لأحد» . وهذا كلّه في أصل إثبات وصف الولاية . وأمّا التفضيل عند الله في الواقع فأمر آخر لا طريق له إلاّ الروايات الشرعية على ما تقدّم للشيخ كنسوس التجاني . ولذلك لا تسوّغ لنا شريعة الإسلام الحكم على شخصين بعينهما بأنّ أحدهما أفضل عند الله ولو مع العلم بصلاح ظاهر حال أحدهما وفسوق ظاهر حال الآخر حيث إنّ انتقاص المسلم كيفما كان حرام . وإنّ السعادة والشقاوة ممّا أخفاه الله على كثير من خواصّ عباده . وإنّ من يمت ولم يتب من ذنبه[20]فأمره مفوّض لربّه وباب الفضل عظيم لا يختصّ به أحد دون آخر . [20]

وحديث « إنَّ أحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى لاَ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إلا قَدْرُ ذِرَاعٍ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلهَا (1) » الحديث مانع عظيم من هذا التحكّم سيّما والحكم بأفضلية واحد بعينه يستلزم الحكم بأنّ جميع من سواه من خلق الله في مشارق الأرض ومغاربها كلّهم مفضول وهو موقف عظيم لا يتجاسر عليه إلاّ متساهل وأولياء الله تحت بنانه لا يَعْلَمُهُمْ (2) أحد غيره فكيف يمكن لأحد أن يحكم على عدد غير متناه ولا معروف الرتبة بأنّه مفضول لتفضيل أحد بعينه بدون سند شرعي .

(1) حديث شريف .
(2) بالأصل : لا يتعلمهم .

وسترى من كلام اليوسي أنّ الوصف بالأفضلية يستلزم وصف المفضولية للغير بالمفهوم وهذا سيّدنا الخضر (1) عليه السلام المختلف فيه هل هو نبيّ أو وليّ مع ثبوت اجتماعه بالنبي (صلعم) فهو مع ذلك ثبتت له الصحبة كما عليه علماء الحديث والمتكلّمون. ونحن ولو درجنا على القول بأنّه وليّ فقط فناهيك بها من ولاية اشتبهت بالنبوّة واقترنت بالصحبة. ولا شكّ أنّها بهذا الاشتباه تكون أعلى درجة ممّا سواها من ولايات الأولياء الذين لم يقل أحد بنبوّتهم فضلا عن دعوى الصحبة معها ومع علوّ درجة صاحبها الذي بيده زمام أولياء الله اتّفق له أن دخل مسجدا اجتمعت فيه حلقة العارف بالله سيّدي عبد الرزّاق فرأى الخضر شخصا نائما بطرف المسجد لا يعلم ولايته فبادر لإيقاظه وقال له: «قم لتسمع الشيخ عبد الرزاق. فقال له الشخص: انّ من يسمع من الرزّاق لا حاجة به للسماع من عبد الرزّاق». فعجب الخضر منه وقال له: «من أنت؟ فقال له على البديهة: اني لست من أهل زمامك والله لئن لم تتنحّ عنّي لأخبرت القوم [21] بأنك الخضر». فعلم الخضر عليه السلام [21]
في ذلك الوقت أنّ لِلّه أولياءَ استأثر بهم في علمه.

فإذا كان مقام الخضر لم يصل إلى معرفة بعض من الأولياء وبيده زمامهم فأيّ إحاطة تكون لمن سواه يمكن له بها أن يتحقّق عموم التفضيل والحال أنّ الأفراد في أنفسهم غير معلومين ولا يدّعي أحد الإحاطة بعددهم فضلا عن مراتبهم وأفضليتهم. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ وقد قيل إنّ الولي إذا بلغ إلى درجته ورأى في طريق ترقّيه ما أفاضه الله عليه من الأنوار والأسرار ربّما يعتقد أنّ ما بلغ إليه لم يصله غيره من الأولياء وهذا لا يختصّ بواحد منهم بل يكون في جنود مجنّدة تصدر عنهم مقالات يخبرون بها عن أنفسهم بمقدار ما يعتقدون.

---

(1) فيما يخص هذه الشخصية القرآنية انظر: **دائرة المعارف الاسلامية**، ط 1 ج 2 ص 912–916

واذا تمهّد هذا التحرير فالمتحرّي لدينه عليه أن يقف في موقف الرشاد بإخلاص الاعتقاد للّه في جميع أوليائه الكرام رضي الله عن جميعهم من غير أدنى تداخل في باب تفاضلهم وأفضليتهم إلاّ بطريق شرعيّ يقف المؤمن المخلص عند حدّه ولا يتجاوزه إلى حدود الاشتباه التي ربّما توقعه فيما ليس له فيه من الله حجّة. فإن قُلتَ إنّ بعض الأولياء رضي الله عنهم رويت عنهم أخبار في أفضليتهم أو أفضلية غيرهم منهم أخبروا بها عن كشف حصل لهم تقضيه مراتبهم السامية رضي الله عنهم أجمعين . قلت : نحن مع اعتقادنا كمالهم وصحّة كشوفاتهم لا يمكن أن يحصل لنا من خبرهم ما حصل لهم من الكشف قياسا على حال المجتهد الذي يكون حكم الله في حقّه ما وصل إليه اجتهاده وليس ذلك حكم الله في حقّ غيره اذ ربّما كان الولي رضي الله عنه مكلّفا باعتقاد مقدار كشفه لا يجوز له العمل بما سواه مثل المجتهد أو ربّما كان مأمورا بما في طيّ ذلك من سرّ يعلمه الله .

[22] وقد أكل آدم [22] من الشجرة امتثالا لأمر ربّه في الباطني مع النهي الظاهري وحينئذ كيف يمكن لنا أن نصل إلى معرفة حقيقة الحال سيّما وألفاظهم المقبولة عندنا مع حسن الاعتقاد وصحّة النقل عمومها تقبل التخفيض . ولسنا منهم حتّى نعرف حقائق مرادهم . ونحن إنما كلّفنا الله بما ورد إلينا على لسان صاحب الشريعة وهو [بحر الرجز]

لَمْ يَمْتَحِنَّا بِمَا تَعْيَا العُقُولُ بِهِ
حِرْصًا عَلَيْنَا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهِمِ

وشريعتنا لا تقبل الإطلاق أو التقييد أو التعميم أو التخصيص بطريق من طرق المكاشفات . ومن طالع المسألة الثانية عشرة والفصل الثاني من المسألة الخامسة عشرة من كتاب **المقاصد من موافقات** الشاطبي (1) رأى تحرير ما

(1) كتاب الموافقات لابي اسحاق الشاطبي (ت790هـ.) ويعرف بكتاب عنوان التعريف بأسرار التكليف . ط. تونس 1302. انظر : سركيس ، **معجم المطبوعات** ، ج 1 رقم 1090–1091 .

نشير إليه ووراء هذا كلّه أحوال الأولياء ومقاصدهم التي لا يعلمها الاّ خالقهم. ولذلك لا يسوغ عند علماء السنّة أخذ كلام الشيوخ من القوم على ظاهره إن كان ظاهره لم يكن موافقا لظاهر الشريعة . ويجري العمل في ذلك على وجوه وقع بها الاختلاف الذي ذكره الشيخ أحمد المقّري (1) في منظومته التي سمّاها : **إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنّة** . وشرحها الشيخ الشنقيطي (2) وغيره من فحول علماء الدين . ومن فصولها قوله : [بحر الرجز]

وَمُوهِـمُ المَحذُورِ مِـنْ كَـلاَمِ ... قَـوْمٍ مِـنَ الصُّوفِـيَّةِ الأعْـلاَمِ
جَرْيًا على عُرْفِـهِمُ المَخْصُوصِ ... يُرْجَعُ بِالتَّأوِيلِ لِلْمَنْصُوصِ
وَمَا يَفُوهُونَ بِـهِ لِلسَّطْـحِ ... فَقِيلَ غَيْرُ مُقْتَضٍ لِلْقَدْحِ
وَهْوَ إلىَ التَّأوِيلِ ذُو انْتِحَـالِ ... أوْ أنَّهُمْ قَدْ غُلِبُوا بِالْحَالِ
وَقِيلَ بَلْ يُنَاطُ حُكْمُ الظَّاهِرِ ... بِهِمْ صِيَانَةً لِشَرْعٍ طَاهِرِ
فَلاَ يُقَرُّ ظَاهِرٌ فِي الْمَيْـلِ ... عَنْهُ وَذَا أمْرٌ طَوِيلُ الذَّيْلِ [23] [23]
وَلَيْسَ يُقْتَدَى بِهِمْ في ذَلِكَ ... لأنَّهُ مِنْ أصْعَبِ الْمَسَالِكِ

ومن طالع كتب القوم ونظر في ظاهر أحوالهم وما هم عليه باطنا فيها رأى عجائب من سرّهم وجزم بأنْ لا سبيل إلى الإحاطة بما هم عليه إلاّ لعلاّم الغيوب . ومن أين لمثلنا أنّ يقطع بحقيقة ما يرد عنهم أو يسمعه منهم إنْ لم يكن مريداً بسند شرعي وكخلّهم رضي الله عنهم وكلّهم من الكاملين ما من أحد منهم إلاّ يؤثر عنه أنه يقول إذا بلغكم عنّي كلام فزنوه بميزان الشرع فإن وافقه فذلك قولي وإلاّ فردوّه أو كما قالوا رضي الله عنهم .

وإذا كان ميزان الشرع لا يقتضي القطع بالولاية لغير من أثبتها له الشارع والحالف بطلاق زوجته على ولاية ولو مثل الجيلي والشاذلي ونحوهما تطلّق

(1) هو أحمد بن محمد بن أحمد المقري التلمساني المولد المالكي الاشعري نزيل فاس ثم القاهرة ، توفي سنة 1041هـ. انظر : سركيس **معجم** ... ج 2 رقم 1776–1777 .

(2) هو عبد الله بن إبراهيم العلوي الشنقيطي ، فقيه مالكي ، توفي بفاس سنة 1820/1235 ؛ له أيضا نشر البنود في شرح ألفية له في أصول الفقه سماها مراقي السعود .

عليه شرعا زوجته فبأيّ سند نصير نحن إلى القطع بالولاية لهم غير حسن الظنّ واعتقاد الكمال في أهله . ولا يخفى أنّه لا يكفي لمجزم بأفضلية أحد عند ربّه فضلا عمّا يشمل السابق واللاحق. وأنّ هذا الأمر عظيم لا يسهل لمريد حكيم كيف والمتكلّمون من علماء الأمّة على أنّ التفضيل الإلهي لعباده محض فضل منه لادخل للمزايا فيه حتّى حقّق اليوسي والسنوسي (1) أن الأولى أن يقال محمّد أفضل الأنبياء بتفضيل الله تعالى لا بسبب احتوائه على مزايا اقتضت ذلك لأن للسيّد أن يفضّل من شاء من عبيده مع السلامة من إساءة الأدب في نسبة النقص لغيره بالمفهوم وإنْ كانَ النقص النسبيّ لابدّ منه إلى آخر كلامهم في هذا الباب . والسالك طريق الأدب مع الله في شريعته وأوليائه لا يخرج عن منهجها الذي اختاروا انتهاجه رضي الله عنهم إذِ المُحافَظَةُ عليه أصل عظيم في العقائد . هذا ما تقتضيه الأحكام العامّة . نَعَمْ للسالكين
من المريدين آدابٌ [24] تقتضيها حالهم . [24]

قال في الابريز (2) « ولا تُقْدِمَنّ على شيخ من المشائخ بقصد الدخول في صحبته حتّى تَعتقدَ أنّه من أهل التربية . وأنّه لا أحقّ بها منه في زمانه . وإنّما يجب عليه ذلك لأنّ الشيخ الذي يرى من مريده الالتفات إلى غيره يقطع عنه المادّة . والمريد الذي يدخل في صحبة الشيخ وهو يرى في الوجود شيخا مثل شيخه أو أكمل يبقى مُتَشَوّقًا إلى ذلك الأكمل فيراه شَيْخُه متَشَوّقًا إليه فيقطع عنه المادّة فلا يكون بالأوّل ولا بالثاني هـ.» .

وهذا صريح في بيان المقدار الذي ينبغي للمريد أن يميّز به شيخه وليس فيه طلب اعتقاد أفضليته في نفس الأمر والواقع على جميع أولياء الله من الأموات والأحياء السابقين واللاحقين. وغايته طلب اعتقاد أنّه الأحقّ بالتربية في هذا

(1) هو الحسن بن مسعود بن محمد اليوسي (1040/1630–1120/1691) ، فقيه مالكي أديب ، من بني يوسى بالمغرب الأقصى ، من كتبه المحاضرات في الأدب .

(2) الابريز : هو كتاب الابريز من كلام سيدي عبد العزيز أو الابريز الذي تلقاه من قطب الواصلين سيدي عبد العزيز الدباغ ، جمع الشيخ أحمد بن المبارك الملطي السجلماسي المتوفى سنة 1155 . انظر : سركيس ، **معجم المطبوعات** ، ج 1 رقم 1009 .

الزمان بين الموجودين. وتخصيص الزمان والوجود لا يمكن التنقّل منه إلى التعميم كما أنّ تخصيص الأحقيّة بالتربية لا يتوصّل منها إلى الأفضلية وما هي إلاّ مزيّة .

وقد علمت أنّ للسيّد أن يفضّل من شاء على من شاء بدون سبب وهذا كلّه فيما يخصّ المريد وشيخ تربيته لما يقتضيه حال التربية . وأمّا غيره من المنتسبين والمتبرّكين والزائرين فحسن اعتقاد الكمال في الجميع هو اللازم . وهو لا ينافي احترام حقوق الشيوخ بل أنّه منه . وهم رضي الله عنهم أحرص الناس عليه للعلم بأنّ جميعهم من حزب الله الفائزين وهم أعلم بكمال بعضهم وأحرص على حفظ حقوقه العامّة والخاصّة .

فمقام الأدب مع الشيوخ يوجب علينا تعظيم إخوانهم من أهل الله تعظيما نتقرّب به إلى الله ونزيد به تقرّبا لشيوخنا رضي الله عنهم أجمعين . ولا يعقل أنّ ذلك ينافي النسبة إلى الشيخ الذي وقع الاختصاص بالانتساب إليه في أخذ الطريقة إذ ليس من شرطها
اعتقاد أنّ المنتسب إليه لابدّ أن يكون هو [25] المختصّ بالفضل الأكمل من [25]
بين جميع خلق الله أو أوليائه سيّما عند الله وما هي إلاّ نسبة استمداد وتبرّك اختصّ بها المنتسب والمريد من الفقراء والإخوان ينالون بها الدخول في زمرة الأولياء ويجتمعون بها على ذكر الله في كلّ أوان ولله درّ الشيخ إبراهيم الرياحي (1) اذ يقول في إحدى قصائده التجانية [بحر الرجز]

رَبِّ إنِّي صَدَّقْتُ كُلَّ وَلِي   رَائِيًا قَدْرَهُمْ بعَيْنِ احتِرَامِ
غَيْرَ أنّ ابنَ سالِمٍ هُوَ سَهْمِي   وَمَلاَذي وَعُمْدَتِي وَإمَامِي

(1) الشيخ إبراهيم الرياحي ولد بتستور قرية بالشمال التونسي سنة 1181/1767 وتوفي بتونس الحاضرة سنة 1266/1849 . انظر : محمد بن محمد مخلوف ، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية** ، القاهرة 1349/1930–1931 ، ص 386–389 . انظر أيضا : محمد البهلي النيال ، **الحقيقة** ... ص 329–332 . انظر أيضا : أحمد ابن أبي الضياف ، **اتحاف أهل الزمان باخبار ملوك تونس وعهد الأمان** ، تونس 1965 ، ج 7 ص 73–82 .

على أنّ هذا الإمام * قدوة الأنام * وعمدة الخاصّ والعامّ * مع كمال توغّله في سلوكه على طريقة أستاذه لم يكن يتحاشى من الزيارات ولم يُنقل عنه منعٌ منها بل كان يزور ويرغّب الناس في طرقهم على ما يأتي لكمال علمه بفضل أهل الله وطرقهم * وإنّما يعرف الفضل من الناس ذووه * ووصلته في آخر عمره بالعارف بالله الشيخ المربّي سيّدي مصطفى بن عزّوز (1) أستاذ الطريقة الرحمانية واستمداداته وتعطّفاته في مكاتبته له رضي الله عنهما أعظم دليل على فضله .

وقد وقفت على بعض تلك المكاتيب بخطّه ومنها مكتوب مؤرّخ بالرابع عشر من ربيع الثاني سنة أربع وستين (2) هذا نصه :

«سلام الله الربّ الرحيم * على السيّد العظيم * والوليّ الكريم * ممّن سكنت مودّته في الصميم * الفقير إلى ربّه الرياحي إبراهيم * بلغني كتابك أيّها الوليّ الحميم * الرؤوف الرحيم * فكأنّني كنت نائما فانتبهت * أو كنت في شدّة سقم فنقهت * واصلك الله أيّها الحبيب المواصل * وجمع بينك وبين مرادك في العاجل والآجل * وغيّبك في القرب حتّى على نفسك * وردّك من فنائك ردًّا جميلا إلى حسّك * تخلّص السالك * وتجعل المملوك بهمّتك المالك * اللّهمّ واجعل لنا من ذلك أوفر نصيب * واغننا بك عن الراقي [26] [26]
والطبيب * يا أيّها السراج المنير * في طريق المسير * إلى العليّ الكبير * كما دنا المسير إليه * فأحرى المسير فيه * فكيف العيش يا أيّها السيّد الوجيه *

---

(1) مصطفى بن محمد بن عزوز ، فقيه مالكي صوفي من بيت فضل وعلم وصلاح وزاويتهم بصحراء الزاب من عمل بسكرة . دخل هذا الولي تونس وبث الطريقة الرحمانية الخلوتية في العروش وأنشأ زاوية بنفطة للصادر والوارد . أخذ عنه الكثير منهم ابنه الشيخ المكي وساهم الشيخ مصطفى في اطفاء نار فتنة علي بن غذاهم سنة 1864/1280 . وتوفي الشيخ مصطفى آخر ذي الحجة سنة 14/1282 ماي سنة 1866 . انظر : ابن أبي الضياف ، **اتحاف** ، ج 8 ص 142–143 انظر أيضا : مخلوف ، **شجرة النور** ، ص 391 ، ومحمد البهلي النيال ، الحقيقة ... ص 312 .

(2) يوافق : 20 مارس 1848 .

كما كادني الثناء اللائق * والإعراب عن الحبّ الشائق * في مقام الموافق * صاحب الأسرار * ومعدن المعارف والأنوار * سيّدي مصطفى بن عزوز أدام الله وقود أنواره * وفيْض أسراره السلام المحمول على كاهل الاجلال والإعظام * منّي ومن ذرّيتي وعلى كلّ من حوته حضرتكم الشريفة وسلام على المرسلين والحمد للّه ربّ العالمين *» . فللّه درّه من عالم عارف بواجبات الأدب فنال غاية الأرب .

[موقف المؤلّف من مسألة التفضيل بين الأولياء]

ولقد نرى من فساد الزمان * واقتداء الناس بالعميان * — وقد ضلّ من كانت العميان تهديه — أنّ بعض الذين ينتسبون لطرق الله بالانتساب إلى أوليائه رضي الله عنهم يعدلون عن جادّة حسن الاعتقاد المبرى مع الله ومع أوليائه بإجلال جميعهم رضي الله عنهم فيتزاحمون على باب التفضيل ويثيرون بينهم بسببه العداوة والبغضاء والتنافس والتجاحد إلى الغاية التي ربّما وصلوا بها إلى التقاتل فيكون القاتل والمقتول في النار . وهذا في فقراء الطرق المختلفة بل رأيناهم أبناء الطريق الواحد يمتُّون بسند واحد إلى أستاذ واحد يتنافسون ويتحاسدون ويقعون في أعراض بعضهم لاختلاف جهات زَوَايَاهم واختلاف مقدّميهم الذين لا يَصْفُو لهم الجوّ إلاّ بالتكدير فترى فقراء هاته الزاوية يُضَلِّلُونَ فقراء الزاوية الأخرى ويضلّلون مقدّمها ويشتمونه . وعلى ذلك النمط يجري صنيع أصحاب الزاوية الأخرى معهم : جزاء وفاقا * ومن كانت هاته حالهم صدّقنا مقالة جميعهم في بعضهم .

ولقد سمعت من خواصّ المتوغّلين في الانتساب إلى بعض الطرق المتشبّع فيها بما ليس عنده يصف مُقَدّمَ غير زاويته [27] بأنّه كلب مع أنواع من الشتم [27]
حتّى اضطررت مع عدم تعصّبي لأحد إلى المدافعة عن أحد مقدّمي طريقته التي يصف أبناءها بما يصف . ودافعت عن المسكين بما تقتضيه حقوق أخوّة

الدين . وشتّان بين هاته الحال وبين طرق أولياء الله التي توصل إلى ربّ العالمين وما يجمع المؤمنين على ما فيه خيرهم بعد أن يقوموا بالواجبات الشرعية التي من أعظمها اتّحاد المسلمين وحفظ حقوق أخوّة الدين على منهج الصالحين الذين نبّهوا عليها بألقاب مختلفة مثل الأحباب والإخوان والفقراء والدراويش ونحو ذلك ممّا اراد به الشيوخ رضي الله عنهم ما نبّه الله عليه بقوله جلّ وعلا : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (1)﴾ وأراده النبي صلّعم بقوله : «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يُسْلِمُهُ (2) » وقوله « لا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ (2) » إلى غير ذلك مما يقتضيه التحابب في الله .

وبناء على ذلك فحمل ألقاب الشيوخ على خصوص أحباب الطريقة وإخوانها على معنى إخراج بقية المسلمين الذين هم السواد الأعظم من ذلك التحابب وتلك الأخوّة يلزم عليه تخصيص عموم القرآن والحديث بدون نصّ منهما بل بمجرّد دعوى المدّعي . وليس ذلك ممّا يقتضيه ميزان الشريعة بل إنّ جهلة المنتسبين للطرق يحملون إخوان الطريقة وأحبابها على معنى أخصّ من ذلك ربّما يستروح منه معاداة من لم يكن منهم أو انتقاصه ومبنى الانتقاص ما يراه الواحد لنفسه من ادّعاء الفضل ليس له فيه حجّة من الشرع وسببه الوحيد هو التشبّع بما ليس عندهم . والله يقول : ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ(3)﴾

وقد أخذوا في ذلك بظاهر ما ينقل عن السادة الشيوخ أهل الباطن لترغيب الناس في طرقهم المشرّفة وَنَزَّلُوا أنفسهم في ظاهر تلك المنازل[28]بدون تدبّر [28]
مع أنّ مثل ذلك منه في كتب جميع الطرق كثير ومنه نقل صاحب الرماح في الفصل الثامن والثلاثين في الكلام على فضل أهل الطريقة التجانية في المزيّة السابعة عشرة من أنّ النبي صلّعم سمّاهم أصحابًا فنقل عن الشيخ من أنّ النبي

(1) القرآن : سورة الحجرات ، 49 : 10 .
(2) حديث شريف .
(3) القرآن : سورة النجم ، 53 : 32 .

صلـــعم قال له «كلّ من أحبّك حبيبي وفقراؤك فقرائي وتلاميذك تلاميذي وأصحابك أصحابـي» وقال له «قل لأصحابك لا يؤذونـي بإذاية بعضهم» فصرّح صاحب الرماح بقوله «قلت ولهذا صار أهل طريقته صحابيّين بهذا المعنى» ثمّ صرّح فيما بعد بأفضليتهم كلّهم على أكابر الأقطاب ما عدا أصحاب رسول الله ولم يذكر أحدًا من التابعين فضلا عمّن تبعهم ثم صرّح بأن بينهم وبين الصحابة مناسبة تامّة لأجلها كانوا أكبر من أكابر الأغواث وجعل شاهد ذلك من الشرع غير محصور . ومنه قوله تعالى **(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ** (1) الاية) .

ونحن إذا أمعنّا النظر في جميع هاته الفصول ووزنّاها بميزان شريعة الرسول مع الالتفات إلى كون ناقلها من مؤلّفي العلماء العدول لانمتري في أن مرتبة الصحابة لا يصلها غيرهم ممّن بعدهم بنصّ الشارع . وفي الحديث : (لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ أَوْ نَصِيفَهُ (2)) . وكذا القول بأفضلية التابعين وتابعيهم على ما مرّ. واذا سلّمت هاته العقيدة يبقى النظر في ثبوت الرواية وصحّة النقل والمعنى المراد بما نقل عن الشيخ . ثم بعد تسليم الجميع فلا يَصِحُّ أن يُطْلَقَ معنى الحبيب إلاّ عَلَى التحابب في اللّهِ ولا معنى الصاحب إلاّ عَلَى صحبة الإيمان وهي أخوّة الدين التي جاء بها القرآن في جميع المؤمنين .

وأمّا النهي عن الأذيّة فكل أذيّة حرام وكلّ حرام لا يرضاه رسول الله ولا الشيخ ولا أفراد المؤمنين . [29] وأمّا المناسبة التامّة فإن كانت هي [29]
مناسبة الايمان فهي التي جاء بها القرآن ولا ينكرها أحد غير أنّ الناس فيها على مراتبهم الشرعية . وأمّا الاستشهاد بالآية الشريفة لذلك فهي خاصّة في نفقة الأموال في سبيل الله وليست الطرق من هذا

---

(1) القرآن : سورة البقرة ، 2 : 261 .
(2) حديث شريف .

الباب . ولفظُ الذين ينفقون عامّ في كلّ مؤمن لا يختصّ بصنف منهم فتعميم خاصّها وتخصيص عامّها للحصول على الاستشهاد ليس من السائغ ارتكابه . وأنّ كلّ الغرض من الاستشهاد بالآية عجزها وهو قوله جلّ وعلا : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (1)﴾ فهو عامّ لا يصلح شاهدا لخصوص فضل طائفة معينة على أكابر الأغواث إن لم يكونوا منهم . وقد سبق النقل عن الشيخ كنسوس التجاني بأنّ التفضيل توقيفي لا يُؤْخَذُ إلاّ عن الشارع ولا نصّ في الشرع يقتضي هذا التخصيص الذي حمل الشيخ على إنشاء قصيدة من بيوتها قوله : (بحر الرجز)

يَدْعُوكَ دَاعِي حَضْرَةِ إنْزَالِهَا
فَاقُوا الخُصُوصَ فَكَيْفَ حَالُ رِجَالِهَا

والإقدام على الحكم بفضل الإنزال على الخواصّ شأنه عظيم كيف وتفضيل الخواصّ على بعضهم لم يمكن تحقيقه . والخلاف جرى فيها بين الرسل والأنبياء عدا سيّد المرسلين فهو الذي لا خلاف في أنّه أفضل العالمين. وقد لزمنا بالضرورة التمسّك بشريعتنا والاقتصار على ما جاءت به لنرجع بما يَرِدُ لنا إلَيْهَا ولا نَرْجِع بها إليه .

ونحن إذا رجعنا بما ضمّت روايته نجدها هي القطب الأعظم الذي تدور عليه رحى مقالات كُمّلِ العارفين بالله . وبما أنّ الغفلة من أصول شريعتنا عامّة في المنتصبين للاحتراف بالطرق وقعوا في هاته المزالق العظيمة وأمثالها ممّا لم تصل إلى فهم مغزى ناقلها ولذلك نرى من بعض
[30] خواصّهم فضلا عن عوامّهم [30] من يستدعي غيره إلى طريقته بالخروج من الطريقة الأخرى خروجا يوهم الانتقاص بعد الدخول فيها ولا أقلّ من أن يكون القصد بهذا الخروج حصول جامع الأخوّة بالطريقة ابتعادا عن العداوة باختلاف الطرق وما توجبه من الشحناء مع أنّ أخوّة الإسلام ﴿ قائمة

(1) القرآن : سورة آل عمران ، 3 : 174 .

الأعلام * أثبتها القرآن والحديث الصحيح * وعداوة المسلم وانتقاصه محرّمة بالنصّ الصريح *

وقد أفضى هذا الاستدعاء الذي أريد به الجمع إلى دحض أخوّة الإيمان وتفريق المسلمين فحمل الناس على الإعراض عن طريق الله التي اختصّ الله بها أولياءه لأسرار يعلمها. ولو شاء ربّك لاختصّ الأمّة بطريقة واحدة أو مذهب واحد . وفي ذلك من سوء الأدب مع الله وأوليائه ما لا يخفى إن لم نقل إنّه تخشى سوء عاقبته إن كان بتنفير أو انتقاص تحصل به أذيّة صاحب الطريقة المنتقلة عنها. ومن آذى وليّا فقد آذن بحرب من الله إذ أنّا وإن كُنّا نقول إنّ الشريعة لا تَأْمُرُ أحدًا بطريقة مخصوصة يلزم صاحبها أن يقتصر عليها إلاّ أنّ التنقّل مختلف. ونحن لا ننكر تنقّل الإنسان من عند نفسه إلى حيث شاء من طرق الله ضرورةَ أنّ تنقّل الشخص من عند نفسه ربّما كان لغرض صحيح عنده ليس فيه شائبة تنفير أو انتقاص. كما لا نُنكر أصل الاستدعاء إلى طرق الله لما يرى المستدعي من إرشاد أخيه **وشأن المؤمن أن يحبّ لأخيه ما يُحبّ لنفسه** .

[تمسّك المؤلّف بانتسابه للطريقة القادرية]

وقد اتّفق للعبد الضعيف أن اجتمعت بالشيخ معمّر التّمَاسِينِي بالقيروان عام 1292 (1) وحصلت بيننا ألفة دعاني بها في بعض الأيّام لأخذ الطريقة التجانية فشكرت فضله على ذلك وقلت هكذا : شأن المؤمن أن يحبّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه وأنا أيضا بموجب ذلك أَدْعوك [31] للدخول في طريقتنا القادرية . فاعترف بحقّية ذلك ولم ينقل لي شيئا في إنكار ذلك . [31]

وهذا بخلاف استدعاء المتلبّسين ببعض الطرق إلى خصوص طريقهم والحمل عليه بما يقتضيه موجب الحمل إنْ كَانَ ذلك الاستدعاء لادّعاء

(1) يوافق 1875–1876 .

الأفضلية العامّة عند الله وَإنْ لم يُرِدْ بِـهـَا شرع المعصوم أو حبّ الفساد بَيْن العموم فكلاهما خطّة لا يرتكبها الاّ غافل عن شريعته التي هـي أهمّ الأغراض عند صاحب طريقته والشريعة ليس فيها شيء من تخصيص بعض الطرق .

ففـي **الفتاوي الحامديّة** (1) عن **الحاوي** (2) للإمام السيوطـي (3) مسألة رجل من الصوفيّة أخذ العهد عن رجل ثم اختار الرجلُ شيخا آخر وأخذ عليه العهد فهل العهد الأوّل لازم أم الثانـي ؟ الجواب لا يلزمه العهد الأوّل ولا الثانـي ولا أصل لذلك . هـ. بلفظه .

وهنـا لطيفة ينقلها إخواننـا مـن أهـل الطـرق وهـي أنّ رجـلا كـان من أبناء طريق مولاي الطيّب فتَنَقّلَ للطريقـة التجانيّة فـرأى رسـول الله (صلّـعم) وبين يديه الشيخ التجاني جاث على ركبتيه ورأى نفسه بين يدي مـولاي الطيّب يـلومـه في التنقّل فقـال لـه النبيّ (صلّـعم) «أولَـئِـكَ الّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِـهُدَاهُمُ اقْتَدِ» . هذه صفـة الرؤيـا والنـاس في فهمهـا عـلى قسمين فالطيّبـون يـقـولـون : «إنّ خطـابَ النبـيّ للرجـل بالاقتداء وهو بين يدي شيخه الذي لم يبق مقتديا به يدلّ على أنّ النبـيّ أمره بالرجوع إلى طريقة مولاي الطيّب» والتجانيون يقولون : «إنّ هذا الأمر مراد به الدوام أي على الطريقة التجانية». ونحن إذا سَلكنا مسلك الإنصاف نرجع بالآية الشريفة إلى أصلها وهي نزلت على رسول الله (صلّـعم) . والهداية ثابتة لأهل هذا الدين منذ[32] شرّفه الله وكمّله . وقد مضت عليه في ذلك ثلاثة [32]
عشر قرنا كاملة ثبتت الهداية لجميع أهلها المؤمنين .

فتخصيص الهداية في الرؤيا المنامية بأحد الشقّين يوجب إخراج المؤمنين المهديين في جميع القرون السالفة منها أو أنّهم كانوا على نقص لم يبلغوا إلى

---

(1) الفتاوي الحامدية من تأليف الشيخ حامد الأفندي بن محمد القونوي العمادي المفتي بالروم توفي سنة 985هـ. انظر : سركيس ، **معجم المطبوعات** ، ج 1 رقم 739 .

(2) الحاوي الصغير في الفروع لنجم الدين القزويني ، توفي سنة 665هـ. انظر : سركيس ، **معجم ...** ج 2 رقم 1509–1510 .

(3) جلال الدين السيوطي ولد سنة 1445/849 بالقاهرة وتوفي سنة 1505/911 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 1 ج 601–603 .

استكماله إلاّ بهذه الهداية وفي ذلك خطر عظيم. ولذلك لزم أن نقول: «قول النبيّ عليه الصلاة والسلام في تلك الرؤيا كان إشارة لصاحب الرؤيا بأن يقتدي بكلّ من يختاره من الشيخين لأنّهم جميعا من الذين هدى اللّه وحضورهما مع ذات المصطفى يدلّ على أنّهما من حزب الله. وهذا هو الذي يقتضيه الحكم الشرعيّ السالف. ويوافق المشرب الصوفي أيضا ان كان التنقل من الرجل صاحب الرؤيا كان عن غرض صحيح يدلّ عليه حصول هاته الرؤيا ولا يصحّ والحالة هاته أن ينتصب أحد لإخراج الناس من طرقهم وإدخالهم لطرق أخرى بمجرّد هوى النفس وأولياء الله أولئك الذين هدى اللّه فبهداهم اقتدِ».

[خبر الشيخ إبراهيم الرياحي مع بعض التلاميذ التجانية]

وقد كان شيخ مشائخنا سيدي إبراهيم الرياحي عرض عليه بعض التلاميذ التجانية أنّ أحد تلاميذه الشيخ محمّد ذهب لا يرى التنقّل من طريقة القادرية فاستحسن الشيخ ذلك من تلميذه وقال له: «أجزتك بالطريقة القادرية» فقبلها منه تجديداً رضي الله عنهما. ومثل ذلك وقع للشيخ محمود الحامدي معه في الطريقة الشاذلية وهذه شعار كُمّلِ الأخيار في حفظ حقوق الطرق واحترام أساتيذها أهل الله رضي الله عنهم.

فإذًا كان أخذ طريقة الله يتوصّل بها إلى تنفير الناس من بقيّة الطرق الأخرى أو انتقاصها أو انتقاص أهلها مع العداوة والبغضاء والتحاسد والاغتياب لعباد الله الذين لم يكونوا من أهل [33] طريقته فقد بعد به الشوط عن المقصد وتعرّض لسخط الله بمقتضى النصّ الصريح مع غضب من ينتسب إليه من الأولياء الذين هم أغير الخلق على عباد الله ومحارمه رضي الله عنهم أجمعين.

اللّهم إنّا نعوذ بك من أن نجد في أنفسنا انتقاصا لأحد من عبادك المسلمين أو نرى لأنفسنا فضلا على أحد. ومن كان من المنفّرين هاته حاله إذا وزنت بميزان الشريعة فما هو في قوله وفعله إلاّ متشبّع بما ليس عنده يختال في ثياب

الزور * اختيال الجاهل المغرور * قد غرّته الأماني فانخدع لنفسه بما لم يختبر فيه دُخَيْلاَءَ حِسِّه * ولقد نرى من سريات (1) عدوى هذا الانخداع * ما أفسد الطباع *

[خبر الشيخ محمّد بن ملوكه مع أحد جهلة بعض الطرق]

وقد بلغني عن عالم تونس وصالحها الشيخ محمّد بن ملوكه (2) أنّه قدم إليه أحد جهلة بعض الطرق وكان الشيخ بزاويته وفيها ضريح والده عليه تابوت. فلمّا رأى الجاهل ذلك التابوت امتنع عن الدخول فسأله الشيخ من بعد عن وجه امتناعه فقال له « هناك ذلك الوليّ وإذا دَخَلْتُ نُورِي يُحْرِقُهُ » فلم يتربّص الشيخ به إلاّ ريثما نادى تلاميذه وجمعهم على ذلك المغرور الجاهل وجلدوه تأديبا له مع أولياء الله حتّى لا يعود إلى مثل تلك المذالة الشنيعة التي صدرت عن غاية الجهل والاغترار الذي حصل بالأوهام الفارغة حتّى اعتقد هذا الجاهل المسكين أنّ له نورًا بلغ أنه يُحْرِقُ أنوار الأولياء إذا زارهم فجعل ذلك علّة لامتناعه من الدخول لمزارات الأولياء رضي الله عنهم. ومثل هذا لا يمكن أن يستيقظ من نومة أوهامه إلاّ بضرب السياط * إن أثّرت فيه ألم الأشراط *

ومثل هذا ما بلغني عن العارف بالله الشيخ التجاني رضي الله عنه من أنه بلغه عن بعض جهلة التلاميذ أنّه قال إنّه أفضل من الجيلي رضي الله عنه أوْ مَا هَذَا مَعْنَاه [34] فأمر بجلده وأذنه بالتوجّه لمقام الجيلي في بغداد تائبا. [34]

---

(1) كذا بالأصل.

(2) هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن ملوكة، شيخ الجماعة المتصوفة، عالم فاضل تونسي، له شرح على الدرة في الفرائض، توفي سنة 1860/1276 : انظر : مخلوف، **شجرة النور**، ص 390.

[موقف المؤلّف من فساد المريدين]

وبمثل ذلك تُعرَفُ مقامات الرجال * وإنَّمَا يَعْرِفُ الفضلَ مِنَ النَّاسِ ذَوُوه * وأين هاته الآداب من حالة من نشاهد منهم جميع ما ينافي وجوه الانتساب * نسأل الله أن يبصّرنا بأنفسنا بجاه نبيّه الأوّاب * وحسبي أن أقول إني رأيت من المتشيّعين الذين يفترون على الله كذبا * أنهم يتعفّفون عن زيارة بعض الأولياء المندوبة بدعوى الالتحاق بالمُسْتَمِرّينَ من المريدين بدون خفّ ولا حافر ولا يتعفّفُ الواحدُ منهم عن أكل أموال الناس بالباطل أكْلاً لاَ يَجْتَمِعُ مع نَيْلِ المَدَدِ في بطن واحد بل لا يتعفّف الواحد منهم عن الغيبة والنميمة والكبر والعجب وإظهار المؤانسة بالدعارة على الخنى وغير ذلك من المحرّمات المجمع عليها بَلْ لا يتعفّف عن زيارة محبوبته أو محبوبه من الغلمان * وما يستتبع ذلك من الفسوق والعصيان * الممنوع بنصّ القرآن *

وأين هاته الحال من حالة طالب المدد من المريدين القائمين بوظائفهم الشرعية بين يدي شيوخ تربيتهم في خلوة التعرّف بالله التي يستند إليها هؤلاء المدّعون لو كانوا يعقلون . وذلك أنّ مسألة زيارة الأولياء للمريدين مبسوطة في سائر كتب طريقة الصوفية على حسب ما اشترطها شيوخ التربية في منع طلب المدد.ومبناها على أنّ المريدين(1) يرى شيخ تربيته العارف بربّه السالك به مسالك قربه ليقطع به عقبات الطريق عقبة بعد عقبة على حسب حال المريد واستعداده بعد استكماله في أداء الواجبات واجتناب المنهيات الشرعية .

وحيث إنَّ شيخ التربية في هاته الحالة هو السائس لنفس المريد القائد لها بما له من الكشف والاستطلاع على خَبِيَّاتِهَا وهو متولّي تلقينه [35] على [35]
حسب احتياج حاله فلا بدّ للتلميذ والحالة هاته من الوقوف عند خصوص أمر شيخه ونهيه والانقطاع عن كلّ من سواه لأنَّ دواء مرضه بيد شيخه الذي

(1) كذا بالنص ، ولعل الصواب : على أن المريد : كي يستقيم المعنى .

يعطيه من ذلك الدواء بمقدار حاجته فإذا زاد أو نقص أو غيرّ ما يريده به شيخه لم ينفعه الدواء إن لم يضرّه .

وعلى هذا تقرير الشيخ الشعراني (1) في الأنوار القدسية وسبق من كلام صاحب الإبريز ما يحقّق ذلك . وفي رسالة الشيخ محمّد بن عبد الرحمان الأزهري (2) التي أجاب بها الشيخ علي بن خليفة التونسي (3) ما يوضّح ذلك حيث قال فيها : «وأمّا قولك : أخبرني عن زيارة الصالحين الأموات هل فيها سرٌّ أمْ لا ؟ جوابك أنّ من أخذ بالعزائم للسلوك الكبير لا يزور ميّتا ولا حيًّا ولا يطالع غير كتب طبيبه إلاّ بعد سلوكه . وقد لا يتضرّر بذلك يرعى كالنحْلة في مطالعة مطلق الكتب وفي زيارته مطلق الأحياء والأموات بعد أن عرف الحقائق على ما هي عليه بل يزداد نورا على نور ثم لا نَظُنُّ أنّ نهي الطبيب عن عدم زيارة الغير أراد به الرياسة كما قد يتوهّم فإنّ ذلك مُحالٌ في حقّه وما غرضُه إلاّ مصلحة العليل فقط هـ.» .

فانظر إلى كلام العارفين واحتراساتهم رضي الله عنهم الصريحة في بيان محلّ منع الزيارة ولهذا ترى كتب المشائخ مملوءة بروايات وصاياتهم لمريديهم الذين كانوا في مقام التربية بين أيديهم رضي اللّه عن جميعهم . وهي وصايات لكلّ مريد على حسب حاله بما يراقب الشيخ من أعماله . وهذا يقتضي الوقوف بين يدي الشيخ في حال حياته ليرشده إلى مناهج رشده التي يقطع بها عقبات الطريق . ولا يكفي فيه مجرّد الانتساب إلى الطريقة الشاذلية أو القادرية [36] أو الخلوتية أو غيرها من الطرق المتفرّعة عنها مثل المدنيّة [36]

(1) هو أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحنفي الشعراني من علماء المتصوفة ولد بقلقشندة بمصر سنة 1493/898 وتوفي بالقاهرة سنة 1565/973 من تآليفه : الانوار القدسية في معرفة آداب العبودية . انظر : الزركلي ، **الأعلام** ، ج 4 ص 331—332 .

(2) هو الشيخ محمد بن عبد الرحمان « بوقبرين » الأزهري مؤسس الطريقة الرحمانية من فروع الطريقة الخلوتية المشرقية ، توفي سنة 1793/1208 . انظر : محمد البهلي النيال ، **الحقيقة...** ص 336 .

(3) كذا بالأصل . ذكر ابن أبي الضياف ترجمة علي خليف المتوفى سنة 1816/1232 . انظر : **اتحاف** ج 7 ص 104 .

والرحمانية والتجانية بل لابدّ أن يكون ملقّن الطريقة ممّن يسلك بالمريد مسلك إرشاده ليقطع به عقبات الطريق .

نَعَمْ إن أتَمَّ على يده قطع تلك العقبات ثم انتقل الشيخ الملقّن بالوفاة فيمكن أن يصل به إلى الفتح الرباني من غير احتياج إلى شيخ آخر بخلاف ما اذا كان المريد في مبدإ أمره فإنّه في هاته الحالة محتاج إلى منَ يربّيه في كل آن ليقطعَ به تلك العقبات وهو شيخ التربية الحقيقي الموصّل لنيل المدد . ولذلك ترى في تراجم المريدين رضي الله عنهم أنّهم يتردّدون قبل الفتح على أعْتَابِ الشيوخ واحداً بعد واحد . وقد سبق طرف منه وكلّ ذلك منهم لطلب من يأخذ بزمام ضالّتهم ويقودها إلى الهدى .

وقد وقفت في أجوبة العارف بالله الشيخ محمد بن عزوز (1) وتلميذه القطب الشهير عبد الرحمان باش تارزي القسنطيني (2) خليفة صاحب الطريقة الرحمانية مولاي محمّد بن عبد الرحمان الأزهري على جواب منه لأحد نقبائه هذا نصّه : «وأما سؤالكم عَمَّنْ أخذ الطريقة عن شيخ ثمّ أراد أن يتركه ويأخذ عن غيره فجوابه أنَّ ذلك لا يجوز إلاَّ لمن أراد الوصول إلى اللّه وكان أخذ على غير مُرَبّ (3) ثم وجد المربّي أو مات شيخه المربّي وقصد غيره ليوصله فإنّه يجوز له . وقد قال لي أستاذي إذا متّ قبل أن أسَلِّكَكَ فَاقْصُدْ شَيْخاً غيري وقد سَلَّكَنِي في حياته والحمدُ لله وزادني على الأسماء السبعة غيرها وقال لي : ما تركتك تحتاج إلى شيخ غيري هـ. » .

وهذا الكلام الحرّ صريح في عدّة مقاصد منها بيان محلّ جواز التنقّل من طريق إلى آخر وبه يتّضح أنَّ من الجهل تنقّل المعترين (4) واستدعائهم

(1) محمد بن عزوز هو والد الشيخ مصطفى بن عزوز . انظر : البهلي النيال ، الحقيقة ... ص 338—339 .
(2) انظر بشأنه : البهلي النيال ، الحقيقة ، ص 338 .
(3) بالأصل : مربي .
(4) كذا بالأصل والسياق يقتضي : المريدين .

لذلك وما يوجد من كلام الشيوخ فيه حثّ على التنقّل لطريقهم إنّما
هو خاصّ [37] بأهله ومنها لزوم كون شيخ التربية حيّاً ليسلّكه إذا كان المريد [37]
يريد الترقّي في الخدمة بالمجاهدة للمشاهدة التي يستمدّ من أنوارها الفناء
في التوحيد .

واذا علمت حالة المريد الطالب للمدد بين يدي شيخ التربية فلا يمتري عاقل في أنّها ليست حالة من نشاهدهم يتهافتون على الأخطار تهافت الفراش على النار وهم بين يدي مقدّمي طرقهم يتعاطون اللهو واللعب ولا نزيد شيئا آخر. ولا يعرف المقدّم ولا التلميذ من العقبات الا أنجاد الأرض ولا يعرفون من الطريق إلاّ الأوراد التي يقع عليها الاجتماع إن لم يصحبها شيء من عوارض الامتناع. وهذه بالنسبة إلى المريد الحقيقي أشباح خالية من الأرواح لا يدّعي معها السلوك والمدد إلاّ من جهل طريق الوصول إلى الفرد الصمد فضلا عن أن يتحاشى عن زيارة أولياء الله الذين لا تخلو زيارتهم عن خير تحاشي استنكاف لا يأمن معه المخاف والا فإنّ شيخ التربية طارت به العَنْقَا والمريد الطالب للمدد صار اسما بلا مُسمّى فلَمْ يَبْقَ والحالة هاته فيمن رأينا من المدّعين الا جاهل مغرور خدعته نفسه فانخدع لها وتشهّم بثياب الزور وهو يرى نفسه مع أصول الشريعة واقعة في المهاوي الخطيرة بل الإنسان على نفسه بصيرة .

ومن عجائب الاغترار في الامتناع عن الزيارة أنّهم ينقلون في آداب المريد بين يدي شيخ التربية أنّه إن منعه من فعل المندوب الشرعي فضلا عن المباح يمتثل أمره وما دروا أنّ مبنى ذلك هو تفويض حال المريد لشيخ تربيته الذي ينظر في أعماله نظر الناصح الأمين . ورُبَّ فعلٍ مندوب صاحبه رياء أو غيره من المحرّمات تركه أولى من فعله لأن التطوّع مع المحرّم تركه أولى شرعا
حيث إنّ [38] التطوّع ثواب لا عقاب في تركه والمحرّمات عقوبات بحتة ودرء [38]
المفسدة مقدّم على جلب المصلحة . وهذا بعض سرّ نهي الشيوخ الواجب الامتثال .

ولا يخفى أنّه لا يتناول الا الفرد المنهي لملاحظة حاله فكيف يَصحّ ذلك لغير المنهي بشخصه بل وصفته حيث إنّ المنهي من المريدين بين يدي

الشيخ ونحن لسنا منهم في شيء فكيف نفضّل عدم الزيارة المندوبة شرعًا على تركها بدون سند أو بسند منع غيرنا لمّا اقتضاه حاله مع أنا لسنا في حال التربية بل نتهافت على المحرّمات في جميع الأوقات . ولعمري إنّ من كان مثلنا مستغرقًا في فجور شهواته منهمكًا في ملذّاته لجدير بأن يتمسّك بجميع الأذيال * بحسن النية واعتقاد الكمال * لعلّ الله يأخذ بيده ببركتهم فينقذه من المهالك التي هو فيها وأقلّها تبصرة لما تخادعه به نفسه .

وقد قسّم القوم الانتساب إلى المشائخ وأخذ الطرق عنهم إلى أربعة أقسام : **أحدها** أخذ المصافحة والتلقين للذكر للتبرّك وللنسبة فقط ويصح الانتساب أيضا بالاتباع والمشاركة ولو في شيء يسير مع المحبّة لهم وهذا مصداق قول الشاذلي : «من قرأ حزبنا فله ما لنا وعليه ما علينا» أي ما لنا من الحرمة وما علينا من الرحمة وهذا جاء في كل طريق . **ثانيها** أخذ رواية بقراءة كتبهم من غير حلّ لمعانيها وقد يكون أيضا للتبرّك أو للنسبة فقط . **وثالثها** أخذ دراية كتبهم لإدراك معانيها فقط . **ورابعها** أخذ تدريب وتهذيب وترقّ في الخدمة بالمجاهرة للمشاهدة والفناء في التوحيد والبقاء وهو المراد العزيز وجوده . وعلى هذا معوّل الطرق . انتهى تقسيم **جامع الأصول** . والمتبنّي منّا ظلال (1) التنعّم في المآكل والمشارب والملابس والمنازه والتباهي بمتاع الدنيا والتفنّن في ملذّاتها [39] والانغماس في محرّماتها لا يظنّ عاقل والحالة هاته يجعل نفسه [39]
من أصحاب الأقسام الذي حاله تنافيه عند القوم . ومن طالع كتب القوم في شروط القسم الرابع لم يجد لنفسه غير الانتساب والتبرّك بأخذ الطريق مع التلقين للذكر .

وقد وقفت على جملة في تأليف صاحبنا العالم الفاضل الشيخ محمد المكي ابن مصطفى بن محمد بن عزوز (2) وشّح بها مقدّمة كتابه في الطريقة الرحمانية أستحسن إيرادها هنا لحسن موقعها وهذا نصّها :

---

(1) بالأصل : ضلال والسياق يقتضي : ظلال .

(2) هو أبو عبد الله محمد المكي بن عزوز توفي سنة 1334/1915—1916 . له رسالة في الربع المجيب والسيف الرباني . انظر : مخلوف ، **شجرة النور** ، ص 423 .

«الباب السادس من المقدمة في أسانيد الطرق المشهورة وبيان رجوعها إلى أصل واحد . اعلم أنّ الطرق الموصلة إلى رضَى اللّه تعالى وسُكْنَى دار النعيم كثيرة ولا طماعية لي في إحصاء أسمائها فضلا عن معرفة أسانيدها وإنّما مرادي هنا أن أذكر أسانيد مشهورها ليعرف أنّ أصلها واحد وهو الإمام سيّد الطائفة أبو القاسم الجنيد قدّس اللّه سرّه فهي رحم واحد وأبوها الروحي الإمام المذكور فعسى ينشأ بمعرفة انتظام الكلّ في ذلك العقد الفريد تسليم بعضنا لبعض وترك التعصّب حتّى لا يسلق بعضنا بعضا بألسنة حداد ولا يغلو أحدنا في تفضيل طريقته حتّى يحطّ من الأخرى بل ولا يلتبس بحال الاشتغال لغير طائفته فضلا عن النكر والبغض.وما أوصى الأشياخ بالتنافر وإنّما أوْصَوْا بالمحافظة على الورد والحبّ في الله والبغض لأجله والتسليم وسلامة الصدر من الحقد والحسد واتّباع السنّة وتكثير حزب الله الصالحين. والمؤمنون كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضا . فمن انتسب لهم وخالف فما هو بضارّ من أحد إلاّ نفسه . من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها . قال أبو عبد الله
[40] القرشي رضي (1) اللّه عنه «مَنْ غَضَّ من عارف بالله أو وليّ لله [40] ضرب في قلبه بسهم مسموم ولا يموت حتّى يفسد معتقده هـ.» .

ثم إنّ هذا المخالف أوّل مضرّة تلحقه تغيّر قلب أستاذ طريقته لجعله إيّاه سلّما لكبائر مجمع على الوعيد فيها . وقد قالوا «ويل لمن كان شفعاؤه خصماؤه» . فاللازم الأدب مع جميع الأولياء . سئل أبو حنيفة (2) رضي الله عنه عن علقمة والأسود أيّهما أفضل . فقال : «والله ما نحن بأهل أن نذكرهما فكيف نفاضل بينهما» ؟

(1) هو أبو عبد الله عبد العزيز المعلقي القرشي ، من العباد الكبار كان يسكن بجوار خرابات قرطاجنة بجهة تعرف بالمعلقة ، توفي سنة 1269/668 . انظر : البهلي النيال ، **الحقيقة ...** ص 256–257 .

(2) أبو حنيفة النعمان توفي ببغداد سنة 767/150 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 126–128 .

ثمّ إنّ سائر الطرق فيها العالم والجاهل والناقص والكامل والمفضول والفاضل فالحكم على طائفة بما شوهد من واحد منتسب إليها غير الصواب . والأسلم ردّ علم الحقائق إلى الله تعالى . والداء الأكبر الناشي من تفضيل شيخ بعينه على شيخ آخر أو طريقة على أخرى التفرّق في الدين . وقد قال تعالى : (شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ) إلى قوله (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (1)) وقال تعالى (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا) إلى قوله (فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً (2)) .

ونخشى على أهل التفريق والتفضيل بالتعصّب الدخول في المنهي عنه بقوله تعالي (وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (3)) لا سيّما أنْ كان البعض يزدري بالبعض ويضلّله فيضلّله الآخر ويجهله ويجتهد في إقامة حجج على ذلك للناس والشرّ يجتنب فيقع التناغر والتباغض والتحاسد بين الجميع فإذا الطريقة التي كانت سبب الألفة والتعاضد والقرب من الله أصبحت سببا للفتنة والتخاذل والبعد من الله وما هو إلاّ قطع الرحم الحقيقي وهو الرباني وإثمه فوق قطع الرحم المجازي ربّما يقطع الرحم المجازي لعارض كالمعصية .
وأما قطع الرحم الحقيقي فلا مساغ له أصلا [41] كما قاله حقّي في تفسيره [41]
ولعلّه إلى هذا الرحم يشير حديث « آلُ مُحَمَّدٍ كُلُّ تَقِيٍّ (4) » وقوله « سَلْمَانُ مِنَّا آل البَيْتِ (5) » فالمسلم الكامل إيمانه إذا رأى من يذكر الله ويراجع المساجد وحِلَق الأوراد يُحبّه لذلك ويكره مساءته . وكثيراً ما ينشد الصوفية قول القائل : [بحر الوافر]

(1) القرآن : سورة الشورى ، 42 : 13 . نص الآية : شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .
(2) القرآن : سورة آل عمران ، 3 : 103 . نص الآية : واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا .
(3) القرآن : سورة آل عمران ، 3 : 105 .
(4) حديث شريف .
(5) حديث شريف .

رَأى المَجْنُونُ في البَيْداءِ كَلْبا فَجرَّ لَهُ مِنَ الإحسانِ ذَيْلاَ
فَلاَمُوهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْـهُ وَقَالوا لِمَ أَنَلتَ الكلبَ نَيْلاَ
فقال دَعُوا المَلاَمَةَ إن عَيْنِـي رَأتْـهُ مَـرَّةً فِـي حَـيِّ لَيْلَى

ورحم الله الفاضل عارف باشا حيث قال في المذاهب : [بحر الكامل]

إن المَذاهبَ كالمَنَاهِلِ في الوَرَى وَالناسُ مِثْلَ الوَارِدِ الضَّمْآنِ
وَالنفسُ إن رَوِيَتْ بأوَّلِ مَنْهَلٍ عَنِيتْ بلاَ كُرْهٍ وُرُودَ الثّانِي

فكذلك الطرق كالمناهل والطالبون للأوراد كالواردين ومن ساقه الله لمنهل وحصل مطلبه منه فلا يليق به الإنكار على من استَقَى من غير منهله ولنرجع إلى مقصود الباب وهو ذكر الأسانيد وَمِنَ الله أطلُب العون والتأييد . هـ. محلّ الحاجة من النقل» .

[خبر انتساب المؤلّف إلى الطريقة القادرية وهو في الثانية عشرة من عمره]

قلت : وبما قرّرته من أوّل الاستطراد إلى آخره لم تزل لجنّة الله عقيدة سالمة مع جميع أولياء الله رضي الله عنهم أجمعين . وقد أخذت الطريقة القادرية عن الصالح الشيخ أبي محمد عبد القادر بن محمد البارودي (1) إمام سراية المحمّدية منذ سنة ثمانين (2) ولازمت الورد القادري مع أنّ لي أذكارًا بإجازات وأسانيد أخرى وهي بعض أحزاب الامام الشاذلي ولازمت مغارته الشاذلية كما لازمت الدور الأعلى للشيخ الأكبر وحزب النووي ولم نزل نرى الجدّ يقصر في زيارة مقامات الأولياء أينما كنت متمسّكا بأذيال جميعهم تمسّك التجاء[42]إلى فضلهم رضي الله عنهم . وأنا على يقين مما عليه نفسي [42]
الأمّارة بالسوء التي لم تف لربّها بالقيام بواجباته واجتناب منهياته ولذلك طالما

(1) انظر : ابن أبي الضياف ، اتحاف ، ج 8 ص 73 .
(2) يوافق : 1863—1864 .

امتدحت الأولياء وآل البيت ودعوت بجاههم ونظمت سلسلة الأشراف في قصيدة شهيرة أثبتها في **مسامرات الظريف** (1) . كما أثبتُّ فيه بعض قصائد في مدح الشيخ التجاني وغيره من سادة الرجال .

[خبر رؤيا المؤلّف وظهور صدقها]

ومن عجيب ما رأيت في هذا أنّي كنت في أثناء هذا السفر امتدحت الشيخ الجيلي بأبيات وشطّرت بعض قصيدة البوصيري (2) في مدح الشاذلي وجميع ذلك بقي بمسودته . وفي أثناء إيّابي في ركوب البحر رأيت رؤيا ظهر صدقها . وذلك أنّي لـمّا ركبت من بورت سعيد إلى مالطة كان البحر في غاية الهيجان والفابور تتراكم في وسطه الأمواج ولم يسبق لي مثل ذلك . فكنت استجير في فراشي بكلّ من نستحضره من أولياء الله تعالى فرأيت في الليل ثلاثة أشخاص أنّهم سيّدي أبو سعيد الباجي (3) وسيّدي أبو الحسن الشاذلي وسيّدي عبد القادر الجيلي فشكوت إليهم حال البحر فهوّن عليّ الحال أحدهم وقال لي : « الوصول يكون ليلة الخميس » . بعد أن قال لي : « لو شئت أخذتك وأوصلتك» ولم ندر أيّهم . ومن الغد سكن البحر غير أنّي لمّا سألت القبطان متى يكون وصولنا قال لي : « نصل ليلة السبت لأنّا قد سرنا قليلا بسبب هياج البحر » فقلت له «نرجو من الله أن نصل ليلة الخميس» : ومع إظهار ذلك كان الأمر كما رأيت . ففي آخر ليلة الخميس شاهدنا قناديل مالطة ودخلناها باكرة يومه رضي الله عن جميع أوليائه .

(1) كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف في تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية . وهو كتاب للمؤلف محمد السنوسي يشتمل على مقدمة بها خلاصة تاريخ تونس إلى عهد المشير الصادق باي وخمسة أبواب في تراجم قضاة تونس وأئمة جامعها والمفتيين ولم يطبع من أجزاء الكتاب الثلاثة إلا الجزء الأول ط. تونس 1891/1309 ، 304 ص.

(2) هو محمد بن سعيد الصنهاجي البوصيري المصري ، شاعر أصله من المغرب من قلعة حماد (1212/608–1294/696) له ديوان شعر وأشهر شعره : البردة والهمزية . انظر : الزركلي ، **الأعلام** ، ج 7 ص 11 .

(3) أبو سعيد الباجي ، عالم صالح صوفي ، توفي بتونس سنة 1232/628 ، وهو من أصحاب أبي مدين . انظر : البهلي النيال ، الحقيقة ... ص 231 .

وبعد إيّابي لتونس بنحو شهر اعترضني أحد الخيّرين من أحبابي في طريق البلاغجية فأمسكني ووقف بي عند الحائط وقال لي « رأيت لك رؤيا وهي كأنّك على هيأتك [43] هاته قادم إلى دار الآغة القديمة بتونس [43]
وهنالك أناس كثيرون ينتظرونك فصعدت بينهم إلى مجلس مرتفع وأحاط بك أولئك الجمع فأردت أن أنظر ما تصنع بينهم فلمّا وصلت من ورائهم سمعتك تقول لمن تخاطبهم « وإنّا نحبّ جميع أولياء اللّه ولا نفرق بينهم وقد عملت في سفري قصيدتين إحداهما في مدح سيّدي أبي الحسن الشاذلي والأخرى في مدح سيّدي عبد القادر الجيلي رضي الله عنهما هـ. »

فرأيت صدق رُؤْيَاهُ وتذكّرْتُ عند ذلك قصيدتيَّ اللّتَيْن لم تخرجا من مسودّتيهما وقلت له : «يا سيّدي إنّ رؤياك صادقة فإنّي واللّهِ أُحِبُّ جميع الأولياء ولا أفرق بينهم وإنّ لي قصيدتين لم يعلم خبرهما أحدٌ إلى هذ اليوم فجزاك الله خيرًا في البشارة وإنّي لأرجو من اللّه أن ينفعني بسرّ الأولياء في الدنيا والآخرة » . ومع كون القصيدتين المذكورتين كانتا في حال السفر المتراكم التعب والأشغال أثبتهما معًا تيَمُّنًا بمن مدحتهما رضي اللّه عنهما وعن سائر الأولياء .

أما تشطير أبيات الامام البوصيري في مدح الشاذلي فهو قولي : [بحر الكامل]

أمَّا الإمامُ الشَّاذلي فَطَرِيقُهُ ... طابتْ بِوِرْدٍ منْهُ عذْبِ المَوْرِدِ
وَلهَا مَفاخِرُ جَمَّةٌ قدْ أصْبَحَتْ ... في الفَضْلِ وَاضِحَةً لعين المُهتدِي
فَانْقُلْ وَلَوْ قَدَمًا عَلَى آثارِهِ ... وَاسْلُكْ لربِّكَ مَسْلَكَ المُتَعَبِّدِ
وَتَطَلَّبِ الإمْدَادَ مِنْ إرْشَادِهِ ... فإذَا فعلتَ فَذَاكَ أخْذٌ باليَدِ
أفْدِي عَلِيًّا بالوُجودِ وَكُلُّنَا ... رِقٌّ لَهُ وَنَرَاهُ أكْرَمَ سَيِّدِ
وَهوَ الذي يُحْيِي المُرِيدَ وَإنَّمَا ... بوُجودِهِ منْ كُلِّ سُوءٍ نَقْتَدِي
قُطْبُ الزَّمانِ وَغَوْثُهُ وَإمَامُهُ ... وَهوَ الجَلِيلُ وَعُمْدَةُ المُسترْشِدِ
وَاللّهُ شَرَّفَهُ بِمَا بِهِ قَدْ غَدَا ... عَيْنَ الوُجودِ وَآلَةً لِلمُوجِدِ

[44]سادَ الرِّجالَ فقصرَتْ عن شأوِهِ ... أعْناقُ آمالِ المَجْدِ الأسْعَدِ [44]
فحَوى المَعالي كُلَّها إذْ لمْ تَصِلْ ... هِمَمُ المآرِبِ للعُلى والسُّؤدَدِ
فتَلَقَّ ما يُلقى إليْكَ بنُطْقِهِ ... بالذِّكْرِ أحْكَمَ من عُقودِ زَبَرْجَدِ
فُتِحَتْ إليْهِ خزائنٌ فَدُعاؤهُ ... نُطْقٌ برُوحِ القُدْسِ خيرُ مُؤيِّدِ
وإذا مرَرْتَ على مكانِ ضريحِهِ ... رَوْضِ القُلوبِ ومرْتَعِ المُتَوَدِّدِ
أبْصَرْتَ منْ سرِّ الإلهِ أزاهِرًا ... وشَمَمْتَ ريحَ النَّدِّ من تربٍ نَدي
ورأيتَ أرْضًا في الفلاةِ بخُضْرَةٍ ... يَخضرُّ منها يابسُ القلبِ الرَّدي
ولها جواذبُ للإلهِ قدِ اغْتدَتْ ... مُخْتَصَّةً منها بقاعِ الفرْقَدِ (1)
والوَحْشُ آمنَةٌ لدَيْهِ كأنَّها ... لاذَتْ بجانبِهِ المنيعِ الأبْعَدِ
أمِنَتْ وأمِنَ منْ أذيَّتِها كأنْ ... حُشِرَتْ إلى حَرَمٍ بأوَّلِ مَسْجِدِ
ووَجدتَ تعظيمًا بقلبكَ لوْ سرَى ... في مَيِّتٍ أحْياهُ بعْدَ تعَدُّدِ
ولوْ أنَّ ذاكَ السِّرَّ يَسْري نُورُهُ ... في جلمدٍ سجدَ الورَى للجلمدِ
وقال السلامُ عليكَ يا بحرَ النَّدَى المَـــــهْمي (2) جواهرُهُ بجودٍ أجوَدِ
إني ظمئتُ وأنتَ أنتَ المنْهَلُ الطَّـــــامي وبحرُ العلمِ أكرمُ مرْشِدِ

وقد خمّست أيضا هذا التشطير تخميسا ضلّت (3) عنّي مسودته .

وأما **الأبيات القادرية** فهي قولي : [بحر البسيط]

مَن ضاقَ عنه لأمرٍ مَسْلكُ الحيلِ ... فما لهُ غيرُ عبْدِ القادرِ الجيلي
فهوَ السَّريعُ لما يُدْعى إليْهِ إذا ... ضاقَ الخناقُ على من ضلَّ في السُّبُلِ
فنادِ باسْمِهِ فيما عزَّ مدْرَكُهُ ... تلقَ العنايةَ قد جاءتْكَ بالأمَلِ
غوْثٌ يُغيثُ الذي يدْعوهُ مُنْتصرا ... بغايةِ الحزْمِ إذْ يأتيهِ عنْ عجَلِ
فما تريَّثَ عنْ إدْراكِ نائبةٍ ... حلَّتْ بكلِّ فتًى ناداهُ مُبْتهلِ
[45]ولا أطالَ بحلِّ المُعضلاتِ فكمْ ... به المهُولاتُ هانتْ دونَ ما جدَلِ [45]

(1) بالأصل : القرقد .
(2) المهمي : من همى الدمع : سال .
(3) بالأصل : ظلت .

وَهاتِه آيةُ النَّصْرِ فيه قدْ سَطَعتْ ... مِنْ سرِّه إذْ سرَى في سائرِ القُلَلِ
إذْ ليس يُنْكِرُها إلاّ فتًى عَمِيَتْ ... منه البصيرَةُ وَارْتدَّتْ منَ الكَلَلِ
فمَنْ به لاَذَ لاَنَ الصَّعبُ في يَدِهِ ... وَبانَ عِنْدَهُ سرُّ العِلمِ وَالعَمَلِ
وَنالَ خيْرَ الأماني مِنْ مَقَاصِدِهِ ... بغايَةِ اليُسْرِ إذْ يعْنو لهُ الجِيلِي

[مناظرة المؤلّف مع أحد معاصريه في مسألة الأفضلية بين الأولياء]

وبعد أن تَمَّمْتُ تحرير هاته المسائل شاركت فيها كثيرًا ممن يوثق بعلمه ودينه . ولم يختلف في صِحَّتها رجلان سوى أن بعض الناس استدعاها منّي . فبلغني وقوع نكير ممن ليسوا في العير ولا في النفير . ثم فَاوَضَنِي مستدعيها في بعض مسائلها . وما كان غير بعيد حَتَّى ورد إلّي مكتوب المستدعي المذكور بين تقريظ وتنبيه وإنذار يؤذن بالاعتراض في مسائل مستكملة التحرير . فأقحمت على المكتوب كلمات يحصل منها الجواب جعلتها عنوانا للمباحث التي يلزم أن نكتبها في إجابة المكاتب . وهممت بتحرير رسالة له في الغرض . غير أنّي تبيّنت من كلامه أنَّهُ لم يطّلع على ما اعترضه الاطلاع الشافي وكأني رأيته اعترض ما سمعه على ألْسِنَة غلاة بعض الطرق وترك ما بين يَدَيْه . وعند اجتماعي أيقنت بما تبيَّنته حتّى احتجت أن طلبت منه الاجتماع على إعادة النظر على المسائل المذكورة من هذا التحرير بمحضر العالم المنصف الجليل حبيب الجميع الشيخ المكّي بن عزوز .

فعقدنا لذلك مجلسين أحدهما كان في منزلي والآخر في منزل المكاتب وأعجب ما رأيت منه حرسه الله أنّي في أثناء ذلك سألته في مسألة تفضيل
[46] الصحابة والتابعين عمّن عداهم بقولي: «هل يسوغ [46] لنا أن نعتقد أن الشيخ سيدي أحمد التجاني رضي الله عنه أو من كان من أضرابه في الصلاح والفضل المشهور أفضل من أويس القرني (1) سيّد التابعين» . فما تريّث أن قال لي:

---

(1) انظر أعلاه ص : 17 تعليق رقم 4 .

«وأيّ مانع من ذلك» مع حسن الظنّ به في كلامه فأعدت عليه كلاماً هو مسطّر في التحرير السابق مع بيان العقيدة الأشعرية في مسألة التفضيل . وفي مَجْلِسَي الاجتماع سلّم جميع المسائل وتنقّل إلى قصد النصح لاتّقاء من وصفهم بالتعصّب والجهل . فأعلمته بما كتبته على مكتوبه وما قصدته من إجابته . وسردت عليه نفس عنوان المباحث التي كتبتها على مكتوبه . وعند ذلك سلّمته إليه بما هو مكتوب عليه ليتولّى تمزيقه حيث إنه لم يصادف محلاّ . كلّ ذلك بمحضر الحكم وانفصل الموطن على ذلك .

لكنّه حرسه الله ما كان منه إلاّ أنّه حافظ على مكتوبه وبلغني خبر الاطّلاع عليه من بعض الخاصّة . فأيقنت أنّه لا يرى كتم نصيحته وخشيت أن نكون ممّن يبخس الناس أشياءهم . فرأيت أن نثبته ممزوجا باقحاماته بالقلم الأحمر [هي بين ظفرين هنا] المغنية عن إطالة الكلام سيّما ممّن طالع أصل المسائل من هذا التحرير الذي قصدت به هداية الجاهلين بإخلاص النصيحة لله ورسوله حيث رأيت خروج كثير من أصحاب الطرق إلى ما تصرّح ألسِنَة ثقاتهم بإنكاره مع اعترافي بكمال الشيوخ وتنزيه مقالهم ومقامهم عن كلّ شائبة . كلّ ذلك لرجاء الدخول في خدمة طرقهم الهادية والتمسّك بأذيالهم والتعلّق بطلب رضاهم . والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل .

وهذا نصّ ما كاتبني به بلفظه :

«الحمد لله وصلى الله على سيّدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

النبعة الناجحة * والبغية الصالحة * والحسنة الراجحة * [47] لا زالت فضائلك متناسقة * ومكارمك متسابقة * ومآثرك في مهاب الثناء عابقة * [47]

أما بعد إهداء السلام وأكمله * فإنّه بلغني كتابكم الكريم * مطمح البراعة وملمح التكريم * مصحوبا بما حضر من رحلتكم الحجازية * الشاهدة لمحرّرها بأن الفضل أصبح ملاكه والحجازية * واذا هي ملء العين وخُبّة (1) الفطانة

---

(1) الخبة : مستنقع الماء ، بطن الوادي .

وَعَبيّة (1) الفؤاد وعبو (2) الوطاب . حسنا وإحسانا وإصابة وافادة * بل هي الواسطة الوقادة * ومنشودة القادة * لاغرو وهي رُشمة (3) من إنتاجك * ونفحة من روض ابتهاجك * وقد أحاطت بغرائب تعزب عن الإحاطة * وتولي المطالع ما لم توله الإحاطة * إن وازنت فرائدها نابت على فرائد القلائد * وبرزت مما استجمته من سلسال الفوائد * التي بها تنتلج معاقد العقائد * وطالعت تحريركم الذي جعلتموه صدر خاتمتها ومن فوائده مسألة الزيارة ومسألة التفضيل ومسألة الصحبــة .

أما الأولى فإن ما جرى بيننا فيها من المفاوضة الشفاهية * أغنى عن المفاوضة الكتابية * إذ قرار الأمر فيها أنّ زيارة التعظيم من الأمر المطلوب المرغوب وبها تتواصل الأرحام الدينية * والعدول عن ذلك من السمات الدنية * وكُتُب أهل الطريقة التجانية وغيرها طافحة بذلك (بودّي تعيين محلّ من كتاب معيّن نهتدي به كمسألة من كتب التجانية وبعد تعيينه ينبغي أن يهتدي إليه أهل الطريق) وليس إلا إليها الموئل وعليها المعوّل .

وامّا مسألة التفضيل فانه وان كان توقيفيا (أي ما ورد من الشارع قبلناه وما لا فلا بلفظ كنسوس) فهل يرى جنابكم أن يلتحق بالتوقيف خبر من اشتهر بالعدالة الدينية * والسعة العلمية * [48] وظهرت له كرامات * وأشرقت منه أنوار [48]
البركات * (هذا معنى جديد للتوقيفي لانتجاسر على إثباته في الدين والكمالات البشرية غير محصورة في فرد ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) عن نفسه أو عن غيره بولاية باطنية * أو مزية ربّانية * (لا نزاع في مجرّد الولاية والمزايا إنّما الكلام في المزيّة العامّة في تفضيل شخص بعينه على جميع من عداه من الأولياء رضي الله عن جميعهم) وليس من تزكية النفس أن يصف الإنسان نفسه بما هو بصدده إذا جهلت منزلته (لا نزاع في هذه

---

(1) العبـي : النصيـب .
(2) العبـو : الثقـل .
(3) الرشمـة : سواد في وجه الضبع .

المسألة) لا سيّما إذا أسند ذلك إلى رسول الله صلّـعم وهذا من أكابر الأولياء كثير من كثير سلفا وخلفا (ليس بك من حاجة لهذا التكثير) .

لا جرم أنّ محكّ هذا الخبر وسبارغوره إنّما هو حسن الظنّ بالمخبر (إحسان الظنّ لا يستلزم تعيين مراد سيّما ان كان مصادما لوجه الاعتقاد ويكفي التفويض مع اعتقاد الكمال) ومردّه إلى اعتقاد الصدق (الصدق صفة للفظ وأما المعنى فيلزم الرجوع به إلى أصل الدين) بل أوجب منه إلى غيره وبذلك يكون كالتوقيفات المكنوفة بالتسليم (هذه توقيفات غير معروفة في الشريعة وكلام الشاطبي والقرافي في النقل عن النبي بعد انتقاله كاف) المحفوفة بكمال الاعتقاد (لابدّ من اشتراط أن لا يكون فيما يؤدي لمعارضة الأحكام الشرعية) ومن عدل الخبر هذا المخبر عن حسن الظنّ إلى سويّه (مع وجوب المحافظة على أصول العقائد الدينية في وقت حسن الظن فيحصل حسن الخلق بتفويض المعنى المراد) فقد عدل بنفسه على اتّباع الصراط السويّ (رويدك [49] يا أخي [49]
وأنزل الكلام منازله فللناس أقلام) وباء بالإذاية (نعوذ بالله من سوء المقاصد والله عليم بذات الصدور) وباتّباع المتشابه (لا يلزم اعتقاد معنى كلام الشيوخ حتّى يكون من المتشابه والشارع لم يمنحنا بما تعي العقول به) إذ ما من وليّ وهو يحدّث بنعمة ربّه عليه شكرا وتعريفا وترغيبا فيما ناله لينيله (هذا بعض أحوالهم ولا محلّ لذكره) وبهذا لم يبق للمقبل على شأنه (وخير منه المقبل على دينه) إلا التسليم (لا في عقائد الدين) الذي هو سنن الوصول ومحمل مقالات أولئك الفحول (وهم رضي الله عنهم أحرص الناس على حفظ الدين ووزن كلامهم بميزان الشرع) .

وتذكر حرسك الله تعالى ما أبداه الطيبي (1) (لا شاهد فيه على تفضيل أحد الذي هو موضوع المسألة) في حديث « أمَّتِي كَالمَطَرِ »

(1) انظر أعلاه : ص 18 تعليق رقم 2 ..

فان التوقُّفَ في خبر من اشتهرت ولايته بفضل أو مزية أحقّ بأن يكون من مشمولاته إن لم يكن من أوليائه وإني لمتوقّف في ذلك إذا تواردت عليه أقوال سلفهم وخلفهم (ولم يكلّفنا الشارع بتعيين معناها فمن التزم التعيين فقد باء بِتَسَاهُلٍ ليس من الدين) فإن غَيَّرَ على وَاحِدٍ (معاذ الله) منهم بسوء الظن (وبعض الظنّ إثم) أحرى بأن يجهر بالإنكار (الإنكار ما أنكره الشارع أو لم يرد عنه من التوقيفات) فقد نثر عقدا موضونا (1) (ولاشكّ أنّ أحسن الاعتقاد في جميع الأولياء أجمع لكلمة الدين ودعوى تفضيل أحد بعينه على من سواه هو الذي أوجب الاختلاف ودعا إلى التفريق) ونكث عهدا كان عند الله مضمونا وَ(مَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) (2) .

وأما **مسألة الصحبة** فان قول صاحب الرمّاح فيما نقلتموه عنه في المزية
[50] السابعة عشرة من الفصل الثاني [50] والثلاثين ولهذا صار أصحاب طريقته صحابيين وإن لم أطلّع عليه أين ذكرتم (هو كما ذكرنا في السطر الثالث من الصفحة سبعين من الجزء الثاني) فإني وإيّاك والمسلمين لنحاشي صاحب الرمّاح (نعم وَذَنُّكَ (3) هو الحامل على شرح كلامه خشية ما يتبادر إلى الأذهان من النكير عليه) وننزّه مقامه العلمي الديني أن يكون قوله ذلك على ظاهره هو بطانته وعقده كلا (حاشاه أن يقول خلاف ما يعتقد) وكذلك قوله بأفضلية التجانيين على أكابر الأقطاب وهل يفضل أكابر الأقطاب إلاّ الأفراد ومفاتح الكنوز ونحوهم (هذا ردّ على صريح كلامات الرمّاح المنقولة ونحن وقفنا عند حمل كلامه على معنى لا يدعو للردّ عليه) كما صرّح بذلك أهل الكشف الصحيح .

وبالجملة فإنّ المحامل الصحيحة وضروبَ التأويل لا ينبو عنها كلام صاحب الرماح (ومع كون لفظه نصًّا حملناه على محمل صحيح) وغيره من

---

(1) موضونا : منضدا من وضن : نضد .
(2) القرآن : سورة الفتح ، 48 : 10 .
(3) ذن يذن المخاط : سال – ذن يذن : صار يسيل مخاطه : انه ليذن : انه لضعيف هرما .

العلماء فضلا عن الأولياء . فيسعنا معاشر المتأخرين ما وسع جماهير المتقدّمين (وقد وسعهم حفظ عقائد الدين مع القيام بتعظيم جميع أولياء اللّه من غير تعيين فاضل من مفضول فيسعنا اعتقاد فضل جميعهم ونفوض التخصيص لخالقهم سبحانه وتعالى) ولولاها ما سلم قيل في كلّ قيل وقد اكتفيت في محادثتك بالاشارة دون العبارة وتحاشيت عن البسط وجلب كثير من الأدلّة والنقول علمًا بما لك فيها من علم .

والذي أراه أيّها الحلم رأيا . وأنتحيه للنصيحة سعيا . والله بظاهر مجاملة . وباطن مناصَحة . لا أمرًا ولا نهيًا أن ننزّه صحائف رحلتكم المحرّرة (نظنّ أنّ تحرير المسائل العلمية ليس نقيصة تنزّه عنها الكتب) عن ان نسمّيها بمثلبة عرض (معاذ الله أن يسمّى الكلام في [51] المسائل أو ردّ [51]
الأغاليط مثالب أعراض وكتب أهل الدين مملوءة بها) ارتحل مبرمها بنقض كيف والكلام هذف (1) وأين المستبين في وجه السدف (2) (صدقت وهذه حجّة الصدق) والأغراض لا تتناهى والقواعد المعلومة قد يعتريها ما به تتواهى (ولا يقصد توهينها الاّ من يريد إفساد الدين (**وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ**) (3) وبتناثر الباحث تستأسد الذباب (اذا يَلِجُّون لَجاج الخنفساء) ويستنسر الذباب (النعل لهم حاضرة) ويطوى على أحقّ كتاب (ابشر بطول السلامة يا مربع) .

على أنّي أقول إنّ غلوّ العامّة والخاصّة وسريان الحميّة بينهم (حميّة الجاهلية) إلى حيث نبذوا حاشاك الإنصاف ظهريا * والدين قائم على كلّ حال وجعلوا اليقين ظنيًّا * وركبوا من الأغراض ظهرا بريا * هم راكبون متن عَمياء لا يركب مركبهم إلاّ مثلهم وهو المفضي إلى لجّة هذا الخلاف * والملقي في مهامه الاعتساف . والأحرى باللبيب هو العدول بظاهر الأقوال عن شمال

---

(1) هذف : أسرع . رجل هذف : سريع حاد .
(2) السدف : الظلمة .
(3) القرآن : سورة التوبة ، 9 : 32 .

الإيهام * إلى يمين الإفهام * وانتشالها من مضايق الأوهام * إلى سعة محاسن القبول * وأحاسن المحامل حتى تقبلها خاصّة وعامّة الأنام * وتجعلها في ضمائر الإسلام * والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل وأسأله سبحانه هداية تغفر الوزر * وتشرح الصدر * بمنّه تعالى والسلام من مجلّ قدركم وحافظ ودّكم فلان الفلاني عفى عنه بمنّه آمين في ذي الحجّة سنة 1301 (1).

(1) يوافق : أكتوبر 1884 .

عصمت أفندي

هو الشيخ عبد الصمد عصمت بن سليم بن محمود بن ولي أفندي من بيت [52] أصيل في الآستانة كان جدّه محمود ولي قاضياً في ألامَاسِيَا من بلاد الترك وكذلك سليم ولي خطّة القضاء . [52]

وولد عبد الصمد عصمت سنة أربع وثلاثين ومائتين وألف (1) في بيلدرباى من الأناطولي بالآستانة وقرأ الفقه والعلوم الآلية وله يد في التوثيق . وولي أولا خطّة كتابة الأوقاف بالآستانة . ثم صار مدير أموال الأيتام . ثم ارتقى إلى خطّة المميّز الثاني في إدارة الأوقاف . ثم صار مميّزًا أولا . وأقام في خدمة الأوقاف نحو الأربعين سنة . وكان انفصاله من خدمة الوقف سنة سبع وتسعين (2) فنال رتبة مدرّس دورية ثم رتبة قاضي أدرنه .

وعند دخولي إلى الآستانة في شهر رَمضَان سنة تسع وتسعين (3) تَعَيَّنَ لمباشرة القضاء بالمدينة المنوَّرة في السنة الموالية . فتصاحبت معه في السفر على وجه المرافقة الاجتماعية من مبدإ الخروج من الآستانة إلى الانفصال من زيارة المدينة . وكان بمعيّتنا في المرافقة الشيخ عمر فهمي من الأرناووط . وهو عالم

---

(1) يوافق 1818–1819 .

(2) يوافق : 1879–1880 .

(3) يوافق : جويلية 1882 ..

مشارك في كثير من الفنون باشر خطّة القضاء بطرابلس فأحسن اللسان العربي وترجم **إظهار الحق** للشيخ رحمة الله (1) إلى اللسان التركي . وخرج من الآستانة قاضيا بمكّة المشرّفة .

[خبر الشيخ محمّد التميمي التونسي وأستاذه الشيخ محمد السنوسي جدّ المؤلف]

ومن كان بمعيّتنا من علماء الترك الشيخ عمر لطفي وهو عَالِمٌ مُحَصّلٌ درّاكة يحسن اللسان العربي وصاحبنا في السفر من الآستانة حيث ولي خطة التدريس بالمدرسة المحمودية بالمدينة المنوّرة . وكلّ من العلماء الثلاثة المذكورين قرؤوا على كثير من علماء بلاد الترك ومن خاصّة شيوخهم الشيخ محمّد التميمي التونسي (2) حيث إنّه كان مقيما بالآستانة في نشر العلم .

[53] أخبرني المدرّس المذكور أنّ شيخهم [53] التميمي كان كثير الثناء على الشيخ مَحمّد السنوسي أستاذه بتونس يعني المَوْلَى الجدّ عليه رحمة الله (3). وممّا أخبر به عنه أنّه كان يقرأ عليه **الألفية** فعرض في أثناء الدرس التمثيل بآية (**إنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ** (4)) قال فقلت للشيخ السنوسي: «كيف ذكّر الخبر مع أن المبتدأ مؤنّث» . فإذا هو لم يُجبني ومضى في تقريره فظننت أنّه توقّف في الجواب . وأعجبت من السؤال . وبعد انتهاء الدرس خرجت مبتهجا بالسؤال . لكن من الغد كنت في الجامع فرآني الشيخ فأشار إليّ وقال لي : «إنّي بالأمس لم أجبك في الدرس سترًا

(1) الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمان الهندي ، هو مؤلف كتاب اظهار الحق في مسألتي النسخ والتحريف اللتين جرى فيهما المناظرة بينه وبين قسيس ، انتهى من تاليفه سنة 1864/1280 . انظر : سركيس : **معجم المطبوعات** ، ج 1 رقم 929—930 .

(2) الشيخ محمد التميمي ، عالم فقيه توفي سنة 1846/1263 . انظر : **اتحاف** ، ج 8 ص 65 .

(3) هو الشيخ محمد السنوسي الكافي جد المؤلف ، ولي قضاء الجماعة بتونس وتوفي سنة 1839/1255 انظر : **اتحاف** ، ج 8 ص 41 ، انظر أيضا ، مخلوف ، **شجرة النور** ، ص 386 .

(4) القرآن : سورة الاعراف ، 7 : 56 .

لحالك وإلاّ فكيف تسأل عن مسألة أوضحتها لكم في صدر الدرس فكأنّك كنت غافلا عن جميع التقرير ». قال وأعادها لي فأخجلني بعد أن كنت معجبا بنفسي . رحم الله جميعهم .

[استطراد في ترجمة عصمت أفندي]

وقد كان اصطحابي لقاضي مكّة ومدرّس المحمودية في طريق البحر خاصّة . أما قاضي المدينة فكان سفرنا جميعه سويّة . نعم عند الإقامة كنت أختار الانفراد بالمنزل وهو من أحسن مَنْ لاقَيْتُ من الترك ديانةً وصيانةً ملازم لتلاوة القرآن وثروة يظهر بها نعمة الله عليه . معرفته باللسان العربي قليلة . يظهر من حاله أنه عارف بالنوازل الفقهية والقوانين الدولية والأمور الإدارية . اختصّ بحسن المعاملة والتواضع والحزم مع علوّ الهمة التي آثرته بها للمرافقة . فإنّه لمّا دخل المدينة المنوّرة عامل جميع أهلها بغاية التواضع وباشر خطّته بلين وأعطى إعلاما بأنّه لا يأخذ شيئا من معلومات النوازل على أهل المدينة وهو مقدار عظيم يقتضيه قانون الخطّة سيّما في المواريث فخلّد بذلك لنفسه ذكرًا حسنا جزاه الله خيرًا .

وقد استصحب معه في هذا السفر جميع أعضاء عائلته وكان ابنه محمّد علي [54] باي في رتبة التدريس وهو دون العشرين سنة له مشاركة في [54]
الفقه والنحو والصرف والتوحيد يتوقّد ذهنه ذكاء وله أدب في أنفة عجيبة . وقد اختصّ بمزاملتي على البعير في جميع درب المدينة المنورة وهنالك اعتراني ضعف كان لي معه أحسن أنيس . وأبرّ جليس يؤثرني في كلّ غرض . ويبادر بنفسه إلى كل ما عرض . بحيث كان لي بمنزلة الابن الأبرّ . وبمعيتهم صهرهم من خلفاء كتّاب الوزارة الخارجية في الباب العالي بالآستانة وهو عبد الباقي بن محمّد راغب بن محمّد أمين القرجي كان محمّد أمين توجّه لعمارة الحرم المكّي على عهد السلطان محمود وتوفّي بها نحو سنة ثلاثين(1)ونشأ ولده محمّد راغب

(1) يوافق : 1814–1815 .

في سراية أندرول ثمّ اختصّه السلطان عبد المجيد (1) بخدمة سرايته ورقّاه إلى رئاسة وقّادي الشموع ثم إلى رئاسة القرناء . وخرج مفتّشا إلى بغداد وارتقى إلى الرتبة الثانية ثم أصابه فالج عطّله ستّ سنين وتوفّـي سنة 1286 ستّ وثمانين ومائتين وألف (2) .

وكانت ولادة ولده عبد الباقي سنة سبع وسبعين ومائتين وألف (3) وقرأ بمكتب الرشدية ثم المحمودية ثم أجيز بالدخول إلى المكتب العمالي وهو مكتب مخرج الأقلام فقرأ به ثلاث سنين وفي سنة 1294 اربع وتسعين (4) دخل إلى قلم الحقوق فاستمرّ أربع سنين ودخل في خلفاء كتّاب الوزارة الخارجية ورافق والد زوجته إلى الحجّ . فكان في رفقتنا . وعند انتهاء الزيارة تصاحبت معه برفقة الاشتراك التامّ مع الركب الشامي إلى أن بلغنا بيروت ففارقني منها بالتوجّه إلى الآستانة .

وهو أكتب فصيح الألسن بالتركى والفارسي والفرنساوي وأحسن اللسان العربي في أشهر ترافقنا له . فكر سيّالٌ . ونباهة تامة إلا أنّ القوة الخيالية غالبة [55] عليه وكثيرًا ما يُخبرني بأنّه قد تَنَعّم بِأوْهَامٍ يَتَخَيَّلُهَا . وَلِذِهْنِهِ في لطائف المعاني آية معجبة يحفظ من رقيق أشعار الألسن التي يحسنها ما راقني إنشاده في السفر وهو يحسن الشعر التركى زيادة على كمال براعته في الإنشاء وسيلان قلمه في الإرساليات . [55]

وقد كتب أبياتًا من الشعر التركي يَقْرِضُ بها قصيدتي التي في المخترعات الجديدة (5) يُنْبِي برقّتها على سحاب فكره الهطّال . وقد

---

(1) السلطان عبد المجيد (1238/1823–1277/1861) انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 77 .

(2) يوافق : 1869–1870 .

(3) يوافق : 1860–1861 .

(4) يوافق 1877–1878 .

(5) قصيدة المخترعات الجديدة : انظر : الجزء الأول من الرحلة الحجازية ، تحقيقنا طبعة ش. ت. ت. تونس 1976 ، ص : 108–136 .

ترجمتُها بإملائه إلى العربي . وها أنا نذكر هنا الأبيات والترجمة وهي (من بحر الرمل)

عَالِـمٌ وَفَاضِلٌ دَانَاي مَعَارِفْ بَرْوَرْ
شَيْـخِ سَنُوسِـي أدِيـبْ فَيْـلُ هُنَرْدِهْ رَهْبَرْ

قاعدة اللسان التركي أنّه لا إعراب فيه وجميعُه مسكّن الآخر والواو العاطفة لا ينطق بها إلا بإشمام ما قبلها دَانَاي عريف برفر حافظ خيل جماعة هنر معرفة ده في رهبر خبير . المعنى فلان عالم فاضل حافظ المعارف أديب خبير في أهل المعارف

أيْلَدِي عَصْرِ أخيرْ مُخْتَرِعَاتِكن تَوْصِيف
شو قَصِيده ايلَه كِه هَرْبَيْتِي عَجَبْ مُعْجِزْ أثَره

أيْلَدِي فعل عصر أخير العصر الجديد مخترعاتك الكاف علامة إضافة لما قبله وتقرأ على صورة نون التنوين توصيف مصدر أيلدي شو هذه قصيده ايله مع قصيدة بها كه التي وتقرأ كافًا مكسورة فقط هر كلّ بيتي بيوته والياء علامة الاضافة عجب معجز أثر أثر معجز عجيب المعنى وصف مخترعات العصر الجديد بهذه القصيدة التي كلّ بيت منها أثر معجز غريب [56] [56]

كَجْدِي فَرْسَخْلر ايلَه هَبْ شَعَرَايِي الْحَقْ
ايْلَدِي وَادِهِ سَبْقِـي صانْ فقونَلَرلَهْ كُزَرْ

كجدي تجاوز فرسخلر علامة جمع أي فراسخ ايله مع بمعنى الباء هب كل شعرايي الشعر مفعول تجاوز والياء علامة التعريف الحق حقًّا أيْلَدِي فعل واده سبقي ميدان المسابقة (1) صان ظاهر فقونلر فقونات عربات الشمندفير له مع معنى الباء كُزَرْ مصدر بمعنى قطع المسافة معمول أيلدي . المعنى تجاوز بفراسخ جميع الشعراء حقا وبالظاهر قطع ميدان السباق بعربات طريق الحديد.

---

(1) المسابقة : كلمة أضيفت بالطرة في الاصل من خط المؤلف .

بَرْق فِكْرِي آنِ وَاحِدْ دِهْ مَكاني بي بِتُون
تِلْغَرَفْدَنْ دَهَا سُرْعَتْلَهْ كَزَرْ سَرْتَاسَرْ

بَرْقٍ فِكْرِي برقٌ فكره ده في أي في آنٍ وَاحِدٍ بي علامة مفعولية ما قبله لكن والآتي بتون جمع تلغرافدن من تلغراف دها علامة تفضيل لما بعده سرعة له مع سرعة كَزَرْ أتى على الجميع سرتاسر من الأول إلى الآخر . المعنى برقٌ فكره في آن واحد أتى على جميع المعاني من أولها إلى آخرها أسرع من التلغراف .

أوْلَهْ جَقْ شَهْرَتِي آوَازَهْ سي بُوشِعْرَايلَه
تَلِفُون فَمِ عَالَمْ دَهْ كوزَلْ بِرْزيرَوْ

أوْلَهْ جَقْ فعل مستقبل مؤكد معناه يكونَنَّ شهرتي شهرته آوازه سي صدا به بو هذا شعرايله بشعر تلفون فم عالم ده في تلفون فم العالم كوْزل احسن بر واحد زيروزينة . المعنى ليكوننّ صدًى شهرته بهذا الشعر في تلفون
[57] فم العالم أحسن زينة [57] .

صانما سوداء مركب طبق كاغد ده
شامة فكر جديده له نفيس برعنبر

صانما لا تظنّ سوداء مركب مركب السوداء طبق كاغده في طبق كاغد شامة فاعلة من الشمّ أي قوة شامّة والهاء تقرأ بصورة الهمز له علامة تفضيل وتعجّب ترجع لنفيس بر واحد عنبر الطّيب الأسود المعروف . المعنى لا تظنّ في طبق الكاغد مركب السوداء بل هو لشامة الفكر الجديد أنفس عنبر .

الشيخ محمد الأدهم

هو الشيخ أبو عبد الله محمد إسحاق بن علي بن محمد بن عبد الرحمان بن أحمد بن صالح بن منصور الإسحاقي الأدهمي الطرابلسي الشامي من أبناء الشيخ إسحاق بن إبراهيم بن الأدهم حبّذا من بيت علم وصلاح * وفضل وفلاح * ملئت بمناقبهم الدفاتر * وتناسقت كعوبهم في الفضل كابرًا عن كابر * وقد وُلد هذا الأستاذ ببلاد العلم طرابلس الشام سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف (1) . وقرأ على جهابذة بلاده . وارتحل في طلب العلم فقرأ بجامع بني أميّة (2) والجامع الأزهر (3) وتصدّى للاقراء وولي خطّة الافتناء بجبلة من بلاد الشام فأفْتَى بها اثنتي عشرة سنة وقضى بعكّار من عمل طرابلس الشام سنتين وحجّ في عشر حجج اجتمعت به في عاشرتها بيوم الاثنين الموفى عشرين من ذي القعدة الحرام سنة تسع وتسعين (4) على سطح الماء بالفابور بعد ان خرجنا من مرسى برت سعيد حيث أنه كان في انتظار الفابور هنالك . فإذا هو من الظرافة واللطافة وحسن المعاملة والأخلاق بمكان عظيم مع المشاركة في

(1) يوافق : 1836—1837 .

(2) جامع بني أمية بدمشق ، انظر :
Marçais Georges : l'Art de l'Islam, Paris 1946 p. 24-26.

(3) جامع الأزهر بناه الفاطميون بالقاهرة ودشنوه سنة 361/972 . انظر : **دائرة المعارف الاسلامية** ط 2 ج 1 ص 837—844 .

(4) يوافق : 2 أكتوبر 1882 .

[58] الفقه والنحو والبيان والكلام والمنطق.[58] اما براعته في الآداب وفصاحة اللسان والقلم وسرعة الإنشاء فلم أعرف أن رجلا مثله أقول فيه بدون مبالغة إنه يمكنه ان يحادث جليسه بالشعر وكفاني هذا على وصف سرعة خاطره وسهولة النظم لديه يُتَمِّم إنشاء القصيدة الطويلة قبل جفاف مداد مطلعها .

وقد رأيت له من هاته الأوجه كثيرا وأطلعني على أحد دواوينه من الشعر فإذا هو يحوي من غثّ القول وسمينه ما تقتضيه سرعة إنشائه . وله من الرنقيات (1) والمقامات والأراجيز ما يستظرفه السامع . وقد أهدى إليّ نظما له سمّاه اللؤلؤ الثمين في مولد الصادق الامين يحوي نحو المائتي بيت من خبر المولد النبوي نظمه بمصر في ليلة واحدة سنة 1294 (2) وهو من أشهر المواليد استعمالا في الجهات الشامية وقد كتب عليه مفتي طرابلس الشام الشيخ عبد الغني الرافعي قوله (الخفيف)

يا ابنَ إسْحَاقَ يا وَحِيدَ المَعَالي صَارَ يَعْقُوبُ حُبُّكُمْ مَبْتُولاَ
لَيْتَ لَمْ نَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاَ أَلِفَتْكَ العُلاَ فَمَا قُلْنَ يَوْمًا

وكتب عليه نقيب الأشراف بها الشيخ خليل السمين قوله (الكامل)

هَذَا نِظامُ الأدْهَمِي مُحَمَّدٍ رَبّ الفَضَائِلِ وَالمكارِمِ وَالثَّنَا
يا مَنْ يَرُومُ بأن يكونَ كَمِثْلِهِ ما أنتَ مِنْ هذَا القَبِيلِ وَلاَ أنَا

ونستظرف ممّا كتب عليه قول الشيخ محمود السَّهَّال (الطويل)

ألاَ بِأبِي هَذَا النِّظَامُ فَإنَّهُ غَدا سِلكُهُ يزْهو بِدُرٍّ مُنَضَّدِ
فَقُلْ للّذِي قَدْ رَامَ يأتِي مِثْلَهُ تَأدَّبْ فهَذِهِ مُعجِزَاتُ مُحَمَّدِ

(1) كذا بالأصل : الرنقيات ولعل هذه الكلمة هي الرقيات من رقاقة الخبر أو من الرنقيات : الماء اختلط به الطين .

(2) يوافق : 1877–1878 .

وقد تأنّستُ بصحبة صاحب الترجمة أياما على سطح الماء ومدّة موسم الحجّ في مرافقات ومجالسات كثيرة . ومن لطائفه أنّه في يوم تعارفنا على سطح [59] الفابور عندي في بيت القمراء (1) فأنشدته قولي : (الرجز) [59]

أهْلاً وَسَهْلاً بِالهُمام الأكْرَمِ — فَخْرِ القَضَاء وَكلّ مُفْتٍ أعْلَمِ
شَرَّفْتَنِي يَابْنَ البَتول بِزَوْرَةٍ — لاَقيتُ منها يُمْنَ يومِ أيْوَمِ (2)
فَكأنّما وَافى بِكُمْ بَدْرُ الدُّجَى — وَلِمِثْلِ ذا ندْعوهُ بابْنِ الأدْهَمِ

فلم يتريّث أن أنشدني قوله : (الرجز)

قُلْ لِلسَّنُوسي الهُمَامِ الأعْظَمِ — تَاجِ الكِرَام وَكلّ شَهْمٍ ضَيْغَمِ
وَابْنِ العِظَامِ السَّادَةِ القَوْمِ الأُلَى — يَزْهو بِهِمْ شِعْرُهُ كَخَيْرِ مَنْظَمِ

وبعد أن كتبهما قَرَقَهُمَا (3) وَطَلَبَ مِنِّي العفو عنه في تأخير الجواب فاستكثرت خيره وقلت له : «كان مرادي مجرّد أداء واجب تحية إقبالك» . وجلس عندنا لمطارحة الحديث .

فاتّفق أن هاج جميع الراكبين بسطح الفابور يشتكون سوء الماء وادّعى صاحب الفابور أنّه لا ماء عنده غير ما أعطاهم إيّاه وكان بالفابور أكثر من ستّمائة نفس . ولما كثر عويلهم خاطبت في شأنهم قبطان الفابور في طلب الماء الطيّب بمقدار ما يكفي للشرب فأجاب لذلك وأذن به . ثم لم يكن من جليسنا بعد أن فارقنا إلا أنّه من الغد أصبح وبيده قصيدة من شعره وهي قوله (الخفيف)

رِحْلَةُ الصيْفِ وَالشِّتَا لِلنُّفُوسِ — ذُو المَعَالي مُحَمَّدُ ابنُ السَّنُوسي
قدْ صَحِبْنَاهُ لِلْحِجَازِ وَسِرْنَا — من سَنَا نُورِ هَدْيِهِ بِشُمُوسِ
قدْ أرَانا الفَابُورُ بَحْرًا مِنَ العِرْفَانِ يَبْدُو من فوْقِ بحرٍ خميسِ

(1) كذا بالاصل . والقمراء مؤنث الأقمر : ضوء القمر . ولعله الغمراء ، والغمر هو الماء الكثير ومعظم البحر .
(2) يوم أيوم : آخر يوم من الشهر .
(3) قرق : صوت .

لُؤْلُئِيُّ(1)الألفاظ رَقّتْ معانيه ... فأحيَى(2)الورَى بِخُلُقٍ دَميسِ
صافِحِي يا نسيمُ عنّا أيادِ ... عنهُ منها يزولُ همّي وبُؤسي
سيِّدٌ قد كساني مَدحُ عُلاهُ ... ثوبَ فخرٍ منَ الشَّرفِ المَلبوسِ
ضلَّ قومٌ يشكونَ قِلّةَ ماءٍ ... ولقاهُ فينا حياةُ النُّفوسِ
فَخْرُ هذا الزَّمانِ بِابنِ السَّنوسي ... الكريمِ الآباءِ زاكي الغُروسِ
ذو يراعٍ أينَ المثقّفُ منهُ ... يومَ رَوْعٍ إذا جرى في الطُّروسِ
صاحِ دعني من الخَطيبِ لسانِ الدِّيـ ... ـنِ واذكُرْ لنا حديثَ السَّنوسي
هوَ بقراطُ عِلّتي وابنُ سينا ... إنْ شكوتُ الضَّنا وجالينوسي
باسمِ الوجهِ طلقَ ذاكَ المُحيّا ... عندَ كَتْبِ المعروفِ غيرَ عَبوسِ
إنْ عرفنا زُهدَ ابنِ أدهمَ فيهِ ... قدْ رأينا منهُ عُلومَ الطّوسِ
إنَّ أخلاقهُ التي أسكرتنا ... قد غَنينا بها عن الخَنْدَريسِ (3)
ماجدٌ قلتُ إن نشقتُ شذا عِطْـ ... ـرِ حُلاهُ لا عِطرَ بعدَ عَروسِ
أينَ شعري ممّنْ إذا رامَ نظمَ الـ ... ـشِّعرِ أبدى بَرائعَ التّجنيسِ
ذلكَ المُعتلي من الشّرفِ الأعظمِ ... قَدْراً أضحى حِلْيَ القُدموسِ (4)
أحرزَ السَّبقَ في ميادينِ فضلٍ ... لمْ تنلْهُ الغبرا بيومِ البَسوسِ
شكرَ اللهُ سفرةً أسفرتْ لي ... عن سناهُ بالطّالعِ المأنوسِ
أيُّها الأوحديُّ نظماً ونثراً ... والرئيسُ المُعلّي لكلِّ رئيسِ
والإمامُ الذي بتونسَ بلْ والشّامِ ... أحيى (5) معالمَ التّدريسِ
والكريمُ الذي تحلّتْ بلادُ الرّو ... مِ منهُ بأيِّ عِقدٍ نفيسِ
أنّسَ اللهُ غربتي فيكَ إذْ أنتَ ... لعينِ النُّهى أنيسُ الجليسِ

---

(1) بالأصل : لؤلؤي .
(2) بالأصل : أحيا .
(3) الخندريس : الخمر القديمة .
(4) القدموس : القديم . الجيش العظيم (مقدم العسكر : جيش قدموس : عظيم) .
(5) بالأصل : أحيا .

وَبِـمَرْأى جَـمَالِ وَجْهِكَ مَـا هَيَّجَ ذِكْرًا إلى البِلَادِ رَسِيسِ (1)
قَدْ سَلَوْنَا تِلْكَ المَوَاطِـنَ لَمَّا أنْ رَكِبْنا لكمْ ظُهُورَ الْعِيسِ
فَتَهَنَّا أخَـا الْكَمَـالِ بِحَـجٍّ فُزْتَ فيهِ بِأشْرَفِ التَّقْدِيسِ

وقد بلغنا خبر وفاته في الجرائد العربية في صفر الخير سنة 1302 (2) رحمه الله .

(1) رسيس : ثابت .
(2) يوافق : ديسمبر سنة 1884 .

[61] الشيخ رحمة الله

هو عالم العصر الشيخ رحمة الله بن خليل الرحمان الهاشمي من نسل عثمان بن عفّان رضي الله عنه الكيرواني نسبة إلى كيرانه قرب دهلي من البلاد الهندية . ولد بكيرانه على عهد الأربعين ومائتين وألف (1) . ونشأ بها وتنقّل إلى لُكْنُو من بلاد الهند فقرأ على مفتيها الشيخ سعد الله اللّكْنَوي وقرأ بدهلي على مولا حياة فأتى على جميع الكتب التدريسية المعينة للتعاليم بالديار الهندية وسيأتي تفصيلها (2) في ذكر من رويناها عنه وأقام في بلاد الهند .

ولما ظهر في البلاد الهندية من قسيّسي الانقليز سعي في إفساد عقائد العوامّ بالرسائل المبذولة منهم مجّانا كان الشيخ رحمة الله هو المتصدّي لإطفاء تلك الشرارة فألّف أوّلا رسائل في الردّ على تلك الرسائل المنشورة، ثم طلب المناظرة مع أكبر قسّيسيهم فكان انعقاد مجلس المناظرة في رجب سنة سبعين ومائتين وألف (3) في بلد اعبراباد من مدن الهند .

وكان موضوع المناظرة هو المسائل الخمس أمّهات مسائل النزاع بين المسلمين والمسيحيين . وهي التحريف والنسخ والتثليث وحقيقة القرآن ونُبُوّة

---

(1) يوافق : 1825 .

(2) انظر أسفله : ص 72–73 .

(3) يوافق : أفريل سنة 1854 .

محمّد (صلّـعم). وتمّت المناظرة في مسألتي التحريف والنسخ وظهر الشيخ رحمة الله فيهما على مناظره فاستقال من المناظرة في بقيّة المسائل .

ولما خرج الشيخ رحمة الله إلى مكّة المشرّفة اقترح عليه الشيخ أحمد دحلان أن يترجم إلى اللسان العربي ما يتعلّق بالمباحث الخمسة من الكتب التي ألّفت فيها بالفارسي والهندي . فابتدأ تأليفه **إظهار الحقّ** سادس عشر
[62] رجب من عام ثمانين ومائتين وألف (1) وأتمّه [62] في أواخر ذي الحجّة من العام فكان تاريخه تأييد الحق برحمة الله 1280 (2) .

وسافر بعد ذلك إلى الآستانة فتعرّف به شيخ الإسلام هنالك وأخبره بخبر كتابه **إظهار الحقّ** فعرض خبره على الحضرة السلطانية ولم يزل يعده ويمنّيه وبعد اللتيا والّتي طلب منه مسودة ما نجز من غرض التأليف فأذن السلطان أحد رجال دولته بمطالعته خشية أن يمسّ شيئا من السياسة . وكان المطالع من أصحاب الخطط السياسية لا يتعاطى مطالعته إلاّ عند فراغه من أشغاله .

قال لي الشيخ المؤلّف : «وقد احتجت في تلك المدّة إلى ترددات ولاقيت من عدم مبالاة أهل تلك الأرض بالعلم وأهله ورأيت من أحوالهم ما منعني أن أقيم في تلك الديار بل إنّي رأيت العَوْد إلى الديار الهندية أولى بالصيانة. ولما أعْيَانِي الانتظار تركت تلك المسودة ورجعت إلى مكّة المشرّفة وبعد أن مضت مدة المطالعة صدر الإذن السلطاني بطبع ذلك المقدار فطبع كتاب **إظهار الحقّ** سنة ثلاث وثمانين (3)» .

ولما دخل الشيخ إلى مكّة المشرّفة تعاطى فيها أخذ الحديث عن شيخ الحرم المكّي الشيخ أحمد دَحْلان مؤلّف السيرة النبوية . أمّا هذا الشيخ فقد كان

---

(1) يوافق : 27 ديسمبر 1863 .
(2) يوافق : جوان سنة 1864 .
(3) يوافق : 1866–1867 .

أخذه للحديث عن المحدّث الشيخ عثمان الدمياطي تلميذ الشيخ الكبير الأمير كما أخذه أيضا عن الشيخ محمّد الشنواني والشيخ محمّد الشرقاوي أصحاب الأثبات التي أخذها عنهم في الحديث رضي الله عن جميعهم . أمّا صِيتُه في المعقول والمنقول فهو الشمس المنيرة في كبد الظهيرة وحسبك أنّ من تلاميذه هذا الهمام رحمة الله بين الأنام .

[حضور المؤلف امتحان طلبة العلم بمكّة]

ولمّا دخلتُ مكّة المشرّفة وأقمت بها ثلاثة أيّام وصلتني بطاقة هذا نصّها : « سيّدي الهمام سنوسي زاده السيد محمّد أفندي [63] غبّ السؤال [63]
أرجو حضوركم حالاً حيث في هذه الساعة صائر امتحان طلبة العلم في رحاب مولانا وأستاذنا الشيخ رحمة الله (الرمل)

لاَ تُؤَخِّرْ فُرْصَةً إنْ أمْكَنَتْ إنَّمَا الدَّهْرُ كَثِيرُ العَطَبِ

والسلام في المبدإ والختام من الداعي محمّد إسحاق الأدهمي 29 ذي القعدة سنة 1299 » (1) .

فلم أتريّث أن غيّرت ألبستي . وكانت مدرسة الشيخ تسمّى الخَنْدَرِيسَة ومحلّها سوق اللَّيْل مِنْ مَكَّةَ المُشَرَّفَةِ . فتوجّهت وبمعيّتي حَسَنٌ صَبَّاغٌ مُطَوِّفُ التّونسيّين . فوجدت المجلس محتبكا يحضره الأستاذ المذكور ونحو أربعة من محصّلي علماء الهند . منهم الشيخ عبد السلام الدهلوي المحدّث ونقيب السّادة بمكّة . وأفراد آخرون من علماء الشام منهم مُفتي جبلة الشيخ محمّد الإسحاقي الأدهمي ومنهم الشيخ خير الدين الميقاتي . ومنهم الشيخ محمّد الرافعي وغيرهم فأجلسوني بينهم في دائرة المناظرة . فإذا التلميذ هو الشيخ عبد الله بن حسين الدهلوي ممّن لازم الخَنْدَرِيسَة إلى أن صار بها عالما والدرس الذي يُقْرِئُهُ حزب من التفسير (ح) فكان جميع الحاضرين يسأله في أثناء تقريره ويبحث معه فيه.وهكذا أقرأ درسًا من **صحيح البخاري** بشرح القسطلاني ودرسًا من **سلّم الثبوت** في الأصول فأجاد في جميعها وعرضت له توقّفات في أثناء التقرير أوردها إلجاما وتحمّل لها أجوبة غير مرضية .

فحضرني فيها ما أظهر الشيخ استحسانه وعند فراغه جلس للامتحان تلميذ آخر أخذ يقري **الدرّ المختار** إلاّ أنّه لم يكن كالتلميذ الأوّل بحيث إني

---

(1) يوافق : 12 أكتوبر سنة 1882 .

أوردت عليه بعض تفهّمات توقّف بها عن التقرير وطال درسه إلى أن ضاق الوقت باقتراب الزمان فاستأذنت الشيخ ووعدته بالعود للاجتماع فلم يتيسّر لي الاجتماع معه إلاّ بعد يومين [64] فحضرت عنده فإذا بوفود من الهنود [64] يأتون بأمانات لهم وآخرين يتطلّبون أمانات أخر وآخرين يسائلون عن مسائل من الحجّ . وكان الشيخ متصدّيا لجميعهم بحيث إن أمانات المال أو الأمتعة يتسلّمها أو يسلّمها تلامذته ويُعطي هو فيها التوصيل ويأخذه . وكانت المسائل باللسان الهندي إلاّ أنّه كلّما أجاب عن مسألة ذكرها لي باللسان العربي وهكذا استمرّ بنا المجلس نحو الساعتين وبعده صعدنا إلى أعلا المدرسة فجلسنا نتحادث .

وعرضت في أثناء المجلس عدّة مسائل رأيت فيها من استحضاره للمسألة بأصلها الذي انبنت عليه ودليلها ووجه الخلاف فيها ما يبهر العقول ولولا خشية الإطالة لذكرت تلك المسائل هنَالكنّ ذلك يخرج بنا عن الموضوع .وبالمناسبة سألته عن السلطان حسن صديق صاحب التفسير والتآليف الأخيرة التي نُشِرَتْ بالمطابع الهندية والشرقية على ما يتراءى في أثنائها من خرق سياجات المجتهدين والاقتصار على ما يصل من الحديث ونحو ذلك مما يدلّ على عقيدة الرجل . فأخبرني أنه رئيس الوهّابيّة ولا يجلس في مجلسه إلاّ من يشتم الأئمة الأربعة . وقد تصدّى كثير من سنّيي (1) علماء بلاده وغيرها من البلاد الهندية للردّ عليه بتآليف نشرت في المطابع الهندية فكشف لي بذلك عن الضمير المستكنّ .

[أخبار التلغراف : هل يعمل بها شرعًا]

وقد سألني عمّا يقوله علماء تونس في أخبار التلغراف هل يعمل بها شرعًا أم لا . فقلت له إنّه في سنة سبع وثمانين لم ير هلال رمضان ليلة ثلاثين

(1) بالأصل : سنييي .

من شعبان (1) في تونس فأصبحنا مفطرين فإذا قاضي بلد صفاقس كتب إلى قاضي الحاضرة يومئذ بالتلغراف أنّهم قد رأوا هلال رمضان وأتمّوا حُجتّه العادلة وسترد على طريق البرّ وبوصول هذا الخبر أخبر قاضِي الحاضرة [65] به الشيوخ من المفاتي المالكية والحنفية فاتّفقوا على أنّه لا يعمل بهذا الخبر ويبقى الإفطار إلى أن تصل الحجّة الشرعية حيث إنّ المكلّف بالتلغراف نصراني ولا يعمل بخبر الكافر في الديانة الإسلامية .

فذكر لي أنّ علماء مكّة المشرّفة أيضا لمّا وصلهم التلغراف في السنة الفارطة (2) اتفقوا على عدم العمل به في الديانة وهنالك من نازع بأنّ المكلّفين بالتلغراف أمناء لا يدخلون الخدمة إلا بعد حلفهم على عدم الزور ونحو ذلك وهذا في الأقلّ يؤثر ظنّا أو شكّا في الخبر. فقلت له: «إنّ هاته المسألة قد عرضت لي في الآستانة ووجّه عليّ هذا الاعتراض فيها أحد (3) المُتَمَرّقِينَ . فأجبت عنها بأنّا إنْ سلّمنا أمانة المستخدم من أين لنا أنّ كاتب الجواب الذي ضربه المستخدم صادق . ونحن نشاهد كلّ يوم أخبار التلغراف يخبر بها الكاذبون في السياسة والتجارة لأغراضهم» . فقال لي: «إنّ المكلّف لابدّ وأن يحفظ كتائب جميع المكاتبين عنده مختومة بختم المحلّ حجّة على صدور ذلك الخبر من ذلك المخبر». فقلت له : «إذا كانت الكتابة بخطّ صاحب المكتوب وإمضائه أما نحن معاشر أبناء العرب في بلادنا لا يكاد يصدر تلغراف عن مسلم منّا وله في كتابته يد بل إنّ من يريد كتب التلغراف يطلب كتابته من أحد مارّة اليهود أو النصارى فيكتبه له ويكتب له فيه اسمه فيذهب به إلى المركز فيتلقّاه منه المكلّف سواء سلّمه له بنفسه أو سلّمه له أحد خدّامه من غير أن يعلم هل شخصه هو الكاتب أو صاحب المكتوب . وهذا أيّ فائدة فيه إذا كان المخبر نفسه ينكره وأيّ مانع من أن يكتب فيه أحد شيئا باسم أحد من

---

(1) يوافق : 25 نوفمبر سنة 1870 .
(2) هي سنة 1881/1298 .
(3) كلمة مشطوبة وهي : المتمرقين ، وعوضها المؤلف بكلمة : المارقين .

غير علمه زورا عليه . وحَ (والحاصل) كيف يَصِحُّ لنا أن نأخذ خبرًا في
ديَانتنا لم يحصل لنا مجرّد المعرفة لقائله». فتوقّف صاحبي [66] عن رأيه [66]
الأوّل .

وعند ذلك سألته سؤالا واحدا فقلت له: «نسألك عن المجالس الحكمية الافرنجية إذا قدّم إليها من يدّعي على شخص مقدارًا من المال فحضر المدّعى عليه وأتى بمكتوب تلغرافيّ منسوب إلى المُدّعِي يعترف له فيه بوصول ذلك المال هل يكون ذلك حجّة إن كان المُدّعِي يُنكره حيث يمكن أن يكون المُدّعَى عليه استأجَر شخصا بدراهم معدودة فكتب له باسم المُدّعي أنّه توصّل بذلك المال العظيم» . فلم يسع صاحبي إلاّ أنّه اعترف بأن مكتوب التلغراف لا تَبْرَأ به الذمّة في المال لدى المحاكم .

فقلت له : « كيف نعمل نحن في ديانتنا بما لم يعملوا هم به في أموالهم وإنْ قَلّت . وهذا كلّه على مجاراة الخصم ومحاورته بأدلّة من جنس معقولاته وإلاّ فأخبار الكفّار لا يعمل بها في ديننا».فاستحسن الشيخ جوابي للخصم.

ثم ذكرت له أنّ المسألة تَعرَّض لها شيخُنا عالم الديار التونسية شيخ الإسلام الموجود متّع الله ببقائه الوجود في ختمه لصحيح البخاري في رمضان تلك السنة وأوضح النصوص إيضاحا فاشيا . وبما أنّا شرحنا هنا معقولات المسألة فمن المناسب تتميمها هنا بذكر تحريرها من الفقهيات .

وذلك أن الوزير مصطفى خزنة دار (1) أرسل بالسؤال عن المسألة إلى أستاذنا المذكور فكتب فيها كتابة من نمط فتاويه المحرّرة أكمل تحرير ولأهمّيتها في الغرض نذكرها بلفظها :

(1) مصطفى خزنة دار ، مملوك أصله يوناني واسمه الحقيقي : جورج كلكياس سترافلكيس : ولد بجزيرة شيو سنة 1817 ، وقدم تونس صغير السن فدخل دين الاسلام وسمي مصطفى ، وترعرع في سراية حسين باي مع تربه الامير أحمد الذي سماه ، عندما ولي العرش الحسيني سنة 1837 خزنة دار مكان شاكير ثم زوجه أخته كلثوم.وهكذا أصبح مصطفى صهرا لحاكم البلاد ووزيرا في الدولة وسنه دون الخامسة والعشرين ، وتوفي في 26 جويلية سنة 1878 . انظر : **المجلة التونسية** ، الطبعة الفرنسية ، عدد 22 سنة 1935 ، ص 230 . انظر أيضا : قانياج. ج. **أصول الحماية الفرنسية بتونس** ، باريس 1959 ، ص 89–98 ، 179–195، 202–217، 279–321، 422–443 .

* « أما بعد فالجواب والله وليّ الإرشاد أنّ إشارة التلّ للإعلام بوقوع رؤية هلال رمضان في بلدة وإن كان يغلب على الظنّ صدقها وفي القاعدة الثالثة من الأشباه أنّ غالب الظنّ ملحق عندهم باليقين وتنبني عليه الأحكام والإعلام كما يكون باللسان يكون بالإشارة ولذا لَوْ سئل المفتي عن مسألة محرّك رأسه يكون جوابًا كما في الفصل 33 [67] من العمادية والصوم مما لا يتوقّف على [67]
الاخبار الشفاهي بل يستند لرؤية القناديل في بلدة أخرى وإطلاق المدافع مثلا كما نصّ على ذلك الفقهاء قالوا لأنّها توجب غلبة الظنّ بالصدق وهي حجّة توجب العمل لكن قال أبو إسحاق (1) في آخر مباحث السنّة من الموافقات ما كان من الظنون معتبرًا شرعا فلاستناده إلى أصل شرعيّ إن كان الأصل معارضا له فهو مردود وساقط عن درجة الاعتبار وبسطه في المسألة الثانية من كتاب الأدلّة وبنى عليه قبيل مبحث الاجتهاد مسألة عدم اعتماد المكاشف على كشفه في الأحكام بل لابدّ من الوقوف مع الحدود الشرعية لا يتخطّاها .

فعلى هذا نقول : « لا عبرة بغلبة الظنّ التي تفيدها إشارة التلّ حيث كان الذي يشير كافرًا لأنّ هاته الغلبة عارضها أصل شرعيّ أسقطها عن درجة الاعتبار وهو أنّ خبر الكافر لا يقبل في الدّيّانات بإجماع علمائنا فلا نستند إليه في شَيْءٍ من عبادتنا لا فرق في ذلك بين قوله بلسانه أو إشارة يده . والإخبار عن رؤية هلال رمضان من باب الديانات كما تظافرت على ذلك نصوص الحنفية وكذلك الشافعية على ما قال الجلال المَحَلّي (2) في مباحث السنّة . وكذلك شهاب الدين القرافي (3) فلا نرتّب على قول الكافر أمرًا من أمور ديننا كالصلاة والصوم والحلّ والحرمة القصريين وما أشبه ذلك . فلو

---

(1) هو أبو اسحاق الشاطبي صاحب كتاب الموافقات : انظر : أعلاه : ص 22 تعليق رقم : 1

(2) هو جلال الدين المحلي (791/1389—864/1459) مولده ووفاته بالقاهرة . من كتبه : تفسير الجلالين وكنز الراغبين في شرح المنهاج في فقه الشافعية . انظر : **الزركلي** ، **الاعلام** ، ج 6 ص 230 .

(3) شهاب الدين القرافي ، فقيه مالكي ، توفي سنة 684/1285 . انظر : **برو كلمان** **G.A.L.** ج 1 ص 481 .

سمعنا يهوديّا يؤذّن بدون — وأشهد أن محمّداً رسول الله — لا نصلّي استناداً لآذانه بالوجه الذي نفرض الآذان خبراً أو علامة على دخول الوقت . قال العلماء وهذا لأنّه لا يعبأ بالدين ولا يلتزمه ويراه استهزاءً وسخرية فلا يصلح أن يكون ملزما بشيء من أموره ولم يقم الله قوله حجّة في الدين البتّة .

قال السعد في التلويح عند اشتراط صدر [68] الشريعة الإسلام في قبول خبر الواحد في الديانات وردّ خبر الكافر فيها مع أنّ الكذب في كلّ دين وتوجبه ذلك وربّما كان الكافر مستقيما في دينه فيغلب على الظنّ صدقه ومع ذلك يُردُّ قوله في الديانات لأنّ شأن الكافر التعصّب على دين الإسلام وهدم أركانه بقدر الطاقة وعدم المبالاة به فيُرَدُّ قوله فيه فظهر أنّ ردَّ قول الكافر لا لأنّه يصدق أو يكذب بل لأنّ صاحب الشرع من أصوله المؤسّسة في هذا الدين أنّ قول المعتوه والكافر كلّها ساقطة عن الاعتبار في الديانات . [68]

وتوضيحه أنّ اللّه تعالى غنيّ عن العالمين لا تعود إليه منفعة الطاعة ولا تلحقه مضرّة المعصية. والأيام بالنسبة له تعالى على حدّ السواء فليس الصوم في رمضان الذي في نفس الأمر والواقع فيه منفعة تلحقه وتفوت بالصوم في غيره حتّى يكون مناط التكليف صدق المخبر ولو كان كافراً تعالى اللّه عن ذلك علوّاً كبيراً فلم يكلّفنا الله تعالى في شرعه إلاّ برمضان الذي تثبت رؤيته بقول المسلم المرضي والخلاف في المستور الحال ولم يجعل من شرعه الاستناد في رمضان إلى كافر بقوله أو إشارته لا يسأل عمّا يفعل .

والقول الفصل إنّ النبيّ (صلّعم) كما رواه أصحاب السُّنن جاءه أعرابيّ فقال : إنّي رَأَيْتُ الهِلاَلَ . فقال : أتَشْهَدُ أنْ لاَ إلاَهَ إلاَّ اللّهُ ؟قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : أتَشْهَدُ أنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللّهِ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : يَا بِلاَلُ أذّنْ فِي النَّاسِ أنْ يَصُومُوا غَدًا (1) . وبما حَرَّرْنَاهُ تَبَيَّنَ أنْ لو كان مستعمل إشارة التلّ مسلما أو مستور الحال على الخلاف كان علينا

(1) حديث شريف .

أن نستند في صومنا إلى إشارته فإنّ قوله مقبول وإشارته معتبرة على ما علمت من العمادية وغيرها فلا يلزم مسلم إلى صوم سنده قول كافر أو إشارته واختلاف
[69] الاعتبار من كونه علامة أو رواية [69] لا يخرجه من الاستناد إلى الكافر الذي يرى ذلك العمل الديني عبثا محضا وعلمت أيضا ألاّ فرق بين الرائي والناقل عنه إذ كلّ ملزم للصوم ولا شَيْءَ من الكافر بملزم له وبما شرحناه في هاته المسألة اتّضح وجهها الشرعي .

ولكن قد وقفت في كتاب فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك للشيخ محمد عليش المصري (1) على سؤال في حادثة سنة إحدى وثمانين (2) أنّه حضر خَبَرٌ من الشام في التلغراف لبعض الثغور بثبوت رؤية هلال رمضان ليلة ذلك اليوم فأفتى مفتيه بالعمل بهذا الخبر والحكم بثبوت الشهر في ذلك الثغر وحكم قاضيه بذلك وعارض بعض علماء القطر الشامي وردّوا تلك الفتوى فهل يعوّل على الفتوى المذكورة أو على قول المعارضين ؟ وأجاب الشيخ بقوله يعوّل على الفتوى المذكورة لأن سلاطين المسلمين وضعوا التلغراف لتبليغ الأخبار وأقاموا لأعماله أشخاصًا مسلمين واستغنَوْا به عن إرسال المكاتيب غالبا فصار قانونا معتبرا في ذلك وتبعهم الناس على ذلك . انتهى باختصار .

ولا يخفى أن مبنى هاته الفتوى على أن العاملين فيه من المسلمين وهذا مناط المسألة .

---

(1) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد عليش المالكي المغربي ، ولد سنة 1802/1217 بالقاهرة وبها توفي سنة 1881/1299 . جلس للتدريس بالجامع الأزهر وتقلد مشيخة السادة المالكية والافتاء بمصر ، له مؤلفات في اللغة والصرف والنحو والفقه والتصوف منها : فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الامام مالك . انظر أسفله ص : 105–130–168–179–180–181–202–220–233 . انظر أيضا : سركيس ، معجم ، ج 2 رقم : 1372–1373–1374 .

(2) يوافق : جانفي سنة 1865 .

[رجوع إلى ترجمة الشيخ رحمة الله]

وقد ذكر لي أنه لم يزل مُتَصَدِّيًا لإتْمَامِ غرض ما نجز طبعه من كتابه **إظهار الحق** وبين يديه أيضا تآليف أخر غير أنّ ما شارَفَ التمام منها هو ترجمته التحفة الاثني عشرية الفارسية نسبة إلى القرن الثاني عشر التي ألّفها الشيخ غلام حليم بن قطب الدين أحمد الهندي في تكفير الشيعة. وقد التزم فيها مؤلّفها الوقوف عند نصوص الشيعة وصحيح مروياتهم والاستناد إلى قواعد أصولهم ونصوص فروعهم والتزم الشيخ تعقيب كلّ مبحث من مباحثها بشرح مشكلاته وتحرير ما يحتاج إلى التحرير منه على ذلك المنوال. وقد أحضر نحو العشرين كرّاسا من [70] ذلك وهو قدر ما أنجزه من التأليف. [70]
وسرد عليّ منه مَبَاحِثَ مهمّة منها مبحث قولهم بمسح الأرجل في الوضوء استنادًا لآية (**وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ** ... الآية (1)) . وقد حرّر المسألة بالقواعد العربية والبلاغية والأصولية تحريرا يشفّ عن كمال تضلّعه في معقولات العلوم ومنقولاتها .

وبالجملة فقد رأيت منه في جملة جلسات آية الله في التحصيل والاستحضار والذهن الثاقب مع توجيه الهمّة الكاملة إلى خدمة العلوم على كلّ حال وسعة ذات اليد التي استعان بها على بثّ العلم في صدور الرجال . ويده في العلوم الحكمية والفلسفيات والرياضيات وغيرها طولى . وهو طويل القامة أسمر اللون كثّ اللحية طويلها عمّه الشيب أقنى (2) الأنف غائر العينين صاحب سكينة ووقار وأناة يعتمده جميع حجّاج الهنود في جميع مهمّاتهم بحيث إنّه يخرج إلى عرفة عند الحجّ بالهنود الذين معهم في ركب عظيم يتولّى هو مباشرة لوازمهمْ بنفسه وله في الإحسان يد طولى يُقْرِىءُ دروسه كلَّ يوم بمدرسة سوق اللّيل صباحًا ويمسي في بيته وفي آخر العشيّ يجلس لإجابة السائلين عن المسائل بمدرسته في الحرم الشريف إلى أن يصلّي هنالك المغرب بحيث إنّ جميع وقته يقضيه في خدمة العلم الشريف .

---

(1) القرآن : سورة المائدة ، 5 : 6 .
(2) قنـي يقنـى قنا الأنف : ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه فهو أقنـى .

وقد استجزته في الصحاح الستّة بأسانيده فيها . وبعد كلّ الامتناع قال لي : «حيث إنّ رواية الأكابر من الأصاغر جائزة فأنا قد أجزت لك بالصحاح الستّة بما لي فيها من الاثبات». فقبلت ذلك منه وقلت له : «إنها من رواية التلاميذ عن الشيوخ وبودّي لو يساعدني الحال للحصول على الأخذ عنكم». لكن على كلّ حال أصرّ على الامتناع من إعطائي الإجازة بالكتابة كلّ الإصرار بعد أن حصلت منه على الوعد بها فاكتفيت [71] منه بالإجازة الشفاهية تبرّكا بسنده [71]
سيّما مع ضيق الوقت. وما رأيته فيه من الاشتغال بسبب إيّاب الحجّاج وبما وقعتُ معه من المفاوضات، في بعض مسائل رسالته التحفة الاثني عشرية سلّم لي جملة الكراريس لأن أطالع جميعها . وقال لي أريد منك أن تنظر فيما يلزم إصلاحه فاعتذرت له عن ذلك وامتنعت من قبول الكراريس على ذلك الوجه . وقلت له إنما أطلب من فضلكم مساعدتي بها للأستفيد منها بالمطالعة. فأخذتها منه على هذا الوجه وأرجعتها له بعد ثلاث ليال وقد كتبت عليها قولي : (الكامل)

مَـوْلاَيَ يَا فَخْـرَ الْمَعَـارِفِ وَالْعُلاَ
وَمَنِ اعْتَلَـتْ بِكَمَـالِـهِ كُلُّ الْحُلَى
قِدْمًا لَقَدْ أخْمَدْتَ نَارَ الْكُفْرِ بِالحَـ
ـقِّ الَّذِي أظْهَرْتَهُ بَيْنَ الْمَلاَ
وَالآنَ أنْـتَ كَشَفْـتَ عَـوْرَةَ شِـيعَةٍ
حَادُوا عَـنِ الْمَنْهَجِ السَّوِيِّ علىً وِلاَ (1)
فَرَأيْتُ أجْمَـلَ تُحْفَـةٍ مِنْكَ انْجَلَتْ
مِثْلَ الصَّبَاحِ بِهِ اليَقِينُ قَدِ انْجَلَى
وَعَلِـمْـتُ أنَّكَ رَحْمَةُ اللَّهِ الَّـذِي
يَهْدِي بِهِ لِلرُّشْدِ كُـلَّ مَنِ اعْتَلَى
لاَ زِلْـتَ أهْـلَ إفَـادَةٍ تُجْـرِي بِـهَـا
يُنْبُوعَ عَارِفَةِ المَعَارِفِ إذْ حَـلاَ

(1) ولي يلي وليا : قرب ، والمعنى : رغم القرب .

الشيخ حبيب الرحمن

هو أستاذنا الشريف حبيب الرحمان بن علي بن بسم الله السالادي الموسوي من أبناء موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن زين العابدين ابن الحسين بن علي وفاطمة بنت رسول الله (صلّعم) من أشراف حكومة رَدَوْلي قرية بين دهلي ولَكْنُو من مدن الهند الكبرى وبها وُلد نحو سنة إحدى وخمسين ومائتين وألف (1) . ونشأ في عزّ شرف بيته وقرأ في لَكْنُو على الشيخ نعمة الله إمام التعليم وعلى ابنه مراد الله وعنه أخذ طريقة التعليم العالية
وقرأ على الشيخ حسين علي تلميذ الشيخ سلامة الله والشيخ [72] عبد الرحمان [72]
الأنصاري فأتمّ على هؤلاء الأساتذة قراءة جميع الكتب التدريسية في مدّة ثلاث سنين مع أنّ المدّة المعيّنة لختمها في قانون التعليم سبع سنين ...

[الكتب التدريسية في الأقطار الهندية]

وذلك أنّ قانون التعليم هنالك منضبط بتعيين الكتب والمدّة وقد رويت عن الأستاذ المذكور بيان الكتب التي يقتضيها القانون هنالك وهذا نصّه ...

فمن النحو مائة عامل وشرحه وهداية النحو في مسائل الكافية والكافية والفوائد الضِيَائِيَّة وشرح الجامي عليها وألفية ابن مالك **ومن الصرف** مراح

(1) يوافق : 1835–1836 .

والشافية **ومن العروض** الخزرجية **ومن الأدب** نفحة اليمن وعجب العجاب وديوان المتنبي والمقامات الحريرية وديوان الحماسة والمعلّقات **ومن القراءات** الجزرية والشاطبية **ومن التفسير** الجلالين والبيضاوي **ومن الفقه** النصف الأوّل من صدر الشريعة والنصف الثاني من الهداية والكنز **ومن الحديث** مشكاة المصابيح والصحاح الستّة **ومن التصوّف** الفصوص **ومن التوحيد** العقائد النسفية بحواشيها وحاشية الشيخ زاهد على الأمور العامّة وحاشيته على شرح المواقف **ومن المنطق** إيساغوجي وشرح قالَ أقول عليه وشرح السيد عليّة وبديع الميزان والتهذيب بشرح ولي عبد الله اليزدي والقطب على الشمسيّة بحواشي السيّد وحواشي السيّد زاهر الهروي على الرسالة القطبية وحواشيه أيضا على شرح التهذيب للجلال الدوّاني وسلّم العلوم بشرح مولوي مُبين وشرح مولا حسن عليه والتصوّرات من شرح قاضي مبارك والتصديقات من شرح حمد الله **ومن الأصول** أصول الشاشي ونور الأنوار وشرح المنار والتلويح على التوضيح وسلّم الثبوت ومن **البلاغة** مختصر السّعد والمطوّل بحواشيه **ومن المناظرة**
[73] رشيديه **ومن الحكمة** الميبري والصورة على الهداية وشمس بازغة **ومن** [73] **الرياضيات** خلاصة الحساب وتحرير إقليدس في الهندسة وشرح الجعيني في الهيأة والشفا والإشارات في الموسيقى ورسائل الرمل ورسائل الجفر **ومن الطبّ** الاقصرائي على الموجز والنفيسي والسديدي وشرح الأسباب والقانون .

فهذه الكتب هي المُعتَنْوَنُ عليها بالكتب التدريسية في الأقطار الهندية يحتّم التلميذ قراءتها في مدة أقصاها سبع سنين .

أما **أسلوب** القراءة عندهم فهي عبارة عن كون التلميذ يسرد بين يدي الأستاذ لفظ المسألة من الكتاب والشيخ يقرّرها له على الوجه الذي يحصل له بها فهمها من غير زيادة. نَعَمْ إن لم يفهم التلميذ فالأستاذ يعيدها عليه كما أنّ المسألة إن كانت ظاهرة المعنى للتلميذ لا يحتاج الأستاذ إلى تقريرها فضلا عن كون التلميذ يتظاهر بين يدي أستاذه بالأبحاث ونحوها ممّا يضيّع به الزمان .

[عود إلى ترجمة الشيخ حبيب الرحمان]

وَأمَّا ارتحال هذا الأستاذ من بلاده فسببه أنّه حصلت له إعلامات بما سيصيب البلاد الهندية ذكر أنّ طريقها هو الرؤيا المنامية فدعا (1) أهل بيته للفرار من فتنة عظيمة تصيب الهند لكنهم أنكروها عليه فترك أمرهم وخرج إلى مدرسة أستاذه الشيخ حسن علي وهي خارج البلد ومن عادته أن يخرج للإقامة عنده بها لأجل القراءة وأستاذه في السفر فحجّ بيت الله الحرام سنة ثلاث وسبعين ومائتين وألف (2) . ومن بعده أصيب الهند بفتنة الانقليز وقتل فيها خلق كثير وخرج منهم آخرون بلا مال . واستمرّت الفتنة إلى أن تمّ استيلاء الانقليز على الهند واستتبّت الراحة .

وتصدّى هو بمكّة لأخذ الحديث عن الشيخ أحمد دحلان والشيخ جمال . وارتحل إلى مصر في أخذ القراءات فأخذ العشر عن الشيخ حسن الحريسي وأستاذه المتولي واستكمل علومه وعاد إلى بلاده بعد أن أصاب قومه ما أصابهم ورجع إلى المدينة المنوّرة [74] فأقام بها وأقرأ كثيرا من علمائها . [74]

ولما دخلت المدينة المنورة خامس المحرم سنة 1300 (3) وجدته بها مقيما يسكن بمدرسة حول الحرم الشريف يدخلها عند الحاجة إلى النوم وليس بيده شيء من متاع الدنيا وحيث أدركه الجوع طلب الطعام فيساعده به جميع أهل المدينة وحيثما احتاج إلى لباس استعاره فيساعدوه . وتأتيه من الهند مداخيله فينفقها جميعا بالعطايا في يوم واحد .

ويذكر عنه أنه يحجّ في أغلب الأعوام فيذهب إلى مكّة راكبا يأمر من شاء من أهل المدينة فيأتيه بجمل . وأما الإيّاب فربما رجع إلى المدينة راجلا منفردا . ومن أخلاقه رضي الله عنه أنه ربّما وصل إلى مكّة ورجع بدون حجّ

---

(1) بالأصل : دعى .
(2) يوافق : 1857 .
(3) يوافق : 16 نوفمبر سنة 1882 .

يتعلّل بكثرة الازدحام . وله من هاته الأخلاق أخبار كثيرة وبسببها قلّ مَنْ يتألف به ولا ينال عنه العلم إلاّ صبور . وهو رجل صالح عالم متبحّر عارف بالعلوم الحكمية والرياضية والطبيعية وله معرفة بعلوم الحدثان ودقائق الجفر والرصد والطلسم وعلم مصارعة الأسود . هذا زيادة على معقول العلوم ومنقولها الذي بثّه في الحرم النبويّ .

وأكثر ما رأيت نفحاته عند حضور الأتاي وله بأعلاه ولع عظيم وله ميل عظيم إلى الحُسْن وعند حضور الذوات الحسنة يطرب بعد العبوس ولا يستجيد من الشعر إلاّ ما كان في الغزل . ومن شعره في هذا النوع قوله : (الخفيف)

قد جرَى ما جرَى فَصَبْرٌ جَمِيلٌ كيفَ ضَاعَ الفؤادُ لاَ تَسْألُونِي
مَبْلَغُ العِلْمِ أنّ قَلْبِي مُصَابٌ هَؤُلاَءِ المِلاَحُ قَدْ قَتَلُونا

ومن ذلك قوله (الطويل)

إلَى اللَّهِ أشكُو أنَّنِي في مُصِيبَةٍ أصَابَ فؤادي من لحاظِكَ أسْهُمُ
إذا كنتَ لاَ تدرِي فَتِلكَ مُصِيبَةٌ وَإن كنتَ تدرِي فالمُصِيبةُ أعْظَمُ

[75] [75] ولما اجتمعت بهذا الأستاذ في بيت تلميذه صاحبنا الشيخ علي الوتري وعلمت تفاصيل أحواله التي لا تخلو عن صلاح تاقت نفسي للأخذ عنه فساعدني بذلك وأجابني لقراءة **الهداية الحكمية** بشرح الميبدي (1) لما يدعم إليه لزوم الشرح على شرط أني أنظر جميع الشرح قبل حضور الدرس وملازمة الاقتصار على ما يلزم لفهم المسألة من غير تعرّض لأبحاث ونحوها .

وابتدأنا قراءة الكتاب المذكور ضحْوة يوم الأثنين تاسع المحرّم وجعلنا الوقت المختصّ بالقراءة فيما بعد صلاة العشاء فكنّا نستغرق أكثر الليل في

(1) الهداية الحكمية : متن في المنطق والطبيعي والالهي ، أملاها ارتجالا أثير الدين المفضل بن عمر الابهري المتوفى سنة 660 هـ. على الأرجح ، وشرح الهداية مير حسن معين الدين الميبدي الحسني . انظر : سركيس ، **معجم** ، ج 1 رقم : 290–291 .

الدرس . ولازمتُه آدابه غير أنّه في بعض الليالي أنكر عليّ وجود أصوات مختلفة نسمعها من كوة بأعلى البيت وخرج بي من البيت فأتممنا قراءة الدرس بدار الشيخ السعيد شيخ الدلائل . ومع ذلك تعمّدت إنكاره أسلوب التفهّم منّي والاستعادة وطلب تفهيم ما يراه ضروريا لما كنت أتحرّاه في أخذ جميع مسائل الكتاب عنه إلى أن يسّر الله لي ختم الكتاب بعد أن أخذت عنه تقريرات كثيرة كتبتها واستجزته في أسانيده واثباته فأجاز لي بجميعها رضي الله عنه . وكان ختمها ليلة الجمعة الثالث عشر من المحرم . وأنشدته عند الختم قولي : (الطويل)

جُزِيتَ حَبِيبَ اللَّهِ عَنِّي بِخَيْرِ مَا
يُجَازَى بِهِ عَمَّنْ بِعِلْمٍ تَعَلَّمَا
أفَدْتَ بِإِقْرَائِي هِدَايَةَ حِكْمَةٍ
وَتَحْرِير مَا فِيهَا بِمَا مِنْكَ أحْكَمَا
بِتَقْرِيرِهَا طِبْنَا لَيَالِيَ أرْبَعًا
بِهَا قَدْ خَتَمْنَاهَا لَدَيْكُمْ تَفَهُّمَا
وَإِنِّي عَلَى مَا قَدْ أفَدْتُمْ لَشَاكِرٌ
لأنَّكَ قَدْ أسْدَيْتَ بِالعِلْمِ أنْعُمَا
فَلاَ زِلْتَ تَهْدِي مَنْ يَؤُمُّكَ طَالِبًا
وَهَذَا مُرَادِي مِنْكُم اليَوْمَ تُمِّمَا

الأفندي عبد الجليل برّادة

هو الشيخ عبد الجليل عبد السلام بن عبد الله بن عبد السلام بن أبي جيدة [76] برّاده الفاسي ثم المدني ينتهي نسبه إلى أبي برده الأسلمي الصحابي رضي الله عنه . وكان جدّه أبو جيدة من الحفّاظ المتقنين بفاس ومنها خرج عبد السلام بن أبي جيدة إلى المدينة في تجارة سنة 1141 إحدى وأربعين ومائة وألف (1) فأقام بالمدينة المنوّرة على التجارة وبها نشأ ولده عبد الله وقرأ على الشيخ الرحمتي والشيخ عثمان الشامي والشيخ صالح الفلاني والشيخ صالح الشنقيطي والشيخ محمد سعيد صفر المدني والشيخ الجيلاني المقّري العالم الشهير . وبلغ من العمر خمسين سنة وتوفّي في المحرّم سنة 1247 سبع واربعين ومائتين وألف (2) . [76]

وولد ولده صاحب الترجمة أواخر سنة اثنتين (3) واربعين ونشأ في حجر التعلم فقرأ النحو والصرف والعروض والمعاني والبيان والفرائض والفقه الحنفي وصحيح البخاري على الشيخ يوسف الغربي وقرأ الفقه على الشيخ محمد الحلبي وقرأ البردة على الشيخ محمّد الزمياطي وقرأ أيضا النحو والعقائد النسفية على الشيخ محمّد العطوشي الطرابلسي وقرأ على الشيخ صالح التونسي النحو أيضا

---

(1) يوافق : 1728–1729 .

(2) يوافق : 1831–1832 .

(3) بالأصل : اثنين . والتاريخ يوافق : 1826–1827 .

وقرأ على الشيخ عبد الغني الزمياطي الجلالين وقطعة من تفسير أبي السعود وروى عنه صحيح البخاري كما قرأ عليه بعض شروح ألفية ابن مالك والتوضيح وقرأ على الشيخ يوسف الصاوي الأزهري المنطق وجزءين من تفسير البيضاوي وقرأ على الشيخ حسن الأسكوي الكامل للمبرّد بحواشي البطليوسي والألفية بشرح السيوطي وحواشي ابن الحاج وأمثال الميداني وديوان الحماسة والمقامات الحريرية بشرح المسعودي وديواني المتنبّي وأبي تمّام وقرأ عليه أيضا من الفارسي كتاب كلستان وكتاب ديوان حافظ الشيرازي وقطعة من الحسنوي وقواعد الفارسية وقرأ عليه أيضا من التركي الإنشاءات ودواوين تركية والحليمي في اللغة التركية [77] وقرأ عليه أيضا من الحبشي رسالة الشيخ في اللغة الحبشية. [77]

وقرأ اللغة الهندية على الشيخ أمانة الله الهندي فختم عليه كتاب تفسير القرآن باللسان الهندي كما قرأ أيضا تفسير القاضي البيضاوي على الشيخ عبد الكريم البخاري وقرأ أيضا غير ذلك على الشيخ أحمد السائس والشيخ محمّد العزب وأخذ الإجازة في الحديث عن الشيخ إسماعيل البرزنجي مفتي المدينة المنوّرة بعد رجوعه إلى المدينة حيث إنّه رحل عنها سنة اثنتين وعشرين وعاد إليها سنة سبعين ومائتين وألف (1) فأخذ عنه سنده بعد إيّابه كما أخذ الأسانيد أيضا عن الشيخ عبد الغني المجردي وسافر من المدينة المنورة سنة خمس وثمانين ومائتين وألف (2) ودخل مصر فأقام بها نحو ثلاثة أشهر واجتمع فيها بالشيخ محمّد الأقبابي والشيخ محمّد الذهبي ومدح بها عبد الكريم ابن لطيف باشا بقوله : (الطويل)

أَتَيْتُ إِلَى مِصْرَ أُسَائِلُ أَهْلَهَا
ألاَ هَلْ فَتًى لِلْمَكْرُمَاتِ أَلُوفُ

---

(1) يوافق : 1807 وسنة 1853 وهكذا تكون مدة غياب الشيخ البرزنجي عن المدينة 46 سنة .

(2) يوافق : 1868–1869 .

وَهَـلْ مِـنْ كَرِيمٍ حَـازَ لُطْفًا بِطَبْعِهِ
فَقِيـلَ نَعَـمْ عَبْـدُ الكَـرِيـمِ لَطِيفُ

وتوجّه إلى الآستانة فأقام نحو سبعة أشهر واجتمع فيها بشيخ الإسلام حَسَن فَهْمي والشيخ علي الأرناووط والشيخ قاره خليل أفندي . كما اجتمع فيها بمفتي بغداد الشيخ أمين السويدي ومفتي الشام الشيخ أمين الجندي وغيرهم من جلّة فضلائها . واتّفق عند ذلك أنّ كامل باشا أقام مسجدًا جديدًا بالآستانة وأتمّه عند حلول شهر رمضان فهنّأه بالشهر وأشار فيها إلى المسجد المذكور بقوله : (البحر الطويل)

حَدِيثُ مَعَالِيكَ المُسَلْسَلُ مُسْنَدُ
وَأخْبَارُهُ فِـي النَّاسِ تُتْلَـى وَتُنْشَـدُ
وَأنْتَ الَّـذِي جَـدَّدْتَ لِلْمَجْـدِ بَيْتَهُ
وَبَانِـي بُيُوتَ الْمَكْرُمَاتِ الْمُجَـدِّدُ
وَرِفْـدُكَ أضْحَـى لِلْمَطَالِـبِ كَـافِلاً
فَـرِفْـدُ الأمَانِـي مِنْ نَوَالِكَ يَـرْفَـدُ
[78] بِـمَجْدِكَ زَيَّنْتَ الوِزَارَةَ فَافْتَخِرْ
كَمَـا زَيَّـنَ العِقْدُ الثَّمِـينُ المُقَلَّـدُ [78]
أتَيْتَ كَمَا قَدْ شَاءَ سَوْلاكَ كَامِلاً
يُنَافِسُ فِـيكَ اليَوْمَ أمْسُكَ وَالغَـدُ
بَنَيْتَ لِـوَجْـهِ اللّـهِ بَيْتـًا سَمَا لَهُ
أسَاسٌ عَلَـى تَقْـوَى وَبِـرٍّ يُشَيَّـدُ
سَيَجْزِيكَ رَبُّ البَيْـتِ عَنْـهُ بِفَضْلِهِ
مَقَـامًا بِـدَارِ الخُلْـدِ فِـيهِ تُخَلَّـدُ
فَيَـا كَامِلاً فِـي جَمْعِـهِ الفَضْلَ مُفْرَدُ
وَيَـا مَاجِدًا فِـي سَبْقِـهِ الجَمْعَ وَاحِدُ

أَتَيْتُ إِلَى دَارِ الخِلاَفَةِ أَبْتَغِي
جَوَادًا كَرِيمًا عِنْدَهُ القَصْدُ يُحْمَدُ
أُسَائِلُ مَنْ لاَقَيْتُ طَوْرًا وَأَنْتَحِي
وَأَهْبِطُ طَوْرًا وَائِدًا ثُمَّ أَصْعَدُ
فَلَمْ أَرَ إِلاَّ مَنْ إِلَيْكَ يَدُلُّنِي
وَيُقْسِمُ أَنَّكَ الجَامِعُ المُتَفَرِّدُ
فَجِئْتُكَ وَالآمَالُ تَحْدُو رَكَائِبِي
وَيُجْزِينِي شَوْقٌ يُقِيمُ وَيَقْعُدُ
فَوَاجَهْتُ مِنْكَ البِشْرَ أَوَّلَ مَا بِهِ
تَلَقَّيْتَنِي وَازْدَادَ مِنْكَ التَّوَدُّدُ
فَأَيْقَنْتُ أَنِّي بِالمَقَاصِدِ ظَافِرٌ
وَأَنَّكَ أَوْلَى مَنْ يُؤَمُّ وَيُقْصَدُ
لِيَهْنَكَ صَوْمٌ بِالقَبُولِ مُقَابَلٌ
وَمِنْ بَعْدِهِ بِالشِّعْرِ عِيدَكَ تَشْهَدُ
لَكَ العِزُّ وَالتَّمْكِينُ وَالمَجْدُ وَالعُلاَ
مَدَا الدَّهْرِ مَا دَارَتْ عَلَى الأُفْقِ أَسْعُدُ
وَمَدْحُكَ إِنْ قَصَّرْتُ فِيهِ فَلَيْسَ لِي
بِذَا الفَنِّ لاَ بَاعٌ تَطُولُ وَلاَ يَدُ

كما هنأ أيضا الوزير سامي باشا بإقبال شهر الصوم فقال (الطويل)

يُسَائِلُنِي الرُّكْبَانُ عَمَّنْ لَقِيتُهُ
مَدَا سَفَرِي فِي رِحْلَتِي وَمُقَامِي
يَقُولُونَ هَلْ دَارَ الخِلاَفَةِ جِئْتَهَا
أَلاَ هَلْ لَهَا مَنْ لِلْحَقِيقَةِ حَامِي

وَهَلْ مِنْ كَرِيمٍ فِي حِمَاهَا سَمَا بِهَا
فَقُلْتُ بِهَا رَبُّ الْمَكَارِمِ سَامِي
وَزِيرٌ حَوَتْ مِنْهُ الوِزَارَةُ رِفْعَةً
تَسَامَتْ عَلَى أَبْنَاءِ حَامٍ وَسَامِ
وَزِيرٌ هَمَتْ بِالجُودِ لِلْخَلْقِ كَفُّهُ
فَفَاقَ بِجُودٍ لِلْبَرِيَّةِ هَامِي
يُعَمِّمُ بِالإِحْسَانِ وَالبِرِّ دَائِماً
رُؤُوسَ خَوَاصٍّ مِنْهُمُ وَعَوَامِ
[79] كَرِيمٌ فَعَّالٌ مُكَرَّمٌ زَانَ فِعْلَهُ [79]
بِإِكْرَامِ أَعْلاَمٍ وَبِرِّ كِرَامِ
فَيَا سَامِياً أَوْجَ المَعَالِي بِشِيمَةٍ
وَخَلْقٍ وَأَوْصَافٍ وَخَيْرِ أَسَامِ
تَسَامَيْتَ فِي نَيْلِ المَعَالِي مُنَافِساً
فَلاَ زِلْتَ بِالأَعْلَى النَّفِيسِ تَسَامِي
عَلَى مَنْهَجِ الأَسْلاَفِ سِرْتَ وَمَنْ يَسِرْ
عَلَى مَنْهَجِ الأَسْلاَفِ غَيْرُ مُلاَمِ
فَحِلْمُكَ مِنْ رَضْوَى أَشَدُّ رَزَانَةً
وَمِنْ جَبَلَيْ طَيٍّ وَشُمِّ شِمَامِ
بِكَ ٱفْتَخَرَ الأَبْنَاءُ فِي النَّاسِ فَافْتَخِرْ
بِأَبْنَائِكَ الغُرِّ الكِرَامِ وَسَامِي
هَنِيئاً بِشَهْرٍ زِنْتَ بِالصَّوْمِ يَوْمَهُ
كَمَا مِنْهُ زَيَّنْتَ الدُّجَا بِقِيَامِ
وَمِنْ بَعْدِهِ عِيدٌ سَعِيدٌ مُبَارَكٌ
يَخُصُّكَ إِجْلاَلاً بِطِيبِ سَلاَمِ

فَعِشْ عُمْرَ نُوحٍ فِي سُرُورٍ وَغِبْطَةٍ
وَمِنْ بَعْدِهِ تَحْظَى بِحُسْنِ خِتَامِ

وقد كانت إقامته بالآستانة في بيت صاحبه الشيخ محمّد ظافر وعليه كان اعتماده في نجاح مقاصده عند الحضرة السلطانية فكانت غنيمته من طول الإقامة خمسين ليرة عثمانية عطيّة له من السلطان على يد أستاذه. وبعد سفره أسف السلطان على عدم الاجتماع به مع ما هو عليه من حسن الذكر وكمال الفخر وسعة الباع ووفور الاطّلاع وفصاحة الألسن العربي والتركي والفارسي والهندي والحبشي وحسبه بذلك فخرًا أعلى (1) له بين الناس ذكرا. ولكن ان لم يساعد البخت تعطّلت الطرق وضاعت الفرص ولله في عباده علم غيب لا يعلمه إلاّ هو.

أمّا أدب الرجل وحسن إنشائه العربي فإنّه يوهم بأنّه أديب الحجاز وله من شعره لطائف. فمن ذلك قوله في الشاهي: (الطويل)

أَرَى كُلَّ مَا تَحْوِي مَجَالِسُ أُنْسِنَا
جُنُودًا (2) لِرَفْعِ الهَمِّ سُلْطَانُهَا الشَّاهِي
وَلاَ عَجَبَ إِنْ لَمْ تَتِمَّ بِدُونِهِ
فَمَا تَمَّ أَمْرٌ لِلْجُنُودِ بِلاَ شَاهِ

وفي ذلك قال أيضا: (الطويل)

[80] إِذَا مَجْلِسٌ لِلأُنْسِ تَمَّ انْتِظَامُهُ [80]
وَمَا دَارَ فِيهِ كَأسُ شَاهِي مُعْتَبَرْ
فَذَاكَ وَإِنْ حَازَ المَسَرَّاتِ نَاقِصٌ
وَمَا هُوَ فِي عَدِّ المَجَالِسِ يُذْكَرْ

(1) بالأصل: أعلا.
(2) بالأصل: جنود.

ومن ذلك قوله في تفضيل الحمام : (الرمــل)

اغْتَسِــلْ الدَّاءُ دَاءٌ لَيْسَ فِـيهِ مِنْ لَطَافَهْ
فَادْخُلِ الحَمَّامَ تَدْرِي كَيْفَ أَبْوَابُ النَّظَافَهْ

ومن ذلك قوله مضمنا : (الطويـل)

أتَانِـي مَنْ أهْوَى بِلَيْلٍ يَزُورُنِــي
فَطَالَ عَلَيَّ اللَّيْــلُ خَوْفًا مِـنَ الفَجْرِ
وَمِتُّ وَلاَ أدْرِي إذَا كَــانَ قَاتِلِــي
سُرُورُ امْتِدَادِ الوَصْلِ أمْ خَشْيَةُ الهَجْرِ

ومن ذلك قوله يشكو ما به من ضعف البدن مضمّنا (البسيط)

رُوحي مع الضَّعْفِ لم تَسْتَطِعْ لِتَخْرُجَ مِنْ
بَيْـنِ الشِّفَــاهِ فَأَلْقَـى عَاجِلا أجَلِي
مِنْ أجْلِ ذَلِكَ عُمْرِي امْتَدَّ بِـي زَمَنًا
وَرُبَّمَا صَحَّـتِ الأجْسَـامُ بِالْعِلَــلِ

ومن ذلك قوله : (المتقـارب)

أُرِيدُ عَلَى غَفْلَـةٍ أنَّنِــي أرَاهُ فَأُبْدِي لَهُ مَا أسْتَكِنْ
وَكَيْفَ أُرِيهِ اضْطِرَابَ الفُؤَادِ وَذَاكَ إذَا مَا رَآهُ سَكَنْ

ومن ذلك تشطيره بيتين للشيخ أحمد دحلان المكّي في الحثّ على طلب العلم وزاد في أثناء تشطيره لكلّ بيت آخر فقال : (الوافـر)

«بِحِفْظِ العِلْمِ يَسْمُــو كُلُّ عَبْـدٍ»
إذَا مَـا بِالتُّقَــى أمْسَــى يُسَامِــي
فَيُصْبِـحُ فِـي المَعَالِـي وَهْوَ سَـامٍ
عَلَـى الأقْـرَانِ مِـنْ حَـامٍ وَسَـامِ

وَيَكْرُمُ رَغْبَةً فِيهِ وَضَنًّا
« وَيَلْحَقُ بِالكِرَامِ مِنَ الأنَامِ »
« وَيَعْلُو قَدْرُهُ وَيَنَالُ فَخْرًا »
تَخِرُّ لَهُ البَوَاذِخُ (1) مِنْ شِمَامِ (2)
وَأمَّا مَنْ يُرِدْ بِالْعِلْمِ دُنْيَا
وَإنْ أثْرَى فَبِئْسَ أخُو الْحُطَامِ
[81] فَذَلِكَ خَاسِرٌ أبَدًا تَرَاهُ [81]
« بِدُنْيَاهُ وَفِي يَوْمِ القِيَامِ »

وقد اجتمعت بهذا العالم الجليل بالمدينة المنوّرة يوم وصولي إليها فإذا هو رجل عالم درّاكة لطيف الشمائل كريم الأخلاق ماجد ذُو هِمّة عالية وأيادٍ (3) بيضاء في وجه الدهر يقصد بيته أخصّ الزائرين من الحجّاج كلّ سنة وبيته منتدى لأدباء المدينة وعلمائها.يعتكف على تدريس نفائس الأدب مثل الكامل للمبرّد وديوان الحماسة وأدب (4) الكاتب لابن قتيبة وديوان المتنبّي و آداب القالي ومقامات الحريري وما شاكل ذلك . ويقرىء الحديث والفقه والتوحيد والصرف والمعاني والبيان أيضا بحيث إنّه من أجلّ شيوخ المدينة .

وقد حضر عندي بمنزلي على ضعف ببدنه وإسهال يصاحبه ودعاني لضيافة عنده حضرها عدّة من خواصّ الوافدين منهم مولاي إدريس بن عبد الهادي الفاسي وعصمت أفندي قاضي المدينة وإبراهيم رافت أفندي قاضيها السابق وبعض علماء نجد وغيرهم من علماء المدينة رضي الله عنهم أجمعين . وقد انتَبْتُ بيتَه مرارا كثيرة وحضرت مسامراته الرائقة وأنشدني له بيتين ذكر لي أنّ جميع أدباء المدينة شطّروها واقترح علي تشطيرهما فقلت : (البسيط)

(1) باذخ بواذخ : متكبر ، مرتفع .
(2) شمم : ارتفع .
(3) بالأصل : أيادي .
(4) بالأصل : آداب .

«نَاوَلتُ ذَاتَ البَهَاءِ المِرْآةَ (1) أُوهِمُهَا»
أَنِّي حَفِظْتُ بِهَا عِنْدِي مُضَاهِيهَا
وَلِلْفُتُغْرَافِ نَصٌّ فِي مُخَيِّلَتِي
«بِأَنَّ فِيهَا لَهَا شَكْلاً يُحَاكِيهَا»
«حَتَّى إذَا مَا رَأَتْ فِيهَا مَحَاسِنَهَا»
مَرْسُومَةً سَلَبَتْ لُبًّا لِرَائِيهَا
دَرَتْ بِمَا حَلَّ فِي فِكْرِي بِهَا وَلِذَا
«طَالَتْ وَتَاهَتْ عَلَى عُشَّاقِهَا تِيهَا»

وهو الذي اقترح عليّ التكلّم في المخترعات الجديدة بالتشابيه الأدبية فنظمت قصيدتها النونية بسبب اقتراحه (2) .

ولما حضرت في بيته يوم عاشوراء رويت عنه المسلسل بيوم عاشوراء عن شيخه نعمة الله عن الشيخ [82] الأمير الكبير بسنده في ثبته بعد أن رويت [82]
عنه المسلسل بالأولية أوّلا عن شيخه سخاوت علي عن الشيخ محمّد يعقوب عمدة شيوخ الشيخ عابد الهندي صاحب الثبت الأكبر ثم أجاز لي بجميع الأثبات التي يتّصل بها إجازة مطلقة. ومن حسن شمائله أنّه لم يسلّم لي منه الإجازة إلاّ على شرط أن نجيز له بما لي فيه سند عن أشياخي التونسيين وغيرهم فأجزت له امتثالا لأمره ورغبة في الحصول على إجازته وبعد قبوله منّي الإجازة سلّم لي إجازته الفاخرة وهذا نصّها :

«الحمد لله الذي خصّ الأمّة المحمّدية بحفظ الإسناد وشرّفهم بهذه المرتبة عن سائر العباد * وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له المرشد

---

(1) بالأصل : مرآت .

(2) هذه القصيدة تعد 118 بيتا وقد أثبتها المؤلف في الجزء الأول من هذه الرحلة الحجازية من صفحة 107 إلى صفحة 136 في تحقيقنا . طبعة الشركة التونسية للتوزيع . تونس 1976 .

إلى سبيل الرشاد * وأشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمّدا عبده ورسوله سيّد العباد والزهاد وعلى آله الطاهرين وأصحابه الهادين المهديّين * وتابعيهم ومن تبعهم إلى يومَ الدين *

وبعد فيقول فقير ربّه وأسير رحمته وذنبه عبد الجليل ابن عبد السلام برّاده المدني مولدا ومنشأ، الحنفي مذهبا، الماتريدي عقيدة، النقشبندي طريقة، عامله الله سبحانه وتعالى بلطفه في جميع أموره: لما منّ الله عليّ بملاقاة الشاب الصالح التقي * والشهم الألمعي الزكي * العالم العلاّمة * والحبر الفهّامة * صاحب التصانيف العديدة * والتآليف المفيدة * والنظم الفائق * والنثر الرائق * أبي (1) عبد الله سيّدي السيّد محمّد بن عثمان السنوسي التونسي ورغب فيّ أن أكتب له إجازة بما وصل إليّ من الآثار * وتيسّر عندي من رواية مشائخي الأخيار الأبرار * وذلك من حسن نيّته * وصفاء قلبه وطويّته * وإلاّ فأنا لا أعتقد أهليّتي بذلك .

لكن لم يسعني إلاّ الإسعاف * وسلوك جادة الوفاق وترك الخلاف * فأقول معتمداً على فضل الله تعالى قد أجزت سيدي الأستاذ المومى إليه [83] بكلّ مروياتي ومسموعاتي وما تجوز لي روايته كما أجازني به أشياخي الجلّة الأعلام * مصابيح الظلام * المحرّرة مسانيدهم . ومن جملة ذلك إجازة شيخنا العالم الفاضل الورع الزاهد التقي العابد من أجمعت الأمّة على كماله ونزاهته * واتّفقت الكلمة على حسن سيرته وسعة روايته * سيّدي الشيخ عبد الغني ابن سيّدي الشيخ أبي سعيد الدهلوي العمري المجدّدي أجازني إجازة عامّة بما حواه ثبته المسمّى باليانع الجني وبما حواه ثبت شيخه سيّدي الشيخ عابد السندي وبما اشتمل عليه ثبت الشيخ ابن عقيلة بطرقه المذكورة وروايته المشهورة بعد قراءتي عليه الصحاح الستّة وكثيرا من الكتب في الفنون . [83]

(1) بالأصل : أبو .

وأعلى من هذا الإسناد ما أجازني به العالم الفاضل مفتي المدينة المنورة سيّدي السيّد إسماعيل البرزنجي المدني الشافعي فإنّه يروي عن العلاّمة الشيخ صالح الفلاني العمري شيخ الشيخ محمّد عابد السندي. وأعلى من هذين (1) ما أجازني به العالم الفاضل المعمّر منّة الله المالكي الأزهري عن شيخه واحد الزمان الشيخ محمّد الكبير الأمير. وكتب لي الإجازة يوم عاشوراء سنة ثمان وثماني (2) وكان شيخه الشيخ الأمير الكبير كتب له ذلك وأجازه يوم عاشوراء أيضا وقد أجزته أنا أيضا يوم عاشوراء. فهذا من التصادف الذي يقع أعيانا (3).

وأجازني بكلّ ما حواه ثبت الشيخ الأمير الكبير أيضا شيخنا العالم الفاضل سيّدي الشيخ محمّد عليش عن الأمير الصغير عن جملة مشائخ من علماء الأزهر وأيضا لي إجازات أخر من مشائخ عديدة وعلماء أكابر يطول ذكرهم فلنكتف بهذا المقدار. وقد أجزت سيّدي محمّد المذكور بجميع ذلك راجيًا منه صالح الدعاء. موصيا نفسي وإيّاه بالتقوى والتحرّي في الدين واتّباع سيّد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله [84] ربّ العالمين. وكتب ليلة الإثنين المبارك السادس عشر من محرّم الحرام عام ثلاثمائة وألف (4) بالمدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل التحيّة. [84]

(1) بالأصل: هاذين.
(2) يوافق: أفريل سنة 1871.
(3) كذا بالأصل واستقامة السياق تقتضي كلمة: أحيانا.
(4) يوافق: 27 نوفمبر سنة 1882.

السيد علي الوتري

هو المحدّث الشيخ علي بن ظاهر بن عمر بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الوتري الجيلي الموسوي الحسيني البغدادي ثمّ المدني قدم والده السيّد ظاهر من بغداد إلى المدينة مجاورًا في عشرة الأربعين بعد المائتين وألف وتوفي بالمدينة تاسع ربيع الأوّل سنة إحدى وسبعين (1) وولد صاحب الترجمة سابع عشر ذي القعدة الحرام سنة إحدى وستين (2) ونشأ بالمدينة في طلب العلم فأخذ الحديث عن الشيخ عبد الغني المجددي العمري الدهلوي والفقه عن الشيخ يوسف الغزّي شيخ الإسلام بالمدينة والنحو عن الشيخ محمّد الموافي الزمياطي والشيخ أحمد دحلاق والمعقولات والرياضيات عن الشيخ حبيب الرحمان الهندي واللّغة والأدب عن الشيخ عبد الجليل برّاده والشيخ منّة الله الأزهري والشيخ عبد الغني الميداني الدمشقي والشيخ محمّد الصحوي اليمني والشيخ صديق المكّي والشيخ علي الوهبيني المصري .

واجتمع بكثير من الفحول وحصل في العلوم على إجازات وأسانيد قلّ أن يوجد مثيلها مجتمعا عند غيره . وصاحب الشيخ عبد الجليل برّاده في ارتحاله إلى مصر والآستانة ومن هنالك وفد على حاضرة تونس سنة ستّ

(1) يوافق : 30 نوفمبر سنة 1854 .

(2) يوافق : 17 نوفمبر سنة 1845 .

وثمانين ومائتين وألف (1) ونـزل بمدرسة بئـر الحجار وفي صحبته الشاب محمّد علي ربيب الأفندي عبد الجليل برّاده وعند ذلك اجتمعت به واغتنمت صحبته ومؤانسته وحيث كنت في ذلك العهد مُشْطِـًا (2) عـلى النظم نظمت في تهنئته بالوفود إلى تونس قصيدة وهي قولي : (الكامـل)

[85] بُشْرَى بِإِغْفَاءِ الزَّمَانِ المُجْحِفِ [85]
حَتَّـى بَـدَا فِـي القُطْـرِ نَجْمُ الأَشْـرَفِ
فَتَبَاشَـرَتْ بِطُلُوعِـهِ قُضُبُ الرُّبَـا
وَتَمَايَلَـتْ أَغْـصَانُهَـا بِتَعَطُّفِ
وَالـوَرْدُ مِنْـهُ أَلِيَـنَ بَعْـدَ تَشَـوُّكِ
وَالنَّهْـرُ مِنْـهُ جَرَى بُعَيْدَ تَوَقُّفِ
وَأَتَـتْ تُـدِيـرُ كُـؤُوسَهَـا رُسُلُ البَشَـا
ئِرِ فَاحْتَسَى مِنْهَـا الـوَرَى بِتَلَطُّفِ
فَاحْضُرْ خَلِيلِـي حَـوْلَ رَوْضٍ وُشِّحَتْ
أَغْصَانُـهُ بِـزَوَاهِـرٍ لاَ تَخْتَفِـي
وَانْشُقْ أَرِيجَ نَسِيمِهِ فَهْوَ الَّـذِي
يُـزْرِي بِنَفْـحِ الطِّيـبِ عَرْفا وَاقْطُفِ
وَانْظُرْ بِهِ حُسْنًـا بَـدِيعًـا قَـدْ بَـدَا
يُغْنِيكَ عَـنْ صُبْـحٍ بِوَجْـهِ الأَهْيَفِ
وَأَصِـخْ إِلَـى صَوْتِ الهَـزَارِ وَقَـدْ رَنَـا
بِـهَنَـاءِ تُـونِـسَ مَـأْمَـنِ المُتَخَوِّفِ
إِذْ حَلَّهَا نَجْـمُ الأَئِـمَّـةِ عَالِـمُ الدُّنْـ
ـيَـا أَبُو الحَسَـنِ الزَّكِـيُّ الأَعْـرَفِ

(1) يوافق : 1869–1870 .
(2) بالأصـل : شلطـا .

الأشْـرَفُ بْنُ الأشْـرَفِ بْنِ الأشْـرَفِ ابْـ
نِ الأشْرَفِ بْنِ الأشْرَفِ بْنِ الأشْرَفِ
طـودُ المَـكَـارِمِ وَالمَـفَـاخِـرِ وَالعُـلاَ
بَـدْرٌ مُنِـيـرٌ نُـورُهُ لاَ يَخْتَفِـي
عَلَـمٌ هُمَامٌ مِصْقَـعٌ مُتَضَلِّـعٌ
فِـي كُـلِّ فَـنٍّ مَنْطِقِـيٌّ صَيْرَفِـي
بَـلْ ذَاكَ مِـفْتَـاحُ المَعَارِفِ كُلِّهَا
كَشَّافُهَـا وَبِغَيْـرِهِ لَمْ تُكْشَفِ
بَحْـرٌ إذَا قَـذَفَ الجَوَاهِـرَ فِكْـرُهُ
قِـرْطَاسُهُ يَبْـدُو بِـدُرٍّ مُـرَصَّفِ
بَدْرٌ تَطَلَّعَ فِـي سَمَاءِ الْمَذْهَبِ النُّعْـ
ـمَانِـي يُـزْرِي لَفْظُـهُ بِالقَـرْقَفِ (1)
حَتَّـى لَقَدْ سَعِدَتْ بِهِ الأعصَارُ وَالْـ
أَقْطَارُ فَهْوَ كَمَا السَّحَابِ الأوْكَفِ(2)
مَنْ رَامَ يَحْظَـى مِـنْ شَوَاذِرِ فَضْلِهِ
بِالعَشْرِ لاَ يَحْظَى بِغَيْـرِ تَكَلُّـفِ
يَا أيُّهَا العَلَمُ الشَّهِـيرُ وَخَيْـرُ مَـنْ
يَخْتَـالُ فِـي عِـزٍّ جَلِـيلٍ أوْرَفِ
وَافَتْ إلَيْكَ عَقَائِلُ البُشْرَى فَغُضَّ
الطَّرْفَ عَـنْ عَيْـبٍ بِـهَا إذْ لَـمْ تَفِ
مَا مَهْرُهَـا غَيْـرُ القَبُـولِ وَلَحْظُهَـا
بِـرِضَاكَ وَهْـوَ أجَـلُّ قَصْدِ الأعْـرَفِ

---

(1) القرقف : الخمر ، الماء البـارد .
(2) الواكف : المطر المنهـل .

لاَ زِلْتَ بَدْرًا لاَ خَفَاءَ لِنُورِهِ
مَا يَقْرَأُ التَّالُونَ آيَ الْمُصْحَفِ

[86] [86] واجابني عن ذلك من رقيق شعره بقوله : (الكامل)

وَافَتْ تَمِيسُ بِغُصْنِ قَدٍّ أَهْيَفِ
حَسْنَاءُ تَرْفُلُ فِي ثِيَابِ تَعَفُّفِ
أَمْسَتْ تَتِيهُ عَلَى البُدُورِ بِحُسْنِهَا
وَجَمَالِهَا الزَّاهِي بِغَيْرِ تَكَلُّفِ
وَغَدَتْ تَزِيدُ عَلَى الشُّمُوسِ إِنَارَةً
بِضِيَاءِ وَجْهٍ نُورُهُ لَمْ يَكْسَفِ
فَتَبَلَّجَتْ أَرْجَاؤُنَا لِقُدُومِهَا
وَتَأَرَّجَتْ مِنْهَا بِطِيبِ تَعَرُّفِ
لِمَ لاَ وَنَاسِجُهَا وَنَاظِمُ عِقْدِهَا
فِي بِدْعِ مِنْوَالٍ وَحُسْنِ تَأَلُّفِ
عَيْنُ الأَفَاضِلِ مَنْ تَسَمَّى بِاسْمِ مَنْ
حَازَ العُلاَ دُونَ الخَلاَئِقِ وَاصْطُفِي
أَعْنِي السَّنُوسِيَّ الَّذِي مَن جده
من جده فِي كُلِّ مَنْقَبَةٍ وَفِي
أَكْرِمْ بِهِ مِنْ بَارِعٍ مُتَفَنِّنٍ
قَدْ رَقَّ طَبْعًا كَادَ مِنْهُ يَخْتَفِي
بَلْ سَادَ أَقْرَانًا بِجَوْدَةِ نَثْرِهِ
وَقَرِيحَةٍ فِي النَّظْمِ لَمْ تَتَوَقَّفِ
نَحْوُ الْعُلُومِ وَصَرْفُهَا بِقِيَادِهِ
كَمْ قَدْ حَوَى ظَرْفًا وَحُسْنَ تَصَرُّفِ

حَبْـرٌ لَـهُ فَضْـلٌ يَقْصُرُ حِـبْـرُنَا
وَيَـرَاعُنَـا عَـنْ رَقْمِـهِ بِالأحْـرُفِ
أبْـدَى الْعَجَائِـبَ وَالْغَـرَائِـبَ لَفْظُهُ
يَـا حَبَّـذَا لَفْـظٌ لَدَيْـهِ كَقَرْقَفِ
لاَ عَيْـبَ فِـيهِ سِـوَى بَشَاشَـةِ وَجْهِـهِ
وَكَلاَمِـهِ الْمُسْتَعْذَبِ الْمُسْتَلطَفِ
يَـا أيُّـهَـا الرَّاقِـي إلَـى أوجِ الْعُـلاَ
بِـبَرَاعَـةٍ وَذَكَاوَةٍ لاَ تَنْطَـفِـي
أقْبِـلْ فَدَيْتُـكَ قِطْعَـةً مِـنْ قَاصِرٍ
فِـيمَا وُلِـيتَ مِـنَ المَحَاسِـنِ وَاسْعَفِ
لاَ زِلْتَ فِـي ثَـوْبِ ٱلمَعَالِـي رافِـلاً
فِي هـاتـه الُّـدنْـيَـا وَيَــوْمَ ٱلْـمَـوْقِفِ

[اجتماع علي الوتري بالوزيرين مصطفى خزنة دار وخير الدين]

وفي ذلك العهد اجتمع بالوزير الاكبر (1) والوزير المباشر (2) وامتدحهما ونال منهما جائزة كما نال من الدولة عطيّة قرّت بها عينه وآب شاكرا للبلاد وقد استمليته القصيدة التي امتدح بها الوزير المباشر خير الدين وهي تهنئة له بدخول عام 1287 (3) فكتبها إلي بخطّه وهي قوله : (الكامل) [87] [87]

نُظِـمَ السُّـرُورُ مَعَ الهَنَـا فِـي دَفْتَـرِ
وَافَاكَ يَسْحَـبُ ذَيْـلَـهُ بِتَبَخْتُـرِ

(1) هو مصطفى خزنة دار . انظر : أعلاه صفحة 66 تعليق رقم 1 .
(2) هو خير الدين باشا . انظر : خير الدين التونسي ، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تحقيق المنصف الشنوفي ، ط 2 ، تونس 1972 .
(3) يوافق : أفريل سنة 1870 .

وَكَذَا البَشِيرُ بِنُجْحِ سَعْدِكَ طَالِعٌ
فِي أُفْقِ مَجْدِكَ كَالصَّبَاحِ المُسْفِرِ
فَلأَنْتَ بَدْرٌ إِنْ تَطَلَّعَ كَامِلٌ
وَلأَنْتَ لَيْثٌ عِنْدَ عَزْمَتِهِ جَرِي
حُزْتَ الفَضَائِلَ وَالمَكَارِمَ جُمْلَةً
مِنْهَا ٱلَّتِي حُصِرَتْ وَمَا لَمْ تُحْصَرِ
وَحَدِيثُ وَصْفِكَ بِالمَحَاسِنِ مُسْنَدٌ
يَرْوِيهِ جَمٌّ عَنْ عَطَاكَ الأَكْبَرِ
كَمْ مِنْ يَدٍ لَكَ فِي رِقَابِ أَمَاجِدَ
صَغُرَتْ لَدَيْكَ وَعِنْدَهُمْ لَمْ تَصْغُرِ
كَمُلَتْ دِيَانَتُكَ الفَخِيمَةُ فِي الوَرَى
فَدُعِيتَ فِيهِمْ لِلْكَمَالِ بِأَخْيَرِ
وَإِذَا الْمَنَاقِبُ عُدِّدَتْ فِي مَجْمَعٍ
كُنْتَ المُرَادَ حَضَرْتَ أَمْ لَمْ تَحْضُرِ
جَاءَتْ بِكَ الأَيَّامُ سَهْوًا آخِرًا
وَلأَنْتَ بِالتَّقْدِيمِ وَاللَّهِ حَرِي
فَسَبَقْتَ فِي العَلْيَاءِ أَجْيَادًا إِلَى
أَنْ حُزْتَ قَصَبَ السَّبْقِ غَيرَ مُحْجَرِ (1)
وَسَقَيْتَ مَاءَ الفَخْرِ مِنْكَ وِزَارَةً
فَأَتَتْ بِزَهْرٍ مِنْ ثَنَاكَ الأَعْطَرِ
كُلُّ الوُفُودِ تَؤُوبُ مِنْكَ بِقَصْدِهَا
وَلِسَانُهَا يَشْدُو مُرُورَ الأَعْصُرِ

(1) أحجره : غطاه وستره .

مَنْ أمَّ خَيْرَ الدِّينِ وَافَاهُ النَّدَا
مُسْتَعْجِلاً جَزْلا بِغَيْرِ تَأخُّرِ
أنَا ذَا نَزِيلُكَ أدْرَكَتْنِي حِرْفَةُ الأ
دَبِ الشَّهِيرَةُ فِي الزَّمَانِ الأعْسَرِ
لَمْ يُقْصِنِي عَنْ دَارِ أشْرَفِ مُرْسَلٍ
شَيْءٌ سِوَى دِينِ العِبَادِ المُقْهَرِ
وَبِجُودِ كَفِّكَ قَدْ شَفَعْتَ فَإنَّهُ
نِعْمَ الوَسِيلَةُ وَهْوَ أسْنَى مَزْخَرِ
فَامْنُنْ وَجُدْ بِالفَضْلِ إنِّي قَائِمٌ
بِثَنَائِكَ البَاقِي بِقَاءَ الأدْهُرِ
وَاهْنَأ بِعَامٍ قَدْ أتَاكَ مُقَابِلٍ
لَوْلاَ وُجُودُكَ نَادِرٌ لَمْ يَنْدُرِ
خُذْهَا إلَيْكَ بِلاَ انْتِقَادِ إنَّهَا
مَعْ مَحْضِ الاسْتِعْجَالِ قَوْلُ مُقَصِّرِ
لاَ زِلْتَ تَبْقَى كُلَّ يَوْمٍ رَافِلاً
أوجَ العُلاَ فِي ظِلِّ (1) عَيْشٍ أخْضَرِ
مَا قَالَ وِتْرِيٌّ بِطِيبَةَ دَارِهِ
نُظِمَ السُّرُورُ مَعَ الهَنَا فِي دَفْتَرِ

[عود إلى ترجمة السيد علي الوتري]

[88] وأخذ في ذلك العهد ثبت الشيخ المكودي عن الشيخ الشاذلي بن صالح أجاز له به إجازة أجَازَ بِهَا لِغَيْرِه مدّة إقامته بتونس ورجع إلى المدينة المنوّرة بعد تمكّن الألفة وتمام المواصلة واستمرّت بنا أحسن المراسلة . [88]

(1) بالأصل : ضل .

ثمّ أعاد الرحلة إلى المغرب بعد أن حجّ سنة 1296 (1) . ودخل الجزائر وروى عنه أكثر شيوخها وحصل على الوصول إلى سلطنة المغرب بفاس ولاقى من إقبال علمائها ما هو أهله وأكرمه سلطانها مولاي حسن (2) . وأخذ عنه جملة من العلماء . ومدح لي من نشأة أدبائها الشريف البارع أبا عبد الله محمّد الفاطمي . وله معه مواصلة أدبية وعند رجوعه إلى الجزائر أقام بها لبثّ الحديث وتصدّى لإقراء الأربعين النووية بجامعها . وعظم اجتماع الناس عليه فلاطفه حكام البلد من الأجانب واكتروا له وسافر إلى المدينة .

وعند دخولي إليها قصدت بيته في زقاق الدرّة وعنده كان نزولي مدة إقامتي هنالك . ولاقيت من برّه وإكرامه ما نشكره وهو في المدينة من أخصّ محدّثيها وعلمائها الكرام دروسه في الحرم الشريف مشهورة مشكورة. وصاحبني في إحدى الليالي إلى الحرم وأوقفني فيه على جميع المراسم النبوية جزاه الله خيراً .

وهو عالم محدّث أكثر الناس ولوعا بكتب الحديث وتصحيح الأثبات وله منها ما يعزّ وجوده وقد رويت عنه أوائل الصحاح الستّة والشفا والمواهب ورويت عنه من ثبت الشيخ محمّد عابد السندي سبعة عشر مسلسلا ليلة الاثنين تاسع المحرم سنة 1300 (3) وهي المسلسل بالأولية وبالمصافحة وبالمشابكة وبوضع اليد على الرأس وبالعدّ في اليد وبالقبض على اللحية وبمناولة السبحة وبقراءة الفاتحة وبقراءة سورة (4) الصفّ وبقراءة آية الكرسي وبقوله : «والله إني أحبّك» وبالضيافة على التمر والماء وبالسؤال عن السنّ وبالتبسّم [89] وبالضحك وبقول «الله العظيم» وبقول «ها هو في جيبي» . [89]

وفي يوم عاشوراء رويت عنه المسلسل بيوم عاشوراء وجميع هاته المسلسلات وغيرها ممّا تضمّنه ثبت الشيخ عابد السندي أخذه عن الشيخ

(1) يوافق : ديسمبر سنة 1879 .

(2) ولي مولاي الحسن سلطنة المغرب الأقصى سنة 1873 وتوفي سنة 1894 . انظر : بروكلمان ، **تاريخ الشعوب والدول الاسلامية** ، الطبعة الفرنسية ، باريس 1949 ، ص 338 .

(3) يوافق : 20 نوفمبر سنة 1882 .

(4) بالأصل : صورة .

علي الوتري المذكور عن الشيخ عبد الغنـي الدهلوي تلميذ صاحب الثبـت المذكور المسمّى حصر الشارد . وهنا نتيمّن بذكر خصوص سند المسلسل بالمصافحة لما فيها من الوصلة الجسمانية زيادة على الروحية .

المسلسـل بالمصافحة

يقول كاتبه محمّد السنوسي: «صافحت المحدّث العالم السّيد علي ظاهر قال صافحت الشيخ عبد الغني الدهلوي قـال صافحت الشيخ محمّد عابد السندي قال صافحت السيّد أحمد بن سليمان الهجّام وصنوه السيّد أبا القاسم بن سليمان الهجّام والسيّد عبد الرزّاق البكاري صاحب القطيع والشيخ يوسف بن محمّد ابن علاء الدين الزجّاجي قالوا صافحنا السيّد أحمد بن محمّد شريف مقبول الأهدل قال صافحت الشيخ أحمد بن محمّد النخلي والشيخ عبد الله بـن سـالم البصري قالا (1) صافحنا الشيخ محمّد بن علاء الدين البابلي قال صافحت الشيخ الكبير أبا بكر ابن إسماعيل الشنوانـي قال صافحت الشيخ إبراهيم بن عبد الله العلقمـي قال صافحت الحافظ جلال الدين السيوطـي قال صافحت تقـي الدين الشحنـي قال صافحت أبا طاهر الكونك قال صافحت أبا إسحاق إبراهيم بن علي قال صافحت أبا عبد الله الخُوي قال صافحت أبا المجد بن يحيـى القزويني قال صافحت أبا بكر بن إبراهيم الشحاذي قال صافحت أبا الحسن بن أبـي زرعة قال صافحت أبا منصور عبد الرحمان بن عبد الله البزازي قال صافحت عبد الملك بن نُجيد قال صافحت أبا القاسم عبدان بن حميد المنجـي قال
صافحت عمرو بن [90] سعيد قال صافحت أحمد بن دهقان قال صافحت [90]
خلف بن تميم قال صافحت أبا هرمز حين دخلت عليه أعوده قال دخلت على أنس بن مالك رضي الله عنه نعوده فقال صافحت بكفّي هذا رسول الله (صلّـعم) فما مسست خزّا ولا حريـرا أليـن من كفّ رسـول الله (صلّـعم) . ثم قال

(1) بالأصـل : قالـوا .

أبو هرمز فقلنا لأنس صافحنا بالكفّ التي صافحت بها رسول الله (صلـعم) فصافحنا وقال السلام عليكم .

قال خلف بن تميم فقلنا لأبي هرمز صافحنا بالكفّ التي صافحت بها أنسا فصافحنا وقال السلام عليكم.ثم قال أحمد بن دهقان قلت لخلف صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا هرمز فصافحني وقال السلام عليكم.قال عمرو بن سعيد قلت لأحمد بن دهقان صافحني بالكفّ التي صافحت بها خلف بن تميم فصافحني وقال السلام عليكم. قال عبدان قلت لعمرو (1) صافحني بالكفّ التي صافحت بها أحمد بن دهقان فصافحني وقال السلام عليكم.قال عبد الملك قلت لعبدان صافحني بالكفّ التي صافحت بها عمرو بن سعيد فصافحني وقال السلام عليكم. قال أبو منصور قلت لعبد الملك صافحني بالكفّ التي صافحت بها عبدان فصافحني وقال السلام عليكم.قال أبو الحسن ابن أبي زرعة قلت لأبي منصور صافحني بالكفّ التي صافحت بها عبد الملك فصافحني وقال السلام عليكم.قال أبو بكر الشحاذي قلت لأبي الحسن صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا منصور فصافحني وقال السلام عليكم. قال أبو المجد قلت لأبي بكر صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا الحسن بن أبي زرعة فصافحني وقال السلام عليكم. قال الخوي قلت لأبي المجد صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا بكر فصافحني وقال السلام عليكم.
قال أبو اسحاق قلت للخوي صافحني بالكفّ التي صافحت [91] بها أبا [91]
المجد فصافحني وقال السلام عليكم.قال أبو الطاهر قلت لأبي إسحاق صافحني بالكفّ التي صافحت بها الخوي فصافحني وقال السلام عليكم. قال التقي المثمني قلت لأبي طاهر صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا إسحاق فصافحني وقال السلام عليكم. قال الحافظ السيوطي قلت للتقي المثمني صافحني بالكفّ التي صافحت بها أبا طاهر فصافحني وقال السلام عليكم. قال أبو بكر الشنواني قلت للعلقمي صافحني بالكفّ التي صافحت بها

(1) بالأصل : عمر .

الحافظ السيوطي فصافحني وقال السلام عليكم. قال البابلي قلت للشنواني صافحني بالكفّ التي صافحت بها العلقمي فصافحني وقال السلام عليكم.

قال الشيخ أحمد النخلي والشيخ عبد الله بن سالم البصْري قلنا للشيخ محمّد البابلي صافحنا بالكفّ التي صافحت بها الشنواني فصافحنا وقال السلام عليكم. قال السيد أحمد بن محمّد قلت للشيخ أحمد النخلي والشيخ عبد الله بن سالم البصري صافحاني بالكفّ التي صافحتما بها الشيخ محمّد البابلي فصافحاني وقالا السلام عليكم. قال مشائخي قلنا للسيد أحمد بن محمّد شريف صافحنا بالكف التي صافحت بها الشيخ أحمد بن محمد النخلي والشيخ عبد الله بن سالم البصري فصافحنا وقال السلام عليكم. قلت لمشائخي كلّ واحد منكم على سبيل الانفراد صافحوني بالكفّ التي صافحتم بها السيّد أحمد بن محمد شريف فصافحوني وقالوا السلام عليكم.

وصافحت ولي الله تعالى العارف السيد عبد الرحمان ابن سليمان بن يحيى بن عمر مقبول الأهدل قال صافحني أبي قال صافحت السيد أحمد بن شريف مقبول الأهدل بسنده وشيخنا السيد عبد الرحمان ابن سليمان صافح الشيخ أمر الله بن عبد الخالق المزجاجي قال صافحت الشيخ محمّد بن أحمد بن سعيد المعروف والده بقتيلة قال صافحت الشيخ أحمد النخلي
[92] والشيخ عبد الله بن سالم [92] البصري بسنده المتقدّم قال السيّد علي ظاهر وأنا قلت لشيخنا عبد الغني صافحنا بالكفّ التي صافحت بها الشيخ عابد فصافحني وقال السلام عليكم. وأقول انا قلت للسيّد علي الوتري صافحني بالكفّ التي صافحت بها الشيخ عبد الغني فصافحني وقال السلام عليكم.

هذا وقد كتب لي الشيخ المذكور إجازة ذكر فيها بعض أسانيد مهمّة وأطلقها وهذا **نصّها** :

بسم الله الرحمان الرحيم * الحمد لله الذي جعل الإسناد من الدين * ومن الطرق الموصّلة إلى سيّد المرسلين * والصلاة والسلام على المبعوث لكافّة الخلائق

اجمعين ، القائل : «مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » ، وعلى آله وأصحابه الطيّبين الطاهرين ، أما بعد فان الاشتغال بالعلوم من أفضل الطاعات ، وأسنى القربات ، وكان خير العلوم وأفضلها ، وأقربها إلى الله وأكملها ، علم الشريعة المحمّدية ، ولا سيّما علم السنّة النبويّة ، ومن خصائص هذه الأمّة اتّصال سندها بنبيّها ، وتوارث هذه المنقبة في ضعيفها وقويّها ، وقد بذل السلف الصالح في تحصيله هممهم العلية ، وأفكارهم الألمعية ، ففي أوّل صحيح مسلم عن عبد الله ابن المبارك الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء . وقال الشافعي رحمه : «الذي يطلب الحديث بلا سند كحاطِبِ لَيْلٍ يحمل الحطب وفيه أفعى وهو لا يدري».وقال الامام الطوسي : «قرب الأسانيد قرب الله سبحانه وتعالى».

وقد منّ الله سبحانه عليّ بالاجتماع ، في أشرف بقاع ، بالأديب الفاضل ، والأريب الكامل ، اللوذعي الذكي ، الألمعي الزكي ، الباهر ألباب العقول ، بفوائد المنقول والمعقول ، من نظم اللآلي والدراري ونثر ، وجدد ما درس من مغاني المعاني ودثر ، الكامل الفاضل أخينا اللطيف الظريف ، سيدي محمّد بن سيّدي عثمان السنوسي[93]الشريف ، نفعه الله بالعلم والعمل به ، ووصل أسبابنا أجمعين بسببه ، [93]
بعد أن اجتمعت به عام ست وثمانين (1) بتونس المأنوسة فآنسني بمجالسته وأنساني الأهل بمؤانسته . ثم إنّه حفظه الله قاده صدق النية وحسن الطوية إلى طلب الإجازة من الفقير الحقير ، الذي ليس في العير ولا في النفير ، فامتثلت أمره رجاء دعوته بعد أن سمع مني الحديث المسلسل بالأولية والمسلسل بيوم عاشوراء والمسلسل بقراءة سورة الصفّ وصافحته وشابكته وناولته السبحة وأضفته على الأسودين وغير ذلك من المسلسلات .

وقرأ عليّ أوائل الكتب الستّة والموطّأ والشمائل والشفا والمواهب اللدنية والحزب الأعظم ودلائل الخيرات وحزب الإمام النووي والدور الأعلى وغير ذلك فأقول مبترا من القوة والحول : «قد أجزت الفاضل المذكور بما تجوز لي

(1) يوافق : 1869–1870 .

روايته ، وتصحّ عنّي درايته ، من منقول ومعقول ، فروع وأصول ، إجازة تامة ، مطلقة عامة ، بما قرأه عليّ أو سمعه منّي أو لم يقرأه ولم يسمعه . كما أجازني بذلك كذلك مشائخي الكرام ، وأساتذتي العظام ، كشيخنا الرُّحْلَة (1) المحدّث الشيخ عبد الغني المحمودي العمري الدهلوي ثمّ المدني النقشبندي .

فإنّي لازمته ولله الحمد ما يقرب من ستّ سنوات وقرأت عليه الصحاح الستّ وغيرها من كتب الحديث ومن المصطلح وجميع المسلسلات. وقد كتب لي الإجازة . وعمدته في الرواية شيخه الحافظ العلاّمة الشيخ محمّد عابد الشنوي الأنصاري المدني صاحب الثبت المسمّى بحصر الشارد من أسانيد محمّد عابد وهو ثبت كبير جدًّا لا يوجد فيما أعلم أكبر منه ولا أصحّ وشيخنا البركة بقيّة تلامذة الأمير الكبير العلاّمة سيّدي الشيخ منّة الله المالكي الأزهري فإنّه قد كتب لي الإجازة بعد أن سمعت [94] منه الحديث المسلسل بالأولية والمسلسل [94]
بيوم عاشوراء . وشيخنا العلاّمة الشيخ عبد الغني بن خليل باشا الميداني الدمشقي فإنّي قرأت عليه الشفا وشيئا من صحيح البخاري حين قدم إلينا عام الثمانين بعد المائتين والالف (2) وأجازني . وشيخنا العلاّمة المحقّق الدرّاكة المدقّق الشيخ يوسف الغزّي ثمّ المدني فإنّي لازمته في قراءة فنون عديدة كالفقه والحديث والبيان والمصطلح والتفسير وغير ذلك .

وقد أخذ عنّي تلامذة الأمير الكبير كالأمير الصغير والقدسي وشيخنا بركة الآفاق العالم على الإطلاق وحيد الأقران وفخر الزمان ابن دهم وقته سيّدي الشيخ السيّد حبيب الرحمان الموسوي السالاري الهندي ثم المدني فإني لازمته – حَفِظَهُ اللّهُ – في قراءة فنون عديدة ، وحصلت منه على فوائد فريدة ، وشيخنا العلاّمة النحوي الشيخ محمّد الموافي الزمياطي ثمّ المدني لازمته في قراءة النحو وقرأت عليه شيئا من

(1) العالم الرحلة : العالم يرتحل إليه من الآفاق .
(2) يوافق 1863–1864 .

الحديث وقد أخذ عن تلامذة الأمير الكبير أيضا وشيخنا العلامة ذي النفع العام مفتي بلد الله الحرام الشيخ السيّد أحمد زيني دحلان رئيس العلماء بمكّة المشرّفة الآن فاني لازمته في فنون عديدة وقرأت عليه بالطائف ومكّة والمدينة وشيخه العلاّمة الشيخ عثمان الزمياطي أخذ عن الأمير الكبير والشرقاوي والشنواني وهؤلاء الثلاثة لهم أثبات وشيخنا العلاّمة الفهّامة الشيخ محمد أبو خضير الزمياطي ثمّ المدني وشيخنا العلاّمة الشيخ محمد الضحوي اليمني وشيخنا العلاّمة الشيخ صديق كمال المكّي ولي ولله الحمدُ مشائخ لا يحصون كثرة وفيما ذكرناه كفاية وللتبرّك غاية .

أمّا الحديث المسلسل بالأولية فأرويه بالأولية الحقيقية عن شيخنا العلاّمة البركة الشيخ أحمد منّة الله [95] المالكي الأزهري وهو أوّل حديث سمعته [95]
منه.قال حدّثنا به محدّث الشام الشيخ عبد الرحمان الكزبري وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدّثنا به الشيخ بدر الدين محمّد بن أحمد المقدسي الشهير بابن بدير وهو أوّل حديث سمعته منه عن الشيخ أبي النصر مصطفى الزمياطي وهو أوّل حديث سمعته منه عن الشيخ محمّد بن أحمد بن عقيلة المكّي وهو أوّل حديث سمعته منه عن الشيخ الناساك أحمد بن محمّد الزمياطي المشهور بابن عبد الغني وهو أوّل حديث سمعته منه عن الشيخ المعمّر محمّد بن عبد العريز المنوفي وهو أوّل حديث سمعته منه عن الشيخ المعمّر أبي الخير بن عموس الرشيدي وهو أوّل حديث سمعته منه عن شيخ الإسلام زكرياء الأنصاري وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدثني به أبو الفضل الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدّثني به الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدّثني به الصدر أبو الفتح محمّد بن محمّد بن إبراهيم الميدومي وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدّثني به النجيب أبو الفرج عبد اللطيف بن عبد المنعم الحرّاني وهو أوّل حديث سمعته منه قال حدّثني به أبو الفرج عبد الرحمان ابن علي الحوزي وهو أوّل حديث سمعته منه قال أخبرنا به أبو سعيد إسماعيل

ابن أبي صالح المؤذّن النيسابوري وهو أوّل حديث سمعته منه فأخبرنا به أبو صالح وهو أوّل حديث سمعته منه قال أخبرنا به أبو طاهر محمّد بن محمّد بن حسن الزيادي وهو أوّل حديث سمعته منه قال أخبرنا به أبو حامد أحمد بن محمّد بن يحيى بن بلال البزاز بالزاي المكرّرة وهو أوّل حديث سمعته منه قال أخبرنا به عبد الرحمان بن بشر بن الحكم النيسابوري وهو أوّل حديث سمعته منه قال أخبرنا به سفيان [96] ابن عيينة وهو أوّل حديث سمعته منه عن عمرو بن دينار عن أبي قابوس مولى عبد الله بن عمرو بن العاص عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «الراحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَانُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ» (1). [96]

وأمّا **المسلسل بيوم عاشوراء** فإني أرويه في يوم عاشوراء عن شيخنا البركة أحمد منّة الله المالكي الأزهري وهو يرويه كذلك عن الشيخ الأمير الكبير وهو مذكور في ثبته المشهور. وأمّا صحيح البخاري (2) رحمه الله تعالى فإنّي أرويه – ولله الحمد – بسند لا يوجد أعلى منه في الدنيا عن شيخنا العلاّمة الرحلة الشيخ عبد الغني العمري المجدّدي النقشبندي الدهلوي ثم المدني قراءة ببحثٍ وتدقيق وهو عن شيخه الحافظ محمّد عابد الأنصاري السندي ثم المدني وهو عن شيخه خاتمة المحدّثين العلاّمة الشيخ صالح القطاني العمري المدني وهو عن شيخه المعمّر الشيخ محمّد بن سنة العمري الفلاني ثم المدني وهو عن شيخه أبي الوفا أحمد بن عجيل اليمني وهو عن مفتي مكّة قطب الدين محمّد بن أحمد النهرواني وهو عن الحافظ نور الدين أبي الفتوح أحمد ابن عبد الله بن أبي الفتوح الطاوسي عن المعمّر بابا يوسف الهروي المشهور بسيصَل سَالَة عن محمد بن شاذبخت الفارسي الفرغاني عن أبي لقمان

(1) حديث شريف.

(2) محمد بن اسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، محدث مشهور، ولد سنة 810/194 وتوفي سنة 870/256: له كتاب الصحيح، قضى 16 سنة في جمعه. انظر: **دائرة المعارف الاسلامية**، ط 2 ج 1 ص 1336–1337.

يحيى بن عمّار بن مقبل بن شاهان الختلاني أحد الأبدال بسمرقند بسماعه لجميعه على محمد بن يوسف الفربري عن البخاري فبيني وبين البخاري أحد عشر فتقع لي ثلاثياته بخمسة عشر وهو أعلى (1) ما يوجد .

وأمّا **صحيح الإمام مسلم** بن الحجّاج القشيري النيسابوري (2) فأرويه قراءة بَحْثٍ وتدقيق عن شيخنا الرُّحْلَة المذكور عن شيخه الحافظ الشيخ محمّد عابد السندي عن شيخه خاتمة المحدّثين الشيخ صالح الفلاني عن الشيخ [97] محمّد بن سنة الفلاني المعمّر عن مولاي الشريف محمّد بن عبد الله الدولاتي عن محمّد بن خليل بن اركماش الحنفي عن الحافظ بن حجر قال أخبرنا بجميع صحيح مسلم إجازةً الشيخ أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن محمّد النيسابوري مشافهة بالمسجد الحرام عن أبي الفضل سليمان بن حمزة المقدسي عن أبي الحسن بن الحسين بن علي عن الحافظ أبي الفضل محمّد بن نصر السلامي عن الحافظ أبي القاسم عبد الرحمان عن عبد الله ابن منوه عن الحافظ أبي بكر محمّد بن عبد الله بن محمّد زكرياء بن الحسن الجوزقي عن أبي الحسن علي بن عبدان النيسابوري عن مؤلّفه وهذا أعلى الأسانيد إلى مسلم . [97]

وأمّا سنن أبي داوود سليمان بن الاشعب السجستاني (3) فأرويها بالسند المتقدم إلى الحافظ ابن حجر العسقلاني عن أبي علي الفاضلي المعروف بابن المطرز عن أبي الخير علي بن محمّد الصّابوني عن أبي طاهر السيفي عن غالب بن علي بن أبي غالب عن محمّد بن إسماعيل الاسترابادي عن عبد الله ابن محمّد بن إبراهيم الأسدي عن أبي الحسن علي بن عبد المعروف بابن عبد عن مؤلّفها وهذا أيضا أعلى الأسانيد في سنن أبي داوود .

---

(1) بالأصل : أعلا .

(2) مسلم بن الحجاج القيشري النيسابوري ، صاحب الصحاح ، ولد سنة 202 وتوفي سنة 261 .

(3) أبو داود سليمان بن الاشعث الازدي السجستاني المحدث الشهير صاحب السنن ، ولد سنة 202 وتوفي سنة 275 .

وأمّا **سنن الترمذي** (1) فأرويها أيضا بالسند المتقدم إلى الحافظ بن حجر عن أبي إسحاق التنّوخي عن أبي الحسن علي بن محمّد بن حمرود بن جامع البندلجي أخبرنا أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الكروضي أخبرنا بجميعه القاضي أبي عامر محمود بن القاسم الأزدي وأبو بكر أحمد بن عبد الصمد الغُورَجي بضم الغين وفتح الراء قالا أخبرنا أبو محمّد عبد الجبّار الجراحي المروزي أخبرنا أبو العباس محمد بن أحمد بن محبوب المحبوبي عن مؤلّفها أبي عيسى الترمذي وبالسند قال حدّثنا موسى بن إسماعيل الغزاري بن بنت السدي قال حدّثنا عمر بن شاكر عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله (صلّعم) «يَأْتِي [98] عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ [98]
الصَّابِرُ مِنْهُمْ عَلَى دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَى الجَمْرِ (2)» وليس له ثلاثي غيره.

وأمّا **سنن النسائي** (3) الصغري المسماة بالمجتبى فأرويها أيضا بالسند المتقدّم إلى الحافظ ابن حجر عن أبي إسحاق التنّوخي عن أبي العبّاس أحمد ابن أبي طالب بن المحار عن أبي طالب عبد اللطيف بن محمّد بن علي القبيطي عن أبي زرعة طاهر بن محمّد بن أبي طاهر المقدسي عن أبي محمّد عبد الرحمان بن أحمد الدوني عن أحمد بن حسين الكسّار عن أبي بكر أحمد بن محمّد بن إسحاق السنّي الدينوي عن مؤلّفها الحافظ أبي عبد الرحمان أحمد ابن شعيب النسائي.

وأمّا **سنن ابن ماجه القزويني** (4) فأرويها بالسند المتقدّم أيضا إلى الحافظ ابن حجر عن أبي العبّاس أحمد بن عمر بن علي البغدادي اللؤلئي عن

---

(1) أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الترمذي توفي سنة 279/892–893. انظر: دائرة المعارف الاسلامية، ط 1 ج 4 ص 838–839.

(2) حديث شريف.

(3) أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب، صاحب السنن، توفي سنة 303/915. انظر: دائرة المعارف الاسلامية، ط 1 ج 3 ص 906.

(4) أبو عبد الله محمد بن يزيد الربعي بن ماجة القزويني، صاحب كتاب السنن، ولد سنة 209/824–825 وتوفي سنة 273/887. انظر: دائرة المعارف الاسلامية، ط 2 ج 3 ص 880.

الحافظ أبي الحجّاج يوسف بن عبد الرحمان المزّي عن شيخ الإسلام عبد الرحمان بن أبي عمر بن قدامة المقدسي عن الإمام موفّق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة عن أبي زرعة طاهر بن محمّد بن أبي طاهر المقدسي عن الفقيه أبي منصور محمّد بن الحسين بن أحمد الفومي القزويني عن أبي طلحة القاسم بن أبي المنذر الخطيب عن أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القطّان عن الحافظ أبي عبد الله محمّد بن يزيد القزويني وبالسند قال حدّثنا حيارة بن المغلس قال حدّثنا كثيّر بن سليم قال سمعت أنس بن مالك رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله (صلّعم) يقول: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُكْثِرَ خَيْرَ بَيْتِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ إِذَا حَضَرَ غَدَاؤُهُ وَإِذَا رُفِعَ (1) » وهو أوّل ثلاثياته وجملتها خمسة وكلّها بهذا السند .

وأمّا موطّأ إمام دار الهجرة مالك بن أنس رضي الله عنه برواية يحيى ابن يحيى اللّيْثِي الأندلسي فأرويه قراءة بحثٍ وتدقيق على شيخنا الرُّحْلَة المذكور عن شيخه الحافظ محمّد عابد السندي الأنصاري [99] عن شيخه الشيخ صالح الفلاني العمري وهو قرأه على شيخه المعمّر محمّد بن سنة قراءة بحثٍ وتدقيق وهو قرأه كذلك على مولاي الشريف محمّد ابن عبد الله الوقلاتي المعمّر وهو قرأه كذلك على شيخ الإسلام وصدر الأئمّة الأعلام أبي عثمان سعيد بن إبراهيم الجزائري عرف بقدودة وهو قرأه كذلك على قدوة الأئمّة وسند الأمّة أبي عثمان سعيد بن أحمد المقّري مفتي تلمسان ستّين سنة وهو قرأه كذلك على أبي عبد الله محمّد بن محمّد بن عبد الجليل التنسي وهو قرأه كذلك عن والده الحافظ محمّد بن عبد الله بن عبد الجليل وهو قرأه كذلك على العلم الناثر والمثل السائر أبي عبد الله محمّد بن مرزوق الحفيد وهو قرأه كذلك على أبي عبد الله محمّد بن جابر الوادي آشي قال حدّثنا أبو محمّد عبد الله بن محمّد بن هارون الطائي القرطبي وهو آخر من

---

(1) حديث شريف .

حدّث عنه قال حدّثنا القاضي أبو العباس أحمد بن يزيد بن بقيّ القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا محمّد بن عبد الرحمان بن عبد الحقّ الخزرجي القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا محمّد بن فرج مولى ابن الطلاع القرطبي مؤلّف كتاب أقضية رسول الله (صلّـعم) وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا القاضي أبو الوليد يونس بن مغيث الصغار القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا أبو عيسى يحيى بن عبد الله بن يحيى بن يحيى القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا عمّ أبي مروان عبيد الله بن يحيى القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال حدّثنا يحيى بن يحيى القرطبي وهو آخر من حدّث عنه قال أخبرنا إمام دار الهجرة أبو عبد الله مالك (1) ابن انس رضي الله عنه سماعا لجميعه إلاّ الأبواب الثلاثة الأخيرة من كتاب الاعتكاف وباب النكاح في الاعتكاف فإني شككت في سماعها فأرويها عن
زياد بن عبد الرحمان شيطون لأني كنت [100] سمعت جميعه منه قبل الرحلة [100]
بسماعه عن الإمام مالك رضي الله عنه وفي هذا السند مع علوّه لطائف من فنّ الإسناد كونه متصلا بالسماع وأن رجاله كلّهم مالكيون مغاربة فقهاء مشاهير مصنّفون وفي آخره كونهم من قرطبة وكلّ منهم آخر من سمع من شيخه وأوّله مسلسل بقراءة بحثٍ وتدقيق .

وأمّا كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى (2) فأرويه عاليا عن شيخنا العلامة الشيخ أحمد منّة الله المالكي الأزهري عن العلاّمة محمّد الأمير الكبير والسند مذكور في ثبته .

وأمّا المواهب اللدنية للإمام القسطلاني (3) وسائر تآليفه كشرحه على البخاري فأرويها عن الشيخ أحمد منّة الله المذكور عن الأمير الكبير عن شيخه

(1) بالأصل : ملك . أبو عبد الله مالك بن أنس ، ولد حوالي سنة 711/90 وتوفي سنة 179هـ. بالمدينة . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 1 ج 3 ص 218 .

(2) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي أبي الفضل عياض (1083/476—1149/544) . انظر : عياض ، تراجم أغلبية ، تحقيق محمد الطالبي ، تونس 1968 ، ص 19 .

(3) كتاب المواهب اللدنية بالمنح المحمدية لشهاب الدين القسطلاني (851—923) انظر : سركيس ، معجم ج 2 رقم 1512 .

العلاّمة السقّاط عن شارح المواهب سيّدي محمّد الزرقاني وسنده إلى صاحب المواهب مذكور في أوّل شرحه وأيضا سند شرح البخاري مذكور في ثَبَت الأميـــر .

وأمّا الشمائل للترمذي (1) فأرويها بالسند المتقدّم البخاري إلى مـولاي الشريف محمّد بن عبد الله الدُّولاتي عن الغرابـي عن الحافظ جلال الديـن السيوطـي عن علم الدين صالح بن عمر البلقينـي عن عمر بن محمّد بن أحمد البالسيتي قال حدّثتْنَا زينب بنت الكمال أحمد بن عبد الرحيم المقدسية سماعًا عن عجيبة بنت أبـي بكر البغدادية عن القاسم بن الفضل بن عبد الواحد قـال أخبرنا أبو القاسم أحمد بن محمّد البلخي إجازة قال أخبرنا أبو القاسم علي بن أحمد الخزاعـي قال أخبرنا الهيثم بن كليب الشاشـي قال أخبرنا أبـو عيسـي الترمـذي .

وأمّا كتاب الأذكار للإمام النووي (2) والأربعين له فأرويها عن شيخنا الرُّحْلَة الشيخ عبد الغني الدهلوي المجدّدي النقشبندي عن شيخه الشيخ محمّد عابد السندي عن مولاي السيّد عبد الرحمان بن سليمـان مقبول الأهدل عن أبيه عن أحمد بن محمّد شريف مقبول الأهدل عن السيّد يحيى [101] بن عمر [101]
مقبول الأهدل عن السيّد أبي بكر بن علي البطاح عن عمّه السيّد يوسف بن محمّد بطاح الأهدل عن السيّد طاهر بن حسين الأهدل عن الحافظ عبد الرحمان ابن علي الرفيع عن أبـي إسحاق إبراهيم بن أبـي القاسم ابن جمعان قال أخبرنا به شمس الدين محمّد بن عمر بن محمّد الجزري الدمشقي قال أخبرنا إسماعيل ابن عمر بن كثير البصري قال أخبرنا أبو الحجّاج المزّي عن شيخ الإسلام أبـي زكريـاء يحيى النـووي .

---

(1) كتاب الشمائل النبوية والخصائل المصطفوية لأبـي عيسى محمد الترمـذي . انظر أعلاه آخر صفحة 97 تعليق رقم 1 . انظر أيضا : سركيس ، معجم ، ج 1 رقم 632 .

(2) كتاب الاذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار لأبـي زكرياء يحيى النووي (631–677) . انظر : سركيس ، معجم ج 2 رقم 1876 .

وأمّا حزبه فأرويه عن العلاّمة الشيخ أحمد منّة الله المالكي الأزهري عن الأمير الكبير بسنده المذكور في ثبته .

وأمّا الحزب الأعظم جمع علي القاري فأرويه بالسند المذكور في صحيح البخاري إلى مولاي الشريف عن الشيخ عبد القادر الطبري الحسيني المكّي عن مؤلّفه .

وأمّا دلائل الخيرات فأرويها عن شيخنا الشيخ علي الحريري المدني عن الشريف سيّدي محمّد بن أحمد المدغري الحسني عن شيخه أبي البركات محمّد ابن أحمد بن أحمد المثني عن شيخه سيّدي أحمد بن الحاج عن شيخه سيّدي عبد القادر الفاسي عن شيخه سيّدي أحمد المقّري عن شيخه سيّدي أحمد بن أبي العباس الصمعي عن شيخه سيّدي أحمد بن موسى السملالي عن شيخه سيّدي عبد العزيز التبّاع عن مؤلّفها . ح وأرويها عاليا بدرجتين عن شيخنا الرُّحْلَة المذكور عن العلاّمة الشيخ إسماعيل أفندي الرومي عن شيخه الشيخ محمّد أفندي اخَصْخَوِي عن السيّد مرتضى الزبيدي شارح القاموس عن شيخه الإمام محيي الدين نور الحقّ أبي عبد الله الحسيني . عن السيّد سعد الله بن محمّد الهندي عن المعمّر عبد الشكور الحسني عن مؤلّفها . وهذا السند لا يوجد أعلى منه في الدنيا .

وأمّا الدور الأعلى لسيّدي محيي الدين بن عربي (1) قدّس سرّه وسائر تآليفه فأرويها عن الشيخ منّة الله عن الأمير الكبير وسندها مذكور في ثبته [102] . [102]

وقد أجزت الفاضل المذكور بما حواه ثَبت شيخنا الرُّحْلَة عبد الغني المسمّى باليانع الجني وثَبت شيخه المسمّى بحصر الشارد من أسانيد محمّد عابد

(1) أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن العربي الحاتمي الطائي ، يدعى الشيخ الأكبر ، ولد بمرسية سنة 1165/560 وتوفي سنة 1240/638 . من أكبر متصوفة الاسلام ، ويطلق عليه أيضا ابن عربي . انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2 ج 3 ص 729—734 .

وثَبت شيخه الشيخ صالح الفلاني المسمّى بقطف الثمر وثَبت شيخنا الأمير الكبير . وأجزته أيضا أن يجيز من رأى فيه الأهلية بشرطه المعتبر لدى أهل الحديث والأثر . وأوصيته وإيّاي بتقوى الله تعالى وملازمة طاعته والمحافظة على أوامره سرًّا وعلنًا وأن لا يزال لسانه رطبا من ذكر الله تعالى وليكن بعون الله على ما طلب حيث طلب لا حيث نهي .

وليحمد الله تعالى على النعمة بذلك فإنّه من أجلّ النعم والمسالك لأنّ الحمد قيد النعمة وصيدها قال صلّى الله عليه وسلم: لَوْ أنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِحَذَافِيرِهَا بِيَدِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي ثُمَّ قَالَ : «الحَمْدُ لِلَّهِ لَكَانَتِ الحَمْدُ لِلَّهِ أفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ (1)» . فأوصيه بخشية الله تعالى سرًّا وعلانية وأن لا يعجب بنفسه قال صلّى الله عليه وسلم «كَفَى بِالمَرْءِ فِقْهًا إذَا عَبَدَ اللَّهَ وَكَفَى بِالمَرْءِ جَهْلاً إذَا عَجِبَ بِرَأْيِهِ (1)» .

وأن لا ينساني من صالح دعائه عقب الدروس والأوراد نفعه الله بالعلم به . والتوفيق بالله عليه التوكّل والإنابة وهو حسبُنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم أبدا أوّلا وآخرا وظاهرًا وباطنا . قاله بفمه ورقمه بقلمه العبد الأحقر محمّد بن علي بن ظاهر الوتري الحسني المدني المدرّس بالمسجد الشريف النبوي على ساكنه أفضل الصلاة وأكمل التحيّة وذلك في ليلة الإثنين المباركة السادس عشر من محرّم الحرام عام ثلاثمائة وألف (2) من هجرة من له كمال العزّ ونهاية الشرف صلّى الله عليه وسلّم وشرّف وكرّم ومجّد وعظّم .

(1) حديث شريف .
(2) يوافق : 27 نوفمبر سنة 1882 .

الشيخ خليل الخربوتي

[103] [103] هو حامل راية مذهب أبي حنيفة (1) في المدينة المنوّرة أبو الضيا خليل بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الله الخربوتي نسبة إلى خربوت المسماة الآن بمعمورة العزيز قرب ديار بكر وهو اسم منحوت من خير البيوت . وقد ولد سنة خمسين ومائتين وألف (2) . ونشأ في طلب العلم بالمسجد النبوي من المدينة المنوّرة فقرأ على شيخ العلماء وأمين الفتوى الشيخ يوسف الغزّي ولازم الأخذ عنه تسع عشرة سنة إلى أن ختم عليه الجوهرة وألفية ابن مالك والخزرجية والبرهان المنطقي لكلنبوي ومنار الأصول والدرّ المختار بحواشيه وقطعة من المدارك وجامع الأصول لابن الأثير وصحيح البخاري وتفسير الجلالين وتفسير البيضاوي .

واشتهر بمزية استحضار المسائل الفقهية مع كمال التثبّت في صناعة التوثيق . وقد ارتحل من المدينة المنوّرة سنة ستّ وثمانين (3) إلى البلاد الهندية فدخل إلى بونباي ودهلي وحَيْدَرْ أباد وَلاَهُور وكشمير وكاشغر ويارقند . وكانت مدّة سياحته هنالك خمس سنين ورجع إلى طَيبَةَ وأقام بها لنشر العلم

(1) الامام أبو حنيفة ، ولد سنة 80هـ. وتوفي سنة 150هـ. انظر أعلاه : أول صفحة 40 تعليق رقم 2.
(2) يوافق : 1834–1835 .
(3) يوافق : 1869–1870 . (ملاحظة : بالأصل : سنة ست وثلاثين : وهو خطأ من الناسخ اذ الشيخ خليل ولد سنة خمسين ومائتين وألف) .

وإفـادة المستفتيـن ولـه في الأدب حسـن مشاركـة ومـن شعـره تشطيـره لأغزل الشعر (1) بقوله : (البسيـط)

« إنَّ العُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ »
فُتُورُهَا شَرَكٌ مَنْ صَادَفَتْ لاَنَا
لَهَا سِهَامٌ عَلَى أجْفَانِهَا خَطَرٌ
« قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلاَنَا »
« يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِّ حَتَّى لاَ حِرَاكَ لَهُ »
مِنْ سِحْرِ طَرْفٍ لِحَرْفِ السَّيْفِ أنْسانَا
وَكَيْفَ تَصْرَعُ تَصْرِيعًا عُيُونُ مَهًى
« وَهُنَّ (2) أضْعَفُ خَلْقِ اللَّهِ إنْسَانَا »

وقد اجتمعت به عند دخولي إلى المدينة المنوّرة في بيت صاحبنا السيّد الوتري وتأنّسنا به عدّة أيام فإذا هو فقيه محصّل موثّق عمدة في النوازل الفقهية ذو خيرية وصيانة وحسن أخلاق ومشاركة في الفنون مع كمال تواضع [104] [104]
وتثبّت في الأنقال وقد استجزته فأجاز لي بثَبَته إجازة مطلقة كتبها بقلم إيجازها وهذا نصّهـا :

«الحمد لله الذي منح من شاء بما شاء وكلّ شيءٍ عنده بمقدار والصلاة والسلام على السند العظيم سيّدنا محمّد الرسول المختار وعلى آله وأصحابه الواقفين بصحبته على محاسن الآثار والأئمّة المجتهدين والتابعين لهم بإحسان إلى دار القـرار .

(1) التشطير هو أن يعمد الشاعر إلى أبيات لغيره فيضم إل كل شطر منها شطرا يزيده عليه عجزا لصدر وصدرا لعجز . وصاحب الأبيات المشطرة هنا هو بشار بن برد ، شاعر مولد أموي عباسي ولد حوالي سنة 714/95 وتوفي سنة 784/168 أو سنة 785/169 . والبيتان المشطران من النونية التي مطلعها : وذات دل كأن البدر صورتها : باتت تغني عميد القلب سكرانا . انظر : بشار بن برد ، الديوان ، نشر وتحقيق محمد الطاهر ابن عاشور ، القاهرة ، 1966 ، ج 4 ص 193 . انظر أيضا : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2 ج 1 ص 1112—1114 .

(2) بالأصـل : وهذا ضعف .

أمّا بعد فإنّه لما كان الإسناد من خطاب الأمّة المحمّدية وعليه الاعتماد لدى أرباب الرواية والرويّة قد أجزت جناب الفاضل الشيخ محمّد التونسي ابن الفاضل الكامل القاضي عثمان السنوسي كما أجازني به أستاذي شيخ العلماء والمدرّسين بالمدينة المنوّرة بسيّد المرسلين المرحوم الشيخ يوسف الغزّي الحنفي عن شيخه المرحوم الشيخ محمّد الأمير عن أبيه المرحوم الشيخ محمّد الأمير الكبير من جميع مروياته بأسانيدها المقرّرة في الثبت الشهير إجازة صادرة لأهلها واقعة لمستحقّها ومحلّها . وأوصيت نفسي وإيّاه بتقوى الله عزّ وجلّ والتحرّي المطلوب وإخلاص النيّة في القول والعمل نفع الله تعالى ببركات أسرارها وأفاض عليه من آثار أنوارها بجاه خاتم الأنبياء الكرام عليه وعلى آله وأصحابه الصلاة والسلام . كتبه العبد الضعيف المدرّس بالمسجد الشريف النبوي خليل بن المرحوم إبراهيم الخربوتي عفي عنه» .

الشيخ محمد بالي

هو مفتي الحنفية بالمدينة المنورة الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن
محمد بن عمر البالي بيت فتوى مشهور ٭ ومعهد فضل مشكور ٭ كان جده من
قبله أمينها ٭ وقد أخرج جواهر الفتاوي من ثمينها ٭ وطلب له بطيبة
أحسن الذكر ٭ وعاد [105] عليه من سلف أهلها وخلفها أيمن الشكر ٭ وقد نقش [105]
على ختمه قوله : (الكامل)

بِمُحَمَّدٍ يَرْجُو الأَمَانَ مُحَمَّدٌ   جَارُ الأَمِينِ وَمَنْ فِي حُبِّهِ بَالِي

وقد أدركت صاحب الترجمة مفتيا بالمدينة المنورة وأول اجتماعي به في بيت نزولنا عند صاحبنا السيد علي ظاهر . وأطال معنا الجلوس هنالك . ثم اجتمعت به في بيته. وهو صاحب خيرية وفضل عمره يناهز السبعين وكانت وفاته ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وثلاثمائة وألف (1) . وقد رويت عنه المسلسل بيوم عاشوراء في يوم عاشوراء . واستجزته فأجاز لي إجازة عامة وخص فيها بالذكر أعلى أسانيده وختمها لي بختم جده جزاه الله خيراً وهذا نصها :

---

(1) يوافق : 29 جوان 1886 . والملاحظ أن هذا التاريخ يثبت أن المؤلف الشيخ محمد السنوسي لم يكن قد أنهى تحرير هذه الرحلة الحجازية في هذا التاريخ وقد كانت تقاييده لتحرير الرحلة قد حجزت له اثر وقائع 18 جمادى الثانية سنة 1302/4أفريل سنة 1885 ولم يسترجع تلك التقاييد الا في أوت أو سبتمبر من سنة 1885 . انظر : **حوليات الجامعة التونسية** عدد 7 سنة 1970 ص 80 .

«يا مجيز الطالبين * وواصل المنقطعين أفض متّصلات صلواتك * ومسلسلات تسليماتك على حبيبك المرسل بمعروف الفضائل ومرفوعها * وإزالة منكر الرذائل وموضوعها * وعلى آله وأصحابه التابعين سَنَنَهُ * الناقلين إلينا سُنَنَهُ * وبعد فإنّ الزكي النبيل الفاضل الأديب الجليل أخانا في الله الشيخ محمّد بن مولانا الشيخ عثمان السنوسي سألني أنْ أجيزه بصحيح البخاري وغيره من الكتب الحديثية وكتب العلوم العربية . فاستخرت الله وأجبته . وبجميع ذلك أجزته . بالشرط المعتبر عند أهل الأثر . ولي بحمد الله تعالى في جميع العلوم أسانيد كثيرة وطرق واضحة شهيرة فمن أعظمها كتب الحديث الستّة قد كنت تلقّيتها عن فحول متعدّدين منهم المرحوم سيّدي الشيخ محمّد العطوشي وسيّدي المرحوم الشيخ يوسف كسّاب الغزّي وسيّدي محمّد عليش وكلّهم يروُون الحديث عن مشائخ أجلاّء كالشيخ مصطفى البولاقي وسيّدي محمّد الأمير عن والده سيّدي الشيخ محمّد الأمير الكبير وسنده منظوم في ثَبته الشهير فلنتبرّك بذكر أعلى سندي في صحيح البخاري فأقول :

[106] [106] «أرويه عن شيخ الشيوخ المحقّق الهمام الجامع بين الشريعة والطريقة سيّدي وأستاذي محمّد بن أحمد العطوشي عن شيخه المحقّق سيّدي محمّد الفاسي عن شيخه محمّد بن سنّة عن أبي الوفاء أحمد بن محمّد بن العجل عن قطب الدين محمّد بن أحمد النّهرواني عن والده عن الحافظ نور الدين أبي الفتوح أحمد بن عبد الله الطاوسي عن المعمّر أبي يوسف الهروي عن محمّد ابن شاذبخت الفرغاني عن المعمّر أبي لقمان يحيى بن عمّار الختلاني عن أبي عبد الله محمّد بن يوسف الفريري عن سيّد حفّاظ الإسلام محمّد بن إسماعيل البخاري .

«فيكون بيني وبين البخاري أحد عشر رجلا . وقد وجدت بخطّ شيخي المشار إليه أنّه ذكر الشيخ عبد الخالق بن علي المزجاجي أنه صحّ أن الشيخ قطب الدين محمّد النهرواني روى صحيح البخاري عن الحافظ نور الدين أبي الفتوح الطاوسي بلا واسطة والده وعليه فيكون بيني وبين البخاري عشر وسائط.

«وأمّا القاموس فأرويه عن شيخي المشار إليه أعلاه عن شيخه محمّد الفاسي المذكور وغيره عن الشيخ محمّد بن سنّة عن مولاي الشريف محمّد بن عبد الله عن المعزّ محمّد بن أركاش الحنفي عن الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني عن مُصَنِّفه محمّد بن يعقوب الفيروزابادي (1) وهذا مسلسل بالمحمّديين إلى الحافظ .

«هذا وأوصيه بما أوصي به نفسي من مراقبة مولاه في سرّه ونجواه . والله أسأل أن يجعلني وإيّاه (2) وجميع إخواننا وأولادنا من العلماء العاملين وآخرُ دعوانا أنِ الحَمد لله ربّ العالمين . قاله فقير الورى . وخادم نعال العلماء والفقراء . مُفتي الأحناف . ببلد سيّد الأشراف . محمّد بن عمر البالي كان الله لهما آمين» .

(1) هو أبو طاهر محمد بن يعقوب مجد الدين الشافعي الشيرازي الفيروزابادي ، ولد بقازرون مدينة قرب شيراز بايران سنة 1329/729 وتوفي بمدينة زبيد باليمن سنة 1415/817 ، له تآليف في التفسير والحديث والتاريخ واللغة ، واشتهر بالقاموس المحيط والقاموس الوسيط الجامع لما ذهب من العرب الشماطيط . انظر : مجد الدين الفيروزابادي ، **القاموس** ، ط 4 مصر 1938/1357 .

(2) بالأصل : تكرار عبارة : أن يجعلني وإياه .

مولاي إدريس بن عبد الهادي

هو قاضي القضاة الشيخ إدريس بن عبد الهادي بن عبد الله بن التهامي [107] الحسني العلوي الفاسي ناهيك من فرع أطهر . في دوحة الشرف [107]
الأشهر . من معشر افتخرت بعلومهم حاضرة فاس . وتعطّرت من مفاخرهم بأطيب الأنفاس .

وقد نشأ مولاي عبد الهادي في رياض علوم بيتهم الرفيع وأخذ عن جدّه مولاي التهامي بحاضرة فاس. كما أخذ عن فحول علمائها في ذلك العهد مثل مولاي محمّد الهواري والشيخ الزرواني. وصاهره السلطان لوضوح شرفهم وسعة علمه وترفّههم . وولي خطّة قاضي القضاة بفاس فقضى نحو اثنتين (1) وثلاثين سنة . وله صيت عظيم في العلم والعدل . وبلغ من العمر نحو السبعين سنة وتوفي يوم الأربعاء ثامن رمضان المعظّم سنة 1272 اثنتين (1) وسبعين ومائتين وألف (2) .

وأما ولدُه مولاي إدريس فقد ولد سنة ستّ وأربعين ومائتين وألف (3) ونشأ في رياض اعتناء والده فقرأ عليه المختصر الخليلي إلى الحجّ وقواعد

---

(1) بالأصل : اثنين .
(2) يوافق : 14 ماي سنة 1856 .
(3) يوافق : 1830–1831 .

الشريشي وشرح ابن حجر على صحيح البخاري وتفسير أبي السعود إلى ختمه. وتفسير النسفي إلى قوله تعالى (بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (1).وتوفّي بعد ذلك بيومين عليه رحمة الله .

وقرأ على غير والده من جهابذة حاضرة فاس فقرأ على الفقيه عبد الرحمان السلجماسي (2) المختصر الخليلي إلى القسمة . وشرح التاودي على نظم ابن عاصم . وقرأ على الشيخ محمّد المكناسي الأجرومية ثلاث مرّات والألفية أربعا والهمزية وقرأ على الشيخ محمّد بن الخذر المهاجي الأجرومية وجمل الإعراب والألفية والمختصر الخليلي وقرأ على الشيخ أحمد المرنيسي شرح الدردير على المختصر وشرح المكّودي على الألفية والتوضيح وقرأ على الشيخ عبد الحفيظ السلجماسي الألفية بشرح المكودي والتوضيح وقرأ على الشيخ عبد السلام [108] بوغالب [108] جمع الجوامع وقرأ على الشيخ أحمد بناني السلّم المنطقي ومختصر السعد وحجّ بيت الله الحرام سنة 1283 (3) . ودخل مصر فاجتمع فيها بجلّة علمائها وسمع من الشيخ إبراهيم السقّا وغيره . واجتمع بعلماء الحرمين الشريفين وسمع منهم وروى عنهم ورجع في بَذَاختِه لبثّ العلم في حَاضِرَة فاس .

ثم أعاد الحجّ سنة 1299 (4) ولم يقع اجتماعي به إلاّ في الزيارة بالمدينة المنوّرة . وكان اجتماعي به أوّلا في بيت الأفندي عبد الجليل برّاده ثم تزاورنا وكان يومئذ مصحوبا بابنيه في عنفوان شبابهما . وهو حسن الأخلاق والمعاملة . لطيف الشمائل عالم بالفقه محبّ في الأدباء والأدب مشارك في الفنون . تصاحبنا ليلة عاشوراء مع صاحبنا السيّد علي ظاهر إلى الحرم النبويّ فأوقفنا السيّد عليّ على الآثار النبويّة ومراسم المسجد النبويّ في أواسط الليل .

---

(1) القرآن : سورة الحجرات : 49 : 17 .
(2) بالأصل : السلجسماسي .
(3) يوافق : 1867 .
(4) يوافق : 1882 .

وكان قدومه إلى المدينة المنوّرة بمعيّة الركب الشاميّ ورجع بمعيّة المصريّ . ولمّا بلغ إلى مصر في أثناء إيّابه اعترضته المكاتيب للإعلام بأنّ مولاي محمّد قاضي القضاة بحاضرة فاس قد انتقل إلى رحمة الله وتعيّن هو إلى خطّة قاضي القضاة هنالك . فهو اليوم قاضي فاس أعانه الله عليها وبارك له في تلك الأنفاس . ومن شعره ما أنشدنيه من لفظه ــ حَفِظَهُ اللّهُ ــ وهو قوله : (الطويل)

تَبَسَّمَ ثَغْرُ الصُّبْحِ عنْ حُسْنِ شَادِنٍ
فسَلَّ(1) سُيُوفَ اللَّحْظِ الطَّعْنِ وَالفَتْكِ
تَعَطَّرَتِ الأرْجَاءُ مِنْ وَرْدِ خَدِّهِ
وَفَاحَ نَسِيمُ رَوْضِهِ العَنْبَرِي المِسْكِي
فَقُلْتُ لَهُ هَلاَّ عَطَفْتَ بِزَوْرَةٍ
لِتُحْيِيَ بِهَا نَفْسي وَتَفْدِي بها سَفْكِي
فَأَعرَضَ عَنِّي مُغْضِي(2)الطَّرْفِ جَانِحًا
فَحَيَّرَ لِي وَجْدًا بِهِ طَالَ مَا نَحْكِي

---

(1) بالأصل : ففل .
(2) أغضى عينه : طبق جفنيها حتى لا تبصر شيئا .

الشيخ محمّد الشنقيطي

[109] هو الشيخ محمّد محمود التلاميد بن محمّد بن أحمد بن بتار التركزي [109]
العبشمي الشنقيطي ولد في تقانب من الصحراء الكبيرة بعد الستّين والمائتين وألف (1) وقرأ بتقانت على والده أحمد التجويدَ والصرفَ والفقهَ والقواعدَ والدواوينَ الستّة (2) والبلاغة والأصول .

ثمّ ارتحل سنة 1276 (3) إلى أرض العقيلات فقرأ بها على الشيخ جرود النحوَ والصرفَ والبلاغةَ والمنطقَ والحديثَ . واجتمع بالقطب كمال الدين سيّدي بْن المختار بْن الهيبة وأخذ عنه الطريقةَ القادريةَ وتلقّى عنه جُمَلاً بلا تدريس وقرأ على الشيخ محمّد الصغير مراقي الصعود في أصول مالك . ثمّ رحل سنة 1280 ثمانين (4) فأقام بتندوف بين سوجن وصحراء شنقيط يقرىء ثمّ دخل إلى فاس ومرّاكش ومصر ووصل إلى مكّة المكرّمة وأقام بها أوّلاً في ظلّ بيت الشريف عبد الله من ذوي عوف ولجراءته على علماء الحرم الشريف لم تمكنه الإقامة هنالك . ثمّ تنقّل إلى المدينة وارتحل إلى الآستانة والشام ولم يستقرّ في جهة من تلك الجهات فآب إلى المدينة المنوّرة مجاورا .

---

(1) يوافق : بعد سنة 1845 .

(2) بالأصل : الست .

(3) يوافق : 1859–1860 .

(4) يوافق : 1863–1864 .

وقد اجتمعت به أوّلا بعد أن سمعت خبره في بعض أزقّة المدينة فأحسن معي الكلام والسلام من غير سابقيّة معرفة وتفارقنا على عدم معرفته . ثمّ إنّي وصفته لبعض أحبّتي فأخبروني به . فرأيته عند صلاة المغرب في الحرم النبويّ فجالسته هنالك بعد صلاة المغرب . فسألني أوّلا عن أصلي ونسبي وشيئا من العلميات . ولمّا سألته عن أحواله أفرغ إليّ جرابا من أخباره مع علماء مكّة المشرّفة وأخذ يتعاطاهم فردًا فردًا فرجعت به عن طريقته وسألته عن سبب عداوته معهم فذكر أنّ له مسائل كانت هي السبب الوحيد منها أنّه غلّط
[110] سيبويه فمن بعده إلى [111] ابن مالك وابن هشام في مسألة قولهم بمنع صرف ثعل للعلَمية والعَدْل مع أنّ العدل إنّما يُلتَجأ إليه في علل منع الصرف إذا ورد الاسم ممنوعا من الصرف ولم تعرف له علة وهذا ثعل لم يرد عن العرب إلا مصروفا .

وساق لي على ذلك شواهد ثم أخذ يذكر فضله في المسألة على المتقدّمين . وعند ذلك سألني عمّا نقوله في المسألة فقلت له: «أمّا أنا يا سيّدي فلا أقول بعصمة المتقدّمين ولا أتساهل بتخطئتهم وغاية ما نستحضره الآن في المسألة كلام ابن مالك وشارحه الأشموني» . وذكرت له شيئا ممّا يتعلّق بذلك ولم يسبق لي في المسألة نظر إليها بعين الانتقاد فان كانت لسيادتكم كتابة في المسألة نرجو أن نطّلع عليها . ونراجع كلام النحاة في المسألة . وبعد ذلك يمكن لي أن نخبركم برأيي . فاستحسن هذا الكلام ووقع منه موقعا عظيما وقال لي: «إنّ كلّ من نخبره بالمسألة يبادر إلى تخطئتي قبل فهم كلامي وبذلك نشأت لي جميع العداوات التي أنا فيها وصرت في الحرمين مثلا وربمّا سمّوني ثعل الشنقيطي». حتّى إنّ بعض علماء مكّة نظم نظما في بعض العلوم وقال فيه : (الرجز)

وَصُنْتُهُ جُهْدِي مِنَ التَّخْلِيطِ   فلمْ يَكُنْ كَثُعَلَ الشَّنْقِيطِي

ووعدني أنّه يأتيني بأرجوزة له في مسألة ثعل ثمّ من الغد حضر عندي في بيتي فإذا بالرجل آية الله في حفظ الشعر العربي والتمكّن من اللغة العربية . وحضر معنا مسامرة عند الأفندي عبد الجليل أبْرَق فيها بلطائف الشعر

ونوادر الأدب بحيث إنّ محاضرته لا تملّ ولم يزل يمنّيني بالأرجوزة إلى
أن سافرت ولم نقف عليها . وقد سمعت من شعره لطائف غير أني لم أكتب
شيئا منها ولم نَرَ من يداريه من أهل المدينة [111] غير الأفندي عبد الجليل [111]
برّادة لكمال أخلاقه . وجميع أهل المدينة يأنفون من مجالسته ويذكرون
له أمورا لاغرض بنقلها نسأل الله أنْ يعامل الجميع بمحض فضله .

الشيخ تاج الدين إلياس

هو الشيخ تاج الدين بن مصطفى بن تاج الدين بن عبد الرحمان بن خير الدين بن تاج الدين بن عبد الله بن إلياس الوافد على المدينة المنوّرة آخر المائة السابعة من الهجرة وأصله بورصه . وصَاحَبَ قائد باي أمير مصر في عِمارة الحرم النبويّ عند ذلك . وكان خير الدين مفتيا بالمدينة المنوّرة وتولّى ولدُه عبد الرحمان شَيْخًا على الحرم . ثم لم تزل الفتيا في بيتهم يتوارثها كلّ ولد عن والده إلى أن توفّي عليها مصطفى ثاني عيد الاضحى سنة ثمان وثمانين ومائتين وألف (1) وجاء تاريخه نرده للاحباب « مصطفى إلياس دخل الجنة **بغير** حساب » وولد ولده تاج الدين سنة ثمان وخمسين (2) وقرأ بالحرم النبويّ الفقه على وَالِدِه والشيخ أمين الموصلي والنحو والعلوم العربية على الأفندي عبد الجليل برّادة . وقرأ الفقه والفرائض على الشيخ حسن أسكوبي والفرائض أيضا على الشيخ عبد القادر الطرابلسي .

وتقدّم لخطّة الإمامة بالحرم سنة ثمان وسبعين(3)وبعد سنتين ولي خطّة الخطابة به . وقد أدركته بالمدينة المنوّرة خطيبا وإمامًا حنفيًا . وحضر عندي

---

(1) يوافق : 21 فيفري سنة 1872 .

(2) يوافق : 1842—1843 .

(3) يوافق : 1861—1862 .

في بيت صاحبنا السيد علي ظاهر فتشرّفت بحضوره ودعاني إلى بيته فحضرت عنده مصحوبا بمن كان بمعيّتي. وهو مشارك أديب لطيف الأخلاق حسن المعاملة كثير المجالسة للأفندي عبد الجليل والمُسامرة يروي رقائق من الشعر وينظم منه ما يدعوه إليه الداعي :

[112] واقترح عليّ [112] أن أكتب له قصيدتي النبويّة فكتبتها له وجعلت عنوان الظرف الذي أرسلتها فيه قولي : (من الوافر)

أتَاجَ الدينِ دُونَكَ مِنْ وَدُودٍ بِنيّةَ فِكْرَةٍ جاءَتْ تُنَاجِي
أتَتْ عَلْيَاكَ عَاطِلَةً لِكَيْمَا يُتَوِّجُهَا قَبُولُكَ خَيْرَ تَاجِ

الشيخ إبراهيم أدهم أفندي

هو الشيخ أبو إسحاق إبراهيم أدهم بن حسن رافت بن إبراهيم رشدي ابن حسن من بيت أصيل في الآستانة العليّة . كان جدّ هذا البيت إبراهيم بن حسن في رتبة التدريس وولي نائبا بالمدينة المنوّرة وقسّاماً ثُمّ تُوفّي ودُفن في مجاورة خير المرسلين سنة أربع عشرة ومائتين وألف (1) .

ونشأ ولدُه حسن رافت في عِزّ بيته وفضل العلم فَوَلِيَ نائب البلاط بالأسلامبول ثمّ نائبَ تحتْ قلعة المتلقب أخي جلبي وعاد إليها. ثمّ ولي عن ضحالي مشيخة الإسلام ثمّ ولي نائب غلطة ثمّ ولي نائبا عن محمود باشا ثمّ ولي مستشار قاضي دار الخلافة العليّة ثمّ تقدّم لخطّة القضاء بالمدينة المنوّرة سنة ستّ وستّين ومائتين وألف (2) ثم ولي نائب بُوسَنَة ثم ولي مستشار الصدرين المحترمين ثمّ صار أمين الفتوى ثمّ صار مفتّش أوقاف الهومايوني ثمّ صار رئيس مجلس التوقيفات الشرعية ثمّ صار قاضي عسكر الأناظولي ثمّ صار من أعضاء شورى الدولة ثمّ عاد لرئاسة مجلس التوقيفات الشرعية وقضاء الرُومِيلي فاستناب أسعد أفندي عرباني زاده . وتوفّي في الثامن عشر من ذي الحجّة الحرام سنة تسعين ومائتين وألف (3) .

---

(1) يوافق : 1799—1800 .

(2) يوافق : 1849—1850 .

(3) يوافق : 6 فيفري سنة 1874 .

وولد ولده إبراهيم أدهم باسطنبول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف (1) وقرأ وأخذ رتبة التدريس سنة إحدى [113] وسبعين (2) ثم ولي مسودة فتوى خانه سنة اثنتين وسبعين (3) ثم تذكر تجي صدر الروميلي سنة سبع وسبعين ثم عاد لتسويد فتوى خانه سنة تسع وسبعين ثم صار تذكرتجي صدر الأناظولي على عهد والده سنة أربع وثمانين ثم قاضي القدس الشريف ثم نائب محمود باشا مدة سنة ونصف ثم قسام بيت المال ثلاث سنين ثم نائب قاضي دار الخلافة العلية دون السنتين ثم نائب بورسه مدة سنتين ثم قاضي المدينة المنورة سنة 1299 تسع وتسعين (4) . [113]

وعند دخولي إلى المدينة أوائل عام 1300 ثلاث عشرة مائة وجدته قد انفصل عن خطته بولاية عصمت أفندي وعزم على الإياب صحبة المحمل الشامي عوارض الكرنتينة سيما ومعه عائلته . ففوضنا إليه أمر الكراء وتولى ذلك لنفسه ولنا فكان اجتماعنا في محلة واحدة وكانت خيامنا متجاورة وعلى نسبة تجاورها كان مسيرنا في قطار الركب . وعند نزولنا يتعهدنا بالزيارة تارة ونتعهده بها أخرى . وربما اصطحبنا (5) لمسامرة أمين الصرة آصف باشا . وهو في جميع ذلك يعاملنا بحسن التودد ولطف المعاملة . وحيث قضى سنة في المدينة المنورة حصلت له معرفة باللسان العربي قليلة . لكن على كل حال أمكن لي بها أن أفهم مقاصده ومقاصد غيره ممن يضمنا معه المجلس .

وهو رجل حازم له نخوة الثروة والأصالة مع تواضع بالنسبة إلى غيره ممن ماثله من الترك (6) ومع كونه مصحوبا بزوجته وابنته وتابعتيهما وولده

---

(1) يوافق : 1838–1839 .
(2) يوافق : 1854–1855 (بالأصل : سنة احدى وستين ، والصواب : احدى وسبعين) .
(3) بالأصل : اثنين . يوافق : 1855–1856 .
(4) يوافق : 1882 .
(5) بالأصل : اصحبنا .
(6) يشير المؤلف الشيخ محمد السنوسي إلى قلة تواضع الاتراك عامة ، في عصره باستثناء قلة منهم .

وأتباعه كان موسّعا على جميعهم في شدّة ذلك السفر . وذلك من آثار ثروته .
أمّا رتبته في المعارف فهي ما يقتضيه اشتغاله بالخطط من حال صباه إلاّ أنه على كلّ
حال له دراية بحسن التصرّف والتدبير وله حسن [114] محاضرة في الوقائع الحالية [114]
لا تملّ طالما قضينا معه أغلب الليل نسمع من أخبار وزراء الدولة مع سلاطينها
ما يدلّ على معرفته بدقائق أسرارها . ونحن شاكرون لمرافقته وإينَاسه . بما
استطبناه من لطائف أنفاسه .



صورة الأمير عبد القادر الحسني

الأمير عبد القادر الحسني (1)

هو الشيخ أبو محمّد عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمّد بن المختار بن عبد القادر بن حمدة المختار بن عبد القادر بن أحمد القادري الحسني الجزائري وهلّم جرًّا به إلى نسبة المتّصل بالقطب الجيلي المتّصل بسيّد الكونين عليه الصلاة والسلام .

وقد نظم سلسلة نسبه الشهير كثير من الشعراء منهم مفتي دمشق وشاعرها الشيخ محمود حمزة وناهيك به من بيت عريق في الشرف والإمارة * فاقت مفاخره على الكواكب السيّارة *

فلهذا البيت في بلد أمّ عسكر من عمل الجزائر اختصاص بولاية الأحكام * في طويل الأعوام * وللتواريخ بذكرهم أعظم توشيح * بسطه القول الفصيح * وقد ميّزهم بذلك شرفهم العريق * الذي سنّ لهم في المعالي أقوم طريق * سيّما ولهم خصيصية مشيخة الطريقة القادرية * بسندهم فيها إلى جدّهم المشتهر بالفضل والمزية * رضي الله عنهم وعنه * وعن جميع الفروع الذين تفرعوا منه *

---

(1) نشر زين العابدين السنوسي ، ابن المؤلف محمد السنوسي ، ترجمة الامير عبد القادر الحسني هذه بصحيفة العرب . انظر : زين العابدين السنوسي ، كتاب **مقالات العرب** ، ج 8 ، الحلقة الأولى ، نشر دار العرب ، تونس 1925/1343 ، ص : 373–382 . انظر أيضا ترجمة الأمير عبد القادر : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط. 2 ج 1 ، ص 69–70 . راجع أيضا : محمد مخلوف ، **شجرة النور** ص : 406–407 .

كان جدّ هذا البيت عبد القادر بن أحمد يُعْرَفُ بعبد القادر بن حدّة وهي امرأة أرضعته فاشتهر ببنوّتها . وكان من فحول العلماء الصالحين . وله مقام شهير في غريس قرب بلد أمّ عسكر . وقد استوفى ترجمته ابن الجوزي في كتابه المسمّى الجمّان النفيس في الأعيان من أشْرَافِ غَريس وعلى شاكلته نشأ ولده [115] حمدة المختار في العلم والصلاح وبعد وفاته دفن في خَلْوَته بباب علي خارج أمّ عسكر . وهكذا نشأ ابنه عبد القادر ثم ابنه المختار الشهير بالعلم والصلاح وحماية الذمار والمنعة حتّى كان حماه يحمي قاتل النفس . [115]

وكان محمّد من أفراد الرجال الذين جاهدوا في سبيل الله في واقعة وهران مع السبنيول ومات فيها شهيدا . وكان مصطفى من العلماء الصالحين أيضا . وحجّ بيت الله الحرام حجّة أولى وزار جدّه الجيلي في بغداد . واجتاز على مصر واجتمع بالشيخ محمّد مرتضي شارح القاموس (1) وأجازه . وله كرامة محفوظة مع محمّد باي وهران في الولاية . وأعاد الحجّ والزيارة وتوفي في أثناء إيّابه .

وكان محيي الدين مفرد علم في العلم والصلاح ببلد أمّ عسكر . وهو مقدّم الطريقة القادرية مثل آبائه . ولمّا حلّ الفرنساويون بأرض الجزائر (2) اجتمع عليه كثير من القبائل ليجمع كلمتهم على المدافعة عن أرضهم فأجابهم وجمع أمرهم وقام بهم للجهاد في خنن (3) النطاح قرب وهران . فجرت هنالك واقعة شهيرة ظهرت فيها بسالة أصغر أبنائه الأمير عبد القادر . فأحال الجموع عن والده المذكور (4) .

---

(1) هو أبو الفيض محمد الشهير بالسيد مرتضي الزبيدي ، صاحب تاج العروس من شرح جواهر القاموس المحيط للفيروزابادي ، ولد سنة 1732/1145 وتوفي سنة 1790/1205 . انظر : سركيس ، **معجم** ، 2 : رقم 1726 .

(2) حل الفرنساويون بأرض الجزائر سنة 1830 .

(3) خنن : ج خنة وهي مدخل الطريق ومضيق الوادي . والملاحظ أن المؤلف استعمل أسفله صفحة 134 لفظة : خنق وهو الطريق الضيق .

(4) نشر زين العابدين السنوسي مقدمة هذه الترجمة إلى هذا الحد في صورة تعليق . انظر أعلاه ص 114 تعليق رقم 1 .

وقد ولد سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف (1) ونشأ في تعلّم العلم وقرأ على والده النحو والفقه والتوحيد والحديث . وقرأ على غيره من الشيوخ . وولع بالأدب والتصوّف والفقه . وتزوّج ببلده سنة سبع وأربعين (2) وأجاب دعوة القبائل حين اجتمعوا على مبايعته ببلد أمّ عسكر في اليوم الثالث عشر من رمضان سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف (3) .

[بيعة العروش والقبائل للأمير عبد القادر الحسني]

وحيث إنّ بيعة العروش والقبائل للأمير عبد القادر جرت بكتائب صدرت من علماء غريس (4) وخاصّة فضلاء تلك الجهات في ذلك العهد نورد هنا منها
ما أمكنني الوقوف عليه من نصوص [116] البيعة بخطوط أيدي أصحابها وهذا [116]
نصّها :

«الحمد لله الذي جعل نصب الإمام من مهمّات الدين لتصان به النفوس والأموال وتجمع كلمة المسلمين * والصلاة والسلام على سيّد المرسلين * وآله وصحبه أجمعين * وبعد فقال صلّى الله عليه وسلّم « إنَّ اللَّهَ يحمي بِالسُّلطَانِ مَا لاَ يحمي بِالْقُرْآنِ (5) » هذا في الزمان الذي فاض فيه العدل * وارتفع فيه الجهل * فما بالك بزماننا الذي كثر فيه الباطل وانتشر * وارتفع الحقّ ولم يظهر له أثر * حتّى إنّ عداه ملكوا كثيرا من بلاد الإسلام * وتشتّت الكلمة واختل النظام * ولم يجد الناس لقتالهم سبيلا * ولا من يكون للجهاد دليلا * فلجأوا إلى الله تعالى أن يُيَسِّر لهم من يقوم بأمر دينهم * فما وجدوا من تتّفق عليه كلمة أهل الحلّ والعقد سوى السيّد محي الدين بن مصطفى بن المختار *

(1) يوافق : 1808 .
(2) يوافق : 1831—1832 .
(3) يوافق : 3 فيفري سنة 1833 .
(4) في النص الذي نشره زين العابدين السنوسي ، كذا : جرت بوثائق صدرت من زعماء غريس .
(5) حديث شريف .

فله على الدين أعوان وأنصار. فطلبوا منه أن يبايعوه على السمع والطاعة. فاعتذر لهم فأتاه بعض أعيان أهل غريس وقال له إن أولياء الله اتّفقوا على نصب ولدي الحاج عبد القادر خليفة لنصر دين الله . فوافقهم على نصرته لكونه ذا حزم وشجاعة وإقدام وعقل سليم صالح لتنفيذ الأحكام . فاتّفق عليه أهل الحلّ والربط ونصروه من غير طلب منه للإمارة . ولا متابعة للنفس الأمّارة بل بايعوهُ رغما عليه لأنّهم طلبوه بالله وتوسّلوا إليه برسول الله مدّة تقرب من ثلاث سنين فوافقهم على البيعة موافقة لهم ورعاية لرفع مظلم عن الضعيف ودفعا للفساد والتعنيف .

فحضر بيعته جميع أهل غريس الحكم شرقي وغربي وعباسي وعوفي وجعفري وبرجي وأولاد سيّدي دحوى وأولاد سيّدي أحمد بن علي
[117] والزلامطة ومغراوة [117] والخلدية وبني شقران وغيرهم من أهل غريس . وأعلنوا بنصرته والدعاء له وأن يحموه مما يحمون به أنفسهم وأموالهم وأولادهم. ونصروه نصرا مؤزّرًا (**فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**) (1) واتّفق علماء الأقاليم على نصرته ولم يخالف منهم أحد وهم في حال طوعهم ورضاهم وفرحوا به أشدّ الفرح لما كانوا عليه من الضيق والترح . وكلّ من سمع به من أهل الآفاق لا يزداد فيه إلاّ رغبة واشتياقا لعلمهم بعقله ونجدته وصلاح رأيه فعلى من بايع أن يبذل جهده في النصرة ومن خذل فالله يتولى أمره لقول الصادق الامين « **الدّينُ النَّصِيحَةُ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ المُسْلِمِينَ** » (2) ؛

فأذكر من أعيان العلماء سيّدي الأعرج والسيّد محمّد بن حَوًّا بن يخلف واخواته والسيّد عبد الرحمان بن حسن بن أرحو وأبناء عمّه ومن الزلامطة السيّد محمّد بن الثعالبي وأبناء عمّه وكافّة جماعة أولاد السيّد أحمد بن علي . حاصله جميع علماء غريس حَاضِرُون رَاضون وبحضرة كاتبه وأبناء عمّه

(1) القرآن : سورة الفتح ، 48 : 10 .
(2) حديث شريف .

وكتب في أوائل رجب الفرد سنة 1248 (1) محمّد بن آمنة بن عبد القادر عامله ربّه بلطفه في الباطن والظاهر (2) .

الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما بعد انعقاد البيعة للإمام الأعظم والسلطان الأفخم ابن أخينا السيّد الحاج عبد القادر السيّد محيي الدين أحْيَى (3) الله بهما دين الإسلام وأعانهما على إقامة أمور أهل الإسلام ودمّر بهما الظلمة وأهل البغي والعناد والفساد أجبناه بالسمع والطاعة وامتثال الأمر ولو في ولد الإنسان ونفسه وقدّمناه على نفوسنا وحقّه على حقوقنا بعد حقوق الله ورسوله وآدابهما وأوصيته وإيّاي بتقوى الله في السرّ والعلانية والوقوف على حدود الشرع وردّ مسائله إليه واجتهاده وتشهيره في زجر الشياطين [118] أهل الإذاية كالمحاربين وقطّاع السبيل وأهل الغيلة [118]
والسرقة وغيرهما ليتمّ بذلك أمره .

ويتّضح به تأييده ونصره . وتشرق شمس الظهيرة على قلوب المؤمنين وتطمئنّ بخدمته وطاعته والمسارعة والانقياد والإذعان لتكاليفه وأوامره. اللهمّ أيّده وانصره نصرًا تعزّ به الدين وانضح التقوى على قلبه وقوّة اليقين بجاه سيّد الأولين والآخرين . وأحْيِ به ما دثر من أحكام الخلفاء الراشدين يا مالك الدين والدنيا والآخرة . وأدم فرحنا وفرح جميع محبّته ومحبّتنا بما نحن معتقدون . وأتمم لنا المقصود مما ينقطع به قلب الجحود . آمين . وكتبه علي ابن مصطفى بن المختار أمَّنَهُ اللَّهُ . آمين .

الحمد لله وصلّى الله على سيّدنا ومولانا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليما .

---

(1) يوافق : نوفمبر سنة 1832 .

(2) الملاحظ أن زين العابدين السنوسي علق في النص الذي نشره (انظر اعلاه صفحة 114) بما يلي : أورد المؤلف كثيرا من مثل هاته الوثيقة اضطررنا لحذفها هنا لضيق المجال وموعد غوات (كذا) التاريخ يوم طبع الكتاب جملة .هـ. والملاحظ أيضا أن زين العابدين يستأنف نشر نص الترجمة بقول والده المؤلف : فقبل بيعتهم ونهض لجمع كلمتهم نهوض الزعيم وشمر عن ساعد الجد ... (انظر أسفله : آخر صفحة 122) .

(3) بالأصل : أحيا .

بعد انعقاد البيعة للإمام النبيه . الصدر الوجيه . الناظم الناثر أبي محمّد السيّد الحاج عبد القادر بن عضد الملّة والدين شيخنا سيّدي الحاج محيي الدين ابن شمس النهار شيخ مشائخنا وأسلافنا أبي عبد الله السيّد مصطفى بن المختار . بَوَّأ اللّهُ الجميعَ دار القَرَارِ . من أهل الحلّ والعقد . والإمضاء والردّ . ممّن ذكر أعلاه واطلاعنا على ما اتّفق عليه السواد الأعظم وبه فاه . لم يسعنا إلاّ الموافقة عليه . والجنوح إلى ما أسندوا إليه . فالله يلهمه رشده ولا يمنعه رفده . وأن ينصر به الدين الحنيفيّ . ويظهر به من أمره ما كان خفيًّا . وأن يصلح به وعلى يديه . وأن يجنّبه رأي المفسد والسفيه . وأوصيه وإيّاي بتقوى الله في علانيته وسرّه ونجواه ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُم وَإِيَّاكُمْ أنِ اتَّقُوا اللّهَ﴾ (1) قاله بفمه ورقمه بقلمه كاتبه عن عجل والقلب في وجل عبد ربّه سبحانه ابن عبد الله بن الشيخ المشرقي الحسني عفى عنه [119] [119]
الحمد لله لما فتح الله للمسلمين أبوابه ويسّر للخيرات أسبابه بإجابة الوليّ الصالح القطب السالك الناجح شيخ أهل الفضل والدين مولانا السيّد الحاج محيي الدين لما طلبه منه المسلمون من تقديم ابنه الناسك الأنجد العلاّمة الأسعد على الإيالة الغربية وما انضاف إليها بعد إعراض دولة الأتراك عنها وإبقاء أهل الأقطار هملا لعدم الأمراء وتوهين النبلاء اجتمع من له اتّصاف بالحلّ والعقد على نصرة الابن المذكور مذعنين متعلّقين تلك النصرة بالفرح والسرور فعقد له البيعة جملة من له دخول لتدبير الأمور من عالم وقارىء وشريف ورئيس من أيّ ناحية من أهل الراشدية وغيرها فبذلك ثبتت له النصرة السلطانية على الخاصّ والعامّ يأمر وينهى فلا يسقط من أمره ونهيه أدنى كلام . فعليه بتقوى الله فيما تولاّه وهو ناصره ومعينه على ما أولاه وكان من جملة مبايعيه الفقير كاتبه أحمد بن التهامي . وفّقه الله . آمين .

الحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلّم. ولمّا فسد الزمان وضاقت بالمساكين الأركان من كثرة النهب وقلّة الأمان ولم يجدوا

(1) القرآن : سورة النساء ، 4 : 131 .

من يصلح بأمر المسلمين من الأعيان سوى من ذكر فاتّفقت كلمة المعتبرين من أهل الوطن على البيعة للسيّد المذكور بالأعلى وأنا عبد الله من جملة من اتّفق معهم على ذلك فنسأل الله الغنيّ الكريم الوهّاب أن يسدّده في جميع أفعاله وأن يمهّد له البلاد ويصلح به الفساد ويهدي له العباد وكتبه محمّد بن حوّا كان الله له .

الحمد لله وحده وصلّى الله على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم [120] وعلى ما تضمّنه رسوم العلماء بالإمام وافق الموافقة التامّة كاتبه عبد ربّه بن المختار بن عبد الرحمان ابن روكش أمّنه اللّه . [120]

وحمدًا لمن فضّل أمّة محمّد عليه السلام * وخصّها بمزايا لم يعطها أحد من الأنام * وجعلها خير أمّة أخرجت للنّاس * يأمرون بالمعروف وينهون عن الأرجاس والأنجاس * هَدَاهُم به إلى الرشاد * وطهّرهم من عبادة الأوثان والأصنام والأنداد والأضداد * وجعلهم الشهداء على من سواهم من الأنام فشرف بذلك أمرهم * ورفع قدرهم * وجعل إجماعهم حجّة * وسبيلهم أقوى لُجَجَة * (1) وأوجب عليهم نصب إمام عَدْلٍ * وفرض عليهم اتّباعه في القول والفعل * ليكفّ الظالم وينصر المظلوم * ويجمع شملهم بالخصوص والعموم * ويكافح بهم عدوّ الدين * لتكون العليا كلمة المسلمين * وصلاة وسلاما على من صدح بالحقّ * ودعا الخلق إلى القول بالصدق * وجاهد في الله حقّ جهاده * حتّى استقام المعوّج من فساده * سيّدنا ومولانا محمّد أشرف رسول * وأكرم شافع مقبول * صاحب المقام المحمود * والحوض المورود * وعلى آله وأصحابه أهل وداده * وسيوف جلاده * الذين بذلوا أنفسهم وأموالهم في طاعته * وأوضحوا شريعته وبيّنوا طريقته * فحازوا بذلك أسنى المراتب * ونالوا الدرجات العلي والمناصب * فهم نجوم الاهتداء * ومصابيح الاقتداء * .

هذا ولما تخلّت الدولة العثمانية عن ولايات الجزائر * واستولى الفرنسيس على مدينتي وهران والجزائر * وأعادهما الله دار إيمان وإسلام * بجاه النبي عليه

(1) اللجة : الماء العظيم . واللججة : الشديد اللجاجة أي العناد .

الصلاة والسلام ٭ وطمحت أنفسهم إلى تلك الصحراء والجبال ٭ والبراري (1) والتلال ٭ وصارت الناس في هرج ٭ وحيص بيص ومرج ٭ لا ناهي عن منكر ٭ ولا من بوعظ ينزجر ٭ ولا بمفاجأة [121] العَدُوّ يعتبر ٭ قام من وفّقه الله للهداية ٭ [121]
وظهرت عليه العناية ٭ من رؤساء القبائل وكبرائها ٭ وصناديدها وزعمائها ٭ فتفاوضوا في نصب أمير يبايعونه ٭ يسمعون لأمره ونهيه ويتابعونه ٭ وجالوا في ميدان أفكارهم مَنْ يكون لذلك أهلا (2) من ذوي الكمال والفضل فلم يجدوا لذلك المنصب والمقام الجزيل إلاّ ذا النسب الطاهر ٭ والكمال الماهر ٭ رأس الملّة والدين ٭ قامع أعداء الله الظالمين ٭ أبا المكارم السيّد عبد القادر بن مولاي سيّدي محيي الدين ٭ أيّد الله به أمر المسلمين ٭ وأحيى (3) به ما درس من معالم اليقين ٭ .

فبايعوه على كتاب الله العظيم ٭ وسنّة نبيّه الكريم ٭ (**إنّ الّذينَ يُبايعونَكَ إنّمَا يُبَايعونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهِمْ** (4) ثمّ قدمت عليه الوفود من سائر الجهات والحدود فبايعوه بيعة تامّة كاملة عامّة بيعة سمعٍ وطاعةٍ أفراداً وجماعة بيعة عزّ وتعظيم وتبجيل وتكريم بيعة يعزُّ الله بها الإسلام ٭ ويخذل بها الفجرة اللئام ٭ يمنعونه بما يمنعون به أنفسهم وأموالهم وأولادهم ٭ ويبذلون في مرضاته أرواحهم وأكبادهم ٭ إنْ أمرهم سمعوا ٭ وإنْ نهاهم خشعوا وخضعوا ٭ يطيعونه ما ساسهم بالشريعة الغرّاء ٭ وينصرونه في السراء والضراء ٭ فمن وفّى ببيعته نال مسرّته ٭ واتّقى مضرّته ولاقى برّته . (**وَمَنْ نَكَثَ فَإنّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ** (5)) . وخسر في يومه وأمسه . والله المسؤول في هداية الخلق إلى الطريق الحقّ والرأفة والرفق .

ولما تمّت هذه البيعة بكمالها ٭ وطرّزت بجلالها وجمالها ٭ تحمّل سرورها ٭ وتمّت بدورها ٭ بوزارة ذي النسب الأصيل ٭ والكرم السلسبيل ٭ البطل الضرغام ٭

(1) بالأصل : الفرابر (البراري ج. برية : الصحراء) .
(2) بالأصل : أهــل .
(3) بالأصل : أحيــا .
(4) القرآن : سورة الفتح ، 48 : 10 .
(5) القرآن : سورة الفتح ، 48 : 10 .

الشجاع المقدام * ليث الحروب * ومنجي المكروب * أبا المحاسن السيّد الحاج محمّد ابن سيّدي اعريبي أقام الله به هذه الدولة السنيّة * [122] وأيّد به هذه الملّة البهيّة. [122]
وممّن حضر هذه البيعة وبايع وسمع لها وتابع من القبائل الشرقية والأحياء الغربية الوزير المذكور ورؤساء بني عمّه من أولاد القطب الربّاني السيّد أبو عبد الله نفعنا الله به والأولياء والعلماء والفقهاء أنجاد مدينة معسكر وأحوازها كقبيلة بني شقران وأهل قلعة هواري وأحوازها من إقليم غريس وأحيائه وعمائره وشعوبه والقبائل الشرقية رؤساء العطاف وسنجاس وأولاد القصير ومرابطي فجاجة وكبراء أصبيح وأولاد أخيوم وأولاد العبّاس وعكرمة والمحالّ وأحياء قبيلة إيليته وأنجادها ورؤساء المكاحلية وأحلافها وكبراء مجاهر والبرجية الشراقة والغرابة والزمالة والدواوير ثم القبائل اليعقوبيّة من الجعافرة والحساسنة وأولاد إبراهيم ثم النجوع القبلية أولاد الشريف وأولاد الأكرد وأصرامه (1) والخلافة وغير ذلك من قبائل المغرب الأوسط وأفخاذه وعمائره سَهْلَـةً وَوَعْرَةً . ثمّ الكلّ ممّن ذكرنا بايع عن نفسه وعن قبيلته بالإذن العامّ عن الخواصّ والعوامّ .

حضر هذه البيعة القطب الربّاني أبو المقامات والمنازل والارتقاء إلى مشرب مناهل أهل الله الأماثل العارف بالله تعالى السيّد الأعرج محمّد بن فريحه والوليّ الناسك السالك السيّد محمّد بن حوّا بن يخلف وحافظ العصر وعلاّمة الدهر الشيخ القاضي السيّد ابن عبد الله بن الشيخ المشرفي والعلاّمة أبو العباس السيّد أحمد بن التهامي وغيرهم من العلماء أهل الحلّ والعقد .

وقعت هذه البيعة العامّة في رمضان من سنة 1248 (2) كتبها خديم الشريعة السمحاء محمود بن حوّا حفظه الله آمين (3) وقبل بيعتهم ونهض لجمع

---

(1) الصرم : الجماعة والجمع أصرام .
(2) يوافق : فيفري سنة 1833 .
(3) انظر أعلاه صفحة 117 التعليق رقم 3 والملاحظ أن زين العابدين السنوسي استأنف نشر نص الترجمة بقول المؤلف : وقبل بيعتهم ونهض لجمع ...

كلمتهم نهوض الزعيم . وشمّر عن ساعد الجد بما له من حميّة الشرف ونخوة عزّة البيت وأصالة الـراي .

[حروب الأمير عبد القادر ضدّ الجيش الفرنساوي]

[123] [123] غير أنّ بعض عائلته أبَوْا المُبَايعة وعلى الخصوص شيعة عمّه علي ابـي (1) طالب فإنه كان يتصدّى لمقاومته ولاَقَـى هذا الأمير من شقاق عائلته ما أفسد عليه كثيرًا من الأعمال وَمَعَ ذَلِكَ ثَبَتَ ثَبَاتَ الشجعان وباشر الطعان في جموع الفرسان إلى واقعة دجمبر سنة 1835 الموافق سنة إحدى وخمسين (2) وكانت في مضيق سيّدي مبارك انجلى فيها الحال على أنّ الجيش الفرنساوي الذي تحت قيادة المرشال كلوزيل (3) تَنَكَّبُوا ذلك المَضِيقَ وَاسْتَوْلُوا على بلد أمّ عساكر وعند ذلك الْتَاثَتْ (4) جموعُ الأمير عبد القادر وزادها ضعفا خروج أحدهم وهو رجل يقال له المازري من قبيلـة الدوائر ترَأّس على قبيلته وانضمّ بهم إلى الجيوش الفرنساوية .

واشتدّت به شَوْكَتُهم في قتال الأمير والحديد بالحديد يفلح حتّى انقسَمَ أهل تلمسان إلى حزبين حزب الكوارغلية (5) كانوا مع المازري وحزب الحضر وهم العرب مع الأمير عبد القادر .وتمكّن الأمير من نواصي كبراء كوارغلية فقتل منهم مائة وخمسة رجال في مقتلة واحدة وتيسّر له بذلك دخول تلمسان. فتحزّب أهل الدوائر والكوارغلية مع العساكر الفرنساوية فخرج الأمير لهـم بجموعه ضحى حادي عشر من شهر رمضان المعظّم عام أحد وخمسين (6).

---

(1) بالأصل : أبــو .

(2) يوافق : شعبان سنة 1251هـ.

(3) هو بيرتران كلوزيل ولد سنة 1772 ببلدة ميروبوا بفرنسا ، ولي على الجزائر واحتل أم العساكر سنة 1835 ، وتوفي سنة 1842 .

(4) التاث : اختلط والتبس .

(5) الكوارغلية هم جماعة الأتراك .

(6) يوافق : الخميس 31 ديسمبر سنة 1835 .

واشتدّ القتال وحيل بين الأمير وتلمسان فحاصَرها مدّة إلى أن أتت العساكر من خلفه وباشر حزبهم في عدّة وقائع فَازَ في آخرها ناجيًا بنفسه ومن معه إلى قبيلته الأصلية وهي قبيلة بني هاشم في عدد قليل.وانتزع منه الرّؤساء مظلّة الإمارة وبارح قبيلته في عشرة مع أصدقائه يقتصّ أثر العساكر الفرنساوية التي فارقت أمّ عسكر للتوجّه إلى مدينة مستغانم .

وفي ثالث أيّام مسيره اجتمع ببعض أنصاره في مضيق سيّدي مبارك ممّن هم في ترصّد العسكر [124] الفرنساوي فانضمّوا إليه وتزايد اجتماع الناس [124]
عليه إلى أن عاد إلى قوّة وشدّة أمكن له بها أن أتى على مدينة وهران وهي يومئذ في قبضة الفرنساويين مع الجزائر وعنّابة وبجاية ومستغانم وأرزيو لا غير . وهاجم وهران بمن معه من الفرنسان وصدق الحملة عليها واضطرّ الجنرال تريزيل (1) رئيس العساكر الفرنساوية التي كانت هنالك إلى أن سلّم له وهران وعقد معه فيها معاهدة وتملّك الأمير عبد القادر بجميع ولاية وهران تملّكا حقيقيًا .

وبعد أن استقرّت إمارته في ولاية وهران جمع جموعه وقصد الجزائر فقطع أرض شلف وهجم بجيوشه على مدينة المدية وتمّ له الاستيلاء عليها وَكَرَّ رَاجِعًا فَتَعَرَّضَ جيشه عسكر الجنرال تريزيل والتقى الجمعان بالمقطع. واشتدّت الحرب وصدق الأمير عبد القادر القتال غير أنّه لمّا لم يتمكّن من الأخذ بنواصي العساكر (2) أحرق أعشاب دائرة مركزهم إلى ان اضطرّوا إلى الخروج منه بامتداد ألسنة النار إلى ذخائرهم الحربية فخرجوا على غير انتظام وأمسك الوحل عجلات جرحاهم وذخائرهم فأتى عليهم فرسان الأمير وأجروا فيهم مذبحة هائلة وتملّكوا بجميع ما هنالك وأتوا على مدينة أمّ عسكر فَاسْتَرْجَعُوهَا.

---

(1) كاميل تريزيل : ولد سنة 1780 وتوفي سنة 1860 .

(2) في نص زين العابدين السنوسي اضافة : حربيا لوعرة معتقلهم .

واستقرّ الأمير في بلده وباشر مهمّات اجتماعاته في جهات ولاياته كلّها إلى أن أعادت فرنسا الماريشال كلوزير إلى الجزائر (1) فتجهّز هنالك وقصد بلد أمّ عسكر إلى أن استعادها الجنرال (2) بخروج الأمير منها إلى الجهة الغربية واطمأنّ العسكر الفرنساوي حيث ظنّوا تلاشي قوّته فاعترض جيشا مصحوبا بذخائر ومؤونة متوجّهة إلى تلمسان واستحوذ على جميع ذلك وفرّ الجيش راجعا بعد أن سلّموا له جميع ما بيدهم وذلك سنة 1836 وحيث [125] [125]
إن قسنطينة اجتمع أهلها من أوّل الأمر على مبايعة عاملهم أحمد باي إلى سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف (3) فانتزعها منهم الجيش الفرنساوي في قتال شديد وعند ذلك كان استقرار الفرنسيين في الجزائر وقسنطينة ومسلك الغنائم فاستعاد الأمير عبد القادر جمع أبطال فرسانه وقصد مدينة قسنطينة .

فخرج له العسكر الفرنساوي فقاتلهم وغلبهم وقتل منهم كثير وجرح كثير واعتصم باقيهم بالمدينة ثمّ توجّه الجنرال بيجو (4) بجيش إلى مدينة وهران فاشتدّ كاهل الأمير عبد القادر في المدافعة عنها سنتين لم ينقطع فيها القتال بين الفريقين بين الشليف وطفنة . وبعد ذلك عقد الجنرال مع الأمير معاهدة طفنة سنة 1837 (5) التي تملّك بها بنحو ثلاثة أرباع أراضي الجزائر زيادة على ولاية وهران بحيث أطاعه من بين تونس ووجدة وعموم أهل الصحراء الذين لم يطيعوا أمراء الجزائر السابقين .

---

(1) كان ذلك في صيف عام 1835 انظر :
Philippe d'Estailleur - Chanteraine, *Abdelkader le Croyant*. Paris 1959; pp. 59-61

(2) يوافق : 7 ديسمبر 1835 .

(3) يوافق : 1837 .

(4) الجنرال بيجو ، ولد سنة 1784 وتوفي سنة 1849 .

(5) كان ذلك في 30 ماي سنة 1837 وجرت من الغد 31 ماي مقابلة بين الأمير عبد القادر والجنرال بيجو بطلب من القائد الفرنسي . وصادقت الحكومة الفرنسية في 13 جوان 1837 على معاهدة طفنة وفي 13 جويلية الموالي دخل الأمير عبد القادر مظفرا إلى تلمسان حاضرة بني زيان قديما .

وباشر الأمير بعد عقد المعاهدة التصرّف في عموم ولاياته وضبط جميع القبائل التي في حوزته وخرج لما بقي من الصحراء . وعند قربه من عين ماضي أرسل إليه الشيخ محمّد الحبيب بن الشيخ التجاني رضي الله عنه يثبطه عن الدخول إلى بلادهم وعرض عليه ما يطلب من المال. فامتنع الأمير من قبول شيء حيث بلغه أنّ أهل البلد يرومون مبايعة الشيخ . والتزم الدخول إلى عين ماضي . فكان وصوله إليها ثاني ربيع الأول سنة 1255 خمس وخمسين (1) فخرج عليه أهلها لدفاعه ووقع بين الفريقين قتال عظيم . ثم حاصرها ستّة أشهر وأرسل عليهم في آخرها النفط بكثرة .

ثم راسله الشيخ محمّد الحبيب ووقع التوافق بينهما على أنّ الأمير يرحل بمن معه ثلاثة مراحل يبتعد بها عن البلد [126] ليرحل منها الشيخ وبعد رحيله [126]
يدخلها الأمير وأعانه الأمير على هذا الرحيل بثلاثمائة بعير فارتحل مسيرة يوم إلى بلاط الأحْواط (2) وهي ممّا دخل تحت طاعة الأمير. ودخل الأمير إلى عين ماضي وأطاعه أهلها ثمّ خرج الشيخ من الأغواط في شهر رمضان سنة 1256 (3) وقصد تماسين ومعه قبيلة أولاد صالح فأقام عند خليفة والده الشيخ الحاج علي التماسيني .

وبعد أن ارتحل الأمير من عين ماضي وجّه محلّة إلى الأغواط فامتنع أهلها من قبولهم فدخلها قائد المحلّة لصلاة الجمعة وبات هنالك وأمسك كبراء عصاتهم فهاج بقيّتهم عليه وأخرجوه فرجع بِمَحلّته . ورجع الشيخ محمّد الحبيب عن إذن الشيخ الحاج علي التماسيني إلى بلده عين ماضي وأعاد الأمير إرسال محلّة أخرى إليهم في ربيع سنة 1257 (4) فنزلت على رأس العين وردّت الماء على البلد وأقبل أولاد صالح لمدافعة المحلّة فاقتتل الفريقان وأقامت المحلّة

(1) يوافق : 17 أفريل سنة 1839 .
(2) كذا بالأصل والمراد : الأغواط كما يفيد السياق .
(3) يوافق : نوفمبر سنة 1840 .
(4) يوافق : ماي سنة 1841 .

في قرية تاجموت. ثمّ خرج عليها الشيخ محمّد الحبيب ومعه أولاد صالح. وحاصروا القرية أيّامًا بعد القتال ثم رجعت بقيّة المحلّة. وكان الأمير عبد القادر في تلك المدّة آخذا بالحزم في مباشرة مصالح عمله وأنشأ في تلك الهدنة خطًّا دفاعيا وراء البلاد الداخلية التي على حدود الصحراء الصغيرة.

وفي سنة 1839 وقع تخابر مع الأمير عبد القادر في فهم بعض فصول تلك المعاهدة أفضى إلى الاختلاف فيها فتحفّز الأمير عبد القادر لما يخشاه وأعاد الاستعداد وكاتب حاكم الجزائر بكتاب في أثنائه ما نصّه: «إنّ الخلاف أتى من جهتكم فكونوا على حذر فإني سأعيد معكم القتال حتى لا تَتَّهِموني بالخيانة. هذا وبصّروا رجالكم ونبّهوا رعاياكم. والخلاصة اتّخذوا الحذر التامّ» هـ. (1).

[127] وأعلن عند ذلك بالمحاربة وجمع جموع فرسانه وأتت فرقة [127] عجوط على متيجة وفتكت بالعساكر الفرنساوية التي بها ثمّ هجمت على أبنيتها فأحرقتها واغتنمت ما فيها. وتقدّم الأمير عبد القادر بخيله ورجله إلى سور الجزائر وحملوا عليها حملة اشتدّت ملحمتها وظهر فيها من بأس الأمير وثباته ما شهد له به مقاوموه ونال منهم ما عظم به اعتباره في أعينهم. واشتدّ الخوف من سطوته واضطرّت جيوش الجزائر للوقوف موقف الدفاع مع غاية الحذر نحو الأربع سنين سلكوا فيها مسلكا سياسيا في جموع أنصاره بدسائس الإفساد والتفريق إلى أن التاثت جُمُوعُ الأمير عبد القادر بخروج بعض فرسانه عن طاعته.

وأوّل من خرج عن طاعته من أنصاره رجل من الدوائر اسمه مصطفى ابن إسماعيل وهو ابن أخي المازري السابق الذكر. ولما انحاز إلى الجيوش

---

(1) لهذا الكتاب صيغة أخرى هي الآتية: ان الخلاف متأة من جهتكم فأنتم البادئون بالنقض فكونوا اذا على علم بأني مضطر للعودة إلى السلاح حكما بيننا وبينكم فلا تتهموني بالغدر في تنكب الطريق الذي ألجأتموني إليها فأعدوا رجالكم وحذروا رعاياكم ما دمتم متشبثين بالحصول على ميزات وتوسعات جديدة تسترونها باسم (تفسير المعاهدة السالفة) ... انظر: زين العابدين السنوسي، كتاب مقالات العرب، ج 8 ص 379.

الفرنساوية أكرموهم وخذلوا المسلمين بمكائدهم حتّى خرج من يد الأمير مثلُ أم عسكر والبليدة ومليانه ومازونه والمدية وأرض بجاية .

وفي أوائل شعبان سنة 1257 (1) خرج أهل تلمسان فارّين فمنهم من قصد الجبال ومنهم من قصد وجدة وخرج رجل من أحواز تلمسان اسمه محمّد بن عبد الله فدعا الناس إلى بيعته وبايعته قبيلة الغسل وأتى الأمير عبد القادر بخيله ورجله على تلك القبيلة وانتزعوا ما بأيديهم إلى أن رجعوا عن الخروج من طاعة الأمير فأرجع لهم الأمير جميع ما أخذ منهم وفرّ زعيمهم بمن بقي معه وانضمّ إلى مصطفى بن إسماعيل ودخل الأمير عبد القادر أوّل ذي القعدة الحرام من السنة 57 (2) وأرسل إلى أهلها فاستعادهم إليها . وأقبل أهلها من كلّ جانب بحيث إنّ أهلها أقاموا فيها صلاة الاضحى بعد أن قاسوا الشدائد في الإيّاب .

وفي ليلة الرابع عشر من ذي الحجة (3) قدم على تلمسان مصطفى بن إسماعيل ومحمّد بن عبد الله .

[128] يقودان العساكر ومن انضمّ إليهم وأدخلوهم إلى تلمسان فخرج منها أهلها وخافوا نكاية مصطفى بن إسماعيل فيهم . ثمّ إنّ قبائل تلك الجهات أتوا بالطاعة لمحمّد بن عبد الله وطلبوا أن لا يستعمل عليهم مصطفى بن إسماعيل فاستعمل عليهم الحاج غانم أحد قوّاد الأمير عبد القادر سابقا . [128]

وأنف من ذلك رجل منهم اسمه الزين فأدخل بني عامر لحكم الجزائر وخاف بقية القبائل فاضطرّوا لمبايعة محمّد بن عبد الله التي هي في الحقيقة مبايعة لحاكم الجزائر وأعاد الأمير عبد القادر غزوه على تلك الجهات إلى سنة 58 ثمان وخمسين (4) فتنقّل بغزوه إلى ناحية تاقدمت وَغـَزَا تِلْكَ القبائل غَزْوًا عجيبًا ولازم مصطفى بن اسماعيل مطاردته .

---

(1) يوافق : سبتمبر سنة 1841 .
(2) يوافق : ديسمبر سنة 1841 .
(3) يوافق : 27 جانفي سنة 1842 .
(4) يوافق : 1842 .

وفي سنة 1259 (1) عاد إلى الصحراء فنزل على يوم من عين ماضي وأدركتهم هنالك المحلات من قسنطينة فتنقّل إلى ناحية تلمسان وأتى على قبيلة الأحرار فقاتل فيهم وغنم . وغزا بعض بني عامر وهو مستعصم بمن معه بجبل الجعابرة . وفي أثناء ذلك دخلت جهات الصحراء في طاعة حاكم الجزائر مثل جبل الصحاري وجبل العمور والأغواط وما حولها .

وكان القائم بنصرته في ذلك كلّه نحو الأربعة آلاف فارس يشنّ بهم الغارة على القبائل الذين في طاعة الجزائر وتمكّن من نواصي أكثر النجدات العسكرية اعترضها ولازم ذلك نحو سنة كانت إقامتهم فيها على متون الخيل أكثر من إقامتهم على متن الأرض. وحركات تنقلاتهم عجيبة لم يمكّن للجيوش الفرنساوية أن يقفوا منها على حقيقة .

ومن أخباره ما حكاه عنه ولده الأكبر من أنّه ركب يوم ارهبذ (2) والتجأ إلى نهره وكان عرضه أربعين ذراعا فشدّه على فرسه الكميت لونا واسما ووثب على عرض النهر ولم يتعلثم . ومنها ما حكاه أيضا عنه انّه كان له فرس أدهم يسمّى [129] الولهاصي قطع به مسير أربع مراحل للمجد في ليلة [129]
واحدة (3) . وفي سنة 1843 الموافقة لسنة 1260 عظمت المحاربات بينه وبين الجيوش الفرنساوية والقبائل القريبة منهم ثم توغّل الأمير عبد القادر في الأراضي المغربية يستفزّ منها أنصارا غير أنّ سلطنة المغرب لم تكن معه على حسب الظنّ ولاقى من جانب تلك السلطنة ما اضطرّه إلى استنهاض علماء الإسلام في كثير من الأصقاع بالاستفتاءات والرسائل الفقهية التي تشهد لسعة علمه رضي الله عنه (4) .

(1) يوافق : 1843 .
(2) كذا بالأصل .
(3) هذا الخبر ساقط من رواية زين العابدين السنوسي (من قوله : ومن أخبار ... إلى قوله : في ليلة واحدة) .
(4) رواية زين العابدين السنوسي في هذا الصدد كما يلي : وانحاز إلى حدود سلطنة المغرب الأقصى واتخذ لنفسه أنصارا منهم عادوا معه إلى الغارة على العساكر الفرنساوية والقبائل المغربية منهم ثم توغل الامير عبد القادر في الاراضي المغربية يستفز منها أنصارا غير أن سلطنة المغرب منعت قبائلها من الانضمام إليه حذرا من معاداة الدولة الفرنساوية وخرجت محلات السلطنة تحت رئاسة ... (انظر : زين العابدين السنوسي ، كتاب مقالات العرب ، ج 8 ص 381) . والملاحظ أن هذه الفقرة ساقطة من الأصل المحقق .

وقد وقفت على بعضها ومنها ما كتبه لعلماء مصر فذكر ما حلّ أوّلا بالجزائر وما تسنّى له بمعونة الله في حماية المسلمين من لدن سنة الستّ (1) ولأاربعين إلى سنة ثلاث(2) وستّين . فكان من سلطان المغرب ما أضرّ بالمسلمين من خمسة أوجه : **الأوّل** — أنّه أمكن لهم محاصرة العدوّ ومنع الواردات ثلاثة أعوام وعندما كاد أن يحلّ به التلاشي أمدّه سلطان المغرب بألوف من البقر وقوي بذلك شأنه . **الثاني** — أنّه غصب من أحد عُمّال المسلمين ألفا وخمسمائة مكحلة انجليزية . **الثالث** — أنّه غصب من أحد وكلاء المسلمين أربعمائة كسوة من الملف. **الرابع** — أنّه أخذ بعض إعانات أعدّت للمسلمين وقال أنا أولى بها ومنع من أرادوا الإعانة . **الخامس** — أنّه وقع خلاف بينه وبين الدولة الفرنساوية ووقع له معهم قتال والتزم في شروط صلحه بحلّ هاته العصابة المحمّدية والضبط على رئيسهم على أن يحبسه طول عمره أو يقتله ويمكنه من يد عدوّه أو يجليه عن الأرض وأرسل يأمرهم بترك الجهاد ومنع عنهم الكيل وأخذ يسعى في القبض على رئيسهم وأمر بعض القبائل من رعيّته أن يقاتلوهم ويأخذوا أموالهم هذا بعض ما حكاه في سؤال فقهي طويل .

وقد أجابه عن فصوله عالم مصر وفقيهها [130] الشيخ محمد عليش (3) [130]
بجواب فقهي أوضح فيه أحكام تلك الفصول وقد وقع إثبات ذلك كله في كتابه **فتح العلي المالك في الفتوى على مذهب الإمام مالك** . وللمطالع مراجعة تفاصيل ذلك هنالك .

وعلى كلّ حال فقد آل الأمر أن خرجت محلاّت السلطنة المغربية تحت رئاسة أبناء السلطان مولاي عبد الرحمان لإجلائه عن الأراضي المغربية وراسله مولاي عبد الرحمان يدعوه إلى الأمان وإلقاء السلاح عملا بما تضمّنته المعاهدة

---

(1) بالأصل : الستة ، يوافق : 1830—1831 .
(2) بالأصل كلمة : خمسين مشطوبة . يوافق : 1846—1847 .
(3) انظر ترجمته أعلاه صفحة 69 تعليق رقم 1 .

التـي أمضَى عليها في طنجة (1) امتنع من ذلك . وكان بمعيته اثنا عشرة مائـة فارس وألف من المشاة فهجم بهم على المحلة المغربية الواقعة على الضفة اليسرى من وَادِي مُلَيَّة (2) . وانتصر الأمير عبد القادر على أبناء السلطـان أوّلا ثمّ عادت الكرّة فانتصر أبناء السلطان . وتلاشت جموع الأمير فانحاز إلى الوادي والجيوش المغربية في أثره إلى أن عبره بنسائه وأولاده وأتباعه ودخل صحراء الطريفـة .

ولم يجتمع له إلاّ نَقَلٌ (3) مِنْ نصف مَنْ هُم معه وعندما رأى نفسه واقعًا بين دولتين إنْ نَجَا من إحداهما لا يسلم من الأخرى اختار العود إلى الجزائر لإلقاء السلاح بين يدي الدولة الفرنساوية . فدخل أرض الجزائر ولمّا وصل إلى مضيق كربوس لاقى هنالك فرقة من فرسان الحراسة المسمّيـن بالسبايس (4) فأعلن لهم بإلقاء السلاح في اليوم الثانـي والعشرين من دجمبر سنة 1847 سبع وأربعين وثمانـي عشرة مائة الموافق سنة 1264 أربع وستّين ومائتيـن وألـف .

(1) أمضيت معاهدة طانجة في 11 سبتمبر 1844 ويعلن فصلها الرابع باعتبار الأمير عبد القادر خارجا على القانون في كل من المغرب الاقصى والجزائر . انظر :
Philippe D'Estailleur - Chanteraine, Abdelkader... P. 138

(2) مليلة كذا في نص زين العابدين السنوسي .

(3) في نقل زين العابدين : أقل . وكلمة نقل تعني ما يبقى من الحجارة والجص من هدم البيـت

(4) هي فرقة من الفرسان الأهليين تكونت بالجزائر سنة 1834 ، ولفظة سبايس دخيلة من التركية . امّا قائد هذه الفرقة اذاك فهو المسمـى بوخوية . انظر :
Philippe D'Estailleur - Chanteraine, Abdelkader... p. 154-6

[ثورة محمد بن الطاهر الكبلوتي]

وقد فعل ذلك حزما منه وسياسة للاستبقاء على نفسه . ولو أنّه عدل إلى غير جهة أعدائه لكان لقي الشرّ وما بالعهد من قدم لمّا وقعت الحرب بين فرنسا وألمانيا كان فيمن أراد أن ينتهز تلك الفرصة رجل يُدعى محمّد بن الطاهر الكبلوتي (1) الحنّاشي جمع (2) جمعا [131] من الحنانشة وغيرهم فرسانا [131]
ورجالا أقام بهم القتال مدّة أشهر في جهات سوق أهراس من عمل الجزائر وأبلوا في عدّة مقاتلات غير أنّه لقلّة أنصاره ضعف عن الملازمة فنجا بأهله وبعض فرسانه إلى تونس وأقام بها مدّة مختفيا .

وعندما ظهر خبره طلبه قنصل الفرنسيس فالتزم الوزير خير الدين أن يخرجه من تونس . وأقام في طرابلس ثم ارتحل منها إلى الشام والآستانة وبعد طول السنين رَجَعَ إلى تونس ونزل بين جلاص في أهل البادية وهم لا يعرفونه . ولمّا علمه خليفتهم صالح بن سعيدان الجلاصي أمسكه وأعلم به الوزير مصطفى بن إسماعيل فتَقَرَّبَ بسجنه في داموس حلق الوادي .

وعند دخول الفرنساويين إلى تونس أرادوا أن يتسلّموه فامتنع الباي من تسليمه وأبقاه في ظلمة ذلك القبر إلى أن أشفق عليه الفرنساويون فطلبوا تخلية سبيله على حين تداعي قواه من أندية ذلك الداموس وإحاطة المرض به . فنقلوه إلى المستشفى الصادقي في شعبان سنة 1300 (3) واقام هنالك للتداوي إلى ان قضى

---

(1) ورد في رسالة من بوتميليو قنصل فرنسا بتونس إلى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 12 جويلية 1872 ما يلي : ... ان الكبلوتي الذي كنت عملت على سفره إلى مكة قد عاد إلى تونس رغم اشعاره بالمنع من العودة إليها وبمجرد أن أخبرت بعودته طلبت ايقافه ونجحت في ذلك وأركبه الباي سفينة قاصدة الاسكندرية بعد الاعلام بالمنع من العودة إلى الايالة وان فعل يسجن مدى الحياة باحدى القلاع ... (وفي رسالة بتاريخ 12 أوت 1872 : ... لقد عاد الكبلوتي إلى تونس عن طريق طرابلس الغرب) . انظر : وثائق وزارة الخارجية الفرنسية ، سنة 1872 ملف رقم 38. ص 91–130 .

(2) كلمة : جمع : أضفناها ليستقيم السياق .

(3) يوافق : جوان سنة 1883 .

نحبه ليلة الأربعاء السادس من جمادى الثانية سنة احدى وثلاثمائة والف (1) . وكُنتُ فيمن شيّع جنازته عليه رحمة الله . وانا نعتبر ني الفرق بين ما عليه الرجلين وبذلك يتبيّن صدق حزم الأمير عبد القادر .

[عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسيني]

على أنّه لمّا ألقى السلاح للدولة الفرنسويّة اشترط ثلاثة شروط : الشرط **الأوّل** — إن يحملوه مع جميع عائلته للإسكندرية أو عكّا . الشرط **الثاني** — **أن** لا يتعرّضوا لمن يريد السفر معه من العساكر والضبّاط . الشرط **الثالث** — **أن** الذي يبقى منهم في وطنه يكون آمنا على نفسه وماله .

وقبلوا جميع شروطه وعليها ورد إليه مكتوب التأمين مصحوبا بسَيْف [132] محلّى وطلب من الجنرال دي لاموريسيار (2) التوجّه إلى الإسكندرية فأمضى له الدوك دومال (3) حاكم الجزائر يومئذ مطلبه وتوجّه مصحوبا بعائلته وأتباعه البالغ عددهم نحو المائة في الفرقاطة المسمّاة (لاصمودي) إلى ميناء جامع الغزواة غربي وهران وتلقّاه هنالك ولد ملك فرنسا وماريشاله وصفوف العساكر تلقّي الملوك تعظيمًا لشأنه . ثمّ توجّه إلى طولون ومنها طلب التوجه إلى الأراضي المشرقية . [132]

فخابرت دولة فرنسا كلاً من الآستانة ومصر في توجيهه غير أنه في أثناء المخابرة حدثت ثورة شهر فراير سنة 1848 فنقلته الدولة إلى فرنسا وأسكنته بقصر مدينة بُو مصحوبًا بجميع أتباعه . ثمّ تنقّل إلى قصر أمبواز بالقرب من مدينة بلوا وأقام هنالك إلى سنة 1852 . وعند ذلك أذن له الإمبراطور نابليون

---

(1) يوافق : أفريل سنة 1884 .

(2) لاموريسيار : ضابط ورجل سياسة ، ، ولد سنة 1806 وتوفي سنة 1865 .

(3) هو رابع أبناء الملك لويس فيليب ، ولد سنة 1822 ، وتوفي 1897 .

الثالث بالذهاب حيث يشاء فاختار التوجّه إلى مدينة بُرُوصَّة الملقّبة برج الأوليا ووقع التوافق بين الإمبراطور والدولة العثمانية على توجيهه إلى بروصّة فكان توجّهه إليها سنة 1269 تسع وستين ومائتين وألف هجرية (1) .

وأجرت له الدولة الفرنساوية مرتّبا عمريا قدره مائة ألف فرنك في السنة وأقام في بورصّة ثلاث سنين لاقى فيها من إكرام الدولة العثمانية وإقبال علماء الترك وفضلائهم ما يليق به إلى أن حدث فيها الزلزال الهائل وعند ذلك تنقّل إلى دمشق الشام فكان دخوله إليها سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف (2) .

وأقام بها سوق العلم (3) وملك كثيرا من الديار في حومة واحدة اختصّها بسكناه وسكن ابنيه العالمين الجليلين محمّد باشا ومحيي الدين باشا . وبنى هنالك مسجدا . واختصّ ديارا لسكنى أبناء أعمامه وأقاربه وأتباعه البالغين جملة في قيل [133] عند ذلك إلى نحو الأربعمائة نفس بين نساء ورجال وصبيان . واختصّ بيوتا يأوي إليها الوارد من الضيوف والفقراء . وأقام هنالك مرموقا بعين الإجلال والاعتبار والفضل الشاسع الصيت في جميع الأمصار (4) . [133]

وثبت على متن الوفاء مع فرنسا فلم يستعمل ضدّها رأيا فضلا عن السلاح بل إنّ ولده الأمير محيي الدين كان خرج وقدم إلى إفريقيا وجمع شرذمة ابتدأ بهم القتال فكتب والده إلى الدولة الفرنساوية متبرّما ممّا فعل ولده المذكور بأنّ ذلك لم يكن عن رضاه ولا عن إذنه .

---

(1) كان ذلك في 21 ديسمبر سنة 1852 ودخل إلى الأراضي التركية في 7 جانفي سنة 1853 . انظر : Philippe D'Estailleur - Chanteraine, Abdelkader... p. 159-182

(2) حدث هذا الزلزال خلال سنة 1855 ودخل الامير عبد القادر مدينة دمشق سنة 1856 . انظر : المرجع السابق ، ص 186–187 .

(3) انتهى إلى هنا نقل زين العابدين السنوسي . انظر : (كتاب مقالات ... ص 382) .

(4) توجد الحومة التي اختصها الأمير عبد القادر بسكناه بحي العمارة قرب مسجد بني أمية بدمشق

[حماية الأمير عبد القادر لنصارى سكّان جبل لبنان عام 1860]

ولما وقع هياج المسلمين بالشام على النصارى سكّان جبل لبنان سنة 1276 ست وسبعين (1) وقتلوا عددا وافرا من الموارنة (2) وقتل في دمشق خاصّة أكثر من ستّة آلاف نفس وغضّ طرفه عن ذلك أحمد باشا والي ولاية سورية فنهض الأمير عبد القادر وجمع إليه آل بيته وأتباعه وشيعته وعرض على قنصل فرنسا تأهّبه لحماية الجنس النصراني وآوى إلى بيوته نحو الثلاثة آلاف نفس قام على حراستهم بنفسه ثلاث ليال وآوى إلى القصبة نحو العشرة آلاف نفس باشر أيضا حرساتهم بآله وأتباعه ومن انضمّ إليه .

وخرج إلى ضواحي دمشق نحو سبع مرّات لجمع الملتجئين من النصارى وقد مات من المسلمين الذين معه في حماية النصارى نحو سبعة أنفس . ولمّا وفد إلى دمشق الشيخ أسعد عمر مترئّسا على ألف من الدروز بادر قنصل اليونان لإعلام الأمير عبد القادر بقدومه . فانْضَمّ إليه واتّحد الفريقان تحت رئاسة الأمير عبد القادر (3) .

ولما سكنت الثائرة ميّزته الدولة الفرنساوية بنيشان ليجيون دينور الصنف الأوّل سنة 1860 مسيحية . وسافر إلى باريس يحضر معرض سنة 1867 سبع وستين . ونال حسن القبول هنالك [134] ومن أخبار وفائه أنّه لما انهزمت فرنسا في [134]
حرب سنة 1870 أظهر كمال الأسف وتزيّ بنيشانها الأكبر إظهارا لاعتراف مصادقتها وتخلّى (4) عن ملاقاة الناس مدّة . وهكذا كان حسن وفائه وصدقه . وقد لازم بيته معتكفا على مطالعة الفتوحات للشيخ الأكبر والمحاورة

---

(1) يوافق : 9 جويلية سنة 1860 .

(2) طائفة مسيحية ظهرت في وادي العاصي حوالي سنة 400م. وفي عهد مروان (745م.–746م.) نزح الموارنة إلى جبال لبنان واستوطنوها .

(3) انظر تفصيل هذا الخبر في كتاب :
Philippe D'Estailleur - Chanteraine, Abdelkader... p. 189-191

(4) بالأصل : وتخلا .

في مسائلها مع جلّة علماء الشام . وحجّ بيت الله الحرام مرارا كثيرة . وبيته في دمشق منتدى الوافدين وتوسّعه في العلوم العقلية والنقلية زادته على شرفه شرفا.

[مؤلّفات الأمير عبد القادر]

وقد ألّف رسائل كثيرة في أحكام الجهاد والهجرة تدلّ على سعة باعه في فقه مذهب مالك وله أجوبة ارتجالية في أذواق الصوفية (1) تدلّ على علوّ مرتبته وله في الأدب براعة ولطائف شعره محفوظة وحماسياته بعين الإجلال ملحوظة . فمن رائق شعره في الحماسة يذكر يوم خنق النطاح (2) الذي أبلى فيه مع المقدّس والده في مبدإ وقائع حروبه وهي قصيدة عزيزة أبدع (من الطويل) :

تَوَسَّدْ بِمَهْدِ الأمْنِ قَدْ مَرَّتِ النَّوَى (3)
وَزَالَ لَغُوبُ السَّيْرِ مِنْ شَهْدِ الثُّوَى (4)

وَكُرَّ جِيَادًا جَادَ بِالنَّفْسِ كَرُّهَا
وَقَدْ أَشْرَفَتْ مِمَّا عَرَاهَا عَلَى النَّوَى

وَكَمْ قَدْ جَرَتْ طُلْقًا لَنَا فِي عَشِيَّةٍ
وَخَاضَتْ بِحَارَ الآلِ (5) مِنْ شِدَّةِ الْجَوَى

وكَمْ مِنْ مَفَازَاتٍ يَضِلُّ بِهَا القَطَا
قَطَعْتُ بِهَا وَالذِّئْبُ مِنْ حَوْلِهَا عَوَى

(1) جمعت هذه الأجوبة في كتاب : المواقف في التصوف والوعظ والا رشاد ، ط 2 دمشق 1966/1386 .

(2) انظر أعلاه صفحة 115 تعليق رقم 3 .

(3) النوى : البعد (مؤنثة لا غير) .

(4) الثوة : ما ينصب على الطريق ليهتدى به . ج. ثوى .

(5) الآل : السر اب .

لِذَاكَ غَدَتْ مِثْلَ الْقِسِيِّ ضَوَامِرًا
وَتِلْكَ سِهَامٌ لِلْعِدَا وَقْعُهَا سَوَى (1)

إِلَى أنْ بَدَتْ نِيرَانُ أَعْلامِنَا لَهَا
وَمَا ضَوْءُ نِيرَانِ الْكِرَامِ لَهَا انْضَوَى (2)

وَلاَ سِيَّمَا أهْلُ السِّيَادَةِ مِثْلُنَا
بَنُو الشَّرَفِ الْمَحْضِ الَّذِي صِينَ عنْ هَوَى

فَقَالَتْ أيَا ابْنَ الرَّاشِدِينَ لَكَ الْهَنَا
فَأَلْقِ عَصَا التِّشْيَارِ وَاحْسِمْ وَجِي (3) النَّوَى

أيَا ابْنَ خَلاَّدٍ طَالَ رَوْمُكَ لِلْعُلَى
وَبَايَنْتَ مَا دَاكَ (4) الْكَرِيمُ وَمَا حَوَى

[135] فَحِينَئِذٍ قَدْ شَدَّ رَفْعُنَا لَهَا [135]
عِفَارًا وَنَادَاهَا لَكَ الْعِزُّ قَدْ ثَوَى

وَحَلَّ بِكَهْفٍ لاَ يُرَامُ جَنَابُهُ
فَمَنْ حَلَّ فِيهِ مِثْلَ مَنْ حَلَّ فِي طُوَى (5)

فَنَحْنُ أكَالِيلُ الْهِدَايَةِ وَالْعُلَى (6)
وَمَنْ نَشَرَ عَلْيَاهُمْ إِلَى الْمَجْدِ قَدْ طَوَى

وَنَحْنُ لَنَا دِينٌ وَدُنْيَا تَجَمَّعَا
وَلاَ فَخْرَ إلاَّ مَا لَنَا يَرْفَعُ اللِّوَا

---

(1) السوى : القصد .
(2) انضوى : انضم .
(3) وجأ يوجأ وجأ فلانا بالسكين : ضربه في أي موضع كان .
(4) داك يدوك دوكا الشيء : دقه وسحقه وطحنه .
(5) الطوى : الشيء المثني .
(6) بالأصل : العلا .

مَنَاقِبُ مُخْتَارِيَّةٌ قَادِرِيَّةٌ
تَسَامَتْ وَعَبَّاسِيَّةٌ مَجْدُهَا احْتَوَى
فَإِنْ شِئْتَ عِلْمًا تَلْقَنِي خَيْرَ عَالِمٍ
وَفِي الرَّوْعِ أَخْبَارِي غَدَتْ تُوهِنُ الْقُوَى
لَنَا سُفُنٌ بُحْرُ الْحَدِيثِ بِهِ جَرَتْ
وَخَاضَتْ فَطَابَ الْوِرْدُ بِهِ ارْتَوَى
وَإِنْ رُمْتَ فِقْهَ الأَصْبَحِي فَعُجْ عَلَى
مَجَالِسِنَا تَشْهَدْ لِدَاءِ العَنَا دَوَى
وَإِنْ شِئْتَ نَحْوًا فَانْحُنَا تَلْقَ مَالَهُ
غَدَا يُذْعِنُ البَصْرِيُّ زُهْدًا لِمَا رَوَى
وَنَحْنُ سَقَيْنَا الْبِيضَ فِي كُلِّ مَعْرَكٍ
دِمَاءَ الْعِدَا لَمَّا وَهَتْ مِنْهُمُ الْقُوَى
أَلَمْ تَرَ فِي خُنُقِ النِّطَاحِ نِطَاحَنَا
غَدَاةَ الْتَقَيْنَا كَمْ شُجَاعٍ لَهُمْ لَوَى
وَكَمْ هَامَةٍ ذَاكَ النَّهَارَ قَدْ دَقَّهَا
مَجَرُّ حُسَامِي وَالْقَنَا طَعْنُهُ شَوَى
وَأَشْقَرٍ تَحْنِي كَلْمَتُهُ رِمَاحَهُمْ
تَمَأَّقَ (1) وَلَمْ يَشْكُ الوَجِيبَ وَلَا التَّوَى
بِيَوْمٍ قَضَى نَحْبًا أَخِي فَارْتَقَى إِلَى
جِنَانٍ لَهُ فِيهَا نَبِيُّ الرِّضَى أَوَى
فَمَا ارْتَدَّ مِنْ وَقْعِ السِّهَامِ عِنَانُهُ
إِلَى أَنْ أَتَاهُ الْفَوْزُ رَغْمًا لِمَنْ هَوَى

(1) تمــأق : من مئق يمأق مأقا : أخذته المأقة : الأنفة .

وَمِنْ بَيْنِهِمْ حَمَلْتُهُ وَهْوَ قَدْ قَضَى
وَكَمْ رَمْيَةٍ كَالنَّجْمِ مِنْ أُفْقِهِ هَوَى
وَيَوْمٍ قَضَى تَحْتِي جَوَادٌ (1) بِرَمْيَةٍ
وَبِي جُمِعُوا لَوْلاَ أُولُو الْبَأْسِ وَالْقُوَى
وَأَسْيَافُنَا قَدْ جُرِّدَتْ مِنْ جُفُونِهَا
وَلاَ رَدَّ إلاَّ بَعْدَ وِرْدٍ بِهِ الرِّوَى (2)
وَلَمَّا بَدَا قَرْنِي بِيُمْنَاهُ حِرْفَةً
وَكَفِّي بِهِ نَارٌ بِهَا الْكَبْشَ قَدْ شَوَى
فَأَيْقَنَ أَنِّي قَابِضُ الرُّوحِ فَانْكَفَى
يُوَلِّي فَوَافَاهُ حُسَامِي بِمَا هَوَى
شَدَدْتُ عَلَيْهِمْ شِدَّةً هَاشِمِيَّةً
وَقَدْ وَرَدُوا وِرْدَ الْمَنَايَا عَلَى الْقَوَى (3)
[136] نَزَلْتُ بِبُرْجِ الْعَيْنِ نِزْلَةَ ضَيْغَمٍ [136]
فَزَادُوا بِهَا حُزْنًا وَعَمَّهُمُ الْجَوَى (4)
وَمَازِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ
وَكُلِّ جَوَادٍ هَمُّهُ الْكَرُّ لاَ الشَّوَى (5)
وَذَا دَأْبُنَا فِيهِ حَيَاةٌ لِدِينِنَا
وَرُوحُ جِهَادٍ بَعْدَ مَا غُصْنُهُ ذَوَى
جَزَى اللَّهُ عَنَّا كُلَّ صَقْرٍ مُدَلَّعٍ (6)
مِنْ أَهْلِ غَرِيسَ إذْ تَأَنَّى وَمَا انْزَوَى

(1) بالأصل : جوادا .
(2) الروى : الماء الغزير المروي .
(3) القوى : الجوع .
(4) الجوى : شدة الوجد من حزن .
(5) الشوى : الأمر الهين .
(6) مدلع : المتربي في العز والنعمة .

فَكَمْ أشْعَلُوا نَارَ الْوَغَى بِالظِّبَا مَعِي
وَصَالُوا وَجَالُوا وَالْقُلُوبُ بِهَا اشْتَوَى

وَإنَّا بَنُو الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِهَا بِنَا
سُرُورٌ إذَا قَامَتْ وَمَا أحَدٌ عَوَى

لِذَاكَ عَرُوسُ الْمُلْكِ كَانَتْ خَطِيبَتِي
كَفَجْأةِ مُوسَى بِالنُّبُوَّةِ فِي طَوَى

وَقَدْ عَرَفَتْنِي خَيْرَ كُفْءٍ (1) لِوَصْلِهَا
وَكَمْ رُدَّ عَنْهَا خَاطِبٌ بِالْهَوَى هَوَى

فَوَاصَلْتُهَا بِكْرًا لَدَيَّ تَبَرَّجَتْ
وَلِي أذْعَنَتْ وَالْمُعْتَدِي بِالنَّوَى ثَوَى

وَقَدْ سِرْتُ فِيهِمْ سِيرَةً (2) عُمَرِيَّةً
وَأسْقَيْتُ ظَامِيهَا الْهِدَايَةَ فَارْتَوَى

وَإنِّي لأَرْجُو أنْ أكُونَ أنَا الَّذِي
يُنِيرُ الدَّيَاجِي بِالسَّنَا بَعْدَ ذَا النَّوَى

بِجَاهِ خِتَامِ الْمُرْسَلِينَ مُحَمَّدٍ
أجَلِّ نَبِيٍّ كُلَّ فَضْلٍ لَقَدْ حَوَى

عَلَيْهِ صَلاَةُ اللَّهِ ثُمَّ سَلاَمُهُ
وَآلٍ وَصَحْبٍ مَا سَرَى الرَّكْبُ لِلِّوَى (3)

وَمَا قَالَ بَعْدَ السَّيْرِ وَالْجِدِّ مُنْشِدٌ
تَوَسَّدْ بِمَهْدِ الأمْنِ قَدْ مَرَّتِ النَّوَى

---

(1) بالأصل : كفو .

(2) بالأصل : سيرته .

(3) اللوى : ما التوى وانعطف من الرمل . ج : ألواء .

ومن حماسيات قوله في مدح البادية على طريقة شعراء العرب العرباء (من البسيط) :

يَا عَاذِرًا لاِمْرِىءٍ قَدْ هَامَ فِي الْحَضَرِ
وَعَاذِلاً لِمُحِبِّ الْبَدْوِ وَالْقَفْرِ
أَتَذْمُمَنْ بُيُوتًا خَفَّ مَحْمَلُهَا
وَتَمْدَحَنْ بُيُوتَ الطِّينِ وَالْحَجَرِ
لَوْ كُنْتَ تَعْلَمُ مَا فِي الْبَدْوِ تَعْذِرُنِي
لَكِنْ جَهِلْتَ وَكَمْ فِي الْجَهْلِ مِنْ ضَرَرِ
أَوْ كُنْتَ أَصْبَحْتَ فِي الصَّحْرَا تَمُرُّ عَلَى
بِسَاطِ رَمْلٍ مِنَ الصَّهْبَاءِ وَالْكَدَرِ (1)
أَوْ جُلْتَ فِي رَوْضَةٍ قَدْ رَاقَ مَنْظَرُهَا
بِكُلِّ لَوْنٍ جَمِيلٍ طَيِّبٍ عَطِرِ
[137] تَسْتَنْشِقَنْ [137] نَسِيمًا طَابَ مُنْتَشَقًا
يَزِيدُ فِي الرُّوحِ لَمْ يَجْرُرْ عَلَى قَذَرِ
أَوْ كُنْتَ فِي صَفْحِ (2) لَيْلٍ هَاجَ هَاتِنُهُ
عَلَوْتَ فِي مَرْغَبٍ (3) أَوْ حَلَوْتَ بِالنَّظَرِ
رَأَيْتَ فِي كُلِّ وَجْهٍ مِنْ بَسَائِطِهَا
سِرْبًا مِنَ الْوَحْشِ يَرْعَى أَطْيَبَ الشَّجَرِ
فَيَالَهَا وَقْفَةً لَمْ تُبْقِ مِنْ حَزَنٍ
فِي قَلْبِ مُضْنًى وَلاَ كَدٍّ لِذِي ضَجَرِ
نُبَاكِرُ الصَّيْدَ عِنْدَ الْفَجْرِ نَبْغَتُهُ
فَالصَّيْدُ مِنَّا مَدَا الأَوْقَاتِ فِي ذُكَرِ

(1) الكدرة : القبضة من الزرع المحصود . ج : كـدر .
(2) الصفـح : الجانب .
(3) مرغب : من الرغب : الواسع .

فَكَمْ ظَلَمْنَا ظَلِيماً (1) مَعْ نَعَامَتِهِ
وَإِنْ يَكُنْ طَائِراً فِي الْجَوِّ كَالصَّقَرِ
يَوْمَ الرَّحِيلِ إِذَا شُدَّتْ هَوَادِجُنَا
شَقَائِقُ عَمَّهَا مُزْنٌ مِنَ الْمَطَرِ
فِيهَا الْعَذَارَى وَفِيهَا قَدْ جَعَلْنَا كُوَى
مُرَقَّعَاتٍ فَمَا بِالْعَيْنِ مِنْ حَوَرِ
تَمْشِي الْحُدَاةُ لَهَا مِنْ خَلْفِهَا زَجَلٌ
أَشْهَى مِنَ النَّايِ وَالنَّقِيرِ (2) وَالْوَتَرِ
وَنَحْنُ فَوْقَ جِيَادِ الْخَيْلِ نُرْكِضُهَا
شَلِيلُهَا (3) زِينَةُ الأَكْفَالِ (4) وَالخَصَرِ (5)
نُطَارِدُ الْوَحْشَ وَالْغِزْلاَنَ نَلْحَقُهَا
عَلَى الْبِعَادِ وَمَا تَنْجُو مِنَ الضَّمَرِ (6)
نَرُوحُ لِلْحَيِّ لَيْلاً بَعْدَ مَا نَزَلُوا
مَنَازِلاً مَا بِهَا لَطْخٌ مِنَ الْوَضَرِ (7)
تَرَى بِهَا الْمِسْكَ بَلْ أَنْقَى وَجَادَ بِهَا
صَوْبُ الْغَمَائِمِ بِالآصَالِ وَالْبُكُرِ (8)
تَلْقَى الخِيَامَ بِهَا صُفَّتْ مَبَانِيهَا
صَارَتْ بِهَا الأَرْضُ مِثْلَ الأُفْقِ بِالزَّهَرِ

(1) الظليم : الذكر من النعام .
(2) النقير : الصوت .
(3) شليل : طريد .
(4) الكفل : الرديف ، ما يحفظ الراكب خلفه . ج : أكفال .
(5) الخصر : وسط الانسان فوق الورك .
(6) الضمر : الضامر الهضيم البطن ، اللطيف الجسم .
(7) الوضر : غسالة القصعة ونحوها ، وسخ الدسم .
(8) أصيل : الوقت بين العصر والمغرب . ج : آصال . والبكر جمع بكرة : باكرا .

قَالَ الأُلَى قَدْ مَضَوْا قَوْلاً وَصَدَّقَهُ
نَقْلٌ وَعَقْلٌ وَمَا لِلْحَقِّ مِنْ غِيَرِ (1)
الْحُسْنُ يَظْهَرُ فِي شَيْئَيْنِ رَوْنَقُهُ
بَيْتٌ مِنَ الشِّعْرِ أَوْ بَيْتٌ مِنَ الشَّعَرِ
أَمْوَالُنَا إِذْ تَرُوحُ بِالْعَشِيِّ عَلَتْ
أَصْوَاتُهَا كَدَوِيِّ الرَّعْدِ بِالسَّحَرِ
سَفَائِنُ الْبَرِّ بَلْ أَنْجَى لِرَاكِبِهَا
سَفَائِنُ الْبَحْرِ كَمْ فِيهَا مِنَ الْخَطَرِ
لَنَا الْمَهَارَى (2) كَمِثْلِ الْمَاءِ سُرْعَتُهَا
بِهَا وَبِالْخَيْلِ نِلْنَا كُلَّ مُفْتَخَرِ
فَخَيْلُنَا دَائِمًا لِلْحَرْبِ مُسْرَجَةٌ
مَنِ اسْتَغَاثَ بِنَا بَشِّرْهُ بِالْوَطَرِ
بِعْنَا الْحَضَارَةَ بَيْعًا لاَ نُرَاجِعُهُ
بِالْعِزِّ وَالْعِزُّ شَيْءٌ لَيْسَ فِي الْحَضَرِ
[138] نَحْنُ الْمُلُوكُ فَلاَ تَعْدِلْ بِنَا أَحَدًا [138]
وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنْ قَدْ بَاتَ فِي خَفَرِ (3)
لاَ نَحْمِلُ الضَّيْمَ مِنْ جَارٍ وَنَتْرُكُهُ
وَأَرْضَهُ وَجَمِيعُ الْعِزِّ فِي السَّفَرِ
وَإِنْ أَسَاءَ عَلَيْنَا الْجَارُ عِشْرَتَهُ
نَبِينُ عَنْهُ بِلاَ ضُرٍّ وَلاَ ضَرَرِ

---

(1) الغيــر الاسم من غير : تغيــر .

(2) مهرية ج : مهاري : ابل مهرية وهي المنسوبة إلى مهرة بن حيدان من عرب اليمن وقالوا انها كانت لا يعدل بها شــيء في سرعة جريانها .

(3) خفره يخفره خفرا : حماه وأجاره وأمنــه .

مَـا فِـي الْبَـدَاوَةِ مِـنْ عَيْبٍ تُـذَمُّ بِـهِ
إلاَّ الْمُـرُوءَةُ وَالإحْسَـانُ بِـالْبِـدَرِ (1)
تَبِيتُ نَـارُ الْقِـرَى تَبْـدُو لِـطَارِقِنَـا
فِـيهَـا المُـدَاوَةُ مِـنْ جُـوعٍ وَمِـنْ حَضَرِ
عَـدُوُّنَـا مَـا لَـهُ مَلْجَـأٌ وَلاَ وَزَرٌ (2)
وَعِنْـدَنَـا عَـادِيَـاتُ السَّبْـقِ وَالظَّـفَـرِ
شَـرَابُهَـا مِـنْ حَلِيـبٍ مَـا يُـخَـالِـطُـهَـا
مَـاءٌ وَلَيْـسَ حَلِيـبُ النُّـوقِ كَالْبَقَرِ
أَمْـوَالُ أَعْـدَائِنَـا فِـي كُـلِّ آونَـةٍ
إِنَّـا نُقَسِّمُهَـا بِـالْعَـدْلِ وَالْـقَـدَرِ
وَصِحَّـةُ الْجِسْـمِ فِـيهَـا غَيْـرُ خَافِـيَةٍ
وَكُـلُّ عَيْـبٍ وَدَاءٍ فَـهْـوَ فِـي الْحَضَرَ
مِنَّـا الَّـذِي لَمْ يَمُـتْ بِالطَّعْنِ عَـاشَ مَدًا
فَنَحْـنُ أَطْـوَلُ خَـلْـقِ اللَّـهِ فِي الْعُمُـرِ

ومن شعره في الحماسة قوله : (من الطويل)

تُسَـائِلُنِـي أمُّ الْبَـنِـيـنَ وَإِنَّـهَـا
لَـأَعْلَمُ مَـنْ تَحْـتَ السَّمَـاءِ بِأَحْوَالِي
أَلَـمْ تَعْلَمِـي يَـا رَبَّـةَ الْخِدْرِ أَنَّنِـي
أُجَلِّـي هُمُومَ القَوْمِ فِـي يَوْمِ تَجْوَالِي
وَأَغْشَى مَضِيقَ الْمَـوْتِ لاَ مُتَهَيِّبًا
وَأَحْمِـي النِّسَا فِـي يَوْمِ رَوْعٍ وَتَهْوَالِ

(1) البدرة : ج. بدر وبدور : كمية عظيمة من المال .
(2) الوزر : الملجأ ، المعقـل .

يَشِقْنَ النِّسَا بِي حَيْثُمَا كُنْتُ حَاضِرًا
وَلاَ تَشِقْنَ فِي زَوْجِهَا ذَاتُ خَلْخَالِ

أَمِيرٌ إِذَا مَا كَانَ جَيْشِي مُقْبِلاً
وَمُوقِدُ نَارَ الْحَرْبِ إِذْ مَا لَهَا صَالِ

إِذَا مَا لَقِيتُ الْخَيْلَ إِنِّي لأَوَّلُ
وَإِنْ جَالَ أَصْحَابِي فَإِنِّي لَهَا تَالِ

أُدَافِعُ عَنْهُمْ مَا يَخَافُونَ مِنْ رَدًى
فَيَشْكُرُ كُلٌّ مِنْهُمْ حُسْنَ أَفْعَالِي

وَأُورِدُ رَايَاتِ الطِّعَانِ صَحِيحَةً
وَأُصْدِرُهَا بِالرَّمْيِ تِمْثَالَ غِرْبَالِ

وَمِنْ عَادَةِ السَّادَاتِ بِالجَيْشِ تَحْتَمِي
وَبِي يَحْتَمِي جَيْشِي وَتَمْنَعُ أَبْطَالِي

وَبِي تَنْتَقِي يَوْمَ الطِّعَانِ فَوَارِسُ
تَخَالِينَهُمْ فِي الْحَرْبِ أَمْثَالَ أَشْبَالِ

إِذَا تَشْتَكِي خَيْلِي الجِرَاحَ تَحَمْحُمًا
أَقُولُ لَهَا صَبْرًا كَصَبْرِي وَإِجْمَالِي

[139] [139] وَأَبْذُلُ يَوْمَ الرَّوْعِ نَفْسًا كَرِيمَةً
عَلَى أَنَّهَا فِي السِّلْمِ أَغْلَى مِنَ الْغَالِي

وَعَنِّي سَلِي جِنْسَ الفَرَنْسِيسِ تَعْلَمِي
بِأَنَّ مَنَايَاهُمْ بِسَيْفِي وَعَسَّالِي (1)

سَلِي اللَّيْلَ عَنِّي كَمْ شَقَقْتُ أَدِيمَهُ
عَلَى ضَامِرِ الْجَنْبَيْنِ مُعْتَدِلٍ عَالِي

---

(1) العســـال : الرمح يهتز لينا .

سَلِي الْبِيدَ عَنِّي وَالمَفَاوِزَ وَالرُّبَا
وَسَهْلاً وَحَزْنًا كَمْ طَوَيْتُ بِتِرْحَال

فَمَا هِمَّتِي إلاَّ مُقَارَعَةُ الْعِدَا
وَهَزْمِي أَبْطَالاً شِدَادًا بِأَبْطَالِ

فَلاَ تَهْزَئِي بِي وَاعْلَمِي أَنَّنِي الَّذِي
أُهَابُ وَلَوْ أَصْبَحْتُ تَحْتَ الثَّرَى بَالِي

وله مطوّلات من شعر الحماسة . وقد أنجب نجلين من العلماء أحدهما ولده الأكبر محمّد باشا . وقد ألّف كتاب جياد الخيل سمّاه عقد الأجياد في الصّافنات (1) الجياد وهو كتاب لطيف المنزع محمود المشرع شحنه أدبًا ونوادر عربية ونخبا من الشعر الرقيق العربي والمولّد وقد طبع وقرضه جمع من أدباء العصر بتقاريض من الشعر والنثر أحسنها في إصابة الموقع تقريض شقيقه الهمام محيي الدين . ولذلك رأيت أن نثبته هنا عنوانا على براعة أدبه وهو قوله : (من الكامل)

لاَ عِزَّ إلاَّ فَوْقَ مَتْنِ جَوَادٍ
مُتَبَخْتِرٍ يَزْهُو بِحُسْنٍ بَادِ

ارْبِطْ جِيَادَكَ لاَ اعْتِدَاءَ بِغَيْرِهَا
إنْ كُنْتَ تَبْغِي الْقَهْرَ لِلأَضْدَادِ

إنَّ الصَّهِيلَ منَ المُضَمَّرِ في الدُّجَى (2)
أَشْهَى لَعَمْرِي مِنْ تَغَنِّي شَادِ

بَلْ صَوْتُ فُرْسَانِ القَنَا يومَ الوَغَى (3)
أَحْلَى مِنَ الْقَانُونِ وَالأَعْوَادِ

---

(1) صفن الفرس : قام على ثلاث قوائم وطرف حافر الرابعة .
(2) بالأصل : الدجا .
(3) بالأصل : الوغا .

إنْ مَاسَـتِ الْخَيْـلُ العرابُ وَقَدْ زَهَتْ
يَفْضُلْنَ غِيدًا مِسْنَ كَالْمَيَّادِ

إنَّ الْجِيَادَ شَرِيفَةٌ يَا لَيْتَهُ
لاَ يَمْتَطِي جُرْدًا (1) سِوَى الأجْوَادِ

كَمْ حُرْقَةٍ لِي بِالْحَشَى لَمَّا أرَى
طِرْفًا (2) كَرِيمًا مُمْتَطَى الأوْغَادِ

[140] خَوْفًا عَلَيْهِ منَ الإهَانَة عِنْدَهُمْ [140]
لاَ تَحْسِبَنَّ أنِّي مِنَ الْحُسَّادِ

عِنْدَ الكِرَامِ ذَوِي البَسَالَةِ وَالنَّدَا
لاَ فَرْقَ بَيْنَ الْخَيْلِ وَالأوْلاَدِ

لاَ يَطْرَبُونَ سِوَى بِمَدْحِ سَلاَهِبَ(3)
بِالنَّثْرِ أوْ بِلَطَائِفِ الإنْشَادِ

مِثْلِ الأمِيرِ مُحَمَّدٍ نَجْلِ الأمِيـ
ـرِ الشَّهْمِ ذِي الإفْضَالِ وَالإرْشَادِ

جَادَتْ قَرِيحَتُهُ فَقَلَّدَ جِيدَهَا
عِقْدًا يَفُوقُ الدُّرَّ فِي الأجْيَادِ

أبْدَى كِتَابًا مُفْرَدًا فِي فَنِّهِ
وَالْفَرْدُ قَدْ يَأْتِي مِنَ الإفْرَادِ

لَمْ يُبْقِ شَيْئًا في الخُيُولِ وَوَصْفِهِمْ
إلاَّ وَقَرَّرَهُ بِالاسْتِشْهَادِ

---

(1) الاجرد من الخيل : السباق .

(2) الطرف من الخيل : الكريم .

(3) السلهب : ج. سلاهب : الفرس الطويل .

مِنْ كُلِّ أدْهَمٍ كَالظَّلِيمِ (1) وَكَالظَّلاَ
مِ بِغيرة (2) كَالْكَوْكَبِ الْوَقَّادِ
أوْ أشْهَبٍ كَالْفَرَقِ (3) فِي لَوْنٍ وَفِي
عَدْوٍ بَدَا طَوْداً مِنَ الأطْوَادِ
أوْ أشْقَرٍ كَالتِّبْرِ إلاَّ غُرَّةً
مِثْلَ اللُّجَيْنِ وَكَالصَّبَاحِ الْبَادِي
يَا أيُّهَا الْمَوْلَى الْمُعَظَّمُ في الوَرَى
شَهِدَتْ بِفَضْلِكَ ألْسُنُ الْحُسَّادِ
لِلَّهِ دَرُّكَ مِنْ هُمَامٍ مَاجِدٍ
أجْهَدْتَ نَفْسَكَ غَايَةَ الإجْهَادِ
أبْقَيْتَ فَخْراً خَالِداً لَكَ في الْوَرَى
لَمْ تَكْتَفِ بِمَفَاخِرِ الأجْدَادِ
دُمْ فِي السَّعَادَةِ وَالْمَعَالِي رَافِلاً
لاَ زِلْتَ دَوْماً مَطْمَحَ الْقُصَّادِ

وَوَلَدُه الثّاني محيي الدين باشا وهو أديب شاعر أيضا ألّف في التعريف بوالده كتابا مُهِمّاً ذكر فيه جميعَ أحوالِ والده وأطواره ومدائحه ومقاماته وأسفاره على وجه استوفى به جميع الغرض . هكذا أخبرني أخوه وابن عمّه .

(1) الظليم : الذكر من النعام .
(2) الغيرة : النخوة .
(3) الفرق : الصبح .

[كتاب من بيرم الخامس إلى الأمير عبد القادر للتعريف بالمؤلّف]

ولمّا دخلتُ دمشق الشام منسلخ شهر صفر الخير سنة 1300 (1) كنت كثير الاشتياق للاجتماع بهذا الأمير المعظّم . وقد استصحبت له كتابا من الشيخ محمّد بيرم (2) ليكون سببا للتعرّف فيما بيننا. ولذلك بعد أن أخذت قراري من محلّ نزولي خرجت للنظر في البلد وطلبت بيت الأمير عبد القادر فإذا [141] هو [141]
في ضيعة له بدمّر خارج دمشق . وصادفت عند ذلك أحد صغار بنيه متوجّها إليه فناولته الكتاب وكتبت له أبياتا في بطاقة فيها قولي : (من الرجز)

حَيَّاكَ رَبِّي نَجْلَ مُحيِي الدِّينِ ... بِالسَّعْدِ وَالإِقْبَالِ وَالتَّمْكِينِ
هَذَا مُحَمَّدُ السَّنُوسِيُّ التُّونِسِيُّ ... مُسْتَأْذِنٌ لِمَقَامِكَ المَيْمُونِ
فَإِذَا أَذِنْتَ لَهُ فَقَدْ نَالَ الْمُنَى ... وَالأُنْسَ بِالتَّرْحِيبِ وَالتَّأْمِينِ

وهذا نصّ الكتاب البَيْرَمِي المذكور :

«حضرة الأمير الأعظم * الجليل المفخّم * الناشر رَايَةَ المجد على أكاليل الفخر * المحمود بألسن الثناء في كلّ عشيرة وقطر كيف وهو خلاصة الآل الكرام * ومجمع أشتات المحامد المتوجّة بها هامة الأيّام * مولانا الشريف سيّدي عبد القادر بن محيي الدين الحسني لا زالت ذاته العالية قرّة لأعين أهل الإيمان * وبركاته الشاملة حامية للبلاد والأوطان * .

أمّا بعد التشرّف بلثم الأعتاب * وأداء التحيّة الصالحة بذلك الجناب * فالعبد شيعي ودّكم على ما تعهدون من إخلاص الطويّة * متقرّب بحبّكم والثناء عليكم إلى ربّ البريّة * آمل من فضائلكم الدعاء بالسعادة الأبديّة * لا زلتم أهلا لكلّ مزيّة * هذا وإنّ حامل كتاب عبدكم إلى تلك السدّة الشامخة *

(1) يوافق : 9 جانفي سنة 1883 .

(2) محمد بيرم الخامس ، ولد بتونس في المحرم 1256/مارس 1840 وتوفي بمصر في 25 ربيع الثاني 18/1307 ديسمبر 1889 . انظر ترجمته : محمد بيرم الخامس ، **صفوة الاعتبار بمستودع الأقطار والأمصار** ، القاهرة . 1311/1302 . ج 5 . انظر أيضا : **حوليات الجامعة التونسية** ، عدد 7 سنة 1970 ، ص 91 .

ذات المحامد الراسخة الزكي البارع * المتفنّن في كلّ المشارع * الشيخ سيّدي محمّد السنوسي أحد أفاضل جامع الزيتونة * من حاضرة تونس الميمونة * قد توجّه إلى أداء فرضه المبرور * قاصدا (1) بعد الزيارة التشرّفَ بناديكم إنْ ساعده المقدور فاتّخذ هذا التحرير فتحًا لباب التعرّف لدا الجناب الخطير * وانتهزها العبد فرصة للتذكير * نسأل الله الكريم * أن يديم بقاءكم كهفا تأوي إليه الأقطار بمزيد التعظيم والسلام الأتمّ على تلك الحضرة من العبد محمّد بيرم لطف الله به [142] في 26 قعدة الحرام سنة 1299 (2) . [142]

[منزلة الأمير عبد القادر الحسني لدى أهل دمشق]

وفي صبيحة يوم الخميس قدم إلى محلّ نزولي الأمير أحمد باشا أحد أبناء الأمير المذكور . وكنت في لَمَّة من علماء دمشق وفضلائها حضَروا عندنا منهم الشيخ أبو بكر العطّار والشيخ أبو الفرج الخطيب وغيرهما من وجوه التجار الذين منهم أبناء ربّ المنزل .

وبعد التعرّف بالأمير أحمَد وحسن المجالسة أعلمني أنّ والده أرسله بالليل ليأخذني للنزول في بيتهم . غير أنّه لم يمكنه أن يعرف في الليل مكان نزولي . وهو الآن عن إذن والده يطلبني للتحوّل إلى بيتهم فشكرت فضلهم واعتذرت له وأعلمته أنّ مرادي هو الحصول على الاجتماع بالسيّد الأمير وهو أعظم مقصد عندي .

فأعلمني أنّ والده أرسله لخصوص تحويلي إلى بيتهم ولا تمكنه مخالفته وعندما رأيت إصراره قلت له «يا سيّدي إنّي نازل نزول ضيافة عند صاحب هذا البيت العالم التاجر الخيّر الشيخ عمر السبيعي . وحكم الضيافة بيد المضيّف

(1) بالأصل كلمة : التشرف : مشطوبة .
(2) يوافق : 9 أكتوبر سنة 1882 .

ولا يمكن لي أن أتجاوز إذنه بعد أن أجبت دعوته في هذا النزول «فهان عليه الأمر وقال لي « الآن نستأذن الشيخ وهو لا يخالف ما أذن به السيّد الأمير » .

وعند حضور الشيخ أعلمه الخبر فلم يسعه إلاّ أن قال«إنا جميعنا تحت أوامر السيد رضي الله عنه» . وسمح لي بالإذن. وهكذا رأيت جميع أهل دمشق إذا ذكر بينهم اسم السيّد الأمير كان عنوانا للفضل العظيم الذي يجلّه به جميعهم . فاستصحبني الأمير أحمد إلى بيتهم وأرسل أتباعه للإتيان بأمتعتي . واختصّ لي بيتًا كبيرًا للاجتماع مع الناس وبيتا بالعلوّ للمنام .

ورأيت من برّ الأمير أحمد ومصداق كرم الأمير عبد القادر ما تذكّرت به مقالة العالم الشيخ أحمد الكامل الهندي أحد السّياحين لمّا وفد على تونس حيث قال في أثناء الكلام على الأمير عبد القادر «إنه لم يتنقل رجل من
[143] المغرب [143] إلى المشرق أكرم منه» .

وحضر عندي يومئذ العالم الفاضل الشيخ محمّد الخاني . فإذا هو من العلم والأناة والتثبّت والوقار بمكان . وهو وكيل السيّد في جميع مهمّاته ولمّا عرفت الرجل وعرفت منزلته عند الأمير قلت في نفسي منشدًا قول الشاعر : (من الخفيف)

قَدْ عَرَفْنَاكَ بِاخْتِيَارِكَ إِذْ كَا   نَ دَلِيلاً عَلَى اللَّبِيبِ اخْتِيَارُهُ

[نظرية المؤلّف في اختيار الأمراء للوزراء]

ثم جالت نفسي في هذا الباب وذهبت طرائق قددا فيمن ينتخبهم الأمراء الذين نعرفهم للقيام بمهمّاتهم التي يؤول بها الأمر إلى تفويض أمور الملك وهم إنّما يأخذونهم من صغار الأسافل ويربّونهم تربية آحاد الخدمة في الإهمال فلاّ يكون لهم بالانتساب إلى الملوك إلاّ توسيع نطاق الفساد والخنى بمقدار ما يناله من المال وبالأخرة لا يلبث أن ينتزع من يد مخدومه ما أمكنه

من كسبه ليختصّ به أنفسه وربّما آل الحال بهما إلى ما آل * فأصبحوا في الويل والوبال * ولا حول ولا قوّة إلا بالله الكبير المتعال * (1) .

[اجتماع المؤلّف بالأمير عبد القادر الحسني]

وقد عرض عليّ بعض الزائرين من أعيان دمشق دعوة لبيته فامتنع الأمير أحمد من الإجابة إلاّ بعد قضاء دعوتهم. وفي يوم الجمعة قدم إليّ الأمير عليّ مرسلا من عند والده للسؤال عن راحتي . فشكرت فضل جميعهم . وأقام معنا يومه وليلته . وفي يوم السبت كان ميعاد اجتماعنا بالأمير فوردت إلينا كروسته الكبرى عند صلاة العصر وصاحبني ولداه الأمير أحمد والأمير عليّ .

وحضر عندنا لمُصَاحبتنا لملاقاته الشريفان الماجدان الأمير دخيل الله والأمير عبد المجيد من عائلة بيت عبد المطّلب شريف مكّة . وصاحبنا أيضا العالم الشيخ أبو بكر العطّار . ولما وصلنا إلى ضَيعة الأمير وجدناه عند باب المنزل فأحسن تلقّينا وصعد بنا إلى علوّه . وجلسنا معه تلك العشيّة كلّها [144] . [144]

ورأيت من حسن أناته ومواقع أسئلته ولطف محاورته ما صدق حسن فكره ومع ذلك سألني عن راحة نزولي وعن صنيع ابنيه اللذين لا أقدر أن أفي لهما بالثناء على برّهما جزاهما الله خيرا . وبعد طول المجالسة وأخذها حقّها طلبنا منه الإذن في الإيّاب فأذن لنا بذلك .

وبعد أن أدّى له الحاضرون تحيّة الإيّاب وأخذوا في الخروج تقدّمت إليه لأدائها فأجلسني إلى جنبه وسألني عن أحوال البلاد التونسية وعن حال التونسيين وما يجدونه من الأحوال الحاضرة . كما سألني عن خصوص عائلتنا

(1) المتعال : كذا بالأصل والصواب المتعالي . والملاحظ أن المؤلف يعرض هنا بملوك تونس من البيت الحسيني في استخدامهم المماليك .

بتونس وعن نسبتي من المولى الجدّ الشيخ السنوسي وعن مدّة حلولنا بتونس إلى غير ذلك من المسائل .

ثم عند فراغنا قام معي ونزل إلى خارج المحلّ فوجدنا الجماعة في انتظارنا فإذا هو خرج لمشايعتنا بنفسه إلى الباب الخارجي على طول ذلك الطريق . وهو حسن القامة طويل اللحية أسود الشعر كلّه يلبس جوخة من الملف الأزرق ونعلا من الجلد الأصفر وعمامة بيضاء منخفض الطرف إلى الأرض يتحدّث الهوينـاء ويمشي كذلك تلوح عليه الشهامة . وأكثر شغله المطالعة والذكر مع ملازمة الخلوة في الأشهر الثلاثة المعظّمة .

وقد أذن لي بإجابة دعوة الداعين لحضور الطعام خاصّة ومنعني من التحوّل بالسكنى في بيته . ولازمني ولداه في الزيارات وإجابة الدعوات مع كمال المؤانسة وحسن المجالسة التي لا يفارقاني بها إلاّ عند النوم بل إنّهما ربّما وقفا على دخولي إلى الفراش جزاهما الله عني أحسن الجزاء .

[سفر المؤلّف من دمشق إلى بيروت]

وكذلك لازمني من بيتهم السيّد محمّد بن أحمد بن علي أبي طالب بن مصطفى والسيّد محيي الدين بن مصطفى بن محيي الدين شكر الله سعي جميعهم وبما تقلّوا به كاهلي من برّهم استعجلت السفر من دمشق ولم نعلمهم إلاّ بعد
[145] حصولي على تذكرة الكراء [145] ومع ممانعتهم لي اعتذرت لهم بما ساعدوني عليه ووقفوا على مشايعتي إلى الركوب فرجعت مملوء الوطاب بشكر منّة برّهم الذي كدت أنسى به ألم الاغتراب ولم أزل بحمد الله ناهج بحسن ذكرهم لما لاقيت من برّهم .

وفي بيروت اجتمعت بأكبر البنين محمّد باشا حيث كان مقيما هنالك بمعية والدته هنالك لتغيير الهواء . وحضر عندي في محلّ نزولي شكر الله فضله. وأمّا محيي الدين باشا فصادفته في ضيعة بعيدة أيضا. وكان الأمير هاشم في

سفر للتداوي ذهب إلى فرنسا وألمانيا والآستانة . وعند وصولي إلى دمشق ذكرت الجرائد أنّه دخل مصر ولاقى فيها من القبول والإقبال ما هو أهل له .

وأمّا صغار أبنائه فكانوا على بساط التعلّم بين يدي الأساتذة . وللأمير عبد المالك شهامة ونجابة تلوح على شمائله . وكانت تسميته بهذا الاسم من إشارات الشيخ الأكبر سيّدي محيي الدين بن العربي على الأمير عبد القادر . وكنت أُلاطف الأمير عبد المالك وأقول له « إنّ عناية سيّدي محيي الدين بك لابدّ وأن يظهر أثرها ولذلك أرجوك أن تتذكّر حسن العهد مع ضيفكم» .

[عود إلى ترجمة الأمير عبد القادر الحسني]

وقد وقفت على نحو الثلاثين كرّاسا في تفسير آيات بطريق باطني عالي المشرب من تحريرات هذا الأمير تدلّ على صدق اعتقاد أهل دمشق فيه بأنّه على قدم الشيخ الأكبر سيّدي محيي الدين بن العربي . ووقفت له على رسائل فقهية ولطائف أدبيّة تدل على أنّ له من الأدب والفصاحة عنوانا جميلا (1) .

وبالجملة فهذا الأمير عبد القادر قد جمع الله له خصالا حميدة من سعة العلم والأدب والصلاح والخيرية وسعة الفضل والكرم وكرم النفس والشجاعة ورغد العيش وطول اليد ونفوذ الكلمة وبرور الأبناء مع حسن الأخلاق العذب المذاق أخبرني الشيخ محمّد الأدهمي الطرابلسي الشاعر [146] المشهور ببديع [146]
الزمان أنّه لما شاع خبر الجرنالات في أواسط سنة 1298 (2) بخبر وفاة الأمير عبد القادر فبادرتُ إلى رثائه ونشرت قصيدة رثائه في بعض الجرنالات فلم نلبث أن ورد الخبر بتكذيب ذلك الإرجاف . قال : فوقعت في خلج عظيم

---

(1) الملاحظ أن الأمير عبد القادر له : **كتاب المواقف في التصوف والوعظ والارشاد** . طبع مرة أولى عام 1911/1329 وطبعة ثانية عام 1966/1386 بدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر . في ثلاثة أجزاء : ج 1 : 480 ص . ج 2 . ص 481 إلى 962.ج 3 من ص 963 إلى ص 1416 .

(2) حوالي ماي سنة 1881 .

صرت به أتوارى من أعين الناس . وكلّ من كان يعرفني يشير إليّ إذا رآني . وبعد مدّة لم ألبث أن ورد إليّ مكتوب من الأمير عبد القادر يتضمّن أنّه وقف على القصيدة المرثية وتحقّق بها مصداق التي أظهرها عند خبر الوفاة ولا شكّ أنّ الودّ بعد المماة أعظم منه في حال الحياة . وعيّن له مبلغا من المال جائزة له على تلك المرثية فكان ثاني شاعر نال جائزة عن مرثية ممّن رثاه .

ولمّا اطلّع الأمير عبد القادر على ما نعتته به الجرائد في ذلك العهد كتب لبعضها كتابة تتضمّن الثناء على جميع أصحاب الجرائد الذين ذكروا خبر وفاته وقال لهم قد علمت أنّي بعد مماتي أكون حسن الذكر عندكم وشكر فضلهم على ذلك .

وهذه مكارم غاية الأخلاق منه رضي الله عنه . وقد تركته بدمّر يضاجعه الضعف والهرم وهو هنالك يتطلّب حسن الهواء معتكف على تهجّده وتبتّله وإنابته لربّه إلى أن أدركته المنيّة منتصف ليلة السبت الثامن عشر من رجب الأصبّ سنة 1300 ثلاث عشرة مائة الموافق للسادس والعشرين من مايه الأفرنجي سنة 1883 مسيحية .

[مرثية المؤلّف للأمير عبد القادر الحسني]

وامتلأت صحف الأخبار بذكر مآثره ومفاخره من اللسان العربي والفارسي والتركي والفرنساوي والانكليزي وغيرها . وعند ذلك كتبتُ إلى كرام بنيه مكتوبا صدّرته بقصيدة مرثية وختمته بتعزية من النثر فقلت :

(من الكامل)

نَبَأٌ بِأسْهُمِهِ أَصَابَ حَنَاجِرِي
وَأَفَاضَ سَيْلاً مِنْ دُمُوعِ مَحَاجِرِي

وَانْدَكَّ طَوْدُ الصَّبْرِ مِنْهُ وَقَدْ عَفَا
رَسْمُ الْحُلُومِ فَلَمْ نَجِدْ مِنْ جَابِرِ

[147] وَالنَّـاسُ فِـي هَرَجٍ طَغَى تَـيَارهم [147]
مِـنْ رَوْعِ فَقْـد الـغـرم عَبْـدِ القَـادِرِ
هوَ نَجْلُ مُحْيِـي الدّينِ ذو الصيتِ الذي
قَـدْ شَاعَ فِـي الدُّنْيَـا كَمَثَـلٍ سَائِـرِ
فَخْـرُ الإمَـارَةِ فَـالْجَـدَارَةِ وَالمَهَـا
رَةِ وَهَـوْدُ (1) صَبَاحٍ لِخَيْرِ جزَائِرِ
فَـرْعُ الإمَامِ الجِـيلِـي مِـنْ آلِ بَيْـ
ـتِ الشُّـمّ أبْنَـاءِ النَّبِيِّ الطَّاهِـرِ
طَوْدُ الثَّبَـاتِ وَعُمْـدَةُ الأثْـبَـاتِ مِـنْ
بَيْـنِ الكُمَـاةِ أغَـرُّ لَيْـثٍ هَـاصِـرِ
وَمَحَـطُّ رَحْـلِ السَّادَةِ الشُّـمِّ الأنُـو
فِ مِنَ الضُّيُوفِ عَلَـى صُنُـوفِ الْعَابِـرِ
عَلَـمُ الشَّهَامَـةِ وَالصَّـرَامَـةِ وَالزَّعَامَـةِ
بِـالْكَـرَامَـةِ نَـالَ خَيْـرَ مَفَاخِـرِ
الرَّاكِـبُ الـدُّهْـمِ السَّوَابِـقِ لِلْوَغَـى
وَمُعَفِّرُ الأبْـطَـالِ دُونَ تَقَاصُـرِ
القَاطِـعُ الْبَيْـدَاءَ تَأْلَفُـهُ بِـهَـا
أُسْـدُ الْـفَـلاَ وَاللَّـهُ أعْـظَـمُ نَاصِرِ
وَالنَّـاشِـرُ الأعْـلاَمَ بَيْـنَ مَهَامِـهٍ
وَمَعَالِـمَ ظَهَرَتْ بِفَـخْـرٍ وَافِـرِ
حَسَـرَ اللِّثَـامَ وَقَـاوَمَ الإقْـدَامَ إذْ
قَـادَ الْكِـرَامَ لِـكُـلِّ عِـزٍّ بَاهِـرِ

---

(1) الهـود من هـاد : تـاب ورجـع إلى الحـق .

وَأَبَادَ كُلَّ مُقَاوِمٍ وَأَبَانَ مِنْ
فَضْلِ الْحَمِيَّةِ خَيْرَ نَشْرٍ عَاطِرِ
وَلَهُ هُنَاكَ وَقَائِعُ الشُّمِّ الغُزَا
ةِ حَدِيثُهَا يُرْوَى بِكُلِّ تَوَاتُرِ
حَتَّى إِذَا عَمَّ الظَّلاَمُ نَجَا بِمَا
يَحْوِيهِ مَنْحَى ذِي رَشَادٍ عَابِرِ
فَأَقَامَ بَيْنَ تَبَتُّلٍ وَتَدَبُّرٍ
فِي شَأْنِهِ يُزِيحُ بِكُلِّ مُعَاصِرِ
مَا شِئْتَ مِنْ كَرَمٍ وَحُسْنِ رَوِيَّةٍ
وَطَوِيَّةٍ مَا شَابَهَا بِمُغَايِرِ
أَمَّا طَرِيقُ الْقَوْمِ فَهُوَ لَهُ الْفُتُو
حَاتُ الَّتِي فُتِحَتْ بِنُورٍ ظَاهِرِ
يَجرِي على قَدَمِ الإمام الغرم مُحْيِـ
ـي الدِّينِ فِي نُسُكٍ لِخَيْرِ مَعَاشِرِ
وَبِذَاكَ جلة أطرار معا
أخباره مِنْ كَابِرٍ عَنْ كَابِرِ
حَتَّى تَخَيَّرَ مَرْسَمًا مِنْهَا عَلَى
صَفَحَاتِهِ قَدْ طَابَ ذِكْرُ الذَّاكِرِ
وَتَطَلَّعَتْ أَقْمَارُ أَبْنَاءٍ لَهُ
فِي أُفْقِهَا كُلٌّ كَلَيْثٍ هَاصِرِ
[148] فَهُمُ لأَهْلِ الدِّينِ أَكْرَمُ سَلْوَةٍ [148]
يُمْحَى بِهَا ذَنْبُ الزَّمَانِ الجَائِرِ
وَأَنَا الَّذِي لاَقَيْتُ مِنْهُ وَمِنْهُمُ
وِدَّ الأَبَرِّ عَلَى خُلُوصِ ضَمَائِرِ

وَغَدَوْتُ فِي شَرَكِ الْوِدَادِ مُشَارِكًا
لِجَمِيعِهِمْ فِي رَائِقٍ وَمُغَايِرِ
نَرْجُو لَهُمْ بِرِضَاهُ خَيْرَ مَفَاخِرِ
تَسْمُو لَهُمْ بِتَعَاضُدٍ وَتَنَاصُرِ
وَلَهُ مِنَ الرَّبِّ المُهَيْمِنِ نَرْتَجِي
مِنَنًا تَعُمُّ بِصَبٍّ مُتَكَاثِرِ
دَامَتْ لَهُ الرَّحْمَةُ وَدَامَ مُنَعَّمًا
فِي جَنَّةٍ يَلْقَى أعَزَّ بَشَائِرِ

حيّا اللّهُ ربع الأمراء الكرام * المتطلّعين غررًا في جبهة الأيّام * السادة الأعلام * خلاصة آل البيت العظام . الهمام الأفخم السيد محمّد باشا والدرّاكة الهمام السّيد محيي الدين باشا والسعداء الأماجد السيد هاشم والأمير السيّد إبراهيم والأمير السيّد أحمد والأمير السيّد عبد الله والأمير السيّد علي والأمير السيّد عمر والأمير السيّد عبد المالك والأمير السيّد عبد الرزّاق أبناء المقدّس المبرور مولانا الأمير سيّدي عبد القادر بن محيي الدين الحسني سقى الله ثراه بصبب الرضوان . وأدامهم محروسين بعين عناية المنّان .

أمّا بعد إهداء تحيّة عبق نسيمها * وطاب شميمها * تعرب عمّا انطوى عليه الفؤاد * من خالص الوداد * فقد راعنا من الأنباء ما راع * وعمّ خطبه جميع البقاع * من نعي الأمير المبرور * الذي أرنى له الدين بلحظ المذعور * وبقينا منه ما بين مبهوت ومبهور * وبعد أن أخذ منّا الأسف مأخذه من تلك الأخبار * وتَسَهَّمْنَا منْهَا ألبسة الأكدار * تراجعنا ورجعنا لله العزيز الجبّار * ورأينا أنّ من خلّف أمثالكم من العلماء الأخيار * حماة الذمار * عند مسيره إلى دار القرار * فلا شكّ أنّه تنقّل قرير العين * جذلان الفؤاد بمن أبقاهم متقلّبين * في نعم رضوانه من كرام الأولاد * ولكم بمثل ذلك أعظم [149] سلوة مختارة * [149]
ولنا منكم في ليل الحيرة هداية الكواكب السيّارة * سيّما والخطب عميم * وذلك

مـآل كلّ ابن أنثى وإن سار على الصراط المستقيم * ثم خلفه قدّس الله روحه من الثناء العابق النشر * فيه لنا ولكم أعظم بشر * ومن كان مثله في هذا الباب * لا تخفى منزلته عند ربّ الأرباب * وفي ذلك سلوة كبرى عن عظم المصاب *

ولولا أن يعدّ معلوم الحديث من الإعادة * التي يحذرها أهل السيادة * لبسطنا إلى سيادتكم بساط فضل الاصطفاء من محكم الآيات وصحيح الأخبار لكن معلومات سيادتكم في هذا الباب غنيّة عن الإعادة * بلّغ الله الجميع إلى الحسنى وزيادة * وحسبي أن نذكر من فضل الذين هم بآيات ربّهم يوقنون وَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (1) * نسأل الله أن يعظّم أجر الجميع بالصبر عن عظيم ذلك المصاب وإنّما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب وهو المأمول أن يديم عزّبيتكم الرفيع الشأن بتناصركم والتحامكم كالبنيان بجاه سيّد ولد عدنان.

والمرجوّ من خالص ودّ أخوّتكم التي نعضّ عليها بالنواجذ ونشدّ عليها بالبنان * أن تعدّونا في محبّيكم على نزوح المكان * وربّ قلم أدّى ما لم يؤدّه سعي بقدم * ولاشكّ أنّ الكتاب * هو صلة الأحباب * إن لم يعدم قرطاس * ولم تبخل أنامل الطيّبي الأنفاس * ومنّي على جمع سلامتكم أيمن التحية تعم الأبناء والأحفاد * وتذكر بالودّ جميع الأفراد * من خاصّة الأقرباء والأحباب * الذي سقونا بكأس ودّهم أطيب شراب * أدام الله عافية الجميع * بجاه النبي الشفيع * والسلام مُعاد على جنابكم من العبد الضعيف * محمّد السنوسي خادم العلم
[150] الشريف * وكتب في غرّة شعبان [150] الأكرم سنة 1300 (2) .

(1) القرآن : سورة البقرة ، 2 : 156–157 .
(2) يوافق : 7 جوان سنة 1883 .

الشيخ محمود حمزة

هو الشريف مفتي باب الكعبة الشيخ أبو الثناء محمود حمزة بن نسيب أفندي بيت علم وشرف وفضل وترف نشأ منه علماء فحول حصلوا على فضيلة المعقول والمنقول منهم الشيخ محمّد حمزة والشيخ عبد الرحمان حمزة والشيخ عبد الكريم حمزة والشيخ إبراهيم حمزة والأخوان الشيخ كمال الدين والشيخ حسين حمزة كلّهم من مشاهير الرجال استوفى تراجمهم الإمام المحبّي في تاريخه **خلاصة الأثر في رجال القرن الحادي عشر** (1) .

واليوم للأخوين الشيخ محمود حمزة والشيخ أسعد حمزة ابني العالم الأديب الشهير نسيب أفندي فضل في دمشق مشهور تفتخر به هاته العصور . فأمّا السيّد أسعد فهو من أعضاء مجلس التمييز وقد تحلّى بحزم وصرامة ظهرت مزيّتهما عند وقوع الثورة سنة 1276 (2) .

وأمّا صاحب الترجمة أبو الثناء فهو عالم علاّمة ونحرير فهّامة آية الله في الذكاء والاختراع وفخر العصر في حسن الإبداع قد اشتهر صيته في معقول

---

(1) الامام المحبي : هو محمد أمين بن فضل الله المحبي الدمشقي الحنفي (1061/1650–1111/1699–1700) اشتهر بتاريخه : **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** . وفيه تراجم 1289 فاضلا وأميرا من مشاهير القرن الحادي عشر . أربعة أجزاء. مط. الهيبة 1274. انظر : ج 2 ص 105 في نسب حمزة . انظر أيضا : سركيس ، معجم ، ج 2 رقم 1620 – 1621 . ورقم 1706 .

(2) يوافق : 9 جويلية سنة 1860 . انظر أعلاه صفحة : 133 .

العلوم ومنقولها وفروعها واصولها . وناهيك بما له من العارضة وامتداد الباع وسعة الرواية وكثرة الاطّلاع مع الصّيت الذي ملأ جميع البقاع أبدع الآداب ونمّق التآليف (1) بمحاسن إبداعه المستطاب ووشّى الدروس الرائقة بآيات الإغراب وحسبه من كمال البراعة التي خرجت عن حدّ الاستطاعة أنّه أكمل تفسير القرآن العظيم تفسير مهمل الحروف سمّاه **دُرَرَ الأسرار** في مجلدين كبيرين . وقد ألف قاموسا في الكلمات المهملة في العربية استعان به على تفسيره
[151] وسمّاه **دليل الكمّل إلى الكلام المهمل** (2)

وله في الفتاوي تأليف عجيب [151] سمّاه الفتاوي المحمودية في مجلدين . ونظم أيضا في الفتاوي نظما رائقا مهمّا كما نظم كتاب الجامع الصغير للإمام محمّد صاحب الإمام أبي حنيفة كلّه على قافية واحدة ونظم نظما في الأصول أيضا برويّ واحد . وألّف كتابا سمّاه العقود البهية في القواعد الفقهية (3) وكتابا سمّاه قواعد الأوقاف (4) وكتابا سمّاه خلل المحاضر والسجلاّت (5) وكتابا سمّاه كشف الستور في المهايات (6) في المأجور وشرح بديعية والده بشرح سمّاه كشف القناع وشرح رسالة لسيدنا علي كرّم الله وجهه شرحًا سمّاه غنية الطالب لشرح رسالة الصدّيق علي بن أبي طالب.وله كتاب سمّاه تنبيه الخواصّ على أنّ الإمضاء من القضاة في الحدود لا في القصاص . وألّف رسالة في الدرهم والمثقال الشرعيين والعرفيين . إلى غير ذلك من لطائف رسائله ومحرّرات مسائله التي افتخرت بها الأيّام وظهرت بغاية حسن الانتظام .

---

(1) هذه التآليف ذكر المطبوع منها سركيس في **معجم المطبوعات** ، ج 2 رقم 1706–1708 .
(2) فرغ من تأليفه سنة 1858/1274 وطبع الجزء الاول بدمشق 1891/1306 عدد صفحاته : 517 .
(3) كتاب الفرائد البهية في القواعد الفقهية ، ط. دمشق ، 1881/1298 .
(4) رسالة في قواعد الأوقاف ، ط. دمشق ، 1872/1288 .
(5) رسالة في خلل المحاضر والسجلات ، ط. دمشق ، 1886/1303 .
(6) كتاب كشف الستور عن صحة المهاياة في المأجور ، ط. دمشق ، 1886/1303 .

أمّا براعته في صناعة الكتابة فهو نادرة الدهر وإحدى عجائبه وخبره في ذلك طويل . فمن عجيب أمره أنّه كان بدمشق سنة 1268 (1) وَالٍ اسْمُهُ علي أشقر باشَا ضاع له خاتم عظم أسفه عليه وأعلم الشيخ أنّه لا يُمكن له اصطناع مثله وأخبره أنّ فصّ الخاتم تحته سبع قطع من الورق مكتوب فيها أسماء أهل بدر التي هي ثلاثمائة وسبعة عشر اسما . وكان متيمّنا بذلك الخاتم كُلَّمَا ختم شيئًا به نال نجاح قصده ببركة تلك الأسماء فالتزم له الشيخ بتعويضه ما هو أغرب فكتب له جميع الأسماء في قطعة واحدة قدر فصّ الخاتم . وهاته الواقعة من عجائب الأخبار الدالة على ما له من البراعة في هاته الصناعــة .

وقد كان منذ سنة 1278 (2) كتب الفاتحة على ثُلثي حبّة من الأرز وكتب عليها اسمه وتاريخ الكتابة وأخذ الحبّة المذكورة منه قنصل الانقليز وود (3) عند قصده التنقّل إلى قنصلاة تونس وأهداها [152] إلى الوزير الأكبر [152]
يومئذ (4) . وقد وقفت عليها بعد أن وقع بها كسر من بعض أطرافها بين يدي أبنائــه .

وبما ظهر منه من الحزم في واقعة الشام سنة 1276 (5) أهدى إليه امبراطور فرنسا نابليون الثالث طلقا ذهبيا في صندوق من العاج اعتناء بشأنه النبيه . ولمّا دخلت دمشق الشام وجدته ناظورة فحولها وغاية مأمولها ومفتيهـا الذي يشـار إليه ومرجع فضلائها الذي يعوّل عليه .

---

(1) يوافق : 1851—1852 .

(2) يوافق : 1861—1862 .

(3) ريشارد وود ، ولد بالآستانة سنة 1806 سمــي في 15 ماي 1841 قنصلا لانقلترة بدمشــق حيث بقي 14 عاما ، وفي 30 أفريل 1855 سمــي قنصلا عاما لانقلترة بتونس حيث بقي إلى مارس 1879 ، وتوفي في 21 جويلية 1900 .

(4) هــو مصطفى خزنة دار . انظر أعلاه صفحة : 66 .

(5) يوافق : 9 جويلية 1860 . انظر أعلاه صفحة 133 .

وهو الرئيس الأوّل بمجلس المعارف الذي انتصب سنة 1299 (1) التاريخ في سوريا ورئيسه الثاني الشيخ علاء الدين بن عابدين . ومفتّش المعارف الشيخ طاهر بن صالح السمعوني المغربي . وناهيك بهم من فضلاء أعلام تناسقوا في الفضل والعلم والمعرفة على حسب تناسق ترتيب خططهم في الانتظام .

وقد لاقيت من ثالثهم مفتش المعارف من حسن الملاطفة والمعاملة ما قصر معه زمن الملاقاة (2) بحيث إنّه هو الذي أدخلني إلى المدارس والمطابع وساعدني في الجدّ النافع . وأمّا الشيخ علاء الدين فإنّ ضيق الوقت منعني من الاجتماع به ويا حسرتي على التفريط .

وأمّا صاحب الترجمة فالفضل في اجتماعي به للطريق . وعلى قارعته حصل بيننا التعارف في ليلة سفري . وهو رجل طويل القامة عظيم الهامة وجهه تلوح عليه الشهامة . وله من حسن التواضع وكمال البشاشة ولطف المخاطبة ما هو أهل له . ومبلغ عمره ما بين الستّين والسبعين أطال الله عمره في كلّ خير .

[نظم الشيخ محمود حمزة في علم الفراسة]

وقد وقفت له على نظم في علم الفراسة يعدّ من محاسن آثاره رَأَيْتُ أنْ أُحَلِّيَ به هذا الجيد لندرة هذا الموضوع وذلك قوله : (من الرجز)

يَقُولُ مُفْتِي جِلَّقٍ مَحْمُودُ
شُكْرُ الإلَهِ وَاجِبٌ مَحْمُودُ

إذْ نَوَّرَ الإنْسَانَ بِالْفِرَاسَةِ
فَأَصْبَحَتْ مِنْ أَلْطَفِ الدِّرَاسَةِ

وَقَدْ أتَى بِذِكْرِهَا الْكِتَابُ
لِكُلِّ مَنْ أفْهَمَهُ الْخِطَابُ

(1) يوافق : 1881–1882 .
(2) بالأصل : الملاقات .

[153] كَذَا أتَتْ فِي حَقِّهَا أخْبَار [153]
وَقَدْ عَلَتْ مِنْ شَأنِهَا آثَارْ
وكَمْ بِقَدْرِهَا اعْتَنَى مَنْ قَدْ سَلَفْ
وَقَبِلُوهَا خَلَفًا بَعْدَ سَلَف
لِعَصْرِ شَيْخِنَا الإمَامِ الأكْبَرِ
بَحْرِ الْعُلُومِ السَّنَدِ الْمُعْتَبَر
فَفِي الْفُتُوحَاتِ لَنَا رَوَاهَا
وَعَنْ قَدِيمِ الْحُكَمَا حَكَاهَا
وَقَالَ إنَّهَا أتَتْ بِحِزْبِهِ
لاَ رَيْبَ فِيهَا عِنْدَ أهْلِ التَّجْرِبَة
وَالْبَعْضُ سَمَّى هَذِهِ القِيَافَة
وَأثَرَ الأقْدَامِ بِالْعِيَافَه
فَيُسْتَدَلُّ أوَّلاً مِنَ الْبَدَنْ
بِخُلُقٍ فِيهِ قَبِيحٍ أوْ حَسَنْ
وَآخَرُ مِنْ أثَرِ الأقْدَامِ
مُسْتَنْبِطٌ خَوَافِيَ الأحْكَامِ
وَهَا أنَا أنْظُمُ مَا قَدْ أُخِّرَ
مِنْ أوَّلِ الْفَنَّيْنِ فِيمَا ذُكِرَا
لِيَسْهُلَ الحِفْظُ عَلَى مَنْ حَاوَلَهْ
أوْ رَامَ فِي أوْقَاتِهِ تَنَاوُلَه
قَدْ رَامَهَا بَعْضُ الأحِبَّاء بِأن
يَجْعَلَهَا هَدِيَّةً إلَى الْوَطَن
وَإنْ تَكُنْ فِي حَجْمِهَا حَقِيرَهْ
فَهْيَ لَدَا اطّلاَعِهَا خَطِيرَه

وَاللَّــهُ حَسْبِـي فِـي الأمُـورِ كُلِّهَا
لاَ حَوْلَ لِـي فِـي عَقْـدِهَا أوْ حَلِّهَـا

مقدمـة

إذَا أرَادَ اللَّـهُ خَلْـقَ نَسَمَـه … معَ اعْتِدَال الخَلْقِ ذَاتًا وَسِمَه
أصْلَـحَ نُطْفًـا مِـنَ الأبْنَـاءِ … وَوَفَّـقَ الأمَّ إلَـى الْغِـذَاءِ
فَتَخْرُجُ النَّشْأةُ في أعْلى الصُّـوَر … كَحِلْيَـةِ البَشِيرِ سَيِّدِ البَشَرْ
مُعْتَدِلاً في الْخَلْقِ وَالأخْلاَقِ … وَتِلْكَ مِـنْ مَوَاهِـبِ الخَلاَّقِ
وَإنْ يَكُنْ في الرَّحِمِ اخْتِـلاَلُ … أثَّرَ في النَّشْـأةِ ذَاكَ الْحَـال

فصـل اللـون

ثُمَّ البَيَاضُ صَادِقًا مَعْ شُقْرَتِهْ … دَلَّ عَلى القِحَّةِ مَـعْ خِـيَانَتِهْ
[154] [154]كذا على خِفَّةِ عقلٍ وَفُسوقْ … وَإنْ يَكُنْ معْ ذاكَ أزْرَقا يرُوقْ
وَاسِعَ الجَبْهَةِ وَضَيِّقَ الذَّقْنِ (1) … أزْعَرَ مشعارَ أعلى الرَّأسِ وَجِنٍ (2)
فَقَالَ فِـيهِ الحُكمَا مَنْ صِفَتُهْ … كَهَذِهِ أفْعَى بَدَتْ مَضَرَّتُهْ
فَلْيَحْتَرِزْ كُلُّ الوَرَى شَمَائِلَهْ … مِثْلَ احْتِرَازٍ مِـنْ أفاعي قاتِلَهْ

فصل الشعـر

خُشُونَةُ الشَّعَرِ عَلَـى الشَّجاعَهْ … وَصِحَّةِ الدِّمَـاغِ وَالْقَنَاعَــهْ
تَدُلُّ ثُمَّ إنْ يَكُنْ ذَا لَيِّنًـا … أيْ شَعَرُهْ ما كَانَ قَطُّ فَطِنًا
بَلْ بَارِدَ الدِّمَاغِ حَقًّـا كَانَـا … وَقَدْ غَدَا (3) بينَ الوَرَى جَبَانَا
وَإنْ يَكُنْ كَثِيرَ شَعَرِ العُنُقْ … وَالكَتِفِ ذَا كانَ دليلَ الخُرْقِ

---

(1) الدقن والذقن : مجتمع اللحيين من أسفلهما .
(2) الوجن والاوجن : العظيم الوجنـات .
(3) بالأصل : غـدى .

وَجُرْأَةٍ فِيهِ كَذَا قَدْ سُطِّرَا ... وَإِنْ عَلَى الصَّدْرِ وَبَطْنٍ أَكْثَرَا
دَلَّ عَلَى وَحْشِيَّةٍ وَعَدَمِ ... فَهْمٍ وَحسْبُ جوْرِهِ فِي الأُمَمِ
وَشُقْرَةٌ أَتَتْ على الحَقِّ دَلِيلٌ ... معَ التَّعَدِّي ثُمَّ كَثْرَةُ العَوِيلِ
مُحِبٌّ عدل أَسوَدُ الشَّعَرِ يَكُونُ ... وَافِرَ عَقْلٍ ذا أَنَاةٍ وَسُكُونِ
وَمَنْ يكنْ بَيْنَهُمَا حالَ الوَسَطْ ... دَلَّ على اعْتِدَالِهِ دونَ الشَّطَطْ

فصل الجبهة

وَمَنْ تَكُنْ جَبْهَتُهُ مُنْبَسِطَةً ... لَيْسَتْ بذات غُصْنٍ مُخَطَّطَهْ
دَلَّ عَلَى خُصُومَةٍ وَعُجْبِ ... وَصَلَفٍ رَقَاعَةٍ (1) وَشَغْبِ
وَمَنْ يكن بيْنَ النَّشْرِ وَالسَّعَةْ ... وَكَانَتِ الخُطُوطُ فِيهِ يَانِعَهْ
فَهْوَ مُدَبِّرٌ فَهِيمٌ صَادِقٌ ... يَقْظَانُ عَالِمٌ مُحِبٌّ حَاذِقُ

فصل الأذن

وَمَنْ تَكُنْ كَبِيرَةٌ أُذْنَاهُ ... فَجَاهِلاً لاَ حَافِظًا تَرَاهُ
[155] وَمَنْ تكنْ فِيهِ صَغِيرَتَيْنِ ... فَسَارِقٌ أَحْمَقُ غَيْرُ زَيْنِ [155]

فصل الحاجب

وَإِنْ يكُنْ كَثِيرَ شَعَرِ الحَاجِبِ ... فَمَا لَهُ عَنْ عِيِّهِ مِنْ حَاجِبِ
وَمَنْ يكُنْ لِصُدْغِهِ مُمْتَدًّا ... حَاجِبُهُ فَالتِّيهُ فِيهِ اشْتَدَّا
كَثْرَةُ شعَرِ الحَاجِبَيْنِ يا هُمَامُ ... دَلَّتْ على عِيٍّ وَغَثٍّ فِي الكَلاَمِ
وَإِنْ يَدِقَّ فِي الطُّولِ اعْتَدَلَ ... معَ السَّوَادَ فَهْوَ يَقْظَانُ اكْتَمَلَ

فصل العين

وَأَزْرَقُ العَيْنِ غَدَا مَذْمُومًا ... وَكُلَّمَا زَادَ أَتَى مَذْمُومًا
وَكلٌّ منْ عيناهُ جِسْمًا عَظُمَتْ ... فَهْوَ حَسُودٌ خائِنٌ إِنْ جَحَظَتْ
كَسْلاَنُ ذُو وَقَاحَةٍ وَإِنْ تَكُنْ ... زُرْقًا فَذَا مِنْ غِشِّهِ نَفْسكَ صُنْ

---

(1) رقع رقاعة : حمق وكان قليل الحياء .

وَمَنْ تَكُنْ عَيْنَاهُ لاَ بِالصِّغَرِ ... مَوْصُوفَةً كَذَا وَلاَ بِالْكِبَرِ
مَائِلَةً لِلْغَوْرِ وَالسَّوَادِ ... فَذَاكَ يَقْظَانُ مُحِبٌّ هَادِ
وَالعَيْنُ إنْ تَكُنْ طويلَةَ الْبَدَنْ ... فَهْوَ خَبِيثٌ ذُو فَسَادٍ وَفِتَنْ
وَمَنْ بَدَا فِي عَيْنِهِ جُمُودُ ... فَهْوَ غَلِيظٌ جَاهِلٌ مَرْدُودُ
وَمَنْ بِعَيْنِهِ سَرِيعُ الْحَرَكَهْ ... بِحِدَّةٍ يرى قَفْلٌ(1) لاَ بَرَكَهْ
فَذَاكَ مُحْتَالٌ وَلِصٌّ غَادِرٌ ... وَأَحْمرُ العَيْنيْنِ لَيْثٌ خادِر (2)
وَإنْ يَكُنْ يُرَى حَوَالَيْهَا نُقَطْ ... صُفْرٌ فذا شَرٌّ عنِ الخَيْرِ هَبَطْ

فصل الأنف

وَمَنْ غَدَا مَنْخَرُهُ دَقِيقًا ... فَذَاكَ فِي طِبَاعِهِ رَقِيقًا
وَمَنْ يَكُنْ مَنْخَرُهُ يَدْخُلُ ُ ئي ... فِيهِ فَذُو شجاعَةٍ لَيْثٌ وَفِي
وَمَنْ يكنْ أفْطَسَ فهوَ شَبِقْ (3) ... وَإنْ يَكُنْ مُنْتَفِخًا فُتُقْ (4)
[156]وَمن يكن غليظَ وسطِ المعطَسِ ... وَمَائِلاً إلَى صِفَاتِ الأفْطَسِ [156]
فَذَاكَ كَذَّابٌ فَلاَ تُنَاقِشْ ... مُعْتَدِلٌ مَا طَالَ غَيْرَ فَاحِشْ
وَالأنْفُ إنْ لم تَغْلُظَنْ منْهُ قَنَاة ... فَذَاكَ ذُو عَقْلٍ وَفَهمٍ وَأنَاة

فصل الفم

وَوَاسِعُ الفَمِ شُجَاعٌ مِصْدَقٌ ... لكنَّ غَلِيظَ الشَّفَتَيْنِ أَحْمَقُ
وَإنْ تَكُنْ شِفَاتُهُ مُعْتَدِلَهْ ... مَعْ حُمْرَةٍ صَادِقَةٍ فحُبِّي لَهْ

فصل الأسنان

وَمَنْ تَكُنْ مَلْوِيَةً أَسْنَانُهْ ... فَذُو احْتِيَالٍ خَادِعٌ خَوَّانُهْ
وَإنْ تَكُنْ ذَا فَلَجٍ خَفِيفَهْ ... فَثِقَةٌ أخْلاَقُهُ لَطِيفَهْ

---

(1) قفــل يقفل قفــلا الطعام : جمعه واحتكره .
(2) الخادر : خدر الأسد في عرينه : لزمــه .
(3) شبق يشبق شبقا : اشتدت شهوته الفاسدة .
(4) فتق : الفتيق اللسان هو الحديـد اللسان .

فصل الوجه

وَمَنْ يَكُنْ مُنْتَفِخَ الشِّدْقَيْنِ   فَجَاهِلٌ فَظٌّ بِغَيْرِ مَيْنِ
وَمَنْ يَكُنْ نَحِيفَ وَجْهٍ أَصْفَرَا   فَهْوَ خَبِيثٌ خَادِعٌ لَنْ يُنْكَرَا
وَطُولُ وَجْهِهِ عَلَى الْوَقَاحَهْ   يَدُلُّنَا وَعَدَمِ الْفَصَاحَهْ
مُنْتَفِخُ الأَصْدَاغِ وَالأَوْدَاجِ   ذَاكَ غَضُوبٌ فَاقِدُ الْعِلاَجِ
وَمَنْ إذَا نَظَرْتَهُ يَحْمَرُّ   وَدَمْعَتَاهُ رُبَّمَا تَدُرُّ
أَوْ يَبْتَسِمْ تَبَسُّمًا خَفِيفْ   فَهَائِبٌ لَكَ مُحِبٌّ وَعَفِيفْ

فصل الصوت

وَمن يَكُنْ جَهِيرَ صَوْتٍ ذلِكَ دَلّ   عَلَى شَجَاعَةٍ وَإِنْ كَانَ اعتَدَل
ما بَيْنَ كَدٍّ وَتَأَنٍّ فِي الكَلِمْ   وَغلَظٍ وَدِقَّةٍ ذَاكَ عَلِمْ
بِأَنَّهُ فِي الْعَقْلِ وَالتَّدَبُّرْ   وَالصِّدْقِ فِي مَكَانَةٍ لَمْ تُنْكَرْ
وَفي الكَلاَمِ سُرْعَةٌ مَعْ رِقَّتِهْ   دَلَّتْ لِجَهْلٍ كَلْبٍ وَقِحَتِهْ
[157]وَغلَظٍ في الصَّوْتِ ذا على الغَضَبْ   وَسُوءِ خُلْقِهِ يَدُلُّ لاَ رِيَبْ [157]
وَغُنَّةُ الصَّوْتِ دَلِيلُ الْحُمْقِ   وَالْكِبْرِ مَعْ بَلاَدَةٍ وَخَرْقِ

فصل الحركة

وَفِي احْتِرَاكِ مَنْ بِهِ إكْثَارُ   فَصَلَفٌ ذُو خِدْعَةٍ مِهْذَار
وَصَاحِبُ الوَقَارِ فِي الْجُلُوسِ   مَعَ الإشَارَةِ إِلَى الْجَلِيسِ
عِنْدَ الكَلاَمِ دَلَّ فِي التَّحْرِيرِ   عَلَى تَمَامِ العَقْلِ وَالتَّدْبِيرِ

فصل العُنُق

وَقِصَرُ العُنْقِ على الخُبْثِ دَلِيلٌ   وَالمكْرِ لكن إنْ يَكُنْ عُنْقٌ طَوِيل
مَعْ دِقَّةٍ دَلَّ عَلَى الْحَمَاقَةِ   وَالجُبْنِ وَالصِّياحِ فِي الرُّفَاقَةِ
وَإِنْ يَكُنْ مَعْ هَذِهِ صَغِيرَ الرأس   دَلَّ عَلَى سُخْفِهِ فَلاَ تُوَاسِ

وَغلَظُ العُنْقِ دَليلُ الْجهْلِ — وَكَثْرَةِ النَّوْمِ كَذَا وَالأكْلِ
وَالعُنْقُ في الطُّولِ إذَا مَاآعْتَدَلاَ — وَغَلُظَ كَانَ وَدُودًا عَاقِلاً
صَاحِبَ تَدْبِير وَرَأيٍ بلْ ثِقَهْ — سُرَّ بِهِ كُلُّ خَلِيلٍ صَادَقَهْ

فصل البطن

وَكِبَرُ البطنِ على الحُمْقِ يَدُلُّ — وَالجَهلِ وَالجُبنِ لمنْ فيهِ يَحُلُّ
لَطَافَةُ البَطْنِ وَضِيقُ الصَّدْرِ — دَلَّ على العَقْلِ وَحُسْنِ الْفِكْرِ

فصل الظهر والكتف

وَعُرْضُ أكتافٍ معَ الظهرِ دَليلٌ — عَلَى شَجَاعَةٍ وَعَقْلِهِ الْقَليلِ
ثُمَّ استِوَاءُ الظَّهرِ فيمَا حَرَّرُوا — عَلاَمَةٌ مَحْمُودَةٌ قَدْ ذَكَرُوا
على الشّكاسَةِ(1)معَ التَّرَافَهْ (2) — دَلَّ انحِناءُ الظهرِ في القِيافَهْ (3)
بُرُوزُ أكْتَافٍ هُوَ الْبَلِيَّهْ — فَقُبْحُ مَذْهَبٍ وَسُوءُ نِيَّهْ

[158] فصل الذراع والكفّ [158]

طُولُ الذّرَاعِ وَبُلُوغُ الْكَفّ — لِرُكْبَةٍ ذَاكَ حَمِيدُ الوَصْفِ
دَلَّ عَلَى شَجَاعَةٍ وَكَرَمٍ — وَنُبْلِ نَفْسٍ وَعُلُوِّ الْهِمَمِ
وَإنْ تَكُنْ عن رُكبتَيْهِ في قِصَرْ — فَهْوَ جَبَانٌ ذُو شُرُورٍ وَضَرَرْ
وَإنْ تَطُلْ كَفٌّ مَعَ الأصَابِعِ — دَلَّ عَلَى النُّفُوذِ في الصَّنَائِعِ

فصل القَدَم

وَغلَظُ اللَّحْمِ دَليلٌ في القَدَمِ — لِلْجَهْلِ معْ حبٍّ لجوْرٍ في الأمَمِ
وَالْقَدَمُ الصَّغِيرُ ثُمَّ اللَّيِّنُ — دَلَّ عَلَى الْفُجُورِ وَهوَ بَيِّنُ

---

(1) شكس شكاسة : كان بخيلا . كان صعب الخلق .
(2) الترافة : النعمة .
(3) بالأصل : الفيافة والصواب : القيافة . وهي تتبع الأثر لا العيافة لانه زجر الطير . ويؤيد التصويب البيت الثالث من صفحة 159 أسفله .

فصل العقب والسّاق

وَرِقَّةُ الأعْقَابِ فِي الإنْسَانِ … دَلَّتْ على حُسْنٍ بَدِيعِ الشَّانِ
وَغِلَظُ دَلَّ عَلَى الشَّجَاعَةِ … إذْ هُوَ لَيْثٌ فَاخْتَبِرْ طِبَاعَهْ
وَغِلَظُ السَّاقَيْنِ معْ عُرقوبِهِ (1) … لِبَلَهٍ وَقِحَّةٍ كَأْبًا (2) بِهِ

فصل الخطوة

وَكُلُّ مَنْ كانتْ خُطَاهُ وَاسِعَهْ … بِطِينَةٍ فَذُو مَزَايَا نَافِعَهْ
كَنُجْحِهِ فِي سَائِرِ الأعْمَالِ … وَالفِكْرِ فِي عَوَاقِبِ الأفْعَالِ

خاتمة

وَقدْ يقلُّ بَعضُ ذِي النُّعوتِ قُلْ … وَبَعْضُهَا يأتِي كَثِيرًا فِي الرَّجُلْ
وَالحُكْمُ إن تَعَارَضَتْ لِلغَالِبِ … مِنْ حُسْنِ أخْلاَقٍ وَمن مَعايبِ
وَإن تَساوَتْ عَدَدًا فِي الشَّخْصِ … فَلاَ تُمَحِّضْ ذَاتَهُ للنَّقْصِ
إذْ يَتَدَافعَانِ بِالأحْكَامِ … فَيَمْتَنِعَانِ سَطْوَةَ الأقْلاَمِ
وَلاَ تَشُكَّنَّ بِأنَّ العُلَمَاءَ … يُزِيلُ مِنْ أوْصَافِ ذَمٍّ حُكَمَاء
[159]أعني إذا ما استعمل العلمَ الحكيمُ … أثَّرَ فِي إزَالَةِ الوَصْفِ الذَّمِيمِ [159]
وَكُلُّ مَنْ جَرَّبَ ما قُلْنَا وَجَدَ … فِي فَحْصِهِ شَاهِدَ صِحَّةٍ وَجَدَ
وَفِي القِيَافَةِ انْتَهَى الْكَلاَمُ … وَحَصَلَ الْمَقْصُودُ وَالْمَرَامُ
مِنْ بعدِ ألْفٍ وَثَلاَثٍ منْ مِئِين … يُطْرَحُ منهَا أرْبَعٌ مِنَ السِّنِينَ (3)
وَكَانَ هَذَا فِي دِمَشْقِ الشام … فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى التَّمَامِ

---

(1) العرقوب : عصب غليظ فوق العقب .
(2) كئب كأبا وكآبة : كان في غم وسوء حال وانكسار من حزن .
(3) في هذا البيت إشارة الى سنة 1879/1296 .

الشيخ سليم العطّار

هو محدّث دمشق وفقيهها الشيخ أبو محمّد سليم بن يس بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطّار . ناهيك من بيت علم وفضل ونباهة ملأت الهضاب والسهل ما شئت من فقه في دين . وأثبات ثبته متواصلة الأسانيد إلى سيّد المرسلين . وفضل وصلاح وعزّ يؤثّله الكرم والسماح مع بيض الأيادي التي تقلّدها منهم كلّ حاضر وبادٍ وتوارثها جلّة الخلف عن فحول السلف رضي الله عن جميعهم .

كان الشيخ عبيد بن عبد الله من مشاهير الصالحين بدمشق وبها كانت وفاته . وظهر على ولده أبي العباس الشيخ أحمد من سرّ والده فضل العلم والعمل إذ لازم الأخذ بدمشق الشام عن فحول الأعلام . فقرأ على الشيخ علي بن أحمد الكزبري شرح القسطلاني على البخاري وتفسير القاضي البيضاوي وشرح المواهب وإحياء العلوم والمنهاج في فقه الإمام الشافعي والنهاية والمحلّي على جمع الجوامع ومغني اللبيب بشروحه والشاطبية . وختم عليه التجويد بالسبع .

وقرأ على الشيخ محمّد بن الغزّي مفتي الشافعية بدمشق وشارح صحيح البخاري كثيرا من الحديث . وأجاز له بمروياته عنه . وقرأ على الشيخ إسماعيل الفحلوني شرحه لصحيح البخاري ولازم دروسه نحو العشر [160] سنين . [160]
وقرأ على الشيخ أحمد الحنيني شرحه على صحيح البخاري وغيره وأخذ عنه سنده . وقرأ على الشيخ علي الدغستاني تفسير القاضي وصحيح البخاري وتفسير

أبي السعود وشرح العقائد والطوالع ومختصر المنتهى للعضد والقطب على الشمسيّة والمواقف .

وقرأ على الشيخ عبد الرحمان بن جعفر الكردي الكافية والشافية والفنري على إيساغوجي والشمسية وغيرها والمحلّي على جمع الجوامع . وقرأ على الشيخ عبد الله بن زين الدين البصروي صحيح مسلم وشيئًا من الفقه الشافعي والعلوم الكليّة . وقرأ على الشيخ موسى المحاسني الأزهرية والقطر وصحيح البخاري والتفسير . وقرأ على الشيخ محمّد قلقس زاده القطر والقواعد والجامي على العصام . وقرأ على الشيخ محمّد الصناديقي والشيخ المنلاّ عبّاس الكردي والشيخ محمّد الوبري والشيخ أحمد البعلي مفتي الحنابلة بدمشق والشيخ عواد الكوري والشيخ محمّد التدمري والشيخ محمّد سعيد الجعفري جميع ما يحتاج إليه من العلوم العقلية والنقلية وكلّ هؤلاء من علماء دمشق .

وأخذ عن غيرهم من علماء الجهات إجازات كثيرة . وقد وقفت له على ثبت ذكر فيه جميع من أخذ عنهم وأجازوا له . وذكر فيه أسانيده في القرآن والحديث وبه اتّصل سندي عن حفيده كما يأتي . وقد كان يلقّب بين علماء عصره بالشافعي الأصغر لسعة فقهه وسماه النبيّ (صلّعم) في النوم محيي سنّتي لاعتنائه بالسنّة . ومع تصدّيه لنشر العلوم ضبطت نوافله فكانت ثمانين ركعة في كلّ يوم . وقد حجّ في أربع حجج .

وعندما قدم بونابارتي (1) على عكّا تجنّد بأولاده ومن انضمّ إليهم وأقام بالقتال رضي الله عنه . وقد بلغ عمره ثمانين سنة وتوفي بدمشق تاسع

---

(1) هو نابليون الاول (1769–1821) حمل على مصر ودخل القاهرة في 25 جويلية 1798 ثم توجهت عنايته إلى احتلال بلاد الشام وضرب الحصار على مدينة عكا في أفريل 1799 وبتلك المناسبة قال : لو تسقط عكا في يدي لأثيرن بلاد الشام قاطبة ولأسلحن أهلها ولأصلن إلى القسطنطينية ولأقوضن الخلافة العثمانية ولأقيمن امبراطورية جديدة عظيمة تخلد ذكري بين الخلف ... : الا أن الأحداث جرت على عكس طموحه وقاومت مدينة عكا حصار بونابارت وثارت بلاد الشام على الفرنسيين وتوارد المدد العثماني وخاف بونابارت فرفع الحصار على عكا وعاد خائبا إلى مصر و كانت تلك الخيبة أولى خيباته وقد تكون أثرت في مصيره الأمر الذي جعله يقول فيما بعد : «ان ذرة من الرمل عرقلت حظي فلو أن مدينة عكا كانت سقطت بيدي لكنت غيرت وجه العالم». والملاحظ أن بونابارت غادر مصر نهائيا في 23 أوت 1799 . انظر :
Octave Aubry, la Révolution Française, t. II, Paris, 1945, p. 441-451.

ربيع الثانـي سنة ثمانـي عشرة ومائتين وألف (1) ودفن بتربة مرج الدحداح .
وكانت ولادة ولده حامد سنة 1186 ستّ وثمانين ومائة وألف (2) [161] ونشأ [161]
بين يدي والده فقرأ عليه وعلى الشيخ محمّد الكزبري والشيخ شاكر مقدم سعد
والشيخ علي الشمعة والسيّد نجيب القلعي الشهير بقنبان وخرج من دمشق لحجّ
بيت الله الحرام . فدخل مصر سنة 1233 ثلاث وثلاثين ومائتين وألف (3) .

واجتمع بالشيخ محمّد الأمير الكبير وأخذ عنه وسافر إلى بغداد سنة 1241 إحدى وأربعين ومائتين وألف (4) . ودعاه العالم الشهير داود باشا لإقراء صحيح البخاري بمقام الجيلي فأقرأه ونال الحظوة هنالك وعاد إلى مصر سنة ستّيـن (5) .

وكان عالما صوفيا وقد لازم تدريس الحديث والتفسير بجامع بني أميّة وولي خطّة تدريس الحديث صبيحة كلّ يوم خميس من رجب وشعبان بالمدرسة السليمانية بعد وفاة والده . وحجّ بيت الله الحرام سنة 1262 اثنتين (6) وستّين ومائتين وألف ورجع صحبة المحمل فتوفّى سادس صفر الخير سنة ثلاث وستّين ومائتين وألف (7) . ودفن على ميمنة بِركَة قطرانة .

وقد زرت ضريحه عند وصولي للمرحلة المذكورة وولد ولده الشيـخ يـّـس سنة ثلاث ومائتين وألف (8) ونشأ بين يدي والده فأخذ عنه وعـن فحول علماء عصره بدمشق . فكان محدّث دمشق بعد والده وقام مقامه في

---

(1) يوافق : 29 جويلية سنة 1803 .
(2) يوافق : 1772—1773 .
(3) يوافق : 1817—1818 .
(4) يوافق : 1825—1826 .
(5) يوافق : 1843—1844 .
(6) يوافق : 1845—1846 . بالأصل : اثنيـن .
(7) يوافق : 24 جانفي 1847 .
(8) يوافـق : 1788—1789 .

تدريس السليمانية وتوفّي تاسع صفر الخير سنة 1291 إحدى وتسعين ومائتين وألف (1) .

وَوُلِدَ وَلَدُه صاحبُ الترجمة الشيخ سليم سنة إحدى وثلاثين ومائتين وألف (2) ونشأ بين يدي جدّه ووالده . فقرأ على جدّه معقول العلوم ومنقولها وقرأ عليه صحيح البخاري وتفسير القاضي البيضاوي وجمع الجوامع والتوحيد والحكم العطائية . وقرأ على الشيخ عبد الرحمان الكزبري صحيح البخاري ومختصر السعد وجمع الجوامع وجوهرة التوحيد ونخبة الحديث والأربعين النووية . وقرأ على الشيخ عبد الرحمان الطيبي الفقهَ الشافعيَّ وجمعَ الجوامع وقرأ على الشيخ سعيد الحلبي [162] كتب النحو الأجرومية والشيخ خالد [162]
والقطر والشذور والألفية بشرح الأشموني . وقرأ على الشيخ عمر أفندي الديار بكري مختصر السعد والمقامات الحريرية والمنطق . وقرأ على الشيخ هاشم البهلي شرح ابن عقيل على الألفية وشرح الأشموني والمغني وأدب البحث .

وقرأ على غير هؤلاء واعتكف على بثّ العلوم الفقهية والحديث والتوحيد والعلوم العقلية وتقدّم لتدريس السليمانية وأقام بها بثَّ الحديثِ دِرَايَةً .

ولمّا دخلت دمشق الشام وجدتها مملوءة بذكر فضله وعلومه . وكان يومئذ نَقِهاً من مرض كان مضاجعا له فاستأذنت عليه في عيادته ورافقت عمَّه العالم الشيخ أبا بكر العطّار . وكان أصغر منه سنّاً . ودَخَلت عليه صبيحة يوم الأحد الرابع من ربيع الأول سنة 1300 (3) وكان مجلسه محتبكا بحضور العائدين من العلماء والوجهاء . وكلّ من دخل عليه قَبَّلَ يَدَهُ . وعند دخُولي عليه تجشّم القيام وبعد أداء التحيّة اللازمة له أجلسني على مصطبة (4) على ميمنته .

(1) يوافــق : 28 مارس سنة 1874 .

(2) يوافــق : 1815–1816 .

(3) يوافــق : 14 جانفي سنة 1883 : والملاحظ أن الأصل به سنة 1299 وهذا التاريخ لا يصح لأن المؤلف ابتدأ رحلته في 7 رجب سنة 1299 و آب منها إلى تونس في 26 ربيع الاول سنة 1300 .

(4) بالأصــل : اصطبــة .

وكان فراشه على الأرض والوفد جالسون على دائر البيت . وهو بيت كبير الساحة رفيع التنضيد بالزرابي الحرير .

والشيخ طويل القامة نحيف الجسم أسيل الوجه أشهل بزرقة أقنى الأنف أعطر اللحية أشقر الشعر غلب شيبه كثير الأناة في تكلّمه . وكان بالمجلس كثير من علماء دمشق ومدرّسيها فأفاضوا في ذكر مسائل فقهية على مذهب الشافعي عرضوها على الشيخ فأجاب فيها بالقول الفصل .

وهكذا جرَتْ مسائلُ من علم الكلام والحديث فكان كلامُ الشيخ فيها بقدر الحاجة كلاما فَصْلاً يَدُلُّ على تضلّعه . وبوقوع المشاركة معه فيما عرض من الحديث خشيت أن أسمع منه حديثا قبل أن أروي عليه المسلسل [163] . بالأولية فبادرت له في ذلك المجمع العظيم وطلبت منه روايته [163]
عنه للحصول على شرف سنده . فاعتذر لي بحالة المرض التي لم يمكنه معها الاغتسال فقلت له: «يا سيّدي أطلب من سيادتكم روايته على الحالة التي تصلّي عليها فتكون فيها مناجيا لربّك وأقرب ما يكون العبد من ربّه وهو ساجد». فاستحسن ذلك منّي جميع الحاضرين . وقال لي: «نعم إني كنت أتيمّم قبل دخولهم» .

ثم افتتح مجلس الرواية وأسنَدَ روايتي إلى أشياخه ومنهم جدّه الشيخ حامد العطّار إلى عبد الله بن عمرو بن العاص (رضه) قال قال رسول الله (صلّعم) : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَانُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ (1) » وفي رواية « أهلَ الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » وفي أخرى زيادة تَبَارَكَ وَتَعَالَى بين قوله الرحمان والراحمون . وقال أشياخي يروونه برفع يرحمكم وجزمه في جواب الأمر .

ثم قال لي : « حيث إنَّ الرواية بالسماع أعظم في الأسانيد من مجرّد الإجازة ففي سماعه غنية عن الإجازة » . فقلت له : « وإن يكن السماع مصحوبا

(1) حديث شريف .

مَنْ فِي السَّمَاءِ (1)» وانّي قد أجزته بجميع ما تقدّم بالشرط المعتبر * عند أهل الأثر * كما أجازني بجميع ما ذكر * السادة الأفاضل أهل الكلمات الذين أجلّهم عندي * سيّدي وعمدتي ومالك طريفي وتالدي جدّي * المرحوم الشيخ حامد العطّار * عليه رحمة العزيز الغفّار * وأشياخي ولله الحمد كثيرون فلا أطيل بذكرهم وفي هذا العدد كفاية وأرجو من حضرة المجاز أن لا ينساني

[166] من صالح دعواته * من أشرف أوقاته * [166] وسائر خلواته * وأسأل الله لي وله التوفيق * وأن يسلك بنا أحسن طريق * وأن يعاملنا بالعفو والإحسان * وأن يمدّنا بإمداد سيّد الأكوان * عليه أشرف صلاة من الملك الحنّان * والحمد لله في البدء والختام * آمين تحريرًا غرّة شهر ربيع الأنور سنة ثلاثمائة وألف (2) . قاله بفمه وكتبه بقلمه أحقر الورى محمّد سليم العطّار الشافعي القادري عفي عنه آمين » .

---

(1) حديث شريف .

(2) يوافق : 10 جانفي سنة 1883 .

الشيخ محمد الطنطاوي

هو الشيخ أبو عبد الله محمّد بن مصطفى بن علي بن يوسف الشنواني المشتهر بالطنطاوي . كان والده من صانعي الأقمشة بطنطا . وتوفّي بها سنة ستّ وأربعين ومائتين وألف (1) وبها وُلِدَ وَلَدُهُ هذا سنة ستّ وأربعين . وارتحل من طنطا إلى الشام سنة خمسين (2) فقرأ على الشيخ إبراهيم الباجوري العقائد والمطوّل والفقه وغير ذلك . وقرأ على الشيخ مصطفى البلاقي رسالة الوضع والنحو وقرأ على الشيخ عبد القدّوس تلميذ القوسني المختصر البياني . وقرأ على الشيخ أحمد البغلي والشيخ علي القوسي كتب علم الفلك . وقرأ على الشيخ الخضري بدمياط كثيراً من كتب المعقول والهندسة والفلك . وتعلّم الجبر والمقابلة على الشيخ محمّد السّقّا . وقرأ على الشيخ أحمد الترمانيني بحلب الفقه والنحو وغيرهما .

وقد رجع إلى الشام سنة 1266 ست وستين (3) وسافر للحجاز وبلد الترك ِ ودُعِيَ إلى قونية لتصحيح الفتوحات للشيخ محيي الدين على نسخة

---

(1) يوافق : 1830–1831 .
(2) يوافق : 1834–1835 .
(3) يوافق : 1849–1850 .

خطّ المؤلف سنة 1287 سبع وثمانين (1) فأقام ثلاثة أشهر ونصف لمقابلتها مرّتين هنالك جزاه الله خيراً .

ولمّا دخلت دمشق وجدت ذكره بها أحسن ذكر وهو متَصَدٍّ للإقراء
[167] وصاحبت الأمير علي [167] للاجتماع به في بيته ليلا فصادفناه خرج لمسامرة أحد أعيان التجّار في بيته . فذهبنا إلى بيت التاجر وأحسنوا قبولنا وإكرامنا جزاهم الله خيراً . وبعد المجالسة مع الشيخ والمحادثة معه سألته رواية المسلسل بالأوّلية والإجازة بأسانيده فسمح لي بجميع ذلك وكتب لي مضمونه في بطاقة على حسب ما اقتضاه المجلس خشية فوات الفرصة إذ كنت مزمعا على الرحيل .

وهو عالم خيّر فاضل حسن السكينة لطيف الشمائل كريم الأخلاق له شهرة في العلوم العقلية وعلى الخصوص دقائق علم الكلام ويقرىء المطوّل والعقائد النسفية والمواقف . وناهيك به من رجل سمعت ذكر فضله في المدينة المنوّرة وشاهدت مصداقه في تلك المسامرة . وحصلت عن الأخذ عنه بإجازته شكَرَ اللّه فَضْله وهذا نصّها :

« الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده .

أمّا بعد فقد سألني جناب العالم الفاضل * حاوي رتب الفضائل * الشيخ محمّد ابن عثمان السنوسي أن يسمع الحديث المسلسل بالأوّلية وأن أجيزه بكلّ ما تجوز لي روايته * وتَصِحُّ عنّي درايته * ممّا هو في ثبت شيخ مشائخنا ومشائخهم العلامة الشهير * مولانا الشيخ محمّد الأمير الكبير وإنْ كنت لست أهلا لذلك * ولا ممّن يليق أن يسلك تلك المسالك * لكن أردت امتثال أمره فحدّثته بالحديث المذكور بلَ وبغيره * ممّا ليس فيه وتَصِحُّ عَنّي درايته من كلّ ما في الثَّبْتِ المذكور بل وَبِغَيْرِهِ * مِمَّا لَيْسَ فيه مِمَّا تلقَّيته في ثَبْتِ الشيخ البَّهِيَّ وغيره *

---

(1) يوافق : 1870–1871 .

أقولُ روايتي ما في ثَبْتِ الشيخ البَهيّ * عن الشيخ محمّد الحفناوي * عنه وعن غير المذكورين وأطلب من الفاضل المذكور أن لا ينساني من دعواته وأسأل الله أن يوفّقني [168] وإيّاه * لما يُحِبُّه وَيَرْضَاهُ * وحرّر في أوائل [168]
ربيع الأوّل من سنة ألف وثلاثمائة (1) من الهجرة النبويّة على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحيّة قاله بفهمه وكتبه بقلمه الحقير محمّد بن مصطفى الشهير بالطنطاوي » .

(1) يوافــق : جانفي 1883 .

الشيخ أبو بكر العطّار

هو الشيخ أبو بكر بن حامد بن أحمد بن عبيد بن عبد الله بن عسكر العطّار هو أحد إخوته العلماء * وآية فخر الكرام العظماء * وُلد سنة إحدى وخمسين (1) ونشأ بين يدي والده وآل بيته العلماء * وقرأ على والده الأربعين النووية وقرأ على الشيخ حسن الشطّي الفرائض والبيان والحساب . وقرأ على الشيخ الجَدْخَدَار النحو والصرف وقرأ على الشيخ أبي بكر الكردي المنطق والوضع . وقرأ على الشيخ عبد الرحمان بايزيد النحو والصرف . وقرأ على الشيخ حسن البيطار الحديث وأخذ الإجازة عن الشيخ عبد الرحمان الطيبي .

وارتحل إلى مصر سنة ثمان وسبعين (2) وأخذ عن الشيخ محمّد عليش واجتمع بالشيخ محمّد أكرم الهندي الصوفي وقرأ عليه تشريح الأفلاك في الهيأة وطرفا من القطب إلى نهاية التصورات . وقرأ عليه شرح النابلسي على العقيدة السنوسية . وحجّ بيت الله الحرام واجتمع بالأكابر الأعلام ورجع إلى دمشق فاعتكف فيها على بثّ العلم .

وفي صبيحة يوم الخميس غرّة ربيع الأوّل (3) حضر عندي بمحلّ نزولي في بيت عمر السبيعي بعد أن أقرأ دروسه بالجامع الأموي وهي السعد

---

(1) يوافق : 1835–1836 .

(2) يوافق : 1861–1862 .

(3) يوافق : 11 جانفي سنة 1883 .

والأشموني وله دروس أخرى من الفقه والتوحيد . فجلس عندنا مَلِيـّاً وقد دارت في المجلس عدّة مسائل من المعقول فكان كلامه فيها في غاية الحسن .

وكان وقتئذ معنا بالمجلس الشيخ سليم الطيبي شيخ مدرسة نور الدين الشهير وهو ممّن عُرِفَ بالفقه فسألني عن وجه الجمع والتقصير ليلة مِنًى عند المالكية مع أنهم [169] يخصّون ذلك بمسافة القصر وليست المسافة كذلك . [169]
وهل ذلك رخصة أو عزيمة في المذهب المالكي . فَأَجَبْتُهُ عن المسألة الأولى بأنّها من مستثنيات مذهب المالكية في شروط التقصير والوجه فيها عندنا هو الاقتداء بفعل النبيّ (صلّعم) وَهُوَ وَإِنْ كان فعل ذلك في مسافة قصر من مِنًى إلاّ أنّ المحافظةَ على أفعال النبيّ عندنا اقتضت أنّه ممّا زال فيه السبب وبقي حكمه . ومن هذا يعلم جواب المسألة الثانية إذ أنّ الجمع والتقصير في مذهبنا رخصة . وحيث إنّ هذا الجمع استصحب فيه السبب الأصلي عند النبيّ (صلّعم) حيث كان عن مسافة قَصْرٍ .

وقد اجتمعتُ بعد ذلك المجلس بالشيخ أبي بكر العطّار في بيته وطالت المجالسة مع المحاورة في دروسه . وطلبت منه إجازة بِثَبَتِ جدّه لعلوّ سنده عن سند ابن أخيه الشيخ سليم فسمح لي بها . وحضرت عنده دعوةً صاحبني فيها الأمير أحمد والأمير علي لَيْلاً شكر الله فضله .

وبالجملة فهو رجل عالم فاضل كريم النفس رفيع الهمّة متحبّب إلى الناس له عناية بدروسه محافظ على مروءته معظّم عند الخاصّة كتب لي إجازة بخطّه وختم عليها بختمه جزاه الله عنّي خيرًا . وهذا نصّها :

«الحمد لله الذي خصّ العلماء بالعلم النافع * وميّزهم بالنور الساطع اللامع * والصلاة والسلام على سيّدنا محمّد المشفع الشافع * القائل نظر الله أمره اسمع مقالتي فوعاها فأدّاها كما سمعها فربّ مبلغ أوعى من سامع فصار ذلك عليهم من الواجب لقوله عليه الصلاة والسلام — ليبلغ الشَّاهِدُ مِنْكُمْ

الْغَائِبَ (1) — وعلى آله الحنفاء وأصحابه الشرفاء ما جدّ العلماء في طلب عالي الأسانيد * وبذل وسعه في ذلك كلُّ ابنٍ لَهُم والحفيد *

أمّا بعد فلمّا منّ الله عليّ بالعالم * الفاضل والجهبذ الأديب الكامل * [170] [170]
حاوي الفضائل والمفاخر * ووارث العلم كابر عن كابر * من شاع فضله في الأقطار * واشتهر اشتهار الشمس في رابعة النهار * الأخ الذي هو في كلّ فنّ فريد * السيّد محمّد الحفيد * ابن المولى ذي الشمائل الحسان * السيّد عثمان بن العالم الكبير * والفهّامة النحرير قاضي قضاة المسلمين * وناصر شريعة سيّد المرسلين * السيّد محمّد السنوسي التونسي * تغمّده الله برحمته * وأعاد علينا وعلى المسلمين من بركته * ظننّا فيّ خَيْرًا لما أنَّهُ فَاضِلٌ نَبِيهٌ * كما قيل المُؤْمِنُ مِرْآةُ أخيه * وَطَلَبَ مِنِّي أن أجيزه في جميع ما تجوز لي روايتُه . وَبِمَا تَضَمَّنَهُ ثَبْتُ جدّي المرحوم ذي الفضل المدرار * العلاّمة الشهاب أحمد العطّار * فأجبته لذلك * وإنْ لم أكُنْ مِمَّنْ سلك هاتيك المسالك * لرجاء دعوة منه صالحة * وبركة من هذا البيت لائحة *

فأقول : «قد أجزت الفاضل المذكور بجميع ما تجوز لي روايته * وتنسب إليّ درايته * من سائر الفنون والعلوم * المنطوق منها والمفهوم * وبجميع ما تَضَمَّنه ثَبتُ جدّي المرحوم * كما أجازني بذلك أشياخي الكرام * والأساتيذُ العظام * من هو أجلّهم عندي * سيّدي وسندي وعضدي والدي المرحوم الشيخ حامد العطّار عليه رحمة الملك الغفّار * وهو يرويه عن أشياخ معتبرين * وأئمة متفنّنين * من أجلّهم والده المرحوم الشيخ أحمد العطّار * وأسانيد جدّي المرحوم مذكورة في ثبته ولنا سند عال بصحيح الإمام البخاري فأتَبَرَّكُ بذكره وأقول : «أروي صحيح البُخارِي بالإجازة عن شيخنا المرحوم الشيخ داوود البغدادي وهو يرويه عن الشيخ محمّد عابد عن الشيخ محمّد صالح الفلانيّ عن الشيخ محمّد بن سنّة عن الشيخ أحمد الفحل عن قطب الدين النهرواني عن

(1) حديث شريف .

أبـي الفتوح بابا يوسف الهروي عن محمّد بن شاذبخت عن أبـي لقمان الختلاني
عـن الفريـري عن إمـام المحدّثيـن البخـاري رضـي الله تعـالى عنـه . هـذا
[171] وأرجو من [171] المجاز أن لا ينسانـي وأولادي من صالح دعواته في خلواتـه
وجلوته ولا سيّما الدعاء بالعفو والعافية وحسن الختام . حرّر في سابع ربيع الأوّل
سنة ألف وثلاثمائة (1) قاله أحقر الورى بكري بن حامد العطّار الشـافعي
القادري عفـي عنـه .

المعلّم بطرس البستاني

هو المعلّم بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبي شديد ابن محفوظ بن أبي محفوظ البستاني ولد في قرية الدبية من إقليم الخروف في جبل لبنان سنة 1819 مسيحية (1) . وافتتح تعلّم العربي والسرياني على الخوري ميخائيل البستاني . ثمّ أرسله المطران عبد الله البُستاني إلى (2) عَيْن وَرَقَة فأقام بها للتعلّم عشر سنين قَرَأ فيها النحو والصرفَ والعروضَ والتاريخَ والبيانَ والحسابَ والمنطقَ والجغرافيةَ واللغةَ السّريانيةَ واللاّتينيةَ والطّليانيةَ والفلسفةَ واللاهوتَ الأدبيَّ والنظريَّ ومبادىءَ الحقّ القانوني .

ثُمَّ تَحَوَّلَ إلى بيروت فقرأ فيها العبرانيةَ واليونانيةَ والانقليزيةَ . وتَصَدّى للتعليم في عين ورقة إلى سنة 1840 مسيحية (3) قدم إلى بيروت على حين كانت أساطيل الدول مجتمعة بها لإعانة الدولة العثمانية على إخراج إبراهيم باشا بن مَحمّد علي باشا خديوي مصر الأول فاستخدمه الانجليزيون ترجمانا ثمّ تعرّف ببعض قسيسي الأميريكان فانضمّ إلى تعليمهم اللسان العربي وترجمة الكتب العربية .

---

(1) يوافق : 1235هـ.

(2) بالأصل : أعلى .

(3) يوافق : 1256هـ.



المعلــم بطرس البستــاني

وفي سنة 1846 (1) ولي التعليم في مدرسة الدكتور كُرنيليُوس فَان دِيكْ بعد أن بذل العِنَايَةَ في إعانته عَلَى إقامتها وفيها ألّف كتابه كشف الحجاب في علم الحساب . وألّف كتابا في النحو العربي سمّاه **بلوغ الأرب في نحو العرب** . ثمّ ولي وظيفة [172] الترجمة بقنصلاة أميريكا من بيروت . [172] واشتغل مع عالي سمت في ترجمة كثير من أسفار التوراة . ثم ألّف قاموسَيْن في اللغة العربية وهما **محيط المحيط** به 2308 صفحات كبرى . **وقطر المحيط** به 2402 صفحات متوسّطة .

وفي سنة 1860 (2) أبدع النشرات التي سمّاها نفير سورية ثم في عام 1863 (3) فتح المدرسة الوطنية التي أسّسها على اتّحاد أبناء الوطن مع الحرية الدينية بحيث جمع فيها متباين القلوب بتباين الأديان والمذاهب على الصدق في جانب الدولة والوطن بأنّهم أبناء دولة واحدة ووطن واحد . ونال لفتحها نيشان الدولة مكافأةً له .

ثمّ إنه لَمَّا أتَمّ تأليف قواميسه وقَدَّمها للدّولة منحته النيشان المجيدي من الطبقة الثالثة مع جائزة نقدية . ثمّ في عام 1870 أنشأ صحيفة الجنان (4) على اسم ولده سليم ثمّ صحيفة الجنّة وكلتاهما جاء نشره في سائر الجهات .

[تنويه المؤلّف بقاموس بطرس البستاني : دائرة المعارف]

ثمّ في عام 1872 نشر في صحيفة الجنان ما خالج صدره وأراد إبرازه من تأليف قاموس يجمع جمع العلوم والحرف والصنائع والآلات وتراجم الرجال من

---

(1) يوافق : 1262هـ.

(2) يوافق : 1277هـ.

(3) يوافق : 1279هـ.

(4) صحيفة الجنان : اسم لمجلة سياسية علمية تاريخية تصدر مرتين في الشهر ، أنشاها بطرس البستاني في غرة جانفي سنة 1870 الموافق لآخر رمضان سنة 1286 ، وانطفأ سراج هذه الصحيفة في العام السابع عشر لظهورها . (راجع : الرحلة الحجازية ، ج 1 ص 107 . انظر : فيليب دي طرازي : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1933 ، ج 4 ص 164–165) .

كلّ صنف بحيث يحوي شرح جميع الموادّ والأعلام على الطريقة الإفرنجية المسمّاة أنسيكلوبدي . فكان هو أوّل من شرع هذا المنهج في اللسان العربي ما أراد تأليفه بالكوثر (1) ونشر إعلان الاشتراك فيه فتهافت الناس على مكاتبته وإجابته للاشتراك . وكنتُ ممّن كاتبه في ذلك العهد بعد أن اطلعتُ على عنوان الكتاب فكتبت إليه بما نَصُّهُ :

« نحمدك اللّهُمَّ يا مَنْ علّم آدم الأسماء * وخَصّ اللغةَ العربية بالفضل الأسمى * فكانت مظهر الإعجاز على يد نبيّك الأمين * الذي أنزلت عليه القرآن بلسان عربي مبين * فَصَلِّ اللّهُمَّ وسلّمْ عليه وعلى آله وأصحابه وأقربائه وأحبابه . أمّا بعدُ فحيث إنّ الحكمةَ ضالّةٌ حيثُ تُوجد تُلتَقَط * فعلى مَنْ هداه اللّهُ أنْ لاَ (2) يَتْرُكَهَا قَطُّ [173] وَإنْ تَباعَدَ عنها مكانه * أو [173]
تضايقت دونها أزمانه * وإذا كانت العزائم على مقدار العزيمة * والتواني عن المبادرة إلى نيل المعارف من الخصال الذميمة * فها أنا لم أزل ولعا بمطالعة صحف الأخبار * متشوّقا لأطروفات الأمصار * حتّى ألفيت في جنانها آية الكوثر قد أعربت عن غاية الأماني * وإذا هو من محاسن الخواجه عزتلو بطرس البستاني * فرأيت من ترجمته ما لم يقرّ ببعضه كلّ جائب * وعلمت به أنّ الليالي حبالى يلدن العجائب * فيالله درّه من كتاب جمع فأوعى * ويافوز من وجد في نفسه به ولوعا * فهو حسب من يلازم مطالعته بين الورى * إذ يلقى كلّ الصيد في جوف الفرا * (3) فإذا طابق الخبر المخبر * وصدق سنّ بكر ذلك الكوثر * فأنا لا أشكّ في أنّ جميع العالم سيقبل عليه * ويرجع في مهمّاته إليه * فأنا أهنيك أيّها العارف بهذا الكتاب * الذي سيظهر للأمّة العربية بالعجب العجاب * فإنّي وإن كنتُ ممّن بهم عناية بمطالعة الكتب المؤلّفة في القديم والحديث * لكنّني

---

(1) الكوثر : هو اعلان لكتاب دائرة المعارف وكان قصد بطرس البستاني ان يسميه بهذا الاسم وصدر هذا الاعلان ببيروت سنة 1874 في 14 صفحة . انظر بشأن تآليف بطرس البستاني المطبوعة : سركيس ، معجم ، ج 1 رقم 558–559 .

(2) أضفنا حرف : لا : كي يستقيم السياق .

(3) بالأصل : انورى . ومعنى المثل أن من ظفر بالفرا أي حمار الوحش أغناه عن كل الصيد .

ما سمعت عن القواميس العربية بمثل ذلك الحديث * ولذلك عندما راج حديثه من حولي * أجبت داعيه بقولي * : (من الكامل)

«قَدْ شَفَتْنِي رَنَّةُ الأزْمَانِ ... بِحَدِيثِهَا عَنْ مَجْمَعِ العِرْفَانِ
فَسَمِعْتُ بُلْبُلَهَا بِرَوْضِ جِنَانِهَا ... مُتَرَنِّمًا يَشْدُو عَلَى الأَغْصَانِ
فَحَلَلْتُ منهُ بخَيْرِ بُسْتَانٍ سَمَا ... مِنْ أزْهُرٍ وَفَوَاكِهٍ أَلْوَانِ
وَقطفْتُ ما يُبْرِي المشوقَ فبِتُّ في ... طَرَبٍ أَمِيلُ كَمَيْلَةِ النَّشْوَانِ
حتّى وَرَدتُ هناكَ كَوْثَرَهُ الذي ... عَذُبَتْ مَذَاقَتُهُ لِكُلِّ لِسَانِ
فطفِقتُ أرْشِدُ كُلَّ خِلٍّ مُنْشِدًا ... قَوْلِي لَهُ رِدْ كَوْثَرَ البُسْتَانِي

فعليك أيّها المؤلّف بالمبادرة لنشره * حتّى تنتشق عابق نشره * لا سيّما أنّ [174] ديمته بما يمكنكم استحضاره من صور من ذكرتم من المشاهير * [174] الذي تذكر ونحو أولئك الجماهير * فإنّ ذلك من أعظم مطلوبنا * وأجمل مرغوبنا * وَإذْ أعلمتنا بأنّك ترغب في تراجم أعيان هاته الديار * فأنا أولُ من يساعدكم بذلك على البدار * ونرجو أن تعدّني في زمرة المشتركين فيه * ونحن ملتزمون من شروط الاشتراك بما تصطفيه * حرّره العبد الضعيف * محمّد السنوسي خادم العلم الشريف * في 15 [جويلية] (1) سنة 1874 الموافق لجمادى الثانية سنة 1291 » .

ثمّ إنّه عدل عن تسمية هذا القاموس بهذا الاسم وسمّاه دائرة المعارف فأبدع فيه ما شاء . وقد ألّف مصباح الصرف وتمرينه وترجم سياحة المسيحي وتاريخ الإصلاح وتاريخ الفدا . وله من الخطب في الأغراض العجيبة ما شكره عليه لسان جميع الأمم . وقد ترأّس على الجمعية الانجليزية ونال العضوية في عمدة الكنيسة وعضوية جمعية سورية العلمية الأولى والثانية وعضوية الشرف بالمجمع الشرقي العلمي .

---

(1) بالأصل : في 15 سنة 1874 : دون ذكر لاسم الشهر فأضفناه لاستقامة المعنى .

ولمـّا دخلتُ بيروت (1) كان هو أوّلَ من لاقيتُ منه برّ الكرام بحسن الإكرام وذلك لما أن بعض مكاتيبي التي سبقتني من تونس إلى بيروت وردت ضمن مكاتيبه . فكان في انتظار قدومي . وقد اجتمعت به أوّلا في بيته بعد أن لاقيت من إقبال ولده سليم حسن المعاملة . ودعاني لحضور مكتبه دائرة المعارف والأكل عنده . وكان الطبع جادّا (2) في المجلّد السابع وهو بصدد تأليف المجلّد الثامن .

[اعتناء الصحافة اللبنانية بكتب المؤلّف]

ولما حضرت بمكتب الدائرة عرضوا علي ما كتبوه في الحسينيين أمراء تونس حيث إنّهم اختصروا ذلك مما نجز طبعه من تأليفي مسامرات الظريف(3) فساعدتهم على تصحيح ما كتبوه هنالك كما ساعدتهم على كتب ما حضرني في ترجمة الأمير علي باشا باي حيث إنّه استقرّ في ذلك العهد على كرسيّ الإمارة وبادر ابنه سليم لنشر ذلك في [175] صحيفة الجنّة كما نشر فيها خبر [175] حضوري إلى بيروت واقتفت أثره في ذلك بعض الصحف العربية مثل ثمرات الفنون وغيرها ممّا تقدم ذكره في الكلام على بيروت (4) .

ثم نشر قصيدتي التي في المخترعات الجديدة بصحيفة الجنان وأفردوها بالطبع ووجّهوها لي بعد إيّابي لتونس غير أنّي وجدت بها شيئا من التحريف فاضطررت إلى إعادة طبعها بالمطبعة التونسية على الوجه الصحيح ونشرتها صحيفة الرائد التونسي عدد 27 من عام 1301 (5) .

---

(1) كان دخول المؤلف إلى بيروت في يوم الاثنين 5 ربيع الاول سنة 1300 الموافق 15 جانفي سنة 1883 . انظر : الرحلة الحجازية ، ج 2 ص 210 .

(2) بالأصل : جـاد .

(3) هو كتاب مسامرات الظريف بحسن التعريف في تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس المحمية . المطبعة الرسمية . تونس 1309/1891 . 304 ص .

(4) هذا الذي تقدم ذكره في الكلام على بيروت : انظره في الرحلة الحجازية ، ج 2 ص 208–276.

(5) هذه القصيدة منشورة بصحيفة الرائد التونسي عدد 26 لا 27 بتاريخ 28 جمادى الثانية 1301/ 24 أفريل 1884 . وقد أثبتها المؤلف بالجزء الاول من هذه الرحلة : ص 108–136 .

وقد اقترح عليّ يومئذ مؤلّف الدائرة مساعدته ببعض التراجم فأجبته لذلك . وقد رأيت من جدّه في خدمة الدائرة مع كبر سنّه ما تعجّبت منه غير أنّه مع ذلك قال لي : « لولا اعتمادي على ولدي هذا — مشيراً إلى أكبر بنيه سليم — ما قدمت على التأليف في هذا الغرض الذي يستدعي شباباً وعمرا جديداً» لكنّ الله أبى (1) إلاّ أنّ ولده المذكور لم يتعاط منها بعد والده سوى بقية الجزء الذي تركه ومبدأ الجزء الذي بعده واخترمته المنيّة أواخر سنة إحدى وثلاثمائة وألف (2) .

وقد رأيت لوالده المعلّم بطرس من الغيرة على اللسان العربي ما يقصر عنه التعبير بحيث إنّه جعل من شروط المدرسة الوطنية تعلّم اللسان العربي كلّ متعلّم من الإنجليز والأمريكان فضلا عن الترك والفرس . ونجح في ذلك المقصد أيمن نجاح .

وقد فارقته شاكرا منه حسن الجدّ وكمال الاعتناء ولطائف المعاملة . وقد كانت وفاته أوّل يوم من أيار عشية سنة 1883 مسيحية فجأة في مكتبته بسبب مرض في قلبه وذلك موافق لرجب الأصبّ سنة 1300 (3) وقد نعته جميع الصحائف العربية ونشرت أخبار جدّه واعتنائه . ولما بلغني خبر وفاته كتبتُ إلى ولده مكتوب تعزية وفي ضمنه بيتان وهما قولي : [176] (من الطويل) [176]

وَقَائِلَةٍ مَالي أرَى اللَّيْلَ حَالِكاً   كأن لم يكُنْ يوْمٌ مضى وَهومُشْمِس
فَقُلْتُ لِبَاسَ الحزْنِ قد صَارَ ضَافِياً   عليهِ غَدَاةَ امتدَّ بِاللَّحْدِ بُطْرُس

(1) بالأصل : أبـا .

(2) ولد سليم البستاني سنة 1848 وتوفي سنة 1884 .

(3) الملاحظ أن أيار هو شهر ماي وأن أول يوم منه هو الثلاثاء ويوافق 23 جمادى الثانية سنة 1300 . انظر ترجمة بطرس البستاني : فيليب دي طرازي ، **تاريخ** ... ج 1ص 89—92 . انظر أيضا : سركيس ، **معجم** ، ج 1 رقم 557—559 .

السيد سعدي زاده رشيد أفندي

هو الشيخ رشيد بن داوود بن سعدي بن محمّد أمين بن سعد الدين بن مصطفى بن أحمد الموصلي ثمّ البغدادي . ولم يكن اجتماعي به في هذا السفر بل إنّه ممّن ساقه إلى تونس القدر . فحظينا منه بالاجتماع بعد ان استقرّ بنا النوى وشرّفني بإجابة الدعوة على كرم وارتفاع . وبما أنّ حضوره كان في أثناء تحريري لهاته المسودات رأيت أن أحليّ بذكره بياضها فنقول :

« إنّ الشيخ أحمد بن مصطفى المذكور ولد بالموصل ونشأ بها نشأة أبيه وجدّه من قبله في فضل علم بيتهم حتّى كان شيخ القرّاء وعلى منواله نسج ولده مصطفى . وأمّا المولى سعد الدين فكان من الأولياء المشهورين ومزاره بالموصل مقصد الزائرين . ولما تزوّج سعدي وكان عمره ستّ عشرة سنة أذنه والده (1) بالخروج من الموصل فدخل بغداد وقرأ بها ونال إجازات الشيوخ وتصدّى بها لبثّ العلم إلى أن توفي سنة 1264 (2) .

ونشأ ولده داوود في خدمة العلم فقرأ على الشيخ محمود الألُوسي ومفتي بغداد وعالمها الشيخ محمّد فيضي الزهاوي . وَعَنْهُ أخذ الإجازَةَ . ولمّا ثارت قبائل نجد على الدولة العثمانية نهض لها الشيخ داوود سعدي زاده فسكّن

(1) بالأصل : ولـده .
(2) يوافـق : 1847–1848 .

ثائرتهم وظهرت مزيته للدولة العثمانية فأفاضت عليه المعاشات الجزيلة وارتقى إلى عضوية مجلس ادارة الولاية في بغداد إلى أن توفي في شعبان سنة 1297 سبع وتسعين (1) ودفن بمقام داوود الطاوي .

وقد وُلد صاحب الترجمة سنة تسع وستين ومائتين وألف (2) ونشأ بين يدي والده وقرأ عليه في بغداد كما قرأ على الشيخ أحمد [177] السويدي وعلى مولاي إسماعيل مدرّس جامع الخفّافين وقرأ على الشيخ داوود النقشبندي وفي سنة تسع وثمانين (3) ولي قضاء البوكمال ثمّ قضاء العقراء ثمّ قضاء الهندية ثمّ قضاء النجب الأشرف ثمّ قضاء الكاظمية . وانفصل منها سنة 1300 (4) فارتحل منها إلى البصرة وديار بكر والهند . وخطب في مسجد زكرياء من بومباي ثلاثة أشهر . وعند رجوعه حجّ بيت الله الحرام ودخل مصر والآستانة وبها أخذ تدريس مدرسة الفضل من بغداد التي كانت بيد والده غير أنّه لم يلبث أن انتزعها منه مفتي بغداد الشيخ محمّد فيضي الزهاوي فارتحل إلى الشام وتونس وقصد زَنْجِبَار . [177]

وهو مشارك أديب منشىء شاعر ناشر حسن الأخلاق فصيح اللسان العربي والتركي مع يسير من الفارسي . وقد حضر عندي ليلةً سامرني فيها أحسن مسامرة . وفيها أنشدته قصيدتي التي في المخترعات الجديدة فاستحسن أسلوبها واستطرف معانيها وكتب إليّ في تقريظها بما نصّه :

« أهذه مرآة الكائنات * أم شمس معارف الكمالات * أم سماء فضل أشرقت بها أنوار العصر الجديد * فاستنار بنورها السالك في محجّة الحديد * وأوضحت عن سرعة مسير سلك التلّ في الآفاق * فترنّمت بالثناء عليها ألْسِنة العالم على الإطلاق * أبدع ناظمها وأحسن * وأحكم وأتقن * كيف لا

(1) يوافق : جويلية سنة 1880 .
(2) يوافق : 1852–1853 .
(3) يوافق : 1872–1873 .
(4) يوافق : 1882–1883 .

وهو ربّ الآداب * والآخذ بزمام فصل الخطاب * صاحب الفضل السني * سيّدي الشيخ محمّد السنوسي * لا زالت أفكاره تستخرج دُرر العلوم * وأقلامه تخطب على منابر الأنامل في المنثور والمنظوم *

وبعد فلمّا ثملت من سلاف معناها * وجال طرفي في منازه مغناها * رأيتُها قد عبق من طيب أذيالها أردان النسيم * فتلوت بلسان الترتيل والترنيم * :

[178] (من الطويل) [178]

« أقولُ لِخِلّي وَالمحَجَّةُ قد بدتْ بِثَوْبٍ جديدٍ في سُجُوفِ غَمَامِ
ألَمْ تَرَ سِلكَ التَّلِّ كَيْفَ تَرَنَّمَ وَيَطْرَبُ شَوْقًا مِنْ مديحِ هُمامِ

كيف لا يترنّم طربًا * ويهتزّ لعبًا * وقد طرزت وشي مديحه أنامل سيّدي العديمة النظير * في التحبير والتحرير والتسطير * فواللّهِ لقد أبكمتني تلك الفصاحة * وَأَسْكَتَتْنِي هاتيك البراعة المكسوّة بالملاحة * حتّى استنطقت لساني ليُعرب عن حسن وصفها فاستعجم * واستقدمتُ جواد قلمي للجري في هذا الميدان فأحجَم * إلاّ أنّني رأيت عدم مديحها لا يليق * وان كان نَسْجُ أفكاري غير صفيق * (1) فلقد غطس القلم في بحر الدواة * فاستخرج لِبُرعُمِه هذه الْخَرَزَاتِ * وبناء على أنّ مالم يدرك كلّه * لا يترك قلّه * قدّمتها إلى سيدي نمشي على استحياء * راجيا من لطفك (2) قبولها على ما فيها من الإقْوَاء * (3) والله يُبقيك للآداب ركنا * ويجعلك لذويه ملاذًا وحصنا * حرّره الداعي سعدي السيّد رشيد نائب الكاظمية سامحه الله » .

---

(1) صفيق : كثيف .
(2) لفظة : لطفك : بالأصل سبقتها لفظة : لظفها : مشطوبة .
(3) بالأصل : الأ قويـاء.



الشيخ محمد خير الله (محمد عبده)

الشيخ محمد خير الدين (محمد عبده) (1)

هو الشيخ أبو عبد الله محمّد بن عبده بن حسن خير الله المصري أصلة من الأكراد الرحّالة ونقلتهم الحروب إلى الشام ثُمّ إلى أرياف مصر وكانوا في ثلاث عائلات أقاموا مع ولي الله الشيخ عبد الملك . وعند وفاته أقاموا زاويته هنالك واشتهرت المنزلة بمحلّة نصر منذ مئات من السنين . ولم يزل آل بيت خير الله في تعاطي الفلاحة هنالك . وكانت ولادة صاحب الترجمة بقرية محلّة نصر من مديرية البحيرة أوائل سنة ستّ وستين ومائتين وألف (2) .

ونشأ هنالك وقرأ القرآن العظيم ثمّ خرج إلى بلد طنطا سنة 1279 (3) فأكمل قراءة القرآن وجدّده وقرأ الكفراوي على الأجرومية وشرح العشماوية [179] في الفقه على الشيخ علي العروسي ودخل بلد كنيسة أورين [179]
سنة 1282 (4) فتعلّق بالشيخ درويش (5) خضر شيخ الطريقة النقشبندية فلقّنه الذكر وارتاض بين يديه واختلى وتقلّب في فنون من الرياضة الصوفية وتوالت

---

(1) انظر أيضا ترجمته : رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده** ، ج 1 ط. القاهرة 1350/1931 . ج 2، ط : 1926/1344 . ج 3، ط. 1907/1324 .

(2) يوافق : 1849 .

(3) يوافق : 1862–1863 . انظر خبر خروجه إلى طنطة : رشيد رضا ، **تاريخ** ج 1 ص 20 وما بعدها .

(4) يوافق : 1865–1866 . كنيسة بلدة غالب سكانها من خؤولة والد محمد عبده .

(5) الشيخ درويش : هو أحد أخوال محمد عبده كان جلس إلى محمد المدني والد ظافر المدني وعنه أخذ الطريقة الشاذلية .

عليه الأحوال ورأى منها آثارا عجيبة . ومن أهمّها أنّه كان في صلاة الوتر فرأى رسول الله (صلــعم) مقبلا عليه جاعلا اللثام على ما دون فمه الشريف وسمع قائلا يقول : « وأخذت الشريعة من بين حاجبيه » إلى غير ذلك من المكاشفات التي تجلّت عليه بمصر القاهرة بعد تنقّله إليها .

وكان شيخه يكلّفه من التقشّف والرياضة في حال طلبه العلم الشريف ما سلك به مسلك أهل التصوّف . وفي أثناء ذلك قرأ بالجامع الأزهر (1) على الشيخ مبروك الدمنهوري شرح الأزهرية . وقرأ على الشيخ محمّد الروبي القطر وقرأ على الشيخ أحمد مروان شرح الشذور وقرأ على الشيخ ميرز محمّد علي الإيراني شرح الرضي في الصرف وعلى الشيخ زين المرصفي الكافي والصبّان في العروض وعلى الشيخ حسن الطويل رسالة بهاء الدين العامري في الحساب والهندسة وعلى الشيخ محمّد حسن الشامي السَّمَرْقَنْدِيَّة وعلى الشيخ حسين الطرابلسي الشذورَ وعلى الشيخ عبد القادر المازني الكفاية والدّردير من الفقه المالكي . وقرأ على الشيخ محمّد عليش شرح إيساغوجي وقرأ على الشيخ أحمد الرفاعي شرح جوهرة التوحيد ومختصر السعد وشرح المحلّي على جمع الجوامع . وقرأ على الشيخ محمّد البسيوني شرحي ابن عقيل والأشموني على الألفية . وشرح الملوي على السمرقندية ورسالة البيان للشيخ الصبّان وقرأ على الشيخ عبد الرحمان الشربيني المطوّل وعلى الشيخ إسماعيل الحامدي شرح التذكير الكبير على المختصر الخليلي من الفقه المالكي . وقرأ على الشيخ عبد الرحمان البحراوي الهداية [180] والأشباه والنظائر من الفقه الحنفي . [180]
وفي أثناء مدّة قراءته المذكورة أخذ عهد الطريقة الخلوتية عن الشيخ أحسن رضوان سنة سبع وثمانين (2) ولازم أورادها سنة واحدة ثم رجع إلى أستاذه الأوّل في الطريقة النقشبندية وبعد أن شدّد عليه اللوم عاد معه إلى التسليك ومنعه من الاجتماع مع الناس إلا لمجالسة القراءة .

(1) قرأ بالأزهر ابتداء من منتصف شوال سنة 1282/1864–1866 . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ج 1 ص 24 .

(2) يوافق : 1870–1871 .

وفي سنة إحدى وتسعين (1) أذن له بالاجتماع مع الناس ولم يزل الشيخ معه إلى أن توفيّ سنة أربع وتسعين (2) وفيها دخل صاحب الترجمة إلى الامتحان العلمي وتقدّم للتدريس بالأزهر فأقرأ بالأزهر شرح الشذور وإيساغوجي والقطب على الشمسية والعقائد النسفية وشرح الجلال الدواني على العقائد العضدية وشرح الشيخ المذكور شرحا سلك به مسلك التوفيق بين الخلافات. وقرأ الجامع الصغير والبخاري وألّف رسالة الواردات في وحدة الوجود على مذهب الصوفية. ولازم مع ذلك جميع دروس الشيخ جمال الدين الأفغاني (3) وختم عليه جميع الكتب التي اقرأها في بيته بمصر وسلك مسلكه في كيفية الإقراء ونشر هاته العلوم الحكمية بين علماء الأزهر.

غير أنّ بعض الشيوخ أنكروا عليه درس العقائد النسفية ورموه بالاعتزال ودعاه الشيخ محمّد عليش وسأله عن سبب جرأته على إقراء العقائد. فقال له: «سبب ذلك هو فهمي إيّاها وقدرتي على تفهيمها». فقال له: «إنّ الناس يقولون إنك معتزلي». فقال له: «إنـي أعرفُ من الناس بعقيدتي وأنا والحمد لله سنّي وردودي على المعتزلة في هوامش كتبي تشهد لي بذلك». ثمّ جرى له في ذلك كلام ليس من العلم في شيء ورفعت النازلة للشيخ العبّاسي شيخ الأزهر وكان متبصّرًا فأشار على الشيخ محمّد عبده بترك درس العقائد النسفية الذي أورث الضغائن [181] سيّما والناس لا ينظرون إلى الحجّة وهم يأخذون في [181]
ذلك بما ينقل عن الشيخ عليش من غير تَرَوّ (4) وانْ لَمْ يصدر منه القول عن تَرَوّ أيضا وانحسمت النازلة بترك الدرس (5). وفي سنة 1295 خمس

---

(1) يوافق : 1874–1875.

(2) يوافق : 1877–1878. في هذه السنة عرض محمد عبده نفسه على مجلس امتحان شهادة العالمية في 13 جمادى وابتلي في الامتحان أشد البلاء لتعصب الأكثر من أعضائه مع الشيخ محمد عليش. أنظر : رشيد رضا، **تاريخ**، ج 1 ص 102–103.

(3) جاء الأفغاني مصر أواخر سنة 1870/1286 وصاحبه محمد عبده من ابتداء شهر المحرم سنة 1287/أفريل سنة 1870. انظر : رشيد رضا، **تاريخ**، ج 1 ص 24.

(4) بالأصل : تروي.

(5) للاطلاع على تفاصيل هذه النازلة انظر : رشيد رضا، تاريخ ج 1 ص 133–135.

وتسعين (1) تعيّن للتدريس في دار العلوم ومدرسة الألسن فأقرأ في دار العلوم مقدّمة ابن خلدون وكتب على منوالها أصول التاريخ وتأثير الحوادث في سياسة العالم كتابة جليلة . وأقرأ بعض كتب النحو في مدرسة الألسن (2) .

ولمّا خرج الشيخ جمال الدين من مصر أخرّته الدولة عن وظائفه وأخرجته إلى بلاده من الريف في شهر رمضان سنة 96 ستّ وتسعين (3) فأقام هنالك ورجع إلى مصر في المحرّم سنة سبع وتسعين وفي جمادى الاولى (4) دخل في تحرير الوقائع المصرية وفي شوال أنشأ لائحة إدارة المطبوعات وقلم الوقائع . وفي ذي القعدة تولّى رئاسة قلم تحرير الوقائع فأقام عليها سنة .

ثمّ لما ولي شريف باشا رئاسة الوكلاء أولاه مدير المطبوعات العربية والتركية في ذي الحجّة سنة ثمان وتسعين (5) مع بقاء رئاسة التحرير . ولمّا انتهت الحرب بوقائع أحمد عرابي في شوال سنة تسع وتسعين (6) عزل عن جميع وظائفه وامتحن فيمن أصيب من علماء مصر ووقّف مدّة أربعة أشهر (7) وجرى عليه التحقيق غير أنّه لـمّا لم يكن له ذنب سوى كمالاته العلمية لم ينله ما نال غيره بل إنّه لم يقع استنطاقه على الوجه الذي كان يطلبه حيث حرّر بقلمه أعمال جميع أعضاء الدولة التي باشرها بنفسه وأدّى شهادته بها وبأسرارها (8)

---

(1) يوافق : سنة 1878 أي في شهر ديسمبر عين محمد عبده مدرسا للتاريخ في دار العلوم ومدرسا للعلوم العربية في مدرسة الألسن فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس في الجامع الأزهر

(2) تأسست مدرسة الألسن سنة 1835 ومديرها رفاعة رافع الطهطاوي منذ تأسيسها إلى أوائل عهد الخديوي عباس الاول . انظر : أحمد عزت عبد الكريم ، **تاريخ التعليم في عصر محمد علي** ، طبعة القاهرة .

(3) يوافق : أوت سنة 1879 .

(4) يوافق : أفريل 1880 .

(5) يوافق : نوفمبر 1881 : انظر خبر عمل محمد عبده في ادارة المطبوعات والجريدة الرسمية : رشيد رضا ، تاريخ ، ج 1 ص 137–140 .

(6) يوافق : أوت 1882 .

(7) اتهم محمد عبده في الثورة العرابية فسجن وحوكم بجريمة العصيان ولكن ظهر بعض حقه في المحاكمة فحكم عليه بعد سجن ثلاثة أشهر وايام بالنفي من القطر المصري مدة ثلاثة أعوام . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 266 .

(8) بالأصل : واباسرارها .

على أكمل وجه بناء على ما كان مشهوراً من أفكاره في تخطئة كثير من أعمال أحمد عرابي التي تعجّل بها الحصاد قبل الإثمار . وغايته أنه أطلق وأخرج من مصر في ربيع الأوّل سنة ثلاث عشرة مائة (1) فتوجّه إلى بيروت وأقام بها
أحد عشر شهراً إلى أن تواصلت الأخبار بينه وبين أستاذه الشيخ [182] [182]
جمال الدين الأفغاني من باريس فسافر إليها في صفر الخير سنة إحدى وثلاثمائة وألف (2) . وحيث انجرّ الحديث إلى ذكر هذا الأستاذ نذكر هنا ما علمنا من ترجمته .

---

(1) يوافق : جانفي سنة 1883 .
(2) يوافق : ديسمبر سنة 1883 .



الشيخ جمال الدين الأفغاني

الشيخ جمال الدين الأفغاني

هو الشريف الوزير الشيخ جمال الدين الحسني الأفغاني ولد في بلد كابل قاعدة الأفغانستان بعد الستّين والمائتين والألف (1) ودخل إلى المكتب وعمره نحو الثماني سنين بعد تعلّم الخطّ . وخرج وعمره (2) ثماني عشرة سنة وقرأ في كابل جميع الكتب التدريسية من المعقول والمنقول حتّى الطب والرياضيات .

وبعد استكمال القراءة دخل في عسكرية الأفغانستان على عهد الأمير دوست محمّد خان مؤسس الملك في بيتهم مدّة سنتين تدرّب فيهما على الفنون العسكرية . وخرج مع الأمير المذكور لفتح هراة وافتكاكها من يد العجم فحضر فتحها مع الأمير . وتوفّي الأمير هنالك وكان معه ولده محمّد أعظم خان بهراة . وعند وفاته تمّت البيعة لأكبر بنيه وليّ عهده الأمير شير علي خان (3) واستوزر رفيق خان فأشار عليه بسجن مَنْ يخشاه من إخوته وهم في عدد كثير . وكان أخوه محمّد أفضل خان يومئذ في بلخ فأرسل إلى حاكم بلخ بسجنه .

---

(1) كذا بالأصل ، والصواب ما أثبته رشيد رضا في كتابه تاريخ الاستاذ الامام محمد عبده في ج 1 ص : 27 حيث قال : ولد السيد جمال الدين في قرية أسعد آباد من قرى كنر سنة 1254هـ . انظر ترجمة السيد محمد بن صفدر الحسيني الأفغاني : دائرة المعارف الاسلامية ، ط 2 ج 2 ص 427–430 . انظر أيضا : الزركلي ، **الاعلام** ، ج 7 ص 37 .

(2) بالأصل : وخـرج عمـره .

(3) كان ذلك سنة 1280/1263–1864 . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 28 .

ولمّا ظهر منه ذلك اتّفق أخوه محمّد أعظم مع الشيخ جمال الدين على الفرار فأخذوا خمسة عشر خيّالا وأسرعوا إلى بلخ واتّفقوا مع حاكمها وعقدوا البيعة للأمير محمّد أفضل خان بعد إخراجه من السجن فبايعوه على إمارة الأفغانستان نحو سنة خمس وسبعين ومائتين وألف (1) وتجهّزوا لاستخلاص البلاد من يد عمّال شير علي خان واستولوا على غزنة وذهبوا إلى كابل فاستولوا عليها . كلّ ذلك بتدبير الشيخ جمال الدين ولم يزل شير علي مقيما في هراة وكرسي الإمارة تحت محمّد أفضل وقام بالأمر بعده أخوه [183] [183]
الأمير محمد أعظم خان واستوزر الشيخ جمال الدين . وكان معه على الغاية من الألفة والمودّة مع غاية الملازمة والأخذ بالرأي والحزم مدّة ثماني سنين دامت فيها الحرب مع شير علي خان وتقلّب فيها محمّد أعظم على جميع بلاد الأفغان سوى هراة .

وكانت عساكر محمّد أعظم تحت قيادة ابنه محمّد عزيز خان وعمره نحو العشرين سنة وهو محاصر لهراة . كما أنّ عساكر شير علي خان تحت قيادة ابنه يعقوب خان في حماية هراة . وفي ذلك الوقت رأى الشيخ جمال الدين أن يتوجّه إلى صانبطرس بورغ لاستخلاص الافغانستان لمخدومه فحدث في نفس مخدومه خوف منعه به من إرساله .

وحين طال الحصار على هراة رأى محمّد عزيز أن يهاجم المدينة لأخذ عمّه فاقتحم حصونها في مائتين من العسكر فقط اخترق بهم المدافع ودخل إلى نفس محلّ المدافعة وقتل أحد الطوبجية وثبت على مدفعه بنفسه فتسلّمت عساكره بقية المدافع وأخذ يعقوب خان سردار جيش هراة في الفرار بمن معه لانقاذ والده . وفي تلك الحال حانت منه التفاتة فرأى عدد حماة ابن عمه قليلا فنادى بمجموعة وأعاد الكرة والتحم القتال وقبض على محمّد عزيز خان وانجلت الواقعة بانتصار يعقوب خان .

---

(1) كذا بالأصل وهو تاريخ يوافق سنة 1858—1859 . والملاحظ أن هذا التاريخ لا يوافق السياق اذ أن هذه الاحداث جرت بعد سنة 1280/1863—1864 .



محمد يعقوب خان أمير أفغانستان سنة 1882

وبعد ذلك أخذ محمّد أعظم خان في تدارك خرق لا يرقع وجعل سردار عساكره ابن أخيه وهو عبد الرحمان خان بن محمّد أفضل خان . وأخذ يعقوب خان في إفشاء الدسائس مع حُكّام بلدان الأفغانستان وانتشر شيئا فشيئا والإمارة يتقلّص ظلّها . ثمّ قامت الحرب على ساقها بعد استمالة جميع قواد محمّد أعْظم وعمّاله وتقدّم يعقوب خان بعساكر والده إلى أن أحاطت عساكره بكابل ولم يبق من عساكر الأمير محمّد أعظم مع عبد الرحمان سوى اثني عشر ألفا من الخيّالة رأى وزيره [184] الشيخ جمال الدين أن يخرج بهم لمنع الحصار [184] فلم يجبه الأمير لذلك وآل الأمر إلى وقوع قتال قرب كابل انهزم به جيش محمّد أعظم وَفَرَّ هو بمن بقي معه من العساكر إلى بلاد العجم . وفرّ عبد الرحمان إلى بخارى وسمرقند تحت حماية الروس فأقام هنالك نحو الاثنتي عشرة سنة إلى أن دعاه الانقليز للقيام بإمارة الأفغانستان سنة سبع وتسعين ومائتين وألف (1) وأعطوه أربعة ملايين ليرة ليصرفها في لمّ شعث الإمارة حتّى يقوم بحفظها للفصل بين الروس والهند . فانتهزها فرصة وقام بأعباء ملك أبيه وجدّه أحسن قيام قطع بها مطامع كلا الفريقين .

وأمّا الشيخ جمال الدين فعندما تحقّق فرار الأمير محمّد أعظم خان استتر بظلام الليل وفرّ راجلا إلى هراة ووصلها بعد يومين . فاقتحم الدخول إلى مجلس حُكْم شير علي حين تصدّيه لمعاقبة أهل كابل ومن انضمّ إليهم أشدّ عقاب . وكان شاكي السلاح مُلثّما حتّى دخل لديوان الحكم وتَعَهَّدَ الجلوس إلى جانب الأمير شير علي خان وكشف لثامه فلمّا رآه الأمير قال له: « ما حملك على الميل لذلك الخبيث » يريد أخاه فلم يتهيّب أن قال له : « يا أمير صاحب إنّ أخاك رجل كنت معه على الصداقة وحيث ذهب فان شئت كنت معك كذلك». ووضع يده على طبنجته وقال له : «ولا تظنّ أنّه يمكنك أن تفعل بي ما أنت فاعله بغيري » .

(1) يوافق : 1879—1880 .

وعند ذلك نهض أحد أعمام الأمير وقال له : «إنّ الشيخ احتدّ بحسب حرارة شبابه وأنتم على علم من بيته وحيث إنبيت الشيخ بيت الشرف في الأفغانستان لم يكن للأمير أن يصنع معه سوءا» . فأقام ثلاثة أشهر وطلب الإذن بالخروج للحجّ فشرط عليه أن يكون سفره على طريق الهند وأصحبه بعساكر إلى بشاور فأقام بها نحو شهر وأنكرته حكومة الانجليز فجاء إلى مصر أواخر سنة ثلاث [185] وثمانين ومائتين وألف (1) وأقام بها نحو الأربعين يوما . [185]

وتوجّه إلى الآستانة فأقام بها معظّما . وتعاطى علم الهيئة الجديدة من المؤلّفات التركية مع تحسين أفندي ورفع منزلته الصدر الأعظم علي باشا وولي عضواً في مجلس المعارف (2) مدّة سنة ونصف طلب في أثنائها أن تعطيه الدولة العثمانيّة العليّة بيده فرمانا بأنّه في مقام الثقة منها ويتعهّد به أن يطوّع لها جميع الهند بدون أن تصرف الدولة على ذلك ولو دانقا فامتنعت الدولة من ذلك وقال له حنيف باشا « إنّ عدم طلبك للمال هو الذي منع من الإجابة خشية أن تفتح الهند لنفسك » فقال له « ولو أمكنني ذلك ما طلبت الفرمان ولئن يكن الهند لجمال الدين خيرًا من أن يكون للإنقليز » .

[خطاب جمال الدين الأفغاني في افتتاح دار الفنون بالآستانة]

وفي شهر رمضان سنة ستّ وثمانين (3) طلب منه صفوة باشا ناظر المعارف يومئذ أن يتصدّى للإقراء بجامع السلطان محمّد الفاتح فامتنع لكثرة لغط الواعظين هنالك . ثمّ لما أحضرت الدولة دار الفنون التي أعدّتها لجميع

---

(1) كذا بالأصل ، أما رواية رشيد رضا فهي كما يلي : فارتحل على طريق الهند سنة 1285هـ. بعد هزيمة محمد أعظم بثلاثة أشهر . انظر : تاريخ ، ج 1 ص : 29 .

(2) كان ذلك بعد ستة أشهر من دخوله الآستانة . انظر : رشيد رضا ، تاريخ ، ج 1 ص 30 .

(3) يوافق : جانفي سنة 1869 .

الصنائع وتعيّن ناظرها منيف أفندي (1) طلب منه ناظر المعارف تحرير خطاب لافتتاح دار الفنون . فأنشأ الشيخ جمال الدين خطابا عجيبا تكلّم فيه على انتظام العمران البشري وشبّه فيه الهيأة الاجتماعية لنوع الإنسان بهيكل شخص واحد وجعل جميع الصنائع الموجودة بمنزلة أعضاء لهذا الهيكل فاستوفى تشبيه جميع الصنائع بالأعضاء التي تركّب منها الإنسان حتى خطوط الكفّ شبّه بها صناعة.

وبما أنّ موقع هذا التشبيه من الغرابة بمكان نذكر ما سألنا عنه مثلا شبّه صناعة الفلاحة والزراعة في الاجتماع البشري بالكبد في البدن الإنساني حيث الكبد
هو المربي للدّم الذي يصل إلى القلب ومنه يجري في جميع الأعضاء .[186] [186]
وشبّه صناعة التجارة بالرجلين اللذين يسعى بهما الإنسان ليأتي بحاجته البعيدة لنفسه . وشبّه صناعة الحدادة باليدين اللذين بهما يقع تناول الأشياء اذ الحديد هو الذي منه الآن التناول. وشبّه الملك بالمخّ الذي هو مصدر التدبير والشعبذة بالقيالات إلى غير ذلك ممّا استقصى به جميع الصنائع القديمة والحديثة استقصاء ينبني على ثقوب فكر وقوّة تخيّل وتضلّع في أصول المعارف والصنائع .

وبعد أن استكمل تركيب هذا الهيكل من أعضاء الصنائع قال إنّ هذا الهيكل لا تمكن حياته إلاّ بروح وروحه إمّا الحكمة أو النبوة وبينهما فروق إذ الحكمة مكتسبة والنبوة غير مكتسبة والنبيّ لا يقع منه خطأ والحكيم يخطىء والنبيّ معصوم والحكيم تطرأ عليه مفاسد الأخلاق إلى غير ذلك ممّا أعجب به في خطابه وألقاه بنفسه في موكب الافتتاح بمحضر جميع الوزراء والعلماء وزعماء الصنائع . وصفّق له جميعهم تصفيق الاستحسان .

وحيث إنّ الشيخ جمال الدين في مجلس المعارف طلب تخفيف مرتّب مشيخة الإسلام الذي هو ألف ليرة في الشهر وصرّح بأنّ إعطاء هذا

(1) كذا بالأصل . أما رواية رشيد رضا فهي كما يلي : حتى كان رمضان سنة 1287 فرغب إليه مدير دار الفنون تحسين أفندي أن يلقي فيها خطابا للحث على الصناعات . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 30 .

القدر من دخل الدولة ممّا لا وجه له سيّما والخطط العلميّة مَبْنية على مراعاة الحقوق الدينية وجد عليه من ذلك شيخ الإسلام حسن فهمي أفندي فانتهز في الشيخ جمال الدين فرصة الخطاب المذكور . ولمّا خرج من الموكب قال إنّ جمال الدين جعل النبوّة صناعة من الصنائع وبثّ ذلك في صنف العلماء . فأعلنوا في مجالسهم بالتشنيع على ذلك .

وبما أنّ الخطاب موجود بيد رجال الدولة وهم الذين صفّقوا له تصفيق الاستحسان طلب الشيخ محاكمة شيخ الإسلام وكتب بذلك للصدر الأعظم فامتنعت الدولة من ذلك مراعاة [187] لناموس الدولة وصنف علماء البلاد وبعد كلام طويل تشدّد فيه الشيخ جمال الدين بطلب المحاكمة صدر له الإذن بالسفر إلى جدّة في ظرف ثلاثة أيّام ليقيم هنالك أشهرًا إلى أن تسكن الفتنة . وعند ذلك أشار عليه صافي أفندي بالتوجّه إلى مصر . [187]

[دخول جمال الدين الأفغاني مصر]

فدخلها في المحرّم سنة سبع وثمانين ومائتين وألف (1) وأقام بها عشر سنين أقرأ بها في بيته كتابًا من التركي في الهيأة الجديدة ورسالة الزوراء للدوّاني في وحدة الوجود وشرح إيساغوجي للفنري وعقائد النسفي والمبيدي على الهدّاية والقطب على الشمسية وإشارات ابن سينا وحكمة العين وسلّم العلوم في المنطق وشرح المطالع وتلويح الأصول وتذكرة الطوسي في الهيأة والجقميني والعروس البديعة في فنّ الطبيعة حضر جميعها الشيخ محمّد عبده والشيخ عبد الكريم سلمان والشيخ وفا زغلول والشيخ داغر إبراهيم والشيخ سعد أفندي زغلول وأمين أفندي رضى وإبراهيم أفندي اللقاني وغيرهم .

(1) كذا بالأصل ، والملاحظ أن رواية رشيد رضا في هذا الصدد كما يلي : وحمله بعض من كان معه على التحول إلى مصر فجاء إليها في أول المحرم سنة 1288 . انظر : **تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده** ، ج 1 ص 31 .



الخديـوي توفيـق

[أسباب طرد جمال الدين الأفغاني من مصر]

وفي أثناء إقرائه كان بصدد التنبيه على اتّحاد الإسلام والقيام بحقوق الحرّية الدينية . وسرت تلك الأفكار في طائفة من العلماء ورجال الدولة إلى أن كان مجلس النوّاب في الدولة المصرية وصار عُمَدُ الأعضاء يجيلون الرأي مع الشيخ جمال الدين في النوازل مدّة الوزيرين الأجنبيين إلى أن استعفى نوبار باشا (1) مع أنّه كان مُتّفِقًا مع توفيق على أبيه إسماعيل ولو بقتله غير أنّه باستعفاء نوبار لم يبق لتوفيق سَنَدٌ وَأمْرُ إسماعيل قَدْ قُضِيَ. فنهضَ الشيخُ جمال الدين لتدارك الأمر وتوجّه بنفسه إلى تريكو قنصل الفرنسيس (2) وقال « إنـي أتيتك بالنيابة عن أهل الوطن » وتكلّم معه في تعيين توفيق بوجه المناصحة حتّى قال لَهُ [188] إنّه إن لم تكن الولاية له يصير عزل إسماعيل [188]
في خطر من الأمّة المصرية وتَحْدُثُ في النازلة عراقيل لا ترضاها الدول فتَمّ الأمر لتوفيق بسبب ذلك حتّى إنّه في يوم البيعة قال للشيخ جمال الدين في ملئه « إنـي ليس لي سنـد سـواك » .

غير أنّ بعض الناس لمّا بلغهم صنيع الشيخ جمال الدين تكلّموا في نيابته الوطنية التي ادّعاها عند قنصل فرنسا . وخاضت جرائدهم في ذلك بما سَهَّل لعُصْمَان باشا وغيره من المزدحمين على مطامعهم طريق السعاية بالشيخ مع توفيق حتّى خافه . وكان يومئذ لقنصل الإنقليز (3) على الشيخ أيضا بقيّة مما أثرته رسالته التي سمّاها «البيان» في الانقليز والأفغان حيث نشرتها المطابع المصرية وتمّ الاتّفاق على إخراجه من مصر في الثالث عشر من رجب (4) .

---

(1) نوربارباشا (1825—1899) أرمني من رجال السياسة في مصر ساعد على تحريرها من سيادة الأجانب وأخصهم تركيا . كان من السعاة في تحقيق مشروع فتح ترعة السويس . انظر أسفله صفحة 205 وما يليها .

(2) انظر أسفله صفحة 206 وصفحة 207 .

(3) هو فيفيان قنصل انقلترة العام ، سعى في السيد الأفغاني لدى الخديوي توفيق .

(4) يوافق : جويليـة سنة 1879 .

غير أنّ شريف باشا لم يرض ذلك وكادت أن تُخفق مساعيهم غير أنّهم ما زالوا يُخيفون توفيقاً ويراقبون حركات الشيخ إلى أن تحرّرت لائحة مجلس النوّاب بتحرير الشيخ جمال الدين مع شريف باشا رئيس النظّار ولم يقبلها الخديوي واستعفى شريف باشا فكان الشيخ جمال الدين في ثالثة الليالي راجعاً من بيت محمّد العطّار إلى بيته بعد نصف الليل بساعتين من ليلة سادس رمضان سنة ستّ وتسعين (1) فأخذه الضبطية من الطريق وقابلوه بعصمان باشا رئيس الضبطية وقال له : « إنّ أفندينا خائف منك أن تقتله » وسافروا به إلى السويس ولم يأخذ شيئا من أمتعته . وهنالك أخذوا منه جميع ما فوقه حتّى سبحته

[تأسيس جمعية العروة الوثقى]

وبعد ثلاثة أيّام ورد الإذن بسفره فاختار السفر إلى الهند فتوجّهوا به إلى كراتشي من المراسي الهندية أربعة عشر يوماً في ثوب واحد بعد أن عرض [189] عليه قنصل إيران في السويس أحمد النقادي [189] مائة وخمسين ليرة امتنع من قبولها . فأقام أربعة أيّام في كراتشي ثمّ وضعت الحكومة الإنكليزية عليه مراقبين فتوجّه إلى حَيْدَرْ آباد الدكن وأقام بها ثلاث سنين وأشهراً كتب فيها ضدّ الدهريين في الهند (2) . وسعى في جمع وحدة الإسلام مع النوابين والراجوات والعلماء والأعيان وأسّس العروة الوثقى (3) .

ولمّا ظهرت حادثة أحمد عرابي بمصر وقال « إن الهند يجيبني إذا ناديت » أحسّ الإنقليز من هذا التهدّد وأخذوا بطرف الحزم وقبضوا على

(1) يوافق : 24 أوت سنة 1879 .

(2) هي رسالته في نفي مذهب الدهريين .

(3) أسس الأفغاني العروة الوثقى سنة 1882 بكلكته والعروة الوثقى جمعية سرية على غرار الجمعيات الماسونية التي انخرط فيها قوم من أعيان المسلمين مثل الامير عبد القادر والسيد الأفغاني ومحمد عبده . راجع : جوميي ، **تفسير المنار** (بالفرنسية) ط. باريس 1954 ص 5 . راجع أيضا : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ص 428 .

الشيخ جمال الدين ونقلوه إلى كلكوتا موقوفا خشية وقوع مواصلة بينه وبين أحمد عرابي . وكلّما استنطقوه هل تعرف أحمد عرابي قال أعرفه . فيسألونه هل بينكما مواصلة أو مكاتبة فيجيب بلا إلى نهاية الوقائع المصرية بخروج أحمد عرابي (1) .

[إصدار الأفغاني وعبده صحيفة العروة الوثقى بباريس]

وقد حصل تأسيس العروة الوثقى في كلكوتا وعند ذلك أذنوا للشيخ بالسفر على شرط تعيين الجهة فاختار لندرة وتوجّه لها ليعتصم بها في إحكام العروة الوثقى فلم يجد هنالك ظهيرًا فسافر منها بعد إقامة اثني عشر يومًا إلى باريس ودخلها في صفر سنة ثلاث عشرة مائة (2) . ووجد بها ظهيرًا على ما أراده فانضمّ إليه تلميذه الشيخ محمّد عبده بعد سنة ومن بينهما صدرت صحيفة العروة الوثقى (3) على أحكم أسلوب وقع من النفوس أعظم موقع وعندما وصلتنا إلى الحاضرة التونسية كتبت في ذلك بما يوافق الغرض . وهذا نصّ ما كتبته :

[رسالة المؤلّف في التنويه بصحيفة العروة الوثقى]

« ماذا يقول لسان أمّة فؤادها عليل * قد منيت أطوارها بالتبديل * وتلاشت منها القوى * وعظم بها الوجى * فأصبحت رهينة آلام * أوهت منها قُوّة الاعتصام * تَطْرِفُ (4) جَمَحَاتُها (5) إلى مَنْهَلِ (6) العزّ

(1) بخصوص أخبار أحمد عرابي ، انظر أسفله صفحة 203 .
(2) يوافق : ديسمبر سنة 1882 . وبالأصل كذا : سنة ثلاث عشرة مائة وألف .
(3) أصدر الأفغاني ومحمد عبده مجلة العروة الوثقى ما بين 13 مارس 1884 و16 أكتوبر 1884 . ونشر من هذه الجريدة ثمانية عشر عددا فقط . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ج 1 ص 33 .
(4) طرفت عينه : تحركت بالنظر .
(5) جمح الرجل اذا ركب هواه وأسرع إلى الشيء فلم يمكن رده .
(6) **بالأصل** : نيهل .

القديم * مستكفّة نحو شاحِطِ ما شخص من ذلك الأديم * لاستطيع إليه
[190] نهوضا وقد رأت [190] حبل اعتصامها به منقوضا * وعزّ دواؤها * وأحاط
بها أعداؤها * وعدمت النطاسي الماهر * الذي تحتاجه للإبقاء على ما بقي لها في
الظاهر * وتطامحت إليها أعناق الأطماع * وامتدّت لها الأعين بجميع وجوه
الاستطلاع *

هذا وولاتها أفضوا بجنوبهم إلى فرش الارتياح * بما يبعدون به عن موجبات حمل السلاح * إخلاداً لما تنقص به ممالكهم من أطرافها * ويضع من نفوس أشرافها * فأناطوا حبل رجائهم بأيدي الأعداء * واعتاضوا الأدواء من الدواء * وخانهم الأمل وضعف العمل * فأصبحوا وَسَاءَ صباحُ المنذرين * تَنْتَهشهم مخالب ليوث العرين * فالرأس فيه واضحة * (1) والجوارح أصابتها جارحة * وبقية الجسد بين جائفة ومرضوضة * ونفس متأوّهة ودموع مغضوضة * لا يعرب عن ألم فؤادهم * لسان ملوكهم وقوّادهم * إلا بما يضاعف عليهم الويل* ويجلب عليهم السيل * إلى حيث صاروا أخرس من جماد * وأذلّ من منفرد الأوتاد * اقترضوا الأموال فاستعبدهم أرباب الديون * (2) وعدموا منافع ثروتهم في السهول والحزون * وأخلدوا إلى الملذّات * فبدلت حسناتهم بالسيّئات * وأضاعوا جميع موجبات الإرهاب * من الاستعداد الذي جاء به الكتاب * فاستضعفهم أولو القوّة بما يقضي بالعجب العُجاب * وأخلطوا سياسة الدين بسياسات القوم الآخرين * فأصبحوا عَنْ كِلاَ الطريقين متنكّبين * وسقوا نشأة أبنائهم * بماء التعليمات التي ليست من مائهم * (3) فقذفوا من عروقهم زعاقا (4) وأدخلوا به على أهل ملّتهم تفرّقا وشقاقا *

---

(1) الوضح : بياض القمر والغرة والتحجيل في القوائم والشيب والبرص .

(2) يشير المؤلف إلى تفاقم الديون وعجز الميزان التونسي وانتصاب الكومسيون المالي في عهد وزارة مصطفى خزنة دار (1853—1873) . راجع : ابن أبي الضياف ، **الاتحاف** ، ج 5 ص 73—140 . تونس 1964 .

(3) اشارة إلى تطور التعليم على غير ما يرضاه المؤلف .

(4) الزعاق : الماء المر لا يطاق شربه .

وتلوّن أولو الأمر في أثواب ليست من زيّهم * فزادوا في الأمّة غيّاً على غيّهم * واضطرّوا إلى أطوار * جلبت عليهم الأغيار [191] والأكدار * بالاحتياج إلى الحماة والنظار * (1) في أكثر الأصقاع والأمصار * فاستسهلوا إضاعة الأمّة * واستسلموا لقيادة الأعشى في ليلة مدلهمّة * إلى أن أصبحوا طعمة للطامعين * ومطعنا للطاعنين * لا يذكرهم الذاكرون * إلاّ بِمَا هُمْ لِمَذَمَّتِهِ لاَ يُنْكِرُونَ * ولا نجد لهذا الداء من علاج * ولا لِمُغْلَقِ ذلك الباب من انفراج * وَيَاطَالَمَا سَمِعنا من وراء الحجاب * صكّة مستفتح من منشيء الصحائف العربية من ذوي الآداب * فيكشف الغيب على أنّها جعجعة ليس فيها طحين من طعام * وما هي إلاّ ما نسمّيه بالمصطيك (2) الكلام * فيبتدؤونها بالتوجيه وزخاريف المقال ويجعلونها مصائد لحطام الأموال * ولا يلبثون أن تذهبَ ريحهم * ويخرس فصيحهم * فلا يعود يسمع نبيحهم * [191]

وتلك شنشنة سقطت بها هِمَمُ أربابها * واجتنوا ثمرة مَذَمَّتها وعتابها * كيف والأمّة العربية في هذا الزمان * محتاجة إلى لسان * يعرب عن الداء الذي تكنّه في الجنان * وينقذها من الانقياد إلى العميان * بل إنّها إليه أحوج من حاجتها إلى الماء والهواء * إذ لم تجد بدونه متنفّسا ولا مساغا للارتواء . حتّى أتاح هذا الدهر بصاحب العرض الأنقى * هذا الهاتف الذي صدع للأمة باسم العروة الوثقى * (من الطويل)

لَئِنْ دَجَتِ الأحْلاَكُ بِالْغَيْهَبِ (3) الأبْقَى
وَضَلَّتْ حُلُومٌ بَعْدَ أنْ طُرِقَتْ طَرْقَا

فَقَدْ وَضَحَ الصُّبْحُ الَّذِي بَانَ عِنْدَمَا
أُنِيطَ جَمَالُ الدِّينِ بِالْعُرْوَةِ الوُثْقَى

---

(1) يشير المؤلف إلى انتصاب الحماية الفرنسية بتونس سنة 1881 .

(2) كذا بالأصل . وهي لفظة دخيلة من الفرنسية معربها : المطاط .

(3) الغيهب : الظلمة .

العروة الوثقى لا انفصام لها * والمشرب الأنقى تبلغ به الأمّة أملها * ناهيك به من عروة يستمسك بها أهل الهدى * ويتّقون بها الرّدَى * ويُنيطون بها أمل الحياة فلا يذهب سعيهم سُدًى * قد ارتجّت لرجفه (1) [192] أصقاع [192]
الإسلام * واحتجّت لمقدّماته العقلية فصحاء الأعلام * ولو أنّ أهل النهى (2) من رجال السياسة * راعوا أشكاله وقياسه * لما وقع المتهافتون في أشراك الاضطراب ولأبقَوْا على أنفسهم منفعة الصحبة والاقتراب * ولكن لِلّـه فينا علمُ غَيْبٍ والكلُّ إليه صائر * يستوي في مآله جازع وصابر * أمّا نحلة النصائح التي أصْبَحَتْ بَيْنَ الأمّة موروده * وكشفت عليها بفصاحة منشئها المعهودة * فهي الصبغة التي لم يبلغ إليها سواه * وعُقْلَةُ (3) المُسْتَوْفِزِ (4) إذا أراد أن يَطِيبَ بمدحها قَلَمُه وفاه * آيَةٌ ويَالَهَا من طريق اهتداء في مجاري السياسات * التي تنكّبها أهل الرياسات * أعذبُ في اللسان من المراشف * وأطربُ للأسماع من نغمات المعازف * وأورقُ للأبصار * من مُحَيًّا وسيم زَانَه العِذَارُ * (5) ومن مُخْضَلّ النبات المكسوّ بجميل الاخضرار *

ما شئت من أصول العمران * وقواعد تمدّن نوع الإنسان * وتنبيه الغافلين من أهل الحضارة في البلدان * وجمع كلمة أهل الإيمان * بما يتّحدون به للتعاون على مدافعة ذوي العدوان * وما شئت من تحذير وإنذار * يقع موقع الاعتبار * من نفوس أهل الاستبصار * يبرز في قوالب شتّى * لا ترى فيها عوجا ولا أمْتًا * (6) وما هو إلاّ طَوْرٌ في باب البلاغةعزيز * يفوق على خالص الإبريز * خلّد به مُنْشِئُهُ لنفسه ما خلّده الأحزمون * وبذّ بحسن

---

(1) رجفه : حركه شديدا . الرجفة : الزلزلة .
(2) بالأصل : النها . والنهى جمع نهية وهي العقل : نهية نهى .
(3) العقلة : ما يربط به كالقيد .
(4) استوفز في قعدته : قعد غير مطمئن وكأنه يتهيأ للوثوب .
(5) العذار : الحياء .
(6) الأمت : المكان المرتفع .

موقعه على ما ألحم (1) نسجه ابن خلدون * فجاء نسيج وحده في كلّ غرض * يفي للمقصد بالمسنون والمفترض * نسج على أبدع منوال * ممّن استولى على قصب السبق من أهل الكمال *

ولعمري إنّ صحيفة محرّرها الأوّل الشيخ محمّد عبده ومديرها السياسي الشيخ جمال الدين الأفغاني * لَحَرِيَّةٌ بأن تكون أصل أصول جميع
المباني * [193] يَتَجَبَّرُ بها الصدع * ويجمل بها الصنع * فَهُمَا ما هُمَا * [193]
ومَا أدراك مَاهُمَا * رَبْعُهُمَا بكلّ خير قَدْ هَمَا (2) * ونفعهما قد عَمّ تحت السماء * ولذلك برزت من بين يديها عروس الإنشاء * والفصاحة تختال بحسن الرجاحة * وتنشر في أصقاع العالم من آيات جمالها كلّ ملاحة .

ومَاذَا عَسَى أن يقوله القاصر فيها * والذي ملأ الأرض يكفيها * جاءت بالسحر الحلال * فراق موقعها عند أهل الكمال * فحيّاكُما اللّهُ يَا مُحْيِيَيْ (3) مَيْتَ الغيرة والحميّة * وأدام تعَاضُدَكُمَا لِمَا (4) يُثمِرُ خيرَ المصالح العمومية * قد أطلعني من نتيّمن من طليعته بالإقبال * على ثلاثة الأعداد الأول من هاته الصحيفة التي جاءت بغاية الآمال * بعد أن امتلأت أسماعي بالثناء عليها * ممّن تخيّرتموه كُفُؤًا إليها * فإذا مَخْبَرُهَا فوق الخبر * وشتّان بَيْنَ العين والأثر * سيّما وقد جاءت طبق ما يخالج الصدر من أماني النفوس * حتّى قلت بعد مطالعتها لاَ عِطْرَ بعد عروس * ورفضت لإقبالها ما سواها * ممّا لم تبلغ به الأمنية مناها *

وحدّثتني النفس * في ليلة أمس * أن نكون لكم مساعدًا بجهد المستطيع * وإنْ لم يدرك الطالع شأو الضليع * إذ كثيرًا ما نجد من حديث

---

(1) ألحم الثوب : نسجه . ألحم الشيء : لأمه . ضمه وشده .
(2) هما يهمو هموا : لغة في همى يهمي هميا الماء أو الدمع : سال لا يثنيه شيء .
(3) بالأصل : يا محييا ميت : وهو منادى مضاف ينصب لفظا وعلامة النصب في المثنى هي الياء .
(4) بالأصل : لـم .

النفس مقدّمات من تلك الأشكال * ولم نجد لها موقعًا من مواقع الحال * حتّى إذا رأيت آيتكم الكاملة * اشرأبّ لها ما في الأفكار الخاملة * فبادرت لكتب هذا المقال * عسى أن يكون وصلة وصال * تنشر في تلك الصفحات * مع الصفح عمّا يقتضيه استعجال البريد وتزاحم الأوقات * نسأل الله أن يديم هذا الصنع الحسن * منفعة عامّة إلى كلّ أبناء وطن * وأن يجعله سعيًا مقرونًا
بالنجاح * وأملا موصولا باليمن والفلاح * [194] وأن يكثر من أمثالكم في [194]
الافراد * ونرجوكم أن لا تقطعوا عنّا كل ما يصدر من الأعداد * والسلام من العبد الضعيف * محمّد السنوسي خادم العلم الشريف * وَفَّقَهُ اللّه » (1) .

[نشاط محمّد عبده في لندن]

واسترسل صدور العروة الوثقى مع ارتباك حوادث السودان في الديار وفي أثناء ذلك سافر الشيخ محمّد عبده إلى لندرة لاختبار أفكار الانقليزيين في المسألة . واجتمع هنالك بالحازم الغيور ميرزَبْاقِر مُسَمِّي نفسَه إبراهيم جاقم معطر وهو رجل أصله من مسلمي الأفغانستان وأخذه دعاة الدين المسيحي على صغره فتنصّر وحفظ التوراة والإنجيل وخرج في دُعَاتِهم سنين متطاولة ثمّ تعاطى القرآن فحفظه واهتدى به للرجوع إلى الدين القويم فعاد إلى الإسلام واعتنى بعلوم القرآن والتزم مجادلة القسيسين في عقائدهم وبالأخرة أقام في لندرة يخدم الترجمة في دواوين الدولة بين الفارسي والهندي والانقليزي ويقتصر من مدخوله على الضروري وباقيه ينفقه في طبع رسائل يؤلّفها في فساد عقائد النصارى وتصحيح عقائد أهل الإسلام يوزّعها بالقلم الانقليزي مجّانا .

(1) نشرت هذه الرسالة بحوليات الجامعة التونسية عدد 3 سنة 1966 . ص : 79–83 . (مصادر عن رحلتي محمد عبده الى تونس : المنصف الشنوفي)

وبلغ من أمره أنّه كاتب الملكة [ملكة الإنقليز] يوضّح لها صحّة العقائد الإسلامية . وقال لها حيث إنّك مستولية على ملايين المسلميـن من الهند يلزم أن تكوني على دينهم الحقّ أو أنك تتنازلين عن الولاية عليهم . وخاطب كثيرًا من الوزراء في الدعوة إلى دين الإسلام وبه توصّل الشيخ محمّد عبده للاجتماع بوزراء لندرة ومفاوضاتهم بما كشف لهم عن كون المصريين لا يرتضون ولاية الانقليز وأنّهم أصحاب علم ودراية بالحقوق المدنية عليهم في مجالس ذكر بعضها في صحيفة العُروة الوثقى .

[زورة محمّد عبده إلى تونس]

ورجع إلى باريس غير أنّه لما أصاب [195] أهلها مرض الكوليره خَرَجَ مُصَفِّفُ أحرف الصحيفة فعطلت وانتهز الشيخ محمّد عبده فرصة ذلك لدخول [195]
تونس فدخلها في التاسع عشر من صفر الخير (1) وتلقاه الأمير علي باشا باي في باردو وزار ولي العهد بسانيته في المرسى واستضافه الأخوان سيدي حسين باي وسيدي الناصر باي كما استضافه بالحاضرة كثير من أعيان العلماء .

وحضر عندي ليلة الأربعاء السادس والعشرين من صفر الخير سنة 1302 اثنتين وثلاثمائة وألف (2) . واسترسل اجتماعنا به إلى أن قضى موسم المولد الشريف . وسافر يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول (3) قاصدا التوجه على طريق مالطة ونابولي ثم إلى باريس. ورأينا منه أثناء ذلك من ثقوب الفكر وفصاحة اللسان وكمال الدراية واستحضار المسائل من العلوم العقلية ما تطابق المخبر والخبر . وأغنى بالعيان عن البيان مع له من الدهاء والتحنّك بالتجارب وحدة الذكاء وبداهة الجواب .

---

(1) هو يوم الاثنين 10 سبتمبر 1884 . (انظر : المنصف الشنوفي ، **مصادر** ... حوليات ... عدد 3 سنة 1966) .

(2) هو يوم الأربعاء 17 ديسمبر سنة 1884 .

(3) هو يوم الأحد 4 جانفي سنة 1885 .

ومن عجيب أمثاله أنّه أخبرنا عن بعض العلماء أنّه لمّا اجتمع به فاتحه في مسائل سياسية . فجرى معه في ميدانها . وبعد انفصال المجلس بلغه أنّ الشيخ أخذ يخبر بعض مجالسيه بخبر المجلس ويتنصّلُ من موضوعه ثمّ نقل لنا عن الشيخ جمال الدين قصّة القاعاني . وهي أنّه كان راكبا في بعض الليالي على حصان له في ليلة ماطرة مظلمة على سفح جبل وكان يسير الهُوَيْنَا خَوْفًا من الوقوع فضرط الحصان . ثُمّ لَمّا سمِعَ صوت ضراطه خاف منه فنكس ومن شدّة خوفه أعاد الضّراط وأعاد التنكّس واشتدّ خوف راكبه كلّما زاد ضرطا فجعل يخاطبه بشعر من الفارسي معناه : « يا حصان إن كنت تخاف من ضراطك لماذا تضرط ؟ وإن كنت ضارطا لماذا تخاف من ضراطك ؟ » ثمّ قال لنا : «إنّ مثل هذا الشيخ وحصان القاعاني سواء يضرط ويخاف من ضراطه ». [196] ولعمري إن بلاغة هذا المثل هي أجلّ موقعا في كثير من [196] أحوال من نراهم . ومع هاته المزايا التي رأينا عليها الرجل كان في غاية لطف الأخلاق والأدب والخبرة بأحوال السياسة الحاضرة وبذلك كانت جملة المجالس التي قضّيناها معه في أخبار الحوادث الحاضرة مع ما يستحضره لها من الأخبار التاريخية حتّى إنّ المرفّع الحازم سيّدي محمّد الناصر باي (1) لمّا سمع منه أسرار الحوادث المصرية كلّفه أن يحرّرها له على الوجه الإجمالي بما يعلم به سرّ ما هي عليه ممّا يعدّ من عجائب الحوادث . وهكذا كنّا نسأله عن غيرها من الحوادث فيجيب أحسن إجابة .

وكانت الحوادث المصرية من أهمّ حوادث مدّة سياحتي فلا شكّ أن ذكرها ممّا يهمّنا غير أنّي لمّا لم ندخل بلاد مصر ولم يكن لي أن نقف على حقائق ما جرَى في الحوادث بل في المسألة السودانية والمسألة المصرية رأيت الإضراب عن ذكرهما أولى لكن حيث أمكنت لنا رواية التعريف بحالي رئيسي الواقعتين وهما الشيخ محمّد أحمد والباشا أحمد عرابي التزمت أن نجعل ترجمتيهما في ذيل هاته الخاتمة استدراكا لما فات للاعتبار بما هو آت .

---

(1) تولى هذا الأمير العرش الحسيني من سنة 1906 إلى سنة 1921 . انظر : محمد الصالح مزالي ، **الوراثة على العرش الحسيني**، تونس 1969 . ص 41–42 .

الشيخ محمّد أحمد ونازلة السودان (1)

هو رجل ولد بدَنْقلة من بلاد السودان ونشأ بها وجمع القرآن وعلّمه للأطفال وارتحل إلى مصر في طلب العلم فقرأ بها سنتين ورجع إلى الخرطوم أوائل سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف (2) وكان عمره يومئذ يناهز الخمس والعشرين سنة . فولي وظيفة الكتابة في حكومة الخرطوم مدّة ثمّ استعفى واشتغل بتلقين الطريقة القادرية وتنقّل إلى فشودة [197] واجتمع عليه فقهاء [197]
القادرية في مديرية فشودة ومال إليه شيوخ قبيلة بقارة وكثرت عليه الجموع (3) كثرة حسده بها سلمه في مشيخة الطريقة هنالك . فسعى به إلى مدير فشودة بأنّ الرجل قد مال إليه جميع الناس ويخشى أن يظهر منه أمر يعيي الدولة . فأرسل المدير بذلك إلى حكمدار السودان إسماعيل باشا أيّوب يومئذ وذلك سنة 1297 (4) فأمره بأن يتوجّه إلى محمّد أحمد مائة وخمسة وعشرون عسكريًا وعند وصولهم إليه يحضر عنده قاضي المديرية وعلماء تلك الجهة يخاطبونه في أمر تلك الاجتماعات حتّى يتركها وَيَنْفَصِلَ عنه أتباعُه .

---

(1) انظر : بروكلمان ، **تاريخ الشعوب والدول الاسلامية** ، ص 341 .

(2) يوافق : 1866—1867 .

(3) راجع بخصوص الشيخ محمد أحمد ومسألة السودان وموقف الشيخ محمد عبده والسيد جمال الدين الأفغاني منها : رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام**، ج 1 ص : 370—382 .

(4) يوافق : 1879—1880 .

فاقتصر المدير على إرسال العسكر خاصّة ولمّا وصلوا لموضع اجتماع الفقراء [الأتباع] المذكورين فرّ الشيخ محمّد أحمد وأتباعه فنزل العسكر في منازلهم وذبحوا وأكلوا وناموا تلك الليلة. ولمّا علم الفقراء ما صنعه العسكر أتوا عليهم آخر تلك الليلة وأوقعوا فيهم مذبحة نجا منها من أنجاه الفرار .

وعاد الشيخ وفقراؤه إلى منازلهم وعند ذلك نبّههم الشيخ إلى أنّهم الآن صاروا في مشكل مع الدولة ولا يمكن أن تهمل أمرهم بعد ذلك . فاجتمع عليه رؤساء قبيلة بقارة وطلبوا منه الاجتماع على خلاصهم من مشكل الدولة . وفي أثناء مخابرة المديرية مع حكمدار السودان ومخابرته هو مع الدولة المصرية حضر موسم خلاص أداءات الدولة .

وَوَرَدَ العَسْكَرُ المتولّي خلاصها فامتنعت القبائل المجتمعة على محمّد أحمد من الأداء وقاتلوهم على ضعف قوّتهم فغلبوهم وعظم بذلك شأن جموع محمّد أحمد في نفوس القبائل . ولم تزل الحكومة السودانية تعالجهم بحركات ضعيفة زاد بها شطط القوم .

وعند ذلك أشاع أعداء محمّد من فشودة أنّه ادّعى أنّه هو المهدي وأرسلت
[198] الدولة بتولية رؤوف باشا حكمدار [198] على السودان على عهد وزارة شريف باشا وَوَالَوْا إرساليات العساكر إلى ان بَلَغَ عدد العساكر المرسلة خمسة عشر ألفا . ولم تزل النازلة على حالتها وأمر الرجل يعظم وكاتب خديوي مصر يتبرّأ من دعوى المهدية ويتنصّل ممّا رمي به ويعتذر بخوف الوقوع به .

ولمّا ظهرت الحادثة العرابية وانقلبت الوزارة أولت عبد القادر باشا حكمدارا على السودان . وحضر عند رئيس الوكلاء يومئذ محمود سامي باشا وأحمد عرابي باي فعاهدهما على القيام بإخضاع الشيخ محمّد أحمد . ورأى الخديوي توفيق باشا يومئذ أن تفاقم أمر نازلة السودان تضطرّ إلى توجيه العدد الكثير من العساكر فيقلّ بإخراجهم عدد أنصار أحمد عرابي باي ولربّما أفضى الحال إلى إرساله هو وأصحابه فتستريح منهم الدولة والبلاد ولذلك أحضر

عبد القادر باشا وطلب منه تقوية شأن محمد أحمد فعاهده على ضدّ ما عاهد عليه رئيس الوكلاء وسافر على العهدين وجرت أعماله على مقتضاهما بحيث إنّه إذا أرسل سرية إلى إخضاع محمّد أحمد أسرّ إلى رئيسها بأنّه إذا تلاقى مع السودانيين تقهقر بعسكره فيتبعونه .

ولم يزل السودانيون يقتربون بهاته الطريقة وعبد القادر باشا يستنجد العسكرية المصرية إلى أن وصل محمّد أحمد ومن منه إلى سنار وعند ذلك أرسل في يوم واحد تلغرافين إلى مصر أحدهما إلى نظارة السودان يخبر فيه بوقوع القبض على محمّد أحمد والثاني إلى المعيّة الخديوية يخبر فيه بأن محمّد أحمد قد اعتصم بجبل قدير .

ونشرت الوزارة خبر القبض في الجرائد والتلغرافات فإذا بوكيل شركة روتر التلغرافية نقل خبر المعيّة بالاعتصام . واختلفت المعيّة والنظارة واتّضَحَ الخلاف بين شخص [199] الخديوي ورئيس الوكلاء محمود سامي . [199]
وفي آخر الأمر اشتدّ طلب الحكمدار عبد القادر باشا للأسلحة والعسكر والذخائر لقصد تنقيصها من مصر لإضعاف أحمد عرابي من غير أن يستعملها في قتال أصلا .

وبعد نهاية الحرب استحالت أفكار الخديوي إلى حبّ إخضاع محمّد أحمد وصار ذلك هو سياسة المعيّة الخديوية حتّى إنّه في أثناء تحقيقات نوازل عرابي ادّعى الكاتب في مجلس النواب إبراهيم أفندي الهلباوي على الشيخ محمّد عبده بأنّ دليل عداوته للخديوي هو ما كان عليه من التكدّر عند ورود أخبار انتصار محمّد أحمد مدّة عرابي مثل تكدّر عرابي نفسه وعند ذلك أجابه بقوله « إنْ كانَ هذا ذَنْبًا فإن شاء الله يكون جناب الخديوي مسرورا باشتداد الفتنة وانتصار محمّد أحمد في هذا الوقت الذي هو وقت إرسال الجيوش لإطفائها وإخضاعه » .

وبعد نفي عرابي استدعى حكمدار السودان عبد القادر باشا سنة ثلاث عشرة مائة (1) . وكان مبلغ العساكر المصرية هنالك ثمانية عشر ألفا . وبعد أن انحلّت العساكر المصرية يومئذ وجُرِّد جميع ضبّاطهم من رتبهم توجّه علاء الدين باشا حكمداراً على السودان . وطلب الجنرال هيكس الانقليزي خمسة آلاف من العسكر ليتجهّزَ بهم تقوية للجيش المصري بالسودان حتّى يمكن له بذلك إخضاع محمّد أحمد فاضطرّت الحكومة لطلب العساكر للسودان وخافوا إرادة الغدر بهم وخافتهم الحكومة حتّى إنّها لم تسلّم لهم السلاح إلا بعد ركوبهم في البحر وسافروا بنيّة الانضمام إلى السودانيين .

وذهب بهم هيكس إلى الخرطوم وكان كثير التشكي من عدم انقياد ضبّاطهم إليه ومع ذلك زحف بعشرة آلاف من العساكر المذكورة وغيرهم على مديرية سنار جنوب الخرطوم وأخذ لذلك دليلا من السودانيين ليهديهم طريق مواقع اجتماع [200] السودانيين وكان الدليل من أنصار محمّد أحمد فطيّر إليه الخبر وسار بالجيش في طريق غير المراد وأتى بهم في مضيق بين جبلين وقال إنّه لا مندوحة عنه . [200]

وعند استكمال دخول الجيش كلّه في ذلك المضيق أحاط بهم السودانيون من أعلى الجبلين بالحجارة والنشاب والبنادق . وتبيّن أنّه لا يمكن العساكر أن يستعملوا مدفعا في ذلك المضيق فنزل عليهم السودان وجرت الملحمة مع شدّة سواد السودانيين بما بيّض وجه تلك المقتلة فذُبحَ هنالك هيكس وضبّاطه ومن انتصر له . وانضمّ أغلب أولئك العساكر المصرية إلى السودانيين واستأصلوا شأفة العدُوّ وكان ذلك في المحرّم سنة إحدى وثلاثمائة وألف (2) .

وكان محمّد أحمد يومئذ مقيما في عبير وحضَرَ المقتلة بعض قُوّاده إلاّ أنّهم أرسلوا له وحضر لمشاهدة مصارع القوم فوقف على شلو الجنرال هيكس

---

(1) يوافق : 1882–1883 .

(2) يوافق : نوفمبر سنة 1883 .

ينظرها وهو متّكئ على حربته وكافّة سواد الجنود يتواردون عليه بالتهنئة والتحيّة .

وبهذه الواقعة عظم شأن محمّد أحمد في نفوس السودانيين بل ونفوس أرباب الدول ولهجت بذكره جميع الصحف والتلغرافات . ثمّ خرج إليه فاكر (1) باشا في ثلاثة آلاف منهم ألفان من العسكر المصري وألف من تُوكَرَوَسَوَاكِنَ والتقى بعثمان دجمه أكبر قوّاد السودانيين فجرح فاكر باشا جرحا بليغا في تُوكر وقُتِل من جيشه نحو الاثني عشرة مائة .

وحيث إنّ اللورد دوفرين من وزراء الانقليز كان رأيه ترك النازلة وأنه أولى لدولته أن لا تتداخل فيها رجع إلى رأيه رجال الدولة بعد قتل هيكس وفاكر غير أنّ غُرْدُون باشا عند ذلك طلب من الدولة أن تحيل إليه السودان وَيَتَوَلّى هو إمارتها ويجعل لها حماية إنقليزية . ودخل إلى الخرطوم وسمّى نفسه ملك السودان وأعلن للسودانيين بإباحة بيع الرقيق . ثُمّ لَمّا رأى معاكسته ادّعى أنّه قدم نائبا [201] عن السلطنة العثمانية فأقامت الدولة عليه الحجّة وأعلنت كذبه . [201]

وبالأخرة حاصرته الجيوش السودانية في الخرطوم إلى أن استأسره محمّد أحمد بفتحها وأصبح القوّاد من السودان يتصرّفون في جميع الأنحاء بعد رفع أيدي المصريين والدولة الانقليزية في قلق من ذلك . وصارت غاية مطامعها أن تتّصل إلى الخرطوم وتكتفي بمحمّد أحمد إذا رأت ثباته وتقيم فرقة عسكرية في وادي حلفة للفصل بين مصر والسودان حتّى لا تسري عدوى السودانيين للمصريين .

---

(1) بالأصل : بايكر .

وعلى هاته الحالة دخلت سنة اثنتين وثلاثمائة وألف (1) نسأل الله أن يقدّر كلّ خير للاسلام بجاه النبيّ عليه الصلاة والسلام . وقتل غُردون أواخر ربيع الثاني من هذا العام (2) وفي أثناء عام اثنين وثلاثمائة وألف توفي محمّد أحمد (3) وقام مقامه أنصار لهم مزيد الاعتبار .



الجنرال شارل غردون (1833 ـ 1885)

(1) يوافــق : 1884–1885 .
(2) يوافــق : فيفري 1885 . والملاحظ أن بروكلمان جعل تلك الحادثة في ليلة مابين 25 و26 من شهر جانفي 1885 . انظر : **تاريخ الشعوب والدول الاسلامية** ، ص 344 .
(3) كانت وفاة الشيخ محمد أحمد في شهر جوان بعد مرض بحمى التيفوس أصابه قبل موته بأسبوع . انظر : بروكلمان ، **تاريخ** ، ص 344 .

أحمد عرابي باشا (1)

وُلد في هرية من مديرية الزقازيق من مصر وتعلّم القراءة والكتابة وأخذته الدولة للعسكرية أوائل دولة سعيد باشا بمصر في سنّ الثماني عشرة سنة وتدرّب وترقّى إلى أن صار قائمقام وعرف في جميع أحواله بالتُّقَى والصلاح مع ما يَمُتُّ به من الشرف الحسيني . غير أنه كان يومئذ لا يبالي بأوامر من فوقه ويستسهل المخالفة حتّى اتّفق في بعض الأعياد أنّ سعيد باشا رآه في صلاة العيد في أثناء العساكر الذين لا رتبة لهم مع أنّه من الرسوم أنّ كلّ واحد يقف في صفّ أهل رتبته . فسأله شفاها عن وجه وقوفه مع العساكر دون الضباط فلم يتهيّب أن قال له : إن الشريعة الاسلامية لا تميّز في الصلاة بين الضباط والعساكر. ونقمها عليه سعيد باشا وأخرجه من الخدمة . فأقام بمسقط رأسه إلى دولة إسماعيل باشا فأرجعه إلى [202] الخدمة على رتبته وهو لا يرى ترقيته إلى رتبة [202]
أخرى خشية مما هو عليه من عدم المبالاة . وبالأخرة رقّاه إلى رتبة أميرآلاي . وكان في جميع خدمته ممدوحا (2) بالصدق والخيرية والتثبّت وحسن الرأي إلى أن وقعت حادثة عابدين وكان في مقدّمة الضبّاط من العساكر وعمره يومئذ نحو الخمسين سنة .

---

(1) انظر : رشيد رضا ، **تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده** ، ج 1 ص 162 وما بعدها : الثورة العرابية .

(2) بالأصل : ممدوح .

وبعد ذلك تصرّف تَصَرُّفًا فوق رتبته -حتّى اضطرّت الدولة أن أسندت إليه وكالة الجهادية مدّة شهرين . ولما تعيّن محمود دهامي لرئاسة الوكلاء اتّفق الوزراء على انتخاب أحمد عرابي ناظرا للجهادية فوليها مع رتبة أمير آلاي في صفر سنة تسع وتسعين ومائتين وألف (1) .

واستمرّ على ذلك بل زاد شوطه وفتح على نفسه أبواب الأطماع بما رآه من خطابات حاشية السلطنة العثمانية وزاد في الخرق الاتّساع واعتمد في أعماله رأي أصحاب الفتاوي من العلماء مثل الشيخ محمّد عليش والشيخ حسن العدوي. وأخذ فتاوي منهم في خلع الخديوي حتّى قال بعض الصحف إنه طلب الإمارة بمهمّة الفقراء . لكن على كلّ حال كان الناس معه في أشدّ الالتئام سيّما وقد رأوا لأعمالهم مخايل نجاح .

ولم يزل أحمد عرابي على سيره المقرون بالعجلة — والعجلة بريد الزلل — إلى نهاية الحرب ووقوع القبض عليه هو وطلبة باشا وجرّدا من رتبتيهما وسجنا إلى أن تشكّل مجلس التحقيق وجرى استنطاقه مدّة أربعة أشهر أنكر في مبدئها كثيرا من أعماله وبالأخرة ورد له أفوكاتو [محام] من لندرة للمدافعة عنه لدى المجالس. وعند ذلك أظهر أحمد عرابي جميع ما بيده من المكاتيب التي من طرف السلطنة العثمانية وأوضح جميع ما كان من أسرار الخديوي معه وأسرار جميع رجال الدولة في ذلك . فرغبت الدولة في إخفاء جميع ما وقع وجرى الاتّفاق
على أشياء صورية وكتب له العفو الخديوي فتسلّمه وكيله [203] وعند ذلك [203]
حضر لدى المجلس فسئل عن بعض الأعمال المحيّرة لراحة البلاد فاعترف اعترافا صوريا وبمقتضاه حكم المجلس عليه بالقتل حكما صوريا وقبله قبولا صوريا ثمّ ورد الإذن بعفو الخديوي وإن شئت قل عفوا صوريا حيث إنّ رقيم العفو إذاك مختوم عليه بيد وكيله . فلم تبق من حاجة للارسال بالعفو الا صورة وأخرج أحمد عرابي إلى منفاه بسيلان في نحو العشرين من صفر الخير سنة ثلاث عشرة مائة (2) وأجرت له الدولة هنالك خمسين جنيها في كلّ شهر .

---

(1) يوافـق : جانفي سنة 1882 .
(2) يوافـق : ديسمبر سنة 1882 .



أحمد عرابي باشا

[ترجمة أحمد عرابي بقلم الشيخ محمّد عبده]

وحيث إنّ واقعة أحمد عرابي من أهمّ الوقائع المصرية وللصحف في أخبارها اضطراب وللنفوس إلى أسرارها تشوّف نثبت هنا تفصيلها على ما حرّره صاحب الترجمة بقلمه (1) وهذا نصّه ممتزجًا بشروحنا المعنونة فقلت :

«قال الشيخ عبده ما لفظه : «سبحان الله مقلّب الأحوال والحمد لله على كلّ حال والمسؤول منه أن يحوّل حالنا إلى أحسن حال . هذا مجمل ما يمكن سرده من الحوادث المصرية . اشتدّ ظلم إسماعيل باشا على الأهالي من بداية حكومته إلى نهايتها في نحو سبعَ عشرة سنة (2) حتى ضاقت منه الصدور ولم يبق للصبر مكان من النفوس . كان من سياسته الحمقاء أن يثقل كواهل البلاد بالديون الأوروبية ويفتح بابًا من العمل يلمسه الأوروبيون في بلاده لينتهي الأمر إلى عجز البلاد عن الأداء مع رضاء قلوب الافرنج عنه فتتداخل الدول لقطع خراج الباب العالي والحكم باستقلاله ملكا على ملك مصر وما يتبعه .

أعقب كلّ هذا أن عمدت الدول لمحاكمته في نفس بلاده وأخذت على يده بتشكيل مجلس التفتيش الأعلى للنظر في أمور المالية المصرية في سنة 95 هجرية (3) وكان من نتائجه تغيير هيئة الحكومة من استبداد صرف إلى نوع من الشورى وتشكيل وزارة تُسأل عن أعمالها [204] فاضطرّ إلى موافقة رأي [204]
الدول في ذلك . وتألّفت وزارة يرأسها نوبار باشا (4) ومن أعضائها وزير انقليزي للمالية هو ريفرس ولسون (5) ووزير فرنساوي للأشغال العمومية هو دوبلينيار (5) . هذا التغيير كشف شيئا من حجاب الوهم عن الأهالي

(1) محرر هذه الترجمة لأحمد عرابي هو الشيخ محمد عبده .

(2) بالأصل : سبعة عشر سنة . والملاحظ أن رشيد رضا لخص ما كتبه محمد عبده في أسباب الثورة العرابية . انظر : **تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده** ، ج 1 ص : 159–273 .

(3) يوافق : 1878 . والملاحظ أن هذه اللجنة مختلطة من وكلاء الدول لذلك سميت لجنة التفتيش العليا . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 74 .

(4) انظر ترجمته أعلاه آخر صفحة 187 تعليق رقم 1 .

(5) أفضى الارتباك الشديد في المالية المصرية إلى تأليف اللجنة المالية المختلطة وتعيين ناظر انقليزي للمالية وناظر فرنسي للاشغال العمومية . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 160 .

فعلموا أن الحاكم يمكن ان يُحكَمَ عليه وأنّ أهواءَ الآمرين قد يكون لها (1) حدّ تنتهي إليه فانطلقت الألسن بالشكوى : الوزيران الأجنبيان تصرّفا في عملهما على نمط أجنبي نفرت منه القلوب فصاح الناس والجرائد باسم الوطن والوطنيين .

وصادف ذلك رضى إسماعيل لتألّمه من مراقبة الوزيرين الأجنبيين . اجتمع مجلس النواب في سنة 96 (2) على القاعدة التي وضعها إسماعيل لاجتماعه في سنة 83 (3) الا أنّ القادرين على الكلام من أعضائه أقدموا على التصريح بأفكارهم . وكان أمرًا غير معهود . وبالجملة كانت هنيئة من الزمة يظنّ حاضرها أنّها من آنات الحرّية . كانت مرتّبات المتوظّفين في الملكية والعسكرية متأخّرة الأداء على اختلاف في المدد .

وقد حرجت صدور أرباب الحقوق وملّوا الحياة من العوز . هنالك انتهز الفرصة جماعة من العقلاء يقودهم رأي السيّد جمال الدين الأفغاني وكان بمصر ووجدوا الوقت مناسبا لعمل تنقذ به البلاد من ولاية إسماعيل وأخذوا في تدبير الوسائل لذلك وإن انتهت لإهلاكه دعوا بعض المتّصلين بهم من ضبّاط العسكرية منهم لطيف بيك سليم وسعيد أفندي نصر ابن الشيخ نصر الهوريني (4) وحسن أفندي رافت . وزيّنوا لهم أن يكتبوا شكوى يرفعونها إلى ناظر المالية من تأخير رواتب الضبّاط ويطلبوا فيها تأدية ما تأخّر لهم ويجمعوا إليهم في ذلك ما استطاعوا من إخوانهم ويكون تقديمها بالمواجهة يدًا بيد لا

(1) بالأصل : قد يكون حد . كذا . فزدنا : لها . ليستقيم السياق .

(2) يوافق : 1879 . والملاحظ أن هذا المجلس التأم في أوائل سنة 1296 في موج من التشويش شديد الاضطراب واتفق ان الحكومة لم تقدم إليه من المسائل التي تطلب نظره فيها الا ما لا قيمة له . فكثر الانتقاد على الحكومة ... وكانت هذه أول مرة ظهر فيها لبعض النواب رأي يخالف رأي الحكومة . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 160—161 .

(3) أبدع اسماعيل باشا مجلس الشورى سنة 1866/1283 وقيده في النظام والعمل فكان يقرر ما يوعز إليه بتقريره فظل الناس معه على اعتقادهم أنهم عبيد للحاكم لا رأي لهم معه ولا أمر . انظر : رشيد رضا ، **تاريخ** ، ج 1 ص 160 .

(4) كذا بالأصل .

بالمراسلة وأن يستعينوا في الرجاء ببعض [205] أعضاء مجلس النوّاب . فسعى الضبّاط لما زيّن لهم . وبعد أن كتبوا شكواهم قصدوا بها نظارة المالية في عدد يتجاوز المائة وعشرين ضابطا ومرّوا في طريقهم على مجلس النواب واستصحبوا بعض اعضائه ليكونوا شهداء أو شفعاء . [205]

طواف هذا الجمّ الغفير في شوارع المدينة حرّك الناظرين من العامّة لاقتفاء أثره ليروا ما يكون من عاقبة أمره . وكلّما زاد العدد زادت الرغبة في اتّباعه حتّى صارت الطرق محاشر لأصناف الناس لا يعرفون أين يذهبون . هنالك استيقظ في رؤوس الضبّاط خيال أقوى ممّا بعثهم على الشكوى .

على مقربة من نظارة المالية صادفوا ناظرها وِلْسُون ذاهبا إلى بيته فَسَأَلُوهُ الوقوف فأمر سائق خيله أن يسرع في المسير ويتناول بالضرب من يعارضه ففعل . فاندفع الغضب ببعض الضبّاط على وِلْسُون ووثب إلى العربة وركب معه وَعَتَبَهُ وَنَتَفَ شعرات من لِحْيَتِهِ وَشَارِبِهِ . فاستوقف العربة ورجع إلى النظارة قَسْرًا . وفعل بِنُوبَار (1) باشا كما فعل بولسون (2) ومن كان خلص إلى بيته من الوزراء أو بقي في نظارته دُعي إلى المالية . وطار الخبر لإسماعيل باشا فأسرع بالمسير إلى حيث الواقعة في فرقة من العساكر ونزل بنفسه بين الضباط الثائرين وسأل المقدّم عليهم لطيف بيك سليم « ما هذا العمل وما تريدون به » فاقتصر على طلب المرتّبات المتأخّرة فضمن لهم ذلك وأمر بانصرافهم . فانصرفوا ولو لم يجبنوا لخلّصوا منه البلاد والعباد وصارت مصر للمصريين (3) .

في مساء ذلك اليوم قبضت نظارة الداخلية على رؤساء الثائرين وأودعتهم السجن تحت المحاكمة . ثم حصل التخفيف في المناقشة وسعى كثير من الوجهاء

---

(1) رواية رشيد رضا كما يلي : ثار بعض قادة الجيش (على) بولسن ودبلنيير الوزيرين الاجنبيين وأوسعوهما ضربا واهانة . انظر : **تاريخ** ، ج 1 ص 47 .

(2) جرت حركة الضباط هذه يوم الأربعاء 18 فيفري سنة 1879 . انظر :
A.E. Egypte, Correspondance Politique, Agence et Consulat Général, Tome 64, p. 28. 1879. (Note Le Caire, le 24 mars 1879)

(3) ربما يشير محمد عبده إلى الحكم الجمهوري بهذا التمني .

في إطلاقهم وأطلقوا وعُفي عنهم . في ثاني يوم الحادثة طلب أحمد عرابي بيك وعلي بيك الروبي من إخوانهم أن يوافقوهم على الإحاطة بسراي عابدين وطلب خلع [206] إسماعيل أو عزل الوزيرين الأجنبيين ولكن لم يوافقهما أحد . بعد الحادثة تخوّف القناصل على رعاياهم فطلبوا من نوبار أن يضمن لهم أموال الأجانب وأرواحهم فأبى إلاّ أن يشركه الخديوي في الضمان . فذهبوا إلى الخديوي فأبى أن يحمل على نفسه العهد بالتأمين ما دام نوبار وزيرًا فاستعفى وخلفه في رئاسة الوزراء توفيق باشا الخديوي الحالي (1) وكان ولي العهد [206]

رأى الوزراء انحلال مجلس النواب وحملوا الخديوي على إصدار الأمر بانفضاضه إلى العام القابل وذهب ناظر الداخلية رياض باشا إلى المجلس لتبليغ الأمر فوجد بذلك إسماعيل سبيلا لاستعمال الأفكار الطائشة في مناوأة الوزراء وأعمل الدسائس بين النواب وزيّن لأرباب الرأي فيهم أن يعارضوا في انحلال المجلس ويلوموا على الوزارة في أعمالها. فتمّ له ما أراد ورفع النواب أمرهم إليه شكاية من الوزراء فقبل شكواهم وأوصى إلى أعوانه أن يجمعوا أعيان البلاد وأمراءها وعلماءها ليُنشِئوا لائحةً لنظام المالية ويضعوا أساسا تقوم عليه حكومة وطنية . ففعلوا ووُضِعَت لائحة من أحكامها أن أهالي القطر المصري يأبون وزارة أجنبي أيًّا كان في حكومتهم وأنهم يضمنون أداء الدين وفائدته على أنها مع الاستهلاك سبعة في المائة كلّ عام (2) وكان ولسون يطلب تخفيفا إلى خمسة وبناء على طلب الأهالي وهو في الحقيقة مطلبه الخاصّ عزل الوزيرين الأجنبيين وشكّلت وزارة وطنية تحت رئاسة شريف باشا .

ولما أعلن الوزراء منشوراتهم لقناصل الدول أجابوا بإقامة الحجّة على الخديوي في عمله هذا . ثمّ مضت فترة ظنّ الناس فيها أنّ إسماعيل قد فاز في تدبيره حتّى فاجأهم عارض السياسة باتّفاق الدّولتين فرنسا وانكلترا على

---

(1) هو توفيق بن اسماعيل : ولي خديويا على مصر من سنة 1879 إلى سنة 1892 . استوزر عرابي باشا ثم ألجىء إلى قبول التفتيش الانقليزي وتخلى عن سيادته على السودان سنة 1884 .

(2) انظر أسفله صفحة 208 .

[207] خلع إسماعيل وبعثت فرنسا بقنصل فوق العادة وهو مسيو تريكو (1) [207] وكانت له عداوة سابقة مع إسماعيل يَمُرُّ على الآستانة . وجاء إلى مصر وحمل إسماعيل على التنازل فتوقَّف أيّامًا مستندا إلى حماية السلطان . فأسرع الساعون في خلعه من أعيان البلاد وأنابوا الشيخ جمال الدين (2) في إبلاغ تريكو أن الأهالي ينتظرون خلع إسماعيل وتولية توفيق فان لم يكن كانت فتنة شديدة يعمّ خطرها جميع الأجانب . فتوجّه إليه وأزعجه بهذا البلاغ فعاجل السفارة الفرنسية في الآستانة . وبالمخابرة مع الباب العالي صدر الأمر السلطاني بخلع إسماعيل وتولية توفيق (3) .

تولّى توفيق خديوية مصر وللنّاس فيه آمال وطنية واشتغل النواب وعقلاء الأهالي بوضع قانون أساسي لحكومة شوريّة . وبعد أن أتمّوه رفعوه إلى توفيق ليأمر بتنفيذه وكان تقديمه بيد شريف باشا رئيس النظار فامتنع من قبول القانون فاستعفى شريف وألّف توفيق وزارة تحت رئاسة نفسه . وفي اليوم الثالث من رئاسته نفي الشيخ جمال الدين (4) .

ولما كانت المسائل المالية ذات مشاكل يعسر حلّها على فكر كفكر توفيق نصحه الناصحون أن يقيم له وزيرًا قادرًا على العمل فيها فاستدعى رياض باشا

(1) انظر وثائق وزارة الخارجية الفرنسية بباريس :
A.E. Egypte, 1879. dos 63 et 64

(2) ظهر للسيد جمال الدين أن الخديوي اسماعيل مخلوع لا محالة فكشف الغطاء عن مقاصده السياسية وأخذ يسعى في انفاذ أغراضه فلقي المسيو تريكو قنصل جنرال فرنسا ومكاتب التيمس وكلمهما بلسان حزب كبير . انظر : رشيد رضا ، تاريخ ، ج 1 ص 41 . (وذكر رشيد رضا في ص 75 من المصدر نفسه ما يلي : ذهب وفد من المصريين ومعهم السيد جمال الدين إلى وكيل دولة فرنسا وأبانوا له أن في مصر حزبا وطنيا يطلب الاصلاح ويسعى إليه وأن الاصلاح لمصر لا يتم الا على يد ولي العهد توفيق باشا .هـ.)

(3) انظر : أعلاه ص 187—188 . راجع أيضا :
M.S. Mzali et J. Pignon, Khérédine, Mémoires. Maison Tunisienne de l'Edition. 1971 p. 64-79, 89-97.
A.E. Egypte, 1879, dos 63-64

(4) انظر أعلاه صفحة 188 .

من أوروبا وولاّه رئاسة النظار فقام بالوزارة أحسن قيام وكفّ أيدي العدوان عن الأهالي وأخذ على يد الخديوي وأعضاء العائلة الملوكية وسلب كلّ سلطة تخالف القوانين المسنونة ولم يجعل لرجال الحكومة ولا لأمراء البلاد طريقا إلى استعباد الأهالي واستخدامهم في أعمالهم بلا أجرٍ ولا شُكْرٍ.ووضع نظاما لتحصيل الضرائب في أوقات توافق مواسم الحاصلات الزراعية وسوّى بين الأمير والحقير والغنيّ والفقير بعد أن كان التفاوت لا حدّ له وألغى كثيراً من الرسوم . وقدّر ضرائب الأراضي بقدر محدود بعد أن كانت لا تقف عند غاية .

فاستراح الأهالي من عناء كادوا يهلكون [208] دون احتماله ولكن توغّرت عليه صدور الأمراء والأعيان لانتقاض منافعهم الشخصية . انحلّت عقد المسائل المالية على أحسن وجه باتّفاق الدول وعانى رياض باشا في ذلك ما لم يعانه أحد فتوفّرت النقود في الخزينة وارتفعت أسعار القراطيس المالية من تسعة وعشرين إلى اثنين وثمانين وعلت أثمان الأراضي حتّى صار الفدّان من الأرض يساوي ثمانين ليرة مصرية بعد أن كان يساوي في عهد إسماعيل من خمسة إلى عشرة بل ربما كان مالكه يهبه لمن يقوم بأداء ضَرِيبَتِهِ بِلاَ ثَمَنٍ . فانحرفت قلوب الربويّين من الإفرنج لاستغناء الأهالي عن الأخذ بالرباء . فبعد أن كان الربويّ يعطي المائة بثلاثين فما فوقها إلى المائة في العام أصبح لا يجد من يأخذ منه بستّة في المائة . [208]

وبالجملة كانت مدّة رياض باشا خير مدّة مضت على البلاد المصرية إلا أنّ هذه الحسنات لم تكفّر عنه سيّئة وجوده في وزارة ولسون وبلينيار.فبقيت أفكار الأهالي مضطربة من جهته والأوهام ذاهبة إلى أنّه ميّالٌ إلى السلطة الأجنبية مع أنّه لم يُوجد وزير مصري أوقف الأوروباويين عند حدودهم مثل ما أوقفهم هذا الرجل .

فروّج هذه الأفكار أعداؤه من الأمراء والرّبويّين واستعملوا لذلك بعض الجرائد الخبيثة الغرض كجريدتي مصر والتجارة (1) فألغاهما رياض باشا فذهب محرّرهما أديب إسحاق (2) وأنشأ جريدة مصر القاهرة (2) في باريس . وكان أكبر معينيه على هذا العمل شريف باشا وراغب لطفي باشا وحيدر باشا .

هذه الجريدة كانت تغري المصريين بقتل رياض فضلا عن القيام بخلعه واتّفق مع جميع ذلك أن توفيق باشا الخديوي كان في ضجر من رياض لأنه حال بينه وبين الاستبداد المطلق حتّى أفضى أمر ضجره منه إلى التصريح لحاشيته وضبّاط حرسه بأنّه يمقته [209] أشدّ المقت ويودّ لو تمكّن من عزله وأخذ يسعى بنفسه في تقليب القلوب عليه . [209]

وفي أواخر سنة 97 (3) أخذ عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية يتصرّف في الوظائف العسكريّة تحت حكم التعصّب الجنسي فعزل كثيرًا من أبناء العرب وأقام مقامهم جراكسة . وكان فيمن عزلهم أحمد عرابي وعبد العال حلمي مع أنّهما أبرع في الفنون العسكرية من خلفهم فشكى المعزولون إلى رياض باشا فأشكاهم وأرجعهم إلى وظائفهم إلا أنّ قلوبهم لم تبرأ من جراح ما سامهم عثمان رفقي ولم تزل في مخيلاتهم نزعة القوة من عهد الحادثة الأولى أيام وزارة ولسون ودوبلينيار . وعثمان رفقي لم يكفّ عن إهانة بعض ضبّاط العرب وتربّص السوء بهم لأدنى سبب خصوصا بعد ما شكوا منه .

---

(1) جريدة مصر : أنشأها أديب اسحاق عام 1877 وليس في جيبه أكثر من عشرين فرنكا . ولما رأى اقبال الناس عليها ما يشد الازر نقل ادارة الجريدة من القاهرة إلى الاسكندرية يشاركه في ادارتها وتحريرها سليم نقاش فلقيا نجاحا ثم انشأ كلاهما جريدة التجارة فأصدراها يومية وأبقيا جريدة مصر اسبوعية فحصل لهما جميعا اقبال عظيم . انظر : فيليب دي طرازي ، **تاريخ الصحافة العربية**، بيروت 1913 ج 2 ص 107 خلال ترجمة أديب اسحاق ص 106—109 .

(2) ابتعد أديب اسحاق عن مصر عام 1880 مهاجرا إلى باريس حيث أنشا جريدة مصر القاهرة . (ولد أديب اسحاق في دمشق عام 1856 وتوفي في قرية الحدث بلبنان في 12 جوان 1885) .

(3) يوافق : 1880 .

أعداء رياض باشا من الأمراء دخلوا مع الضبّاط بالدسائس والوساوس يحملونهم على التشكّي من وزارة رياض . صادف هذا انحراف توفيق عنه وعلم الضبّاط بخبيئة الأمر . وكان البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال عدوّا لرياض لنزاع كان بينهما في الامتيازات الأجنبية . رياض يطلب تخفيضها ودرنج يسعى للزيادة فيها . هذا كلّه جرّأ الضبّاط على تقديم تقرير إلى رياض باشا يطلبون فيه الانتصاف من عثمان رفقي وألحّوا على ذلك مرارًا بصورة عنيفة .

فاجتمع مجلس الوزراء تحت رئاسة توفيق باشا فكان من رأي رياض تحقيق المسألة في مجلس عسكري يتبع حكمه . وكان رأي توفيق ومن معه تجريدهم من رتبهم ووظائفهم وأخذهم غيلة (سياسة في إقامة الفتنة لعلمه بما كان في آلاي حرسه من التعصّب وأن هؤلاء الميرالايات لو أخذوا لقام سائرُ الضبّاط والعساكر معهم فينتهي الأمر إلى انقلاب وزارة رياض [210] [210]
فيتخلّص منه كما خلص أبوه من وزارة ولسون وبلينبار) (1) .

ولما أصرّ رياض على طلب التحقيق نصحه بعض أقربائه في معية الخديوي (طلبة باشا) (2) بالسكون لأنّه متّهم في هذه الحركة فسكت وصدر الأمر لعثمان رفقي على ما رأى توفيق . وفي اليوم الثاني طلب إلى نظارة الجهادية الميرالايات الثلاثة أحمد عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي للمداولة معهم في ترتيب موكب الزفاف بجميلة هانم أخت الخديوي. فتوجّس الضبّاط شرًّا من هذا الطلب فاحتاطوا لأنفسهم بالتعاهد مع محمّد عبيد بينباشي في آلاي الحرس ليدركهم بعسكره إذا أخذوا .

---

(1) ملاحظة : ما بين ظفرين اضافة من المؤلف الشيخ محمد السنوسي تعليقا على كلام الشيخ محمد عبده . وكان المؤلف نبه إلى ذلك أعلاه صفحة 203 حيث قال : وهذا نصه ممتزجا بشروحنا المعنونــة .

(2) ما بين ظفرين اضافة من المؤلف .

وقد كان جميع ذلك بمجرّد وصولهم إلى قصر النيل تسلمهم الحرس ونزعوا منهم سيوفهم وقادوهم إلى السجن فطار الخبر لمحمّد عبيد فجاء بعسكره وخلّصهم وسار بهم إلى شلاق عابدين مقرّ آلاي الحرس . فهال الأمر رياض باشا وسائر الوزراء وبلغ خبر الحادثة للقناصل فاضطربوا واجتمع مجلس كبير للنظر في الحادثة وانتهت المداولة بعزل عثمان رفقي وتولية محمود باشا سامي نظارة الجهادية وكان ناظر الأوقاف وبقي فيها أيضا .

لم ينل توفيق باشا مأربه من الحادثة حيث بقي رياض وخاف سعي أعداء رياض فيها . الخديوي دعا الميرالايات وتحالف معهم على أنّه لا يغدر بهم وأنّهم يحافظون على حياته ومركزه بأرواحهم. ولكنّه لم يلبث على العهد الا قليلا ثمّ دفع رجال معيّته لالقاء الدسائس بين الضبّاط الصغار ليقتلوا كبراءهم أو يطلبوا بالشكوى عزلهم وفي كلّ دسيسة ينتبه الميرالايات ويأخذون العامل فيها قبل نهاية العمل . إلاّ أنّه يبلغهم من طرف آخر أنّ هذا سعي الوزارة لا سعي الخديوي .

[211] كثير من العمد وأمراء الأرياف أقنعوا الضبّاط [211] بأنّه لا حافظ لأرواحهم إلاّ تشكيل مجلس النوّاب . وكان في مقدّمة الساعين لهذا سلطان باشا الخائن . فكان ليله ونهاره في العمل مع الضبّاط ليدفعهم إلى هذا المطلوب فالفظوه به وطلبوه جهارًا كما طلبوا الزيادة في عدد الجيش العامل حتّى يصل إلى ثمانية عشر ألفا . ولما تغلّب سلطان الوساوس على عقول الاغرار واشتدّت حركة الضبّاط في اجتماعاتهم طلب رياض باشا ووافقه توفيق من محمود سامي ناظر الجهادية ان يتلافى الأمر فقال محال تلافيه ما دام الضبّاط يرون كلّ يوم برهانًا على أنّ حياتهم في خطر فألزم بالاستعفاء فانعزل وخلفه داود باشا صهر توفيق فاشتدّ على الضبّاط في المعاملة وما مضى شهر من نظارته حتّى حصلت حادثة عابدين في السادس عشر من شهر شوّال سنة ثمان وتسعين (1) .

---

(1) يوافق : 11 سبتمبر سنة 1881 .

جاء عرابي بآلايه إلى ميدان عابدين وجاء إليه عبد العال حلمي بآلاي السودان وأحمد عبد الغفّار بآلاي السواري . وكان آلاي الحرس موجودا في سراي عابدين وحواليها . اجتمع الوزراء والمراقبون والقناصل للنظر في المسألة ونزل كولفين المراقب الانقليزي ونصح عرابي أن لا يسعى ببلاده إلى الضياع فإنّ أوّل من يتداخل فيها انكلترا فأجابه عرابي : « لا تضيع بلادي وانا لو نَادَيْتُ لَبَّانسي مليون من المجاهدين ولا أخاف دولة الانقليز وفي إمكاني أن أثير عليها رعاياها في الهند » (1) .

عرابي طلب عزل وزارة رياض وتشكيل مجلس النواب وتنفيذ قانون العسكرية الجديد فكان الأمر الأوّل وتولّى الوزارة شريف باشا بعد طول شوق إليها . وبعد أيّام نفذ قانون العسكرية وفي مدّة قليلة اجتمع أعيان البلاد عند سلطان باشا وكتبوا عريضتين إحداهما تبرىء الضبّاط من العصيان في عملهم وتضمنهم [212] في عدم صدور عمل آخر منهم (العُمد بلا سلاح يضمنون الجيش المسلّح) (2) والأخرى بطلب مجلس النّواب وسار سلطان باشا مع ثمانية عشر من الأعيان وقدّمها إلى شريف . والتمس منه عرضهما على الخديوي فصادفتا قبولاً وصدر الأمر بتشكيل مجلس النوّاب . [212]

كان الضباط بعد حادثة قصر النيل وقُبيلها رفعوا شكوى إلى الباب العالي والسلطان من معاملة وزارة رياض باشا فلمّا حدثت نازلة عابدين وبلغ الخبر إلى الباب العالي وجّه الباب بوفد تحت رئاسة علي نظامي باشا وفيه علي فؤاد بيك للنظر في المسألة . فلما شعر الخديوي بالخبر دعا سلطان باشا ووجّهه إلى عرابي ليطلب منه الذهاب بآلايه إلى رأس الوادي وارضاء عبد العال بالذهاب إلى دمياط حتّى إذا جاء علي نظامي يرى في العسكر صورة الطاعة والانقياد . فكان ما دبّروا وجاء علي نظامي فلم يجد من الخديوي الا اعترافا بأن جيشه طائع له ممتثل لأوامره .

(1) انظر أعلاه صفحة 189 .

(2) ما بين ظفرين تعليق من المؤلف .

حركة كانت على وزارة رياض انتهت بانقلابها وأذيع بين الناس تنبيه سرّي لا يزور أحد على نظامي إلا بإذن المعية السنية ومن زاره لا يجيبه عن سؤال ولا يبدؤه بخبر إلاّ ما يوافق جواب الخديوي . فلم يكن من على نظامي إلا زيارة الآلاي الثاني في قصر النيل والخطبة فيه بلزوم الطاعة والانقياد ثمّ توزيع النواشين على بعض الضبّاط ثمّ زيارة بعض الأماكن العمومية وبعد قليل رجع إلى دار الخلافة . وكأن لم يبارح مكانه فيها .

يوم العيد الأكبر رجع عرابي إلى القاهرة بنفسه لقضاء أيّام العيد فكان بيته مزدحما لأصناف الناس من كبراء وصغراء وكلّهم يعلّق به أملاً . وداخله من ذلك غرور عظيم فظنّ السلطة تحوّلت إليه وكان ضعفاء العقول يتظلمون إليه من بعض العمّال أو يلتمسون منه الإنصاف [213] في بعض الأعمال [213]
المتعلّقة بنظارة الداخلية أو المالية أو الحقّانية فيجيبهم في التماسهم ويكتب على عرائضهم إلى تلك النظارات أو يرسل من قبله من يتوسّط في إنصاف من يظنّه مظلوما . كان هذا بادئة اختلال عظيم جعل لكلّ ضابط صغيرًا كان أو كبيرًا سلطة على حاكم وتطاول الضبّاط في التحكّم بما لا يوافقه قانون ولا شريعة .

هذه حالة فاقت شدّتها عند الخديوي على تقييد رياض . وارتبكت الوزارة في وسائل التوقي من مضرّاتها فلم تجد لذلك تدبيرًا أحسن من ترقية عرابي إلى وكيل جهادية حتّى يكون ما يعمله بلا حقّ سائغا بحقّ . وكان بئس التدبير . قويت بعد هذا شوكة عرابي وصارت له سلطة عامّة في العسكرية وعظم عند الكافّة أمره ولم يقف في تصرّفه عند حدّ وظيفته بل كان كأنّه ناظر الجهادية في الحقيقة .

وفي أثناء هذه المدد جاء إلى مصر بعض من يتّصل بالسلطان وتلاقوا مع عرابي وجرت بينه وبينهم محادثات ثمّ كانت مكاتبات توجّهت بفكر عرابي

إلى مطلب أعلى وأرفع ومجلس النوّاب افتتح في أوائل محرم سنة 99 (1) وطلب ان يكون له نظام يشابه فيه مجالس أوروبا . وطلب حقّ النظر في الميزانية العمومية والتنقيح فيها مع استثناء ما يتعلّق بالديون مما حواه قانون التصفية فلا يتعرّض له المجلس .

فتوقّف المراقبان (2) في قبول هذا الطلب ووافقته الوزارة واستند النوّاب على قوّة العسكرية فألحّوا في الطلب وانتهى الأحرار من الطرفين باستعفاء وزارة شريف على تفصيل في الكيفية حيث كان النواب سببا في استعفاء الوزارة . جاء المراقبان إلى الخديوي ونصحاه أن لا يعيّن وزيرا إلا باختيارهما لتكون له حجّة يومًا من الأيام على أنّه كان مجبرا على تعيينه [124] فكان منه التوقّف [214]
التامّ حتّى صرّحوا باسم محمود سامي فأظهر الرضاء وصدر أمره بتعيينه وزيرا أكبر إلاّ أنّه أمر النوّاب أن يشركوا محمود سامي في اختيار بقيّة الوزراء. وفي هذه الوزارة صار عرابي ناظر الجهادية .

رفع محمود سامي إلى الخديوي تقريره الوزاري الدالّ على منهجه السياسي والاداري فأقام المراقبان حجّتهما على بعض قضاياه المختصّة بالمالية وأجابت الوزارة عنها إلاّ أنّ المراقب الفرنساوي استعفى وخلفه آخر . بالغت الوزارة في إرضاء الخديوي على استشارته حتّى في جزئيات الأعمال ومع ذلك لم يمحّص صدره من الحقد عليها . وكان يرقب فرصة للخلاف حتّى أشيع خبر عصابة من ضبّاط الجراكسة المنعزلين عن الخدمة اعترض بعض الضبّاط الذين عيّنوا لجيش السودان على اختصاصهم بالتعيين لتلك الجهات وقد قيل إن مدير هذه الحركة كان راتب باشا أحد أتباع إسماعيل الخديوي السابق يقصد بها انقلابا في الحكومة ربّما ينجرّ لعود سيّده خديويا .

---

(1) يوافق : نوفمبر سنة 1881 .

(2) بالأصل : المراقبات . (وهذا المراقبان هما : ولسون الانقليزي ، ودوبلينيار الفرنسي .

[شرح المؤلّف لنازلة أحمد عرابي من خلال اتّصاله بإبراهيم المويلحي]

* قلت (1) وأنا أشرح هنا سرّ هذا القيل الذي صَادَفْتُهُ من وجهه. وذلك أنني لما كنت في هذه الرحلة مقيما بنابلي (2) حصلت لي علقة مع الأكتب البارع إبراهيم باي المويلحي (3) كاتب إسماعيل باشا خديوي مصر السابق فرأيت من هذا الرجل ما لم يسبق لي نظيره وذلك أن الرجل خرج من مصر بمعيّة مخدومه وقد أجرى عليه خمس عشرة مائة فرنكا في الشهر وتهالك أوّلا في التشيّع لمخدومه حتّى أنشأ صحيفة الاتّحاد بالقلم العربي وَمِمَّا أذَاهَا أن تسعى التفريق ساء بها قصده حيث رام أن يفصم بها عروة الإسلام عن الدولة العثمانية نكاية في سلطانها الذي خلع سيّده فجعل موضوع [215] صحيفته ذمّ الترك [215] ومدح خلافة العرب. كلمة حقّ أراد بها باطلا مع إغراء العرب على إقامة خلافة يخلعون بها عن أنفسهم ربقة الدولة العثمانية وأصدر في هذا الموضوع الشنيع ثلاثة أعداد تكلّفت على إسماعيل بخمسة وعشرين ألف فرنك.

ثمّ خيّلت له أوهامه أن هراءه أثّر في النفوس وأنّ الفتنة بين العرب والترك على وشك الوقوع وخاف سوء عاقبتها على نفسه فأبطل صنعه ونَقَضَ غَزْلَهُ وَتَنَصَّلَ لدى سفراء الدولة العثمانية في البلاد الأروبية قبل أن يشعر أحد منهم بما أتى. ثمّ إنّ بعض العقلاء شنّع عليه في سوء صنيعه مع دولة الإسلام فاستحال إلى مناوأة مخدومه وأقام معه على الخيانة والغدر وصار له

---

(1) القائل هنا هو المؤلف الشيخ محمد السنوسي.

(2) أقام الشيخ السنوسي بنابلي من يوم السبت 27 ماي 1882 إلى يوم 17 جويلية 1882. (انظر: الرحلة الحجازية، ج 1 ص 24 وص 28. اما خبر ملاقاته مع ابراهيم المويلحي فانظره في ص: 43).

(3) كان إبراهيم المويلحي في بدء حياته تاجرا ثم أخفق وضاعت منه ثروته ... ولما كان يحظى بعطف اسماعيل باشا فقد مد إليه يد المعونة ... (توفي إبراهيم المويلحي سنة 1906) انظر ترجمته: محمد المويلحي، **حديث عيسى بن هشام**، بيروت 1966. ص 5–6.

عدوًّا ألدّ في كشف أسراره وإفساد أعماله التي يأمن عليها وربمّا أحسّ به فأقصاه عن مواطن سرّه ثمّ لا يلبث أن يعيده إسماعيل بوسيلة تنصّله . ثمّ يعود لما هو عليه

وكان في أثناء ذلك يكاتب حزب أحمد عرابي بجميع ما كان من أسرار حركات إسماعيل وأفسد عليه أعمالا كثيرة وفي هذه الحالة أدركته بنابلي مع أوهام مبنية على محض التخيّل والسلام .

وقد سألته عن سرّ وقائع الجراكسة بمصر وعن أعمال مخدومه في الظروف الحاضرة فذكر لي أن جميع ما هو جارٍ بمصر ولندرة في الحوادث المصرية كلّه حصل بمساعي إسماعيل ونفقة أمواله وأنّ واصف أفندي المقيم يومئذ بلندرة إنما سافر إليها بنفقة إسماعيل لتحريض الانقليز على البلاد المصرية. قال وذلك انه لما يئس من ملك مصر ومن الإقامة بها أو بالآستانة ورأى نجاح أعمال العسكرية بمصر مع الحزب الوطني دبّر أن يستعمل لنفسه قوّة أحمد عرابي وحزب الوطنيين وسلك لذلك كثيرًا من المسالك فلم يجد منها مدخلا والظنّ أنّه كلّما سلك [216] مسلكا وجد عليه حائلا من تنبيه كاتم سرّه : وعند ذلك غضب فدبّر أن يثير في البلاد حزبا جديدا يقتل أحمد عرابي ويفتك القوّة ليستعملها في إرجاعه هو . [216]

وبما أنّ الجراكسة كثير من أعيانهم متزوّج بالجراكسيات المتنسبات لبيت إسماعيل وهم في الأصل حزب مضادّ لأبناء العرب جلب إليه بعضهم ولقّنهم من تعليماته ما أراد . ثمّ توجّه راتب باشا إلى مصر في خصوص هاته النازلة . فاتّخذ حركة في صنف العلماء والأهالي وبذل في إغرائهم وتنشيطهم أموالا باهظة وكاد أن يتمّ قتل أحمد عرابي مع تهيّيء الجركسي لتلقّي السلطة والقوّة مع ما انضمّ إلى ذلك من اغراء بعض الاهالي .

فاستعجَلَ إسماعيل – والعجلةُ والندامةُ فرسَا رِهَان – إذ بادَرَ إلى إرسال طائفة من حريمه لما فيهنّ من الجركسيات بدعوى تَغَيُّر الهواء على النسوة

ومرضهن . وعند وصول النسوة تحرّت الحكومة في البحث عن أسباب قدومهن حقيقة وباشرهن الأطباء فلم يجدوا لواحدة مرضا بدنيا وَبِبَحْثِ الحكومة وجدت من تنبيهات كشف الأسرار ما علمت به حقائق الأخبار . ولم يقع قبول النسوة في مصر بل إنهنّ رجعن من حيث أتين وسافر راتب باشا مختفيا بعد أن أنفق في النازلة نحو ستّة ملايين فرنكا وهنا نرجع إلى استكمال ما خطّه قلم البراعة من الشيخ محمّد عبده في النازلة . قال :

« فجاء أحد اليوزباشية وأخبر عرابي أنّ جماعة الجراكسة يقصدون الفتك به وعيّن أسماءهم فقبضوا عليهم ووجدوا معهم بعض الأسلحة فقويت الظنّة بهم وقال المخبر إنّ العصابة كثيرة العدد فاهتمّت الوزارة بالمسألة واستشارت الخديوي فأشار بمحاكمتهم والبحث عمّن يشترك معهم في أيّة أرض وعقابهم حسب القانون العسكري فشكّلوا [217] مجلسا حربيا تحت رئاسة راشد باشا [217]
حسني وشرعوا في المحاكمة واشتدّوا في المناقشة وبالغوا في الظنّ حتّى عدّوا الوهمَ حقيقةً وحكموا على نحو ثلاثة وأربعين ضابطا بالتجريد من رتبتهم وَمَحْوِ أسمائهم من دفاتر الحكومة ونفيهم إلى أقاصي السودان لا يجتمع أحد منهم على أحد .

كلّ هذا والخديوي يظهر المسرّة من سير التحقيق وبعد انتهاء الحكم رفع إلى الخديوي ليأمر بتنفيذه بعد استماعه . فانعقد مجلس النظار أياما متواليات تحت رئاسة الخديوي لسماع الحكم . أخبرني أحد الوزراء أنّهم كانوا يسمعون تلاوة التالي كما يسمع القصاص والحكويون (1) لا يبدي أحد أدنى ملاحظة . وظهر الكدر على وجه الخديوي . وفي كلّ يوم يأتيه قنصلا فرنسا وانكلترا ويطلبانه للكلام فيذهب ويمكث معهما مدّة ثمّ يعود فيسأله النظار منه عزيمة الغدر فعرضوا عليه تخفيف الحكم فقال حتى تتمّ التلاوة . ثمّ قدموا إليه طلبا رسميّا في هذا فأجابهم : « إنّي لا يمكنني التصرّف في المسألة فإنّ الباب العالي كتب إليّ تلغرافا يسألني عن الحادثة فأجبته بتفصيلها واني لا أفعل شيئا بل

(1) كذا بالأصل .

ولا في غيرها من المسائل حتّى يصدر لي الأمر السلطاني » . فقال له محمود سامي : «هلاّ استشرتنا ! هلاّ قصرت الأمر على المسألة الخاصّة ولم تعممّ في غيرها من المسائل » . قال : « هذا هو الذي وقع والسلام » . وهذه بداية النفرة بينه وبين محمود سامي .

هذه العاقبة كان يشفق منها ويتوقّعها ضعفاء العقول فضلا عن أقويائها . فكان حثّ الخديوي على المحاكمة مع أنه ابن شركسية وَحَرَمُه غاصٌ بالشركسيات وَيَاوَرِيَتُه من الجراكسة وجميع خاصّته منهم دليل على أنه قصد كيدا . ولكن ضلّت الوزارة على القصد وغرّها ظاهر القول فساءت العاقبة . بلغ الخبر قنصلي الدولتين فرنسا وانقلترا [218] فأجبرا الخديوي على تنفيذ [218]
الحكم قبل أن يأتيه خبر من الآستانة ففعل إلا أنّه بدل أن يصدر الأمر إلى نظارة الجهادية حسب القاعدة أصدره إلى الداخلية على خلاف الأصل الثابت . فاستغرب النظّار وقوع هذا الخطأ واتّفق رأيهم أن يتوجّه رئيسهم إلى الخديوي ويلتمس منه توجيه الأمر إلى الجهادية .

فذهب وعرض عليه الرأي فأجابه « دع الأمر حتّى ننظر فيه » فخرج محمود سامي من بين يديه وما كاد يصل إلى نظارة الداخلية حتّى استدعى الخديوي قناصل الدول عموما وأخبرهم أن مركزه على خطر وأرواح الأوروبيين وأموالهم في خطر كما أنبأه محمود . فانصرف القناصل من عنده وتوجّه القنصلان لبيت محمود سامي واستدعياه وكان في بيت آخر فحضر ومعه ناظر الخارجية مصطفى فهمي باشا فأخبراه بما قال الخديوي فأجابهما . « إنـي لم أقل للخديوي شيئا في هذا المعنى وانني كافل لمركزه وأرواح الأوروبيين وأموالهم وفي اليوم الذي أعجز فيه عن القيام بالكفالة اخبركما (1) فلم يلتفتا(1) لقول محمود وذهبا (1) وكتبا (1) للدولتين يطلب المراكب الحربية وكانت هذه الحادثة في أواخر جمادى سنة 99 » (2) .

---

(1) بالأصل : أخبركم . يلتفتوا . وذهبوا . وكتبوا .
(2) يوافـق : ماي سنة 1882 .

غلطت الوزارة غلطاً آخر حيث رأت استدعاء مجلس النوّاب ليكون حكما بينها وبين الخديوي وسهت عن ان التئام المجلس لا يكون قانونيا يصحّ به الحكم إلاّ أن يكون بأمر الخديوي وهو لا يأمر لمكان المنافرة ولكن وقع الطلب وجاء الأعضاء إلى القاهرة وانقسموا أقساما قسم مع الخديوي وقسم مع الوزارة وآخر صامت ومالت الأغلبية مع الخديوي اتّباعا لرأي سلطان باشا رئيس النوّاب . إلاّ أنّ عقلاء القوم رأوا الصلح . فتوسّط فيه سلطان وأظهر الخديوي رضاه عن الوزارة ورؤية ضعيف البصر أنّ في الأمر خيرا .

[219] وبعد هذا وصلت المراكب الحربية [219] من دولتي فرنسا وانكلترا إلى الاسكندرية وسئل سلطان باشا من لندرة عن الحالة فأجاب بالتلغراف ان الجميع في اتّفاق . وهكذا كان جواب شيخ الاسلام . وبعد وصول المراكبّ قدّم القنصلان لائحة إلى النظّار والخديوي ذكر فيها ان من رأي سلطان باشا رئيس النوّاب انّ الراحة لا تستقرّ في البلاد الا باستعفاء وزارة محمود سامي ونفي الرؤساء الأربعة عرابي وعلي فهمي وعبد العال حلمي وطلبة عصمت لخارج القطر المصرى وبناء على هذا الراى فيطلبان باسم دولتيهما (1) تنفيذه . وكان ذلك في أوائل رجب (2) .

فلمّا وصلت اللائحة ذهب محمود إلى الخديوي وسأله الرأي فأجاب : عليكم بالنظر فاتّفق معه على الجواب عنها ورفضها فأظهر رضاه ودعا النظّارُ سلطانَ وسألوه هل هذا رأيك ؟ فأجاب : إنّي لم أرَ رَأياً وقد كذب القنصلان . وبعد مداولة النظّار أجابوا عن اللائحة بجواب حسن مآله : « لاَ حَقَّ في هذه المداخلات لسوى الدولة العثمانية » . فأخذه محمود ليعرضه على الخديوي فيُمْضِيه حسب الاتّفاق . فأجابه الخديوي : «قد قبلت اللائحة » فقال :

(1) بالأصل : يطلبون باسم دولتهم : كذا .
(2) يوافق : أواخر ماي سنة 1882 .

أَلَمْ نتّفق على الجواب وأليس قبولها يقتضي استعفاءنا ؟» فقال : « لا أدري » فخرج من عنده وكتب استعفاءه في العاشر من شهر رجب (1) فقبل .

وفي اليوم الثاني من الاستعفاء وسم عرابي نفسه بأنّه رئيس الجيش المصري ونائبه في وقاية مصالحه . وكتب بذلك إلى سائر الآلايات. أمّا الخديوي فكتب إلى جميع الفرق العسكرية أنّه أخذ قيادة الجيش تحت إمرته الخاصّة فليكونوا تحت إشارته . وكتب إلى جميع المديريات أن جميع الأعمال الداخلية المهمّة يحوّل النظر فيها على المعيّة السنيّة حتّى تتشكّل نظارة وطلب أمراءَ العسكرية ووجوهَ العاصمة [220] وأعضاءَ مجلس النوّاب والعلماءَ ليحضروا [220] مجلسه وقت العصر . فتوافد الأمراء والأعيان والعلماء . ولما كمل (2) الجمع قام الخديوي يتلو على مسامع الحاضرين ما رآه موافقا للمصلحة من عزل وزارة محمود وقبول لائحة القنصلين . فاعترضه طَلَبَةُ باشا وقال : « إنّا لا نَقْبَلُ لائحة تَضُرُّ بمصلحة الدولة العثمانية » فقال الخديوي : « أنا المسؤول عنها لا أنتم »وكان فيما قال الخديوي إنّه يلزم الكفّ عن جمع العساكر المتفرّقة تحت السلاح . فأجاب الشيخ عليش عن المسألتين بآيتين من القرآن . ففي قبول اللائحة : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (3) ﴾ وعن جمع العساكر : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ (4) ﴾.

فاختلّ نظام المجلس وأمر الخديوي بانصراف المجتمعين وفي اليوم الثاني لهذا الاجتماع توافد إلى عرابي أوفاد من العامّة والخاصّة يقوّون عزيمته ويعرضون عليه إخلاصهم ووقت العصر توجّهوا إلى الخديوي وطلبوا منه إعادة عرابي ناظر الجهادية حفظا للأمنية هذا بعد أن جهر عرابي بلزوم خلع الخديوي بل

(1) يوافق : 28 ماي سنة 1882 .
(2) بالأصل : كل .
(3) القرآن : سورة النساء 4 : 141 .
(4) القرآن : سورة الأنفال 8 : 60 .

وإنّه لابدّ منه ورماه بالظلم والغدْر وعداوة الوطن وأرغى في ذلك وأزبد . وأخذ الفتوى من العلماء على كفره وعدم صلاحيته للولاية . وكتب بذلك للباب العالي والسلطان ولكنّها كانت جعجعة بلاطحن . أعاد الخديوي عرابي ناظر الجهادية وبقيت جميع النظارات بلا نظّار وصارت الحكومة عسكرية محضة وجاء القناصل ما عدا قنصلي انقلترا وفرنسا وطلبوا التأمين من عرابي فأمّنهم ونشر ذلك رسما وبعث بالأوامر إلى رؤساء الفرق العسكرية بلزوم التيقّظ والتنبّه حتّى لا يدعوَ الدعاة الاختلال بابًا يلجونه . ولكنّه أخطأ في إبقاء بعض أعدائه في الوظائف الإدارية بعد هذا التكفّل وكان منهم عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية [221] فاستعمله الخديوي في إثارة فتنة تعرف بمذبحة الإسكندرية . [221]

في أواسط رجب (1) جاء درويش باشا مأمورًا من طرف الدولة العثمانية لحلّ المشكل وكانت مذبحة الاسكندرية بعد قدومه بثلاثة أيام . قوبل درويش كما يقابل السلطان من عموم الأهالي وكان الاحتفال به على أتمّ الوجوه في الإسكندرية وجميع محطات السكّة الحديد وفي القاهرة والناس بلسان واحد ينادون : « يعيش مولانا السلطان لا نقبل لائحة الدولتين » ولم يكن من درويش إلا إلقاء العداوة بين الضباط والخديوي والاتّفاق مع الخديوي على الإضرار بهم . ورأى تشكيل وزارة تحت رئاسة راغب باشا وفيها عرابي وزير الجهادية أيضا ولم تصادف هذه الوزارة قبولاً عند القنصلين وأجابا منشوراتها بما يدلّ على المناوأة .

كان من العادة إجراء بعض الترميم في استحكامات الاسكندرية كلّ سنة فباشرت نظارة الجهادية عملها في ذلك حسب العادة فتشكّى سيمور قائد الأسطول الانقليزي بدعوى أنّ هذا الترميم يُعَدُّ تهديدا للأسطول فصدر أمر السلطان بإبطال الترميم وصدرت أوامر الخديوي مشدّدة بعدم جمع

(1) يوافق : جوان سنة 1882 .

العساكر. إلا أنّ قائد الأسطول اخترع سببا للحرب فافترى كذبًا وَقَالَ: « إنّـي رأيْتُ عساكر تركّب بعض المدافع على بعض الاستحكامات واكتشفتُ ذلك بالضياء الكهربائـي ليلا. وإنّي لا أحتملُ هذه الإهانة وأطلبُ أن تجرّد جميع الاستحكامات من جميع الأسلحة ويكون تجريدها بأيدي العساكر الانقليزية فإن لم يكن ذلك ضربت الاستحكامات ».

ارتعدت الحكومة لهذا البلاغ واستدعت جميع الرجال المشهورين في العسكرية خصوصا من القدماء وان لم يكونوا موظفين وانعقد بهم وبنظّار الحكومة مجلس عامّ تحت رئاسة الخديوي حضره درويش باشا ومن معه من كبراء الوفد [222] العثمانـي. وبعد المداولة الطويلة اتّفق رأيهم على رفض ما طلبه قائد الأسطول والقيام بالمدافعة على قدر الإمكان إن وقع حرب ولو سقطت القلاع بحرب فهو أشرفُ من تجريدها بأيدي عساكر من الانقليز. ثمّ كرّر القائد طلبه مرّة أخرى وحدّد للجواب أربعًا وعشرين ساعةً إن مضت قبل الإجابة بالايجاب أطلق المدافع. [222]

مضت المدّة وأطلقت المدافع على قلاع الإسكندرية قبل طلوع الشمس من الخامس والعشرين من شهر شعبان (1). ولم يكن بالاسكندرية من العساكر إلا القليل على غير أهبة للحرب لتوالي الأوامر تترى (2) بالكفّ عن التجهيزات الحربية من الباب العالي والخديوي. والقلاع من الطراز القديم وأسلحتها على نحو طرازها. فدهش الضبّاط والعساكر وعمّهم الاضطراب. إلاّ أنّ القلاع قابلت المراكب بالضرب عشر ساعات إلى أن تهدّمت وأظهرت فرقة الطوبجية غاية البسالة في ذلك اليوم وبعث الخديوي ودرويش باشا رسُلا من قبلهما لتبليغ سلامهما إلى العساكر وإظهار مسرّتهما من إقدامهم وثباتهم.

---

(1) يوافـق: 12 جويلية سنة 1882.

(2) كـذا بالأصـل.

كان الخديوي في سراي الرمل شرقي الاسكندرية وعرابي وطلبة كانا في قلعة كوم الدماس وهي لم تُضرَبْ ولم تَضرِبْ . اختلّ نظام الجيش الموجود بما أصابه من دهشة المفاجأة على غير استعداد واضطرّ عرابي في اليوم الثاني للاشتغال مع الميرالايات في جمع العساكر المشتّتة واختيار نقطة يمكن التحصّن وإجراء الحركات العسكرية فيها . وكانوا في أمن من غدر الخديوي لأنّه كان الآمر بالحرب ولأنه معه درويش باشا نائب السلطان .

واستقرّ رأي عرابي ومن معه على الذهاب بجيشهم إلى عزبة خورشيد ويتّخذون من أراضي كفر الدوّار معسكرا ويقيمون بين البحيرتين بحيرة مريوط وبحيرة أبي قير حصونا [223] . ولكن أخطأ عرابي أكبر الخطأ [223]
حيث لم يأخذ الخديوي معه أو يحمله على الذهاب للقاهرة . بدأت الحرب باسمه فكان من اللازم استمرارها واختتامها باسمه . ولو لم يكن هذا الخطأ ما كانت هذه العاقبة بل كان المرجّح أن لا تكون حرب .

في اليوم الثاني من ضرب الاسكندرية بعث الخديوي إلى القاهرة يطلب قطاره الخصوصي ليركب عليه إليها . وكان ذلك خدعة يلهي بها أنظار الضبّاط . واتّفق أنّه لمّا وصل القطار أمام سراي الرمل انكبّ عليه المهاجرون من أهالي الإسكندرية وكانوا جمّا غفيرا ضائعي الرشد لا يهمّهم إلاّ الفرار من النيران وأكثرهم نساء وأولاد فشحنوا القطار الخصوصي .

ولمّا رأى الخديوي ارتباك الضبّاط في أمورهم وعظم الخطب عليهم أسرع بالذهاب إلى سراي رأس التين بالعربات ومعه درويش باشا وسائر النظار ولعدم كفاية العربات لحمل أهل معيّته ذهب الكثير ماشيًا على القدم حتّى كان ممّن مشى بعض الجواري الجركسيات على ما فيهنّ من نعومة البدن ورقّة الأطراف .

عند اشتغال عرابي وبعض الضبّاط في جمع المتفرّقة من العسكر واشتداد الفزع على أهل الاسكندرية وذهولهم عمّا عدا أرواحهم أمر سليمان

سامي بإشعال النيران في كثير من الأماكن وكثير ما احترق وما انهدم وأكثره للمسلمين . وهي فعلة جاهلية ما كان إليها حاجة . العرب عدّوا هذا الاختلال فرصة وصالوا على المدينة ونهبوا من بضائع التجّار مبلغا وافرًا .

الخديوي كان يعلم الحرب قبل وقوعها فعهد إلى بعض المخاصين له من مأموري الحكومة أن يُهيّئوا فِتَنًا داخلية حتّى إذًا وقعت الحرب اشتعلت الفتن واشتغلت العساكر بإطفائها فيقلّ عدد الجيش المدافع وتضعف قوّته فينهزم لأقرب وقت وينتهي الأمر [224] بظفر الخديوي ويُؤيّدُهُ الانقليز [224]
بلاّ مشقّة . كان ممّن قام بالعهد الخبيث شقيّان من المديرين إبراهيم توفيق مدير البحيرة وإبراهيم باشا أدهم مدير الغربية . وفي ثالث يوم الحرب وقعت المذابح في خمسة مواضع من مديرية الغربية منها مذبحة طنطا المشهورة ومذبحة المحلّة الكبرى . وفي مدينة دمنهور البحيرة وقع القتل والنهب . ولكن نظارة الجهادية تداركت الأمر بسرعة وأخمدت الفتن بلا عناء . ولكن بعد شرور كثيرة ومنكرات شنيعة .

الخديوي سعى إلى الحرب بأعماله أصدر أمره به ووعد أنه يكون في مقدّمة المدافعين . عند ضرب المدافع كتب تلغراف من رئيس نظاره وناظر خارجيته راغب باشا إلى جميع جهات القطر المصري بان الحرب قد نشبت بيننا وبين الانكليز وصارت البلاد تحت الحكومة العسكرية وعلى المديرين أن يكونوا تحت أوامر نظارة الجهادية وأن يساعدوها في جمع خمسة وعشرين ألف جندي في أقرب وقت . وهذا التلغراف عن رأي الخديوي .

أضمر الخديوي سوءًا ودبّر كيدًا لإتلاف أرواح رعاياه بالفتن الداخلية. انحاز إلى جيش العدوّ وأذن بخروج عساكره إلى البحر وصارَ تَحْتَ محافظتهم. ثم أرسل يطلب عرابي إليه للمداولة معه في أُمور مهمّة فأبى وَجُنْد الانقليز في المدينة . أصدر أمرًا بعزله واقامة عمر لطفي باشا ناظر الجهادية . نشر الخديوي منشورًا إلى جميع الضبّاط العظام يعلمُهم بعزل عرابي بناء على

مخالفته لأمر الخديوي عندما أمره بالبقاء في الاسكندرية ومنع عساكر الانقليز من الصعود إلى البرّ ويخبرهم بأنّ عرابي قد أكسب الجيش عارًا عظيما بفراره إلى عَزَبة خورشيد . وهذا من جُبنه وخوره فلا يمتثلون له أمرًا إلى آخر ما قال . وفيه اعتراف بأنّه الآمر بالحرب . تحصّن عرابي في كفر الدوار [225] [225]
وأقام الجيش معاقل على أكمل إتقان في أقرب زمن وامتنع على الانقليز دخول القطر المصري من طريق الاسكندرية مهما بلغت قوّتهم. أهمل عرابي بتأخير العمل في الجهة الشرقية وأخطأ في اعتماده على قول موسيو دولسبس (1) « إنّه لا يمكن لمركب إنقليزي أن ينزل عسكريا في بورت سعيد أو الإسماعيلية إلاّ بعد إعلان الحرب على فرنسا » .

موسيو دولسبس كان يخاف أن يهدم العساكر حوافي القنال أو يسدّوه فموّه الأمر على عرابي حتّى تتكامل القوى الانقليزية وتأتي لحمايته والعبور منه إلى البلاد المصرية . وكانت الغاية على ما أراد . جاءت مراكب الانقليز إلى بورسعيد في أواخر شهر رمضان (2) وصعد بعض الجند إلى البرّ ودخلت القنال واتّخذته موقعًا حربيًّا بأمر من الخديوي . ولم يكن إذّاك في الجهة الشرقية ولا فرقة عسكرية ولم يكن بُدِيء فيها بعمل مّا .

اهتمّت وكالة الجهادية بإرسال العساكر وعيّنت راشد باشا حسني قائدًا عامًّا للجيش الشرقي . وبعد مقاتلات الجيش الشرقي وعساكر الانقليز انتقل عرابي من كفر الدوّار إلى التلّ الكبير وانضمّ إليه علي باشا فهمي وهو أمهر ضابط مصري في الفنون العسكرية . وحضر موقعة القصاصين . وكان الظفر فيها للعساكر المصرية . سلطان باشا رئيس مجلس النوّاب كان مع الخديوي في الأسكندرية. لمّا حلّ جيش الانقليز مدينة الإسماعيلية على حافة القنال جاء إليها سلطان باشا نائبا عن الخديوي في جميع الأعمال فأخذ يكاتب

---

(1) هوفرديناند دوليسبس (1805–1894) فتح ترعة السويس سنة 1869 . انظر : قانياج ، **أصول نشاة الحماية** ، 38 .

(2) يوافــق : أواسط أوت سنة 1882 .

مشائخ العربان وبعض ضباط الجيش ويحملهم على التخلي عن عرابي أو خيانته . وقد رأيت مكتوبين وعليهما خَتْمُهُ بعيني رأسي . قبض الحرّاس على حاملهما وأتوا به وبما حمل . وصدر الأمر السلطاني بعصيان عرابي ومن معه فاجتهد سلطان باشا في نشر جريدة الجوائب (1) بين ضبّاط الجيش [226] [226]
فَوَزَّعَ بَيْنَهُمْ عَدَدًا وافِرًا (2) من النسخة التي ذكر فيها ذلك الأمر السلطاني .

[شرح المؤلّف لسبب صدور الأمر السلطاني بعصيان أحمد عرابي]

قُلْتُ (3) « وأنا أشرح هنا سرّ سبب صدور الأمر المذكور على ما رأيته وذلك أني لمّا دخلت الآستانة في هذه الرحلة أوائل شهر رمضان (4) صادفت جميع أعمال الدولة العلية في المسألة المصرية . ومن المناسب أن نُلمّ بأخبارها في ذلك حفظا لتاريخها .

وذلك أن السلطان عبد الحميد (5) كان قبل الاستواء على دست السلطنة يحضر عنده في بعض الأوقات حليم باشا من أبناء عبّاس باشا ويذكر عنده من الشقائق بإظهار الأسف على مصر وعدم سلطة الدولة العثمانية عليها كسائر أعمالها وادماج اظهار حبّ الخضوع للدولة أكمل خضوع إلى غير ذلك ممّا

(1) جريدة الجوائب أنشأها أحمد فارس الشدياق (1804–1887) في الآستانة سنة 1860 وانقطعت هذه الجريدة عن الظهور سنة 1885 . انظر : فليب دي طرازي ، **تاريخ الصحافة** ... ج 1 ص 96–97 . وص 61–64 .

(2) بالأصل : فوزع عدد وافر .

(3) القائل هو المؤلف الشيخ محمد السنوسي.

(4) دخل المؤلف الآستانة في 6 رمضان 22/1299 جويلية 1882 . انظر : **الرحلة الحجازية** ، ج 1 صفحة 28 .

(5) انظر ترجمته : **دائرة المعارف الاسلامية** ، ط 2 ج 1 ص 65–67 . انظر أعلاه صفحة 7 تعليق رقم 1 .



أحمد فارس الشدياق

استمال به السلطان حتّى صار يودّ له ملك مصر وربّما أشار إليه بإعانته عليه إلى أن أفضت السلطنة إليه ولم تمكّنه ظروف الأحوال من مراده .

فما كان غير بعيد ونشأت الحوادث المصرية حالة كون نوّاب الدول يطلبون عزل إسماعيل باشا . فظنّها السلطان فرصة لمراده وعيّن حليما وأجاب للعزل وسرى سرّ ذلك إلى مصر فظهر من الشيخ جمال الدين (1) ما كافح به نائب فرنسا (2) على لسان الوطنيين في طلب توفيق . رأت الدولتان أنّ ولاية توفيق تطفىء نار الفتنة ولم يكن للسلطان أن يتخلّص ممّا وعد به .

وتمّ عزل إسماعيل ولم تتمّ ولاية حليم . ثمّ لمّا ارتبك الحال في مصر وعظم حزب أحمد عرابي واستدعت الدول تداخل الباب العالي رأى السلطان أيضا أن ينتهزها فُرْصَةً لتولية حليم وأمره بالاستعداد للسفر إلى مصر على حين غفلة حتّى إذا وصل إليها لحقته شارات الولاية . ولمّا شعر توفيق بعمل السلطنة اضطرّ للاعضاد بنائبي الدولتين . فكان ذلك سببا لإبطال ولاية حليم [227] [227]
وأقام بعد أن أحضر صناديقه للسفر وبحصُول الخديوي على هذا البقاء وقف عند أوامر نائبي الدولتين عند جميع الإدارة فكان ذلك سبب زيادة هيجان أحمد عرابي وحزبه . وعظم أمر أحمد عرابي في سائر الأصقاع وانتشر له صيت في الانتصار للوطن والدين حتّى كنت ترى في إيطاليا والآستانة صورة أحمد عرابي مرسومة على كثير من أعالي الأمتعة عنوانا على رفعتها .

وتكاثرت بذلك في مصر أنصاره واشتدّ أمرهم على توفيق وتشفّى بذلك بعض حواشي السلطنة وتواصلت المراسلات بين أحمد عرابي وبعض القرناء والشيوخ من أهل المابين الهمايوني وزاد ذلك في شفوف (3) أحمد عرابي فطلبت الدولتان من الباب العالي إرسال قوّة عسكرية لتأييد سلطة الخديوي

---

(1) انظر أعــلاه صفحة 187 وما بعدها .

(2) هو قنصل فرنسا العام المسيو تريكو . انظر أعلاه صفحة 206 تعليق رقم 1 وصفحة 207 تعليــق رقــم 1 رقــم 2 .

(3) شف يشف شفوفا الشــيء : رق فظهر ما وراءه .

على العسكرية المصرية . فامتنعت الدولة من تأييد توفيق . ولم تنتهز هاته الفرصة في سياستها وما ذلك إلا للأخذ بخاطر حليم .

ثمّ طلبت تأليف كونفرانس (1) من نوّاب الدوّل للنّظر في المسألة فأجابها إليه جميع الدوّل عدا دولة فرنسا ثمّ انعقد الكونفرانس ولم يدخله سفير عثماني . فأعلنت الدولة العليّة بأنّه لا لزوم للكونفرانس إذا أرسلت من عُمَد رجالها من يطفىءُ هاته الفتنة فعيّنت درويش باشا ليتولّى إصلاح ذات البين بين توفيق وأحمد عرابي . وبما أنّ حزب المابين في تأييد أحمد عرابي أرسل السلطان مع درويش باشا أحد الشيوخ الملازمين للمابين المتظاهرين بحبّ عرابي وطلب نصر الإسلام وهو الشيخ أحمد أسعد وهو رجل مدني كان عيّنه السلطان فرّاشا في الروضة النبويّة لأنّ عادة السلاطين والأمراء أن يكتب الواحد منهم في زمام قيّمي الروضة المطهّرة ويعيّن أحدًا من قيّمي الروضة أو من أهل المدينة ليدخل لغسل الروضة بالنيابة عنه في نوبته ويأجره على ذلك . فكان
[228] هذا الرجل هو الذي عيّنه السلطان [228] عبد الحميد لذلك من قبل السلطنة . وكان في مدّة هاته الوقائع مقيما عند السلطان فاختاره في هاته الإرسالية السياسية لتأييد أحمد عرابي برجل عربي .

ولما دخلوا مصر تلقّاهم توفيق بإقباله . وما يختلب العقول من أمواله فتظاهَرُوا بطلب الإصلاح وألبسوا أحمد عرابي النيشان الذي أرسله له السلطان ورام درويش باشا عند ذلك أن يغري أحمد عرابي بمصاحبته في الرجوع إلى الآستانة لتلقّي الاقبالات السلطانية وإن شئت قلت لملاقاة المنيّة . ففطن لذلك أحمد عرابي وأسرّ لدرويش في مجلسه بقوله : « إني أحمد عرابيَ العربي » ثمّ أعلن له بالاعتذار عن الذهاب معه وتعلّل بمنع القوّاد العسكرية .

ولما وصلت الدنانير إلى جيب الشيخ أسعد تنكّر لأحمد عرابي بعد أن كان أتاه بمكاتيب المابين وأخبار المنتصرين له فصار يشدّد عليه القول في شأن

(1) كنوفرانس : لفظة دخيلة من الفرنسية وتعريبها : جلسة عامة أو مؤتمر .

السفر حتّى اضطرّ أحمد عرابي لزجره عن هذا الإلزام . وسرت أخبار امتلاء كيس درويش وأصحابه إلى المابين وأخذ القرناء في شتمه وشخص السلطان منكر لصنيعه وهم يظنون أن الشيخ أسعد يأتيهم بالخبر اليقين حتّى إنه لما رجع درويش باشا إلى الآستانة لم يرسل السلطان لاقتباله وشاع خبر عزله جزاء لما ارتكبه في هاته الارسالية فأقام في بيته منبوذا نحو يومين أو ثلاثة أيام إلى أن أمكن للشيخ أسعد تبرئته مع التشكّي من جسارة أحمد عرابي بعد أن أفهم درويش باشا جيوبا لبعض القرناء .

فلم يكن إلاّ أنّ السلطان أحضر درويش باشا وأحسن قبوله وتدارك من أمره ما أمكنه وبإثر ذلك شاع في الآستانة أنّ الدولة العلية تريد إرسال عساكرها لمصر ولعلّها لجلب أحمد عرابي خاصّة ورأيت العساكر متحرّكة حركة الاستعداد للسفر وهم في سرور عظيم من [229] توجّههم لمحاربة المصريين أبناء العرب . وركبت شرذمة أرجعتها دولة انقلتره وطلب سفيرها بالآستانة أن السلطان يعلن بعصيان أحمد عرابي فامتنع من ذلك لكثرة الشيعة العرابية بالمابين لا لملاحظة شيء من قواعد السياسة وبما أنّ الأشياء غير خافية وأشعر أحمد عرابي بعصيانه أرسل يوم العيد الأصغر تلغرافا لشخص السلطان يهنئه بالعيد ويقول له : «إنّي أنا وجميع الرؤساء وجميع الحزب الوطني كلّنا تحت طاعة سلطنتكم وتحت أوامرها على كلّ حال» . [229]

ولمّا تشدّد سفير الانقليز في طلب إعلان العصيان ولم يجب له السلطان اجتمع الوزراء وأوجب لهم الخوف والإغراء ان اتّفقوا على إجابة انقلترة أولى من الاختلاف معها . ولا تتمّ نكاية الأعداء إلا بخيانة الأصدقاء فأحضر لهم السلطان نفس تلغراف الرجل الذي صرّح فيه بالطاعة فكيف تمكن تسميته عاصيا . فاستشهدوا له باستعصائه على درويش باشا والشيخ أسعد وفي ذكر الثاني معرفة من أين تؤكل الكتف . لكن أصرّ السلطان على عدم الإعلان مع أنّ صورته مكتوبة على مقتضى إملاء أو تسويد سفير انقلتره .

وبعد أن لم يحصل الوزراء على طائل وثبت السلطان على حدّه اعتراه خوف من تهديد السفير الانقليزي ولم يأتمن في ذلك وزير الخارجية فأرسل أحد قرنائه رشيد بك وأرسل إليه الشيخ أسعد وتكلّما مع سفير الدولة الانقليزية في سياسة النازلة رأسا . وهكذا يكون إسناد الأمر إلى غير أهله وقد أحسّ من ذلك وزير الخارجية . وبالأخرة تشدّد السفير وتهدّد بالسفر وقطع العلاقة واحتجّ بوعد الشيخ والقرين وقال إن إرسالهما خارق للعادة فهما بمثابة شخص السلطان وليس بعد وعد شخصه من حاجة إلى غير ذلك وإلاّ فإنّه يعدّ
[230] ذلك إهانة [230] وخاف الرسولان وفتلا في الذروة والغارب (1) فلم يكن من السلطان الا الاجابة وتحرّر الفرمان بانّ الوكيل الحقيقي بمصر انّما هو توفيق باشا وهو الذي تعترف السلطنة جميع اعماله وان أحمد عرابي لما عصى توفيقا وكيل السلطنة فقد عصاها. وقد زاد في عصيانه انه لا يحترم الأشراف يعني الشيخ أسعد إلى غير ذلك من التلفيقات التي كنت أرى الترك فيما بينهم يسخرون منها . واخذت سفارة انكلتره من صحيفة الجوائب التي نشرت هذا الإعلان باللسان العربي ثلاثين ألف نسخة أرسلت أكثرها إلى الهند بعد أن حشدت منها ما يكفي لمصر وأريافها . وبهذا أصبح عرابي عاصيا بعد أن كان مطيعا (2) . وهنا نرجع إلى إتمام **ما حرّره الشيخ محمّد عبده في الواقعة** قال :

[عود إلى تحرير الشيخ محمّد عبده]

« ثمّ انخدع لسلطان باشا والفرمان السلطاني كثير من مشائخ العربان والميرالاي علي بك يوسف وكان قائد الآلاي الثالث . علي بيك يوسف أظهر

---

(1) يقال في المثل : ما زال يفتل من فلان في الذروة والغارب : أي يدور من وراء خديعته .

(2) إلى هذا الحد ينتهي نقل المؤلف عن جريدة الجوائب في سر صدور أمر السلطان بعصيان أحمد عرابي . انظر أعلاه صفحة 226 . أما ما حرره الشيخ محمد عبده فقد شرع الشيخ السنوسي في روايته أعلاه صفحة 203 وتوقف عنه وها هو الآ ن يستأنفه .

الجبن أو أتى الخيانة مرّات وكان على عرابي طرده أو قتله ولكن استبقاه رغبة إصلاحه والوقت أضيق من ذلك وهي من أعظم غلطاته .

في الرابع والعشرين من شهر شوال (1) زحف الجيش المصري لمهاجمة الانقليز على رسم حربي كان المؤمل فيه النجاح العظيم إلاّ أنّ علي يوسف أبلغ الرسم للقائد الانقليزي قبل حركة المصريين فأخذ حذره وبعد قتال عنيف جرح راشد باشا حسني وعلي باشا فهمي ورجع الجيش المصري منهزما لكن بانتظام . وعدّ من أسباب الهزيمة تأخّر محمود باشا سامي قائد فرقة الصالحيّة عن حضور الموقعة وقيل من أعذاره وعورةُ الطريق وكثرةُ الرمال التي لم يتمكّن معها من إدراك الجيش إلا بعد الهزيمة بعدما جرح هذان القائدان انتخبوا للقيادة العامّة علي باشا الروبي وبئس ما انتخبوا . وصل هذا القائد [231] الجديد إلى المعسكر وابتدأ عمله بتغيير الخطوط والنقاط الحربية [231]
فاشتغل العساكر بالنقل والرفع والحطّ وأخرجهم من مواقعهم من السادس والعشرين من الشهر إلى الثامن والعشرين (2) حتّى بلغ التعب من الجند مبلغه . وكلّ هذا يبلغ القائد الانقليزي بالتفصيل وهو يهيّء جيشه للزحف .

وفي ليلة التاسع والعشرين ذهبت طليعة لاكتشاف حركات العدوّ وكان فيها من خيّالة العسكر وبعض العربان فجاءت وقالت لا يوجد عدوّ ولا حركة . والعدوّ على مقربة من الجيش . الفرسان كانوا فرقة عبد الرحمان حسن أحَدَ مَنْ مَالأ سُلْطَانَ باشا ، وعليّ يوسف على الخيانة .

اعتمادا على أخبار الطليعة نام الجيش مطمئنا وذهبت بأحلامهم سكرة التعب وزحف جيش الانقليز قاصداً نقطة الآلاي الثالث من قلب الجيش فاستقبلهم قائد الآلاي علي يوسف بإشارة المحبّة وسار أمامهم وأخلى الطريق لهم حتّى صار بهم وراء الجيش العام المصري وهنالك ابتدؤوا بِضَرْبِ المدافع

(1) يوافق : 8 سبتمبر سنة 1882 .
(2) يوافق : من 10 سبتمبر إلى 12 سبتمبر 1882 .

والبنادق وكان الانقليز أبقوا فرقا من عساكرهم أمام مواقع العساكر المصرية المتفرقة لتشغل العساكر بالمقاتلة حتّى لا يتداركوا الجيش العامّ وكثير من الفرق المصرية على قلّتها قاتلت حتّى فنيت .

لما اشتدّ الضرب من الخلف والأمام وهمّت العساكر بالفرار أخذ عرابي يعظهم ويذكّرهم بدينهم ووطنهم فرموه بالحجارة قائلين هل نطيعك ونخالف أمر السلطان . وكان أمر العصيان قد فشى فيهم بسعي سلطان باشا . فاضطرّ إلى الفرار ومعه علي الروبي قاتله الله وتدبيره . وجاء عرابي إلى القاهرة منهزما في التاسع والعشرين من شهر شوّال 1299 (1) [232] وذهب إلى نظارة الجهادية [232]
واجتمع المجلس العرفي . وكان من رأي عرابي أن تقام حصون للدفاع عن القاهرة ولا يكون التسليم إلا بحرب فخالفه أغلب الأعضاء واستقرّ رأيهم على أن يكتب كتاب التسليم والانقياد للخديوي ويبعث به مع رؤوف باشا وبطرس باشا وعلي باشا الروبي ويلتمسوا له ولإخوانه العفو فكان ذلك .

وجاء الجيش الانقليزي إلى القاهرة ودعا القائد عرابي وطلبة فتوجّها إليه واحتبسهما عنده ودخل سلطان باشا نائبا عن الخديوي مطلق التصرّف ولم يطل له ذلك أكثر من خمسة أيّام . هذه حرب لم يتأخّر عن الاشتراك فيها مصري بذلوا لها أموالهم وأرواحهم . وكانت خيبة المسلمين فيها بثلاثة : توفيق باشا الخديوي وسلطان باشا والأمر السلطاني والرابع خادم الثلاثة علي بيك يوسف . هذا ما تيسّر من الإجمال . ونسأل الله حسن المآل محمّد عبده ».

[تحرير المؤلّف في قضيّة أحمد عرابي]

قلت : وقد أصيب بمحن هاته الواقعة نحو الأربعة عشر ألف نفس من أهل مصر اختلفت حالهم في نوع العقوبة على حسب الأغراض المتعلّقة بهم

---

(1) يوافق : 13 سبتمبر سنة 1882 .

بحيث إنه في بادىء بدء امتلأت السجون وغيرها بالمتّهمين من الخاصّة والعامّة والحقّ أن يقال إنّ جميع أهل مصر من نساء وولدان فضلا عن العقلاء كانوا يستحسنون الحالة العرابية ويؤمّلون بها خلوص ملك مصر لمليكهم بالتخلّص من مخالب الانقليز . ولذلك قال بعض العقلاء في ذلك الوقت : «الوجه عندي هو أنّ الخديوي يضرب سورا على كلّ من حوتهم البلاد ويسمّيهم مساجين وإلاّ فإنّ نُقلة واحد من بيته إلى بيت آخر يسمى سجنا دون نقل آخر يعد ترجيحا بغير مرجّح» وبعد سجن من وقعت تسميته تشكّل مجلس للاستنطاق وكان رأي رياض باشا هو إجراء الاستنطاق والتحقيق على جميع من وقعوا في يد الحكومة وأخذ كلّ من يقتضي التحقيق أخذه إلى غير ذلك [233] ممّا [233]
يتناول جميع المتصرّفين إذّاك في الدولة والخديوي وأهل معيّته لكن لمّا انتهى التحقيق مع أحمد عرابي بالاعتراف الصوري أجرت الدولة على كافّة الناس حكما مختلفا . فأمّا أحمد عرابي ورفقاؤه من الضباط وهم أمراء الأولية طلبة باشا وعلي فهمي باشا وعبد العال باشا فكان نفيهم إلى سيلان ونفي معهم ثلاثة من الوزراء هم الأصيل الحازم أبو فراس الشعراء محمود سامي باشا الذي كان رئيس الوكلاء ويعقوب باشا وكيل وله الأثر الجميل في حفظ الأمنية مدّة الوقائع ومحمود فهمي باشا الذي كان ناظر الأشغال العامّة ورئيس أركان الحرب وأجريت على جميع هؤلاء جراية قدرها ثلاثون جنيها في كلّ شهر لكلّ واحد منهم :

غير أنّه بما شاع من الصيت لأحمد عرابي في النازلة أظهر الشفوف عليهم في المنفى ولم تحسن معاشرتهم وداخلهم هنالك تحاسد وتباغض مع ما هم عليه من مفارقة أبنائهم وأهلهم وأوطانهم . ونفي يومئذ لمصوع علي الروبي باشا حكمدار التلّ الكبير والتاجر حسن موسى العقاد . وأما العالمان الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوي اللذان أعطيا الفتوى بخلع الخديوي فأوّلهما كان على فراش مرض أخذه منه عصمان غالب ضابط مصر في كروسة إلى مستشفى الاسطلب وأقام به سجينا إلى أن توفي سابع ذي الحجّة سنة تسع

وتسعين ومائتين وألف (1) وعمره يناهز الثمانين سنة وخلّف من التآليف في المعقول والمنقول ما يشهد لفضله عليه رحمة الله — وثانيهما لما سئل لدى التحقيق عن الفتوى قال « نسيت ذلك ولو عرض علي الآن ذلك لأفتيت بخلعه لسوء أعماله » . فخلّي سبيله .

وأمّا بقية (2) مثل عبد الله فكري باشا الذي كان ناظر المعارف وحسين باشا الدارملي الذي كان وكيل الداخلية وشريفي باشا الذي كان ناظرا على الأوقاف ومصطفى باشا [234] النائلي الذي كان مفتّش الأراضي الميرية [234]
ومحمّد باشا كامل الذي كان وكيل البحرية وعصمان باشا فوزي وعبد الله شمطي وغيرهم من الضبّاط والأمراء والأعيان والعلماء فجميعهم وقع نفيهم إلى خارج القطر المصري بحيث نفي نحو المائتي رجل .

واختلفت أوامر نفيهم فمنهم من نُفي لخمس سنين ومنهم من نُفي لعشر سنين وباقي المساجين خلّي سبيلهم وعفي عنهم . ولم يُقتل في هاته الحادثة سوى أصحاب حريق الإسكندرية من الضبطية وتهمة الأغراض أدخلت معهم رئيسهم الأمير آلاي سليمان داوود فتمّت فيه سعاية أعدائه بالشنق والعياذ بالله .

وأمّا أصحاب الجرائد من المسلمين فاختلف حالهم فأمّا مدير المطبوعات العربية ورئيس قلم تحرير الوقائع الشيخ محمّد عبده فبعد سجنه تلك الأشهر مع أولئك الأعيان سئل لماذا كانت الجرائد في ذلك الوقت تنشر ما شاءت في الحكومة ونظارة المطبوعات لا تجري عليها القصاص فأجاب : إنّ مانع نظارة المطبوعات هو الذي كان مانعا للخديوي من التصرّف في ملك مصر وهل لنظارة المطبوعات قدرة تقاوم الأغراض العسكرية في ذلك الوقت ؟ على أن شخص الخديوي وأرباب الدولة لم يرسل يومًا ما واحد منهم بشكاية من صحيفة . ونظارة المطبوعات إنما تطالب بشكايات المتشكّين » وعلى كلّ حال وقع نفيه لسنين معيّنة لسبب نفوذ أفكاره في الأهالي » .

---

(1) يوافق : 20 أكتوبر سنة 1882 .
(2) كذا بالأصل : والسياق يقتضي : واما البقية .

وأمّا عبد الله نديم مُنشيءُ صحيفة التقدّم التي قامت بوظيفة التهييج بين الضبّاط فبعد السجن نفي وسافر إلى عدّة جهات . ثُمّ عفي عنه فعاد إلى مصر . وأمّا الشيخ حمزة فتح الله السكندراني فإنّه قد اختلفت أطواره فأصدر أوّلاً صحيفة البرهان في مبدإ الحوادث والحقّ أقول إن مقاصده فيها كانت من أعلى ما يكون سوى عدد زلّت فيها قدمه مدح فيها الاستبداد وجعله أصل الملك وذمّ الشورى المفضية [235] إلى المشاركة في الملك . وذلك عند فتح مجلس [235]
النوّاب وهو صنع صدر منه على وفق مطالب أهل الاستبداد .

أخبرني الشيخ محمّد عبده أنّه عندما استحكم أمر أحمد عرابي بمصر قدم الشيخ حمزة فتح الله من الاسكندرية لمواجهته قال : وَلَمّا أحضرته بين يديه . قلت له : « إنّ هذا الشيخ حمزة فتح الله رجل عالم وهو صاحب صحيفة البرهان » وأخذت أثني على صحيفته فما تريّث أحمد عرابي أن قال للشيخ حمزة : « مرحبا بعدوّ الحريّة لا كثّر اللهُ من أمثالك » فقلت له : « لماذا ؟ » فقال : « أو ليس هو الذي ذمّ الشورى ومدح الاستبداد » . فقال : أخذت اعتذر له بأنّ مراده وحدة المنفذ حتّى لا يقع الاشتراك في الملك . وخجل الشيخ . لكن بعد حين لما وقع ضرب الاسكندرية وساءت الحال أصدر الشيخ حمزة فتح الله صحيفته المسماة «الاعتدال» وهو في وجه الدين كالاعتلال . فكانت أقبح صحيفة تذمّ دولة الإسلام وتمدح سلطة الانقليز وتعتذر لأعمال سيمور في ضرب الإسكندرية وتوجب على أبناء الوطن والدين الطاعة يدخلون بها تحت سلطة الأجنبي إلى غير ذلك ممّا يشين أهل الدين والمروءة من أصحاب الجرائد حتّى بلغ أن لا يذكر اسمه إلا بالشتم بين المسلمين في سائر الجهات . وقد شاهدت ذلك بالآستانة حين كنت مقيما بها مدّة صدور «الاعتدال» وهو عار اشتراه بحطام لا يرتضيه سوى الطغام (1) وبذلك نجا من بين أهل الوطن واستحصل على نظارة في المدارس .

---

(1) الطغـام : أوغاد الناس للواحد والجمـع .

وأمّا إبراهيم سراج المدني فإنه رجل ولد بالمدينة المنوّرة وخرج من بلاده صغيراً إلى مصر ثمّ إلى الهند فأقام بجهاتها سنين متطاولة ثمّ عاد إلى مصر وقرأ في بعض مكاتبها ودخل تونس والجزائر وأقام مدّة فيهما يحترف بيع الكتب . وكاتبني في تلك المدّة حين كان بالجزائر بمكتوب بطالعته أبيات من شعره الرائق وهي قوله : [236] (من الطويل) [236]

خَلِيلَيَّ قُولاَ لِلْبَرِيدِ الَّذِي سَرَى
وَسَارَ يُبَارِي سَيْرَ كُلِّ تَلَغْرَافِ
تَحَمَّلْ فَدَتْكَ النَّفْسُ مِنَّا رِسَالَةً
وَأُمَّ بِهَا الخَضْرَاءَ حَيْثُ الهوَى سَافِي (1)
وَحَيْثُ رِيَاضُ الْعِلْمِ أَيْنَعَ زَهْرُهَا
وَمَاسَتْ بِأَعْطَافٍ إِلَى مَنْهَلٍ صَافِ
وَأَبْلِغْ بِهَا عَنَّا السَّنُوسِيَّ ذَا الْحِجَا
سَلاَمًا كَمِثْلِ الدُّرِّ فِي جَوْفِ أَصْدَافِ
فَكَمْ سَهِرَتْ عَيْنَايَ مِنْ بَعْدِ فُرْقَةٍ
وَكَمْ شَاقَنَا مِنْ بَعْدِهِ مَنْزِلٌ عَافِ
عَسَى الدَّهْرُ مِنْ بَعْدِ الجَفَاءِ الذِي مَضَى
يُعَامِلُنَا يَوْمًا بِوَصْلٍ وَإِسْعَافِ

ثم أقام بتونس وكان يكاتب صحيفة «المستقلّ» المطبوعة في إيطاليا حتّى دخلت فرنسا لتونس أواسط عام 1298 (2) . فَخَافَ عَلَى نفسه وبادر إلى السفر فَدخل مصر وأنشأ بها أوّلا صحيفة «الحجاز» فكانت أعزّ صحيفة وضمّنها في أوّل أعدادها واقعة جرت بيننا بتونس من اللطائف الأدبية . وذلك

(1) سفا يسفو سفوا : أسرع في المشي أو الطيران .
(2) يوافق : ماي سنة 1881 .

أنّا كنّا في بعض الأيّام نتنزّه خارج باب القرجاني وجرى بيننا ذكر أحوال الأمراء والممالك وتصرّفات رياض باشا بمصر وتصرّف غيره .

وموضوع المجلس من النوادر الأدبية تمنيّات الشعراء بقول الواحد منهم ما كان أحوجني إلى كذا وذكرتُ له كثيرًا مما ساقه المقّري في نفح الطيب ثمّ ذكرت له أنّ من إخواننا الأدباء من صدر منه التمنّي بمثل ذلك فمن ذلك قول الكاتب الشيخ محمّد الرياحي (1) : (من البسيط)

مَـا كَـانَ أحْوَجَنِـي يَوْمًا إلَـى رَجُـلٍ
يَقُولُ لي مُشْفِقًا لاَ تَخْشَـى مِـنْ فَلَسِ
خُذْ ألْفَ ألْفِ رِيَـالٍ وَاغْتَنِـمْ فُـرَصًا
فِـي ذَا الزَّمَانِ الذِي جَهْلاً إليْكَ يُسِـي
فَـإنْ تَوَقَّفْتُ في أخْذِي لِصُبْرَتِـهَـا (2)
أوِ اعْتَـرَى حَالَتِـي شَـيْءٌ مِـنَ الْفَلَسِ
فَلاَ لَبِسْتُ شِعَـارَ الأكْـرَمِـينَ وَلاَ
تَـمَتَّعَتْ مُهْجَتِـي في الدَّهْـرِ بِالنَّفَـسِ
هَـذَا ألَـذُّ وَأشْهَـى مِـنْ فَتًى خَنِـثٍ
حِلْوِ الشَّمَائِـلِ فِـي بَـاقٍ مِـنَ الْغَلَسِ

[237] ومن ذلك قول المدرّس الشيخ محمّد بن الخوجة : (3) (من البسيط) [237]

مَـا كَـانَ أحْوَجَنِـي يَـوْمًا إلَـى مَلِـكٍ
يَهْمِـي بِغَيْثٍ مِنَ الإحْسَانِ مُنْبَجِسٍ (4)

---

(1) هو محمد الطيب بن إبراهيم الرياحي توفي 1850/1266 . انظر : اتحاف ، ج 8 ص 75 .
(2) الصبرة : ما جمع من الطعام بلا كيل ولا وزن . يقال : أخذه صبرة : جملة بلا كيل ولا وزن .
(3) ولد الشيخ محمد بن الخوجة سنة 1268هـ : وتوفي سنة 1325هـ. انظر : محمد النيفر ، **عنوان الاريب عما نشا بالمملكة التونسية من عالم أديب ، تونس 1351 . ج 2 ص 176 .**
(4) انبجس : تفجـر .

تَرْوِي كَفَّاهُ مَحْلَ (1) فِكْرَةٍ ذَوِيَتْ
أَزْهَارُهَا بِزَمَانٍ لِلْكِرَامِ مُسِي

هُنَاكَ يَسْتَجْلِي رَوْضًا يَانِعًا عَبِقًا (2)
مَحَاسِنًا تَزْدَرِي بِالشَّادِنِ (3) الأَنِسِ

يَوَدُّ بَدْرُ الدُّجَى (4) لَوْ زَانَ لَبَّتَهُ (5)
مِنها يَوَاقِيتُ فَضْلٍ لَحَنَّ (6) كَالقَبَسِ (7)

فَإِنْ رَجَعْتُ وَلَمْ أَقْطُفْ بِمَدْحَتِهِ
أَزَاهِرَ الْبِرِّ لاَ حُلِّيتُ بِالْكَيَسِ (8)

ومن ذلك قول الشيخ محمد جعيط : (من البسيط)

مَا كَانَ أَحْوَجَنِي يَوْمًا إِلَى كُتُبٍ
لِتُؤْنِسَ النَّفْسَ فِي صُبْحٍ وَفِي غَلَسِ

تُهْدِي لَنَا رَاحَةً يَرْتَاحُ شَارِبُهَا
رَاحًا مِنَ الْعِلْمِ لاَ رَاحًا مِنَ الدَّنَسِ

فَتَسْحَرُ النَّفْسَ لاَ مِنْ طَرْفِ أَحْوَرَ بَلْ
مِنْ طَرْفِ مَعْنًى بِهَا لِلنَّفْسِ مُخْتَلِسِ

فَإِنْ رَجَعْتُ وَلَمْ أَظْفَرْ بِمَا طَلَبَتْ
نَفْسِي وَقَدْ زَادَ شَوْقُ الْفِكْرِ وَالنَّفَسِ

---

(1) المحل : انقطاع المطر ويبس الأرض .
(2) بالأصل : عنفا . إ
(3) الشادن : ولد الظبية .
(4) بالأصل : الدجا .
(5) اللبة : موضع القلادة من الصدر .
(6) حن : صوت .
(7) القبس : شعلة النار تؤخذ من معظم النار .
(8) الكيس : العقل .

فَلاَ نُسِبْتُ بِعِلْمٍ وَابْتُلِيتُ بِمَا
يَكُونُ فِيهِ عُمُومُ الْجَهْلِ وَالْفَلَسِ
هَذَا إِلَى النَّفْسِ أَشْهَى مِنْ فَتًى خَنِثٍ
حُلْوٍ مَلِيحٍ إِذَا مَا قَامَ فِي الْغَلَسِ

ثم سألني مَا نَتَمَنَّى فقلت له في ذلك الوقت : (من البسيط)

مَا كَانَ أَحْوَجَنَا يَوْمًا إِلَى مَلِكٍ
يَحْمِي حِمَانَا فَلاَ نَنْفَكُّ فِي حَرَسِ
فَإِنْ نَجِدْهُ وَلَمْ نَكْتُبْ مَدَائِحَهُ
مِلْءَ الطُّرُوسِ فَلاَ حُلِّيتُ بِالْكَيَسِ
هَذَا لأَوْطَانِنَا وَالدِّينِ أَحْسَنُ مِنْ
حِلْوِ الشَّمَائِلِ فِي بَاقٍ مِنَ الغَلَسِ

وبعد أن سلك بصحيفة «الحجاز» مسلك الإنصاف والحريّة مع الأدب في أعداد كثيرة وظهرت حوادث مصر جرى في مهيعها ومال إلى الضّباط وتغيّير مسلك الصحيفة إلى أن تَعَاطَتْ القدح في السياسة . ولَمَّا لم يمكن للدولة جبره على شيء التزمت اقناعه بثلاثين ليرة شهرية عن خطة كتابة [238] [238]
الأوقاف وترك الصحيفة رأسا . ففتح حانوت المتجر وترك كلتا الصناعتين إلى أن اضطرّت نظارة الأوقاف إلى عزله حيث إنّه يأخذ المرتّب بدون خدمة أصلا .

وعند ذلك عاد إلى الضبّاط وقد اشتدّت الفتنة وصار يخطب فيهم الخطب المهيجة . ونشر صحيفة «الفسطاط» تحت حماية الضّباط وصار الضّباط والعساكر يجمعون له الأموال وهو يهيج النفوس بما ينشره من الأقوال إلى أن انتهت النازلة فأخذ في المساجين .

وبالأخرة نفي ليتوجّه حيث شاء فدخل طرابلس وصاحب بها الشيخ حمزة ظافر . وكان بها شبه مراقب على الوالي . وأخذ إبراهيم يقدح في دولة الترك لتصريحها بعصيان عرابي . ويطلب اجتماع العرب لإقامة دولة عربية . وبلغ شيء من ذلك إلى الوالي . فأرسل للشيخ حمزة ظافر في ذلك وتمادى إبراهيم سرّاج في غفلته إلى أن قبض الوالي عليهما وتوجّه الشيخ حمزة إلى الآستانة لوجاهة أخيه وبقي المسكين سجينا في طرابلس لا يجد من يكون سببًا في مخلصه والدنيا سجن المؤمن على كل حال نسأل الله أن يحسن عاقبة الجميع بجاه النبيّ الشفيع .

[تقريظ المؤلّف لصحيفة الحجاز]

وبما أنّ حسنته في صحيفة «الحجاز» الأصلية لا تنكر فمن المناسب أن نثبت هنا في خاتمة الرحلة الحجازية ما كاتبته به في تقريظ صحيفة «الحجاز» . وهي كتابة ربّما يستجيدها أهل اللسان كانت على عهد إجادة صاحب البرهان ونصّها : (من الوافر)

إِنِ اجْتازَ الفَتَى نَحْوَ الْحِجَازِ ... رَأَى الإِسْعادَ مِنْ خَيْرِ اجْتِيَازِ
رَأَى نُورَ الهُدَى بِسِرَاجِهِ قَدْ ... أَضَاءَ بِمَا يُرِي طُرُقَ الْمَفَازِ
فَفِي طَيِّ الحِجَازِ لَطِيفُ مَعْنًى ... يَحِنُّ القَلْبُ نَحْوَهُ بِاهْتِزَازِ
لِذَا ذِكْرُ الحِجَازِ يَسِيرُ شَرْقًا ... وَغَرْبًا بِالثَّنَا وَالاعْتِزَازِ
[239] وَكُلٌّ ذَابَ مِنْ ذِكْرَاهُ شَوْقًا ... وَطَيْرُ الأَيْكِ غَنَّى بِالحِجَازِ

إيه أعد ذكر الحجاز * بالحقيقة والمجاز * فإنه مظهر آيات الإعجاز * ومطلع شموس الاعتزاز * الحجاز تنبعث إلى معالمه الشريفة جميع النفوس * إذا تَمالأت على حبّه * وتتبسم بثنايا الثناء ثغور الطروس * تبسّم المحبوب لمحبّه * وَيَنْضَبُّ من ألسنة الاقلام رضاب النفوس * بما تخطّ من وصفه بكتبه * ان قلت عنيت

أرض الحجاز * طار القلب إلى ساكنيه شوقا * وخفقت الجوائح إلى المفاز * وان لم نجد للوصول إليه طوقا * (من الوافر)

سَقَى اللّهُ الحجَازَ وَسَاكِنِيهِ وَقَلْبًا بِالغَرَائِمِ إلَيْهِ حَنَا

أو قلت إني سالك بالحجاز * مسلك الحقيقة والمجاز * فالحجاز أكمل صحيفة * قامت على منبر الإنصاف بأعظم وظيفة * قد سبت أبكار المعاني من خدورها * ومنحت محاسنها إلى مطالعي سطورها * بما أكنت ألفاظها العذبة في صدورها * يوم ساعد الاقبال بنشرها وصدورها * فكانت آية الفصاحة والبلاغة * قد صيغت في بوتقة التضلّع بالسياسة أكمل صياغة * تحنّ الأرواح إلى لطف ألفاظها حلة اتخذتها شعارًا * وقامت بها انتصارا * على وجه يجلو شموس الحقّ على منصّة الايضاح المشكورة * وإن حاول طَمْسَهَا من يريد أن يطفىء نور الله *(وَيَأْبَى اللّهُ إلاّ أنْ يُتِمَّ نُورَهُ (1))* ولا ينكر الشمس الا فاقد البصر * لا يرى لها عينا ولا أثر * وأنّى لمن يحاول كتم الشمس * أن يحجبها اليوم مثل أمس * وقد أبانت مصر القاهرة طرف الإيضاح بالاطناب والإيجاز * [240] وكشفت ما هنالك من موارد الحجاز * [240]
بعد ان تبسّم ثغر الاسكندرية يترنّم بالنغمات الحسان * ويجلو على سائر الأصقاع من تبسّمه ما يغني عن البيان * ويبين الحقّ بساطع البرهان * ذلك برهان عظيم * ذو نفع عميم * وذبّ عن الحق الصميم * بالجري على الصراط المستقيم * إذ صاغه من سبق القلم بنقطة اسمه الرفيع * إذ أحكم بالتصحيف أمره فجاء وصفا لسلسل إنشائه البديع * فقلت عند الانتشاء بمترعات كؤوسه خمرة * وما هو إلا من فتح الله وما أدراك ما ذلك الفتح المبين * الذي طلع بثاياته الباهرة على العالمين * فجزى الله من أعمل يَعْمَلاَتِ (2) قلمه في منافع الأمّة * وكشف من ظلمات التمويه عليها كل مدلهمّة * وحيّا الله أرضا كانت

(1) القرآن : سورة التوبة ، 9 : 32 .
(2) بالأصل : يعمولات . اليعملة هي الجمل والناقة المطبوعات على العمل .

مطلعا لشموس الرجال * الذين تقوم أقلامهم مقام الرمي بالنبال * فيدفعون بها سيماء العار والمذلّة * ويدافعون بها عن الأمّة والملّة . أولئك الذين غذتهم أفاويق (1) المروءة الباهرة * في حجور مصر القاهرة * ذلك البلد الذي حمى الله حوزته بتوفيق * فأطلق من رياضه أطيب عبيق * وكأنّي بسادس رجال محاورة الحجاز * لم يعن سواه * فيما هو على نسق المتغزل فيمن يهواه * إذ أنه لما أجاز بيت المحاورة الذي هو من ألطف المقال * بادر وقال : (من البسيط)

فإن نَجِدْهُ وَلم نَكْتُبْ مَدَائِحَهُ   ملءَ الطُّرُوسِ فلاَ حُلِيتُ بالكيْس

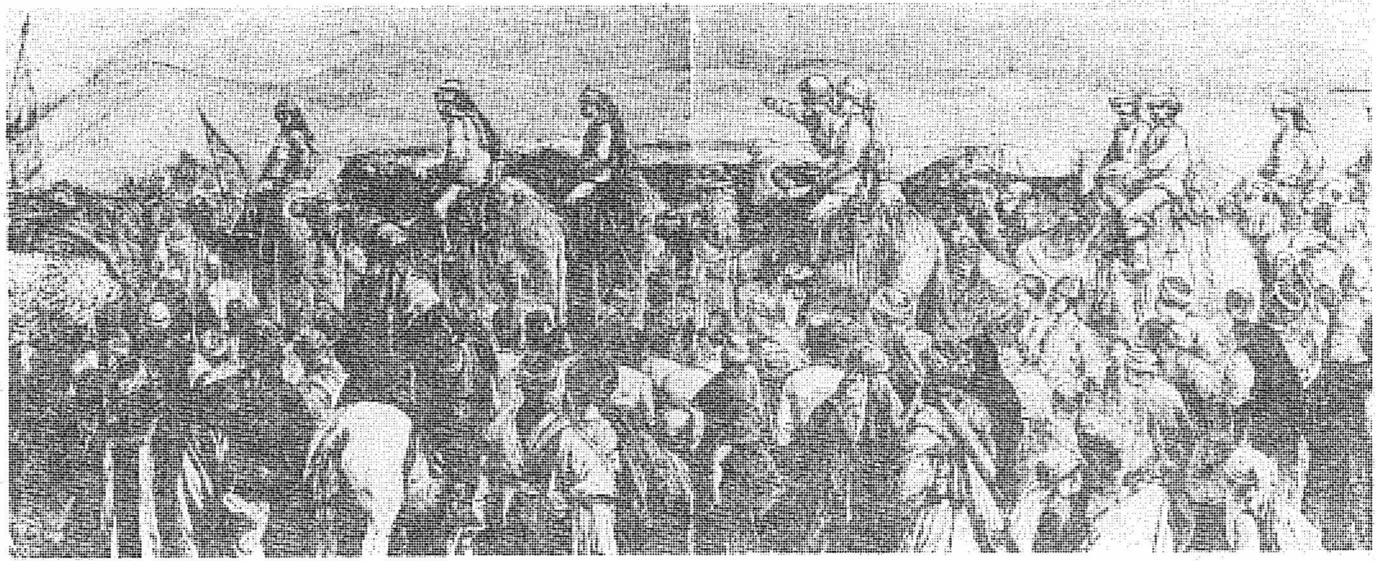
فيا حَبَّذَا ما أثّلَه عِمادُ دولة الاسلام * وحَامي بَيْضة الحِلّة (2) بغاية الاحكام * خاقان (3) خواقين العالم * سلطاننا الغازي عبد الحميد * أدام الله به عزّ الإسلام يجري على منهج الرأي السديد * فقد ضمخ أردان مصر بأطيب عبيق * وأسدل عليها سرادق من توفيق * وهنيئا [241] لمن أحكم هذا الاتّصال * الذي تتّصل به الأوصال * وحسب الحسيب بذلك خلّة وخصلة * وليس كأرحام الديانة وصلة * وكأنّي بمحاول الفصم — لاَ فَصَمَ الله عُراها بين العباد — يستدعي العيون أن تذرف أو تتفتّت الأكباد * حمى الله حِمانا ممّا يَحُول بين المرء والمراد * وهذه مصر وأنتم من ألسنتها قد كساها إحكام الموصلة أعز المطارف * من حلل المعارف * وما فتئت مظهرا لشموس الاعتزاز * حتّى باهت بمفاخر الحجاز * بقدّك يا إبراهيم قد تصدّيت * لما به وفَيْت * واتيت لما به اعتنيت * فكنت جديرًا بالمديح الذي استحقّيته لنفسك * وأفضت فخره على سائر أبناء جنسك * حتى كان من مفاخر بلادك * وآيات برّك وإسعادك * فبماذا أثْنِي عليكَ وأنتَ سرَاج الحجاز * وماذا أقول فيك وأنت الذي سبقت إلى المفاز * وإنما نقول بلسان قصير * لا يفي بحقّ التعبير * عن جسم سقيم * وطرف كليم * وقلب حزين   ونفس تضيق عن المتموه

---

(1) أفاويق : جمع مفرده الفيقة : اسم اللبن الذي يجتمع في الضرع بين الحلبتين : المعنى : خيار .
(2) الحلّة : المجتمع ، المجلس .
(3) خاقان : علم واسم لكل ملك .

على الدين * نسأل الله أن يجبر الصدع * إنّه جميل الصنع * وأن يكثر من أمثالكم في الإسلام بجاه نبيّه عليه الصلاة والسلام . حرّره العبد الضعيف * محمّد السنوسي التونسي خادم العلم الشريف * أخذ الله بيده تحريرًا في أوائل شهر رمضان المعظم سنة 1298 (1) .

(1) يوافق : آخر جويلية سنة 1881 .



الجنرال هيكس الانقليزي في طريقه الى الخرطوم لتقوية الجيش المصري بالسودان في نوفمبر 1883

حسن الإياب

لما أتينا بحمد الله على غرض الكتاب * رأينا أن نوشّح ذيله بخبر الإيّاب * على الوجه المستطاب * عند الأدباء من ذوي الألباب * فقد ركبنا من مرسى مالطة بعد الزوال بساعتين من يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة 1300 (1) ولم يقلع الفابور إلا بعد العصر وكان البحر على [242] [242]
أحسن حالة من الهدوّ والسكون . ولذلك كان المسير في أعلى درجات الحسن فقضيناها ليلة أهاجت الأشواق * بما ذاد النوم عن الأحداق * وأخذ الطرب بها منا مأخذه الرائق * وتجدّد على ألسنتنا حمد الكريم الخالق * وأصبحنا خير صباح * نستكف لرؤية المعالم التونسية بما كادت تتطاير إليه الأرواح * والمرايا الهندية ترينا من سواحلها ما نحن إليه شائمون * وبرؤيته رائقون * إلى أن رأينا مرسى الظريف فأنشدتها أبيات أخينا الخوجي (2) مدبّجة بالتخميس الباجي (3) وهو (من الوافر)

هَلُمَّ بِنَا فَإِنَّ السَّعْدَ آتٍ لِيَصْحَبَنَا إِلَى نُزُلٍ مُوَاتٍ
وَجَمْعِ الشَّمْلِ في عَبْدَلِيَاتٍ نُشَاهِدُهَا رِيَاضًا حَالِيَاتٍ
« تُحَاكِي الْغِيدَ رَبَّاتِ الْحُجُولِ »

---

(1) يوافق : 3 فيفري سنة 1883 .

(2) انظر أعلاه صفحة 237 .

(3) هو أبو عبد الله محمد الباجي المسعودي من أحفاد الولي الصالح أبي بكر البكري التبرسقي ولد بتونس 1810/1225 وتوفي 1880/1297 . انظر : محسن بنحميدة ، **الباجي المسعودي** ، سلسلة أدباء المغرب العربي ، تونس 1962 .

أطَلّتْ كَالعَرُوسِ علَى يَفَاعٍ   لِتَنْظُرَ ذَا لِجَامٍ أوْ شِرَاعٍ
سَقَاهَا اللّهُ عَنّا مِنْ رِبَاعٍ   بها الضّدان مَعْهَدٍ ذي انْقِطَاعٍ
« ومَلْهى السّافِكِينَ دَمَ الشّمُولِ »

وأتينا على شاطىء سفح المنار * كما دار على معصم الغادة رابق السوار * وردّدنا الطرف على مناره * وما لاح من علم الأستاذ أبي سعيد الباجي وأسراره * إلى أن أرسى بحلق الوادي فابورنا * واستقرّ حيث تضاعف برؤية البلاد سرورنا * وبينما نحن ننظر محاسن البلاد * التي هي غاية المراد * واذا بالفلك تجري في البحر مقبلة بالأحبّة وكرام العشيرة * بما عادت به النفس قريرة * وعندما أخذ الفابور مستقرّه * أقبل جميعهم فتساقينا كؤوس المسرّة * واصطحبت بهم للوفد المنتظرين بحلق الوادي * من الغرّ المحجّلين من أهل ودادي * فإذا هم [243] [243] جموع السلامة * وأعلام الزعامة * وقد نزلنا جميعا في محل أصهاري * إلى أن آن السفر مع محجّة الحديد إلى محلّ قراري * ووجدنا بمحطّ البلاد إخوانا * صاحبونا إلى أن أصبنا من بيتنا مكانا * فتمّ بحمد الله للنفس جميع المنى * وطابت بسلامة الآباء والإخوان والأهل والأبناء * وذلك فضل الله العظيم * سبحانه وتعالى إنّه هو السميع العليم . (من الطويل)

فألقتْ عَصَاها وَاسْتَقَرَّ بِهَا النَّوَى * كَمَا قَرَّ عَيْنًا بالإيّابِ المُسَافِرُ

وبعد فترة فتحت الأبواب * وأقبل الإخوان والأصحاب * وانثالت الجموع * من الأساتذة وكرام العشيرة الذين اخضلّت منهم الربوع * وعلى ذلك جرت المسامرة الرائقة * ذات المحاسن الفائقة *

[اجتماع المؤلّف بالأمير علي باشا باي]

وخرجت باكرة يوم الإثنين إلى المرسى لملاقاة طالع الأمير الجديد * وهو الطالع السعيد * حضرة المعظّم الأرفع سيّدنا علي باشا باي حيث كان استقراره على كرسي الإمارة يوم الأحد التاسع عشر من ذي الحجّة الحرام سنة تسع

وتسعين ومائتين وألف (1) ولاقيت من كرام بنيه الأمراء سيّدي مصطفى باي وسيّدي محمّد الهادي باي وسيّدي إسماعيل باي وسيّدي أحمد باي ما ألفته من إقبالهم * المعدود في محاسن صنائعهم ومفاخر أعمالهم واستصحبني أكبرهم أبقاه الله لملاقاة والده * فأوردني من مناهل الإقبال أعذب موارده * وسأل عن أبناء البلاد ممن فازوا في هاته السنة بنيل المراد .

وقدّمت له قصيدة التهنئة له بالإمارة * فتلقّاها تلقّي الإقبال الذي نشكر اعتباره * وقد نشرت في الرائد التونسي . وهنا نثبتها على علاّتها وهي : (من الطويل)

بِتَاجٍ عَلِيٍّ كَلَّلَ الْمُلْكُ رَأْسَهُ
فَأَصْبَحَ أُسْدُ الْغَابِ تَحْذَرُ بَأْسَهُ

[244] وَرَوْضُ الأَمَانِي كَلَّلَ الدَّوْحَ بِالْمُنَى [244]
وَجَوَّفَ (2) مِنْ زَهْرِ المَسَرَّةِ غَرْسَهُ

فَلَسْتَ تَرَى إلاَّ ثُغُورًا بَوَاسِمًا
وَجَذْلاَنَ قَلْبٍ يَوْمَ نَادَمَ أُنْسَهُ

أَفَاضُوا وَمَا أَرْفَضُوا (3) فَجَمِيعُهُمْ
إِلَى بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ أَعْمَلَ نَفْسَهُ

يَؤُمُّونَ شَهْمًا حَازِمًا زَانَ يَوْمَهُمْ
بِبِشْرٍ كَمَا زَانَ السَّوَالِفُ أَمْسَهُ

هُوَ ابْنُ الْمُلُوكِ الشُّمِّ خَامِسُ أَصْلِهِمْ
وَيَا حَبَّذَا فَرْدٌ يكمل سه (4)

(1) يوم الأحد يوافق 16 ذو الحجة لا 19 ذو الحجة وهو يوافق 29 أكتوبر 1882 .
(2) جوف : أخرج ما في جوفه .
(3) أفاض القوم من المكان : اندفعوا منه وتفرقوا .
ارفض الابل : تركها تتبدد ولم يجمعها .
(4) كذا بالأصل .

تَتَــوَّجَ مِنْهُــمْ مُلْــكُ تُـونِــسَ بِالْعُلَــى
وَأَطْلَعَ مِنْهُــمْ مُعْجِــزُ الْمَجْــدِ شَمْطَهُ

فَأَضْحَى عَلِــيُّ ابْنُ الْحُسَيْــنِ مُمَلَّــكًا
وَعَمَّــا سِــوَى الإِصْلاَحِ مَــا مَــدَّ قَوْسَهُ

بِــهِ قَــدْ دَارَتْ دَارُ الإِمَــارَةِ دَارَةً
أَحَاطَتْ سَنًــى يَهْدِي مِــنَ الأنسِ جِنْسَهُ

وَبَاكُورَةُ التَّصْرِيفِ قَــدْ أَنْبَأَتْ بِــمَـا
عَلَيْهِ انْطَوَى إذْ وَافَقَ الْجَهْرُ هَمْسَــهُ

فَأَفْضَى رِدَاءَ الْعَفْــوِ عَــنْ كُــلِّ مَن نَأى
وَأَدْنَــاهُ بِالتَّأْمِــينِ يُذْهِــبُ رِكْسَــهُ (1)

وَأَسْــدَى لِتَكْثِيــرِ الْمَعَــارِفِ مِنَّــةً
بِــهَا كُــلُّ نِحْــرِيــرٍ يُثَــافِــنُ دَرْسَــهُ

يُــرَجِّي بِــذَا عِــمْــرَانَ أَرْضٍ بِهِ اعْتَلَتْ
وَتَــأْثِــيلَ مُلْــكٍ يَــوْمَ أَيْــقَــظَ حَــرْسَــهُ

أُصُــولٌ عَلَــى الْعَــدْلِ الْمَتِــينِ أَقَامَهَا
مَلِــيكٌ بِحُسْنِ الصنْــعِ أَظْهَــرَ كَيْسَهُ

مَلِــيكٌ عَلَــى أُسٍّ الكِــيَاسَــةِ قَدْ بَنَــى
سِــيَاسَــةَ مُلْــكٍ تَتْبَــعُ الْيَــوْمَ حِسَّــهُ

مَلِــيكٌ لَــهُ صِــدْقُ الْفِــرَاسَةِ إِنَّــمَــا
وَقَائِعُهَــا لَيْسَــتْ تُخَالِــفُ حَــدْسَــهُ

مَلِــيكٌ لَــهُ عِلْــمٌ وَحِلْــمٌ وَرَأْفَــةٌ
وَفَضْــلٌ جَــرَى مَا أَنْ تَــرَى مِنْــهُ عَكْسَهُ

(1) هذه اللفظة قرأناها : الركس أي الرجس . ولعلها الوكس أي النقــص .

مَلِيكٌ لَهُ ظِلُّ الْمَعَارِفِ وَارِفٌ
وَتَآلِيفُهُ التَّعْرِيفُ يُوضِحُ لُبْسَهُ

جَلاَ مَذْهَبَ النُّعْمَانِ عَنْ رَأْيِ حِكْمَةٍ
بِتَعْبِيرِ سَحْبَانَ سَاعَدَ قَسَّهُ

وَأَجْلَى سِيَاسَاتِ الشَّرِيعَةِ حُرِّرَتْ
بِصَالِحٍ مِنْ حَالِ الْمُهْتَمَّاتِ مَسَّهُ (1)

وَزُبْدَةُ قَوْلِي فِيهِ أَنَّ مَلِيكَنَا
بِمَفْخَرَةِ التَّعْرِيفِ أَشْهَدَ طِرْسَهُ

فَقُلْ فِيهِ مَا قَدْ شِئْتَ إِذْ كُنْتَ مَادِحًا
وَمَاذَا عَسَى يُبْدِي فَتًى جَرَّ نَفْسَهُ

[245] وَفِي غُرَّةِ الأَشْبَالِ أَيَّةُ آيَةٍ [245]
تَدُلُّ عَلَى أَنْ قَدْ حَبَاهُمْ رَغْسَهُ (2)

وَنُخْبَتُهُمْ أَضْحَى أَبُو النُّخْبَةِ الَّذِي
تَوَخَّى بِمَرْضِيِّ الْمَبَرَّةِ تِرْسَهُ

وَكُلُّهُمُ فِي رَوْضَةِ الْبِرِّ أَثْمَرُوا
فَزَانُوا مِنَ الرَّوْضِ الْوُجُودِيِّ أُنْسَهُ

فَيَا مُعْجِزَ الْبَيْتِ الْحُسَيْنِيِّ وَكَهْفَهُمْ
وَمَنْ مِنْهُ هَذَا الْمُلْكُ تَوَّجَ رَأْسَهُ

هَنَاؤُكَ (3) عَمَّ الأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا
وَكُلُّ فَصِيحٍ فِيهِ أَعْمَلَ حَدْسَهُ

(1) كذا بالأصل .

(2) الرغس : النعمة .

(3) بالأصل : هناءك .

وَلَكِنْ أنَا جُبْتُ الشَّوَاسِعَ نَاشِرًا
مَحَاسِنَهُ مُذْ قُمْتُ أُطْنِب دَرْسَهُ
وَجِئْتُ بِدُرٍّ أسْفَرَتْ عَنْ جَمَالِهِ
غَرَائِبُ أسْفَارٍ ألاَنَتْ مَجَسَّهُ
بِهِ نَظَمْتُ أسْلاَكَ مَدْحِي وَبَيْعَتِي
لِعَلْيَاكَ يَا مَلِكَ الزَّمَانِ وَأُنْسَهُ
فَجَاءَتْ سُعُودٌ فِي عُقُودِ مِنَ الْهَنَا
تَدُلُّ عَلَى أنِّي تَمَلَّكْتُ أُسَّهُ
لِمَا أنَّنِي غذيتُ نِعْمَةَ بَيْتِكُمْ
بَقِيتُمْ لَهُ الْكَهْفَ الْمُظَلِّلَ غَرْسَهُ
فَخُذْهَا فَدَتْكَ النَّفْسُ تُحْفَةَ قَادِمِ
مِنَ الْحَجِّ أوْلاَكَ الْمُهَيْمِنُ رَغْسَهُ
بِهَا آبَ إذْ جَابَ الْفَيَافِي وَقَدْ سَعَى
إلَيْكَ يَشُقُّ الْيَمَّ قَدْ أمَّ غَمْسَهُ
وَدُمْتَ الْمُهَنَّأ وَالْهَنَا بِكَ مُشْرِقٌ
لآلِكَ طُرًّا لَيْسَ نَعْدِمُ شَمْسَهُ
وَدَامَ الْهَنَا بَيْنَ الأهَالِي بِكُمْ عَلَى
زَمَانٍ بِهِ الإسْعَادُ أطْرَدَ نَحْسَهُ
وَكُلُّ بَنِي الْخَضْرَاءِ مِنْكَ مُؤْمِنٌ
يُدِيرُ عَلَيْهِمْ لُطْفُ رَبِّكَ حَرْسَهُ
إذَا هَبَّ مِنْهُمْ مَاجِدٌ مُتَحَمِّسًا
يُحَبِّرُ مِنْ فَخْرِ الْمُمَلَّكِ طِرْسَهُ
يَقُولُ وَفِي التَّارِيخِ هَبَّ مُبَاهِيًا
بِتَاجٍ عَلِيٍّ كَلَّلَ الْمُلْكُ رَأسَهُ

[اجتماع المؤلّف بأودّائه وأنصاره]

وبعد إيّابي في ذلك اليوم من المرسى قصدت رياض مَنُّوبَةَ فلاقيت بها كلاًّ من الأميرين سيّدي حسين باي وأخيه الابن الأبرّ سيدي محمّد الناصر باي فتلاقيا لي ببثّ الاشتياق * في كؤوس المحاورة العذبة المذاق * ورجعت آخر العشي إلى داري * لقبول أودائي وأنصاري * وتشرّف منزلي بحضور من نبتهج بحضوره [246] من الأعلام * إذ حضره حجّة العصر وحافظ الشريعة الأستاذ مولانا شيخ الاسلام * أدام الله بقاءه للأنام * وكبير أهل الشورى وكافّة الشيوخ * من المفتيين والقضاة الثابتي الرسوخ * وأعلام المدرّسين من أساتيذي وإخواني * الذين بلغت برؤيتهم غاية لأماني * ووجوه البلاد * أهل الفضل والسداد * ممّن نشكر فضل ودادهم * وندعو الله أن يديم حسن إمدادنا وإمدادهم * وبما أنا وجدت أخانا الهمام النحرير * صاحب الوفاء الغزير * العلاّمة المدرّس الفاضل الشيخ سيّدي محمّد بن الخوجة خرج إلى حمّام قربص للتداوي بادرت إلى مكاتبته بالسؤال والإعلام * بما نرجو من الله أن يبلّغنا منه إلى غاية المرام * فكاتبني حرسه الله بمكتوب شريف * رأيت أن أثبته بما فيه من المنزع اللطيف * ونصّه : [246]

« بعد الحمد لله والصلاة على النبيّ صلّعم حجّ مبرور * وسعي مشكور * وذنب مغفور * وتجارة لن تبور * لأخينا العلاّمة الماجد الفاضل * سلالة الأماجد العلماء الأفاضل * ذلك الدرّاكة النحرير * ومن له في الفضائل المقام الشهير * بارع العصر * وسحبان المصر * صديقي وأخي الشيخ سيّدي محمّد السنوسي * حرس الله كماله * وَبَلَّغَهُ آماله * بعد أداء ما يجب من أعزّ السلام * المحفوف بالإجلال والإعظام * فإني لا أقدر أن أعبّر عمّا حصل لي من السرور * من قدومك سالما على معدنك من الحجّ المبرور * فحسبي أن أقول متمثّلا :
(من الطويل)

قَدِمْتَ قُدُومَ الْغَيْثِ فِي البَلَدِ الْمَحْلِ
عَلَى الطَّائِرِ المَيْمُونِ وَالرَّحْبِ وَالسَّهْلِ

فقد أحييت قلوبا أجدبتها نيران الاشتياق * وكاد بعد التلاقي أن يبلغ بها إلى الاحتراق * لكن بقيت عندي لذّة المعاينة والاجتماع * فانهما ألذّ شيء في الاستمتاع * وشوقي لذلك شديد * ما عليه من مزيد * واقول [247] متمثّلا : [247]
(من الوافر)

فلوْ أسْتَطيعُ طِرْتُ إليْكَ شَوْقًا وكَيْفَ يَطِيرُ مَقصُوصُ الْجَناحِ

هذا وقد أطفأ بعض الاشتياق * مكتوبكم الكريم الذي رقّ وراق * فهو التحفة السنيّة * والمنحة العليّة * وأبى الله تعالى إلا أن يكون لكم فضل السبق * في كلّ مكرمة * فكان لمكتوبكم على جوابنا التقدمة * إذ كان زمن وصولكم للبلاد حركة بيدي ثقيلة * لا أستطيع معها حيلة * ودام ذلك إلى أوان بلوغ مكتوبكم الكريم إلينا فتأسّفت غاية الأسف على عدم المبادرة والآن لما وجدت نشاطا بيدي تمكنني معه الحركة — والحمد لله تعالى — بادرت واغتنمت الفرصة في المكاتبة . وقد اطلعت على قصيدتكم الغرّاء النفيسة فرأيت طرازا غاليا لا زالت معاليكم في ازدياد والسلام من أخيكم محمّد بن الخوجة (1) .

ولما وصلني الكتاب المذكور أعدت إليه الكتابة بمكتوب لم يحضرني منه سوى أبيات وهي : (من الكامل)

القلبُ منْ ألَمِ الفِرَاقِ عَلَى شَفَا لوْلاَ كتابٌ جَاءَ يُخْبِرُ بِالشِّفَا
ناهيكَ منْ طِرْسٍ تَمَلَّأَ جَوْهَرًا منْ مَعْدِنِ الودِّ المُعَزِّزِ بِالوَفَا
طِرْسٌ فَضَضْتُ ختامَهُ فتعطَّرَتْ أرْجَاؤُنا منْ نَفْحَةٍ لمَّا هَفَا
قدْ خِلْتُهُ طَبَقًا بَدَا منْ فِضَّةٍ بِنَفَائِسَ مِنْ عنبَرٍ قدْ أتْحَفَا
فإذَا نُفوسُ البِشْرِ فيه تَخَلَّلَتْ بِبِيضَ الأمانِي منْ وَدودٍ أسْعَفَا
نَشْكُو شِكايَتَهُ وَنَزْهُو عِنْدَمَا يَسْمُو بِبُرْءٍ تلتقِي مِنْهُ الشِّفَا

(1) انظر أعلاه صفحة 237 تعليق رقم 3 .

وقد أجابني عنه بما نصّه :

سيّدي وأخي العلامة النحرير والدراكة الشهير * والبارع السابق في ميادين التعبير * الماجد وابن الماجد * ومن أقرّ بفضله الأقارب والأباعد * وماذا عسى يقول القلم في نابغة الزمان [248] إن نَثَرَ أوْ نظم * بعد أداء أشرف التحية * اللائقة بأخلاقكم الزكية * فقد شرّفني مكتوبكم العزيز * الأغلى من الذهب الإبريز * وآنسني وراقني ورأيتها نعمة لا يحصرها العدّ * إذ كاتب المولى العبد * فحسبي الدعاء لجنابكم بالبقاء وازدياد العزّ وإلاّ فإنّي عاجز عن المكافأة وقد قلت بيتين خدمت بهما تلك القطعة الغراء الفريدة . وعذري توالي الأعمال ها هنا من شرب ماء المسهل ثمّ المشي للعراقة ثمّ الانغماس في الحوض مع أنّي إذا أطنبت في مكتوب أحسست بعد بضعف في قلبي لبقية المرض . وان كنت والحمد لله على ما يسرّكم من ازدياد معافية فمتانة اخوتكم ومزيد كمالكم يقنعان منّي باليسير اعتماداً على ما في الضمير وأنتم لا يخفاكم مالكم من الأجر عند الله تعالى في تعاهدكم للغريب عن إخوانه والبيتان هما (من الكامل) [248]

يَا مَنْ بَدْرُ مَقَالِهِ قَدْ أَتْحَفَا   فَأَنَالَنِي مَا لَمْ أَنَلْهُ مِنَ الشِّفَا
رَوْضٌ مِنَ الإبْدَاعِ أَيْنَعَ نُورُهُ   لَكِنَّهُ أَسْمَاعَنَا قَدْ شَنَّفَا

والسلام من أخيكم محمد بن الخوجة .

[مراسلات المؤلّف مع أحبّائه في الخارج]

وبعد أن أخذت قراري بادرت لمكاتبة أحبّتي في الخارج بالإعلام . ووصلتني من أعزّتهم مكاتيب راقت الأفهام . وهنا نثبت كتابا لطيفا تضمّن تاريخا شريفا من رقوم البارع الماجد الأديب سيّدي محمد الهادي بيرم وهذ نصّه : (من الطويل)

أرِيحَ الصَّبَا هَلْ تَحْمِلَنَّ تحيّتي   لخِلٍّ عَزِيزٍ بالصَّدَاقَةِ مَشْهُورُ
وَتُقْرِيهِ أشْوَاقِي وأنّي مُهَنّىءٌ   بعـــدد سمـا ارخ بـحجّـك مشكور

كتابي ألبسك الله من الهناء أرفع ثياب * وكساك من المسرّة أعظم جلباب * وفصل بينك وبين الكدر بأثخن حجاب * على ممرّ الدهور والأحقاب * إذ أنت أعزّ الأقارب والأحباب * وحبّك راسخ في القلب رسوخ الأوتاد [249] لا الأسباب . [249]
وودّك النقش على الضمير بلا ريب ولا نزاع * وهل على الصبح غطاء أو على الشمس قناع * جناب العلاّمة الأمجد الشيخ السنوسي سيّدي محمّد أدام الله محامده * وجعل التوفيق مصاحبه * والإقبال مساعده * أمّا بعد السلام عليك * عدد شوقي إليك * فقد كتبت بعدما تشرّفت بأوّل مكاتيبك وثانيها * وانتعشت ببشري راحتكم أبعدها ودانيها * فبلغ بي السرور منتهاه * وأطلقت اللسان بحمد الله وثناه * هذا ويا أيها الأخ الأوحد الصدوق * والأب الشفوق * أمّا عبد وِدّكم فإنّ شوقه بائن ظاهر * ويتمثّل دائما بقول الشاعر * (من الوافر)

وَإِنْ شَتَّتَ الزَّمَانُ لَنَا جُسُومًا   فَقَدْ جَمَعَ الوَفَاءُ لَنَا قُلُوبَا
وَإِنْ أَصْبَحْتَ عَنْ عَيْنِي بَعِيدًا   فَلَسْتَ تَزَالُ مِنْ قلبي قَرِيبَا

وإلى الله سبحانه وتعالى أتضرّع أن يديم بقاءكم * ويسهّل لقاءكم * وعليكم أتمّ السلام وأكمله * من مخلص ودّكم محمّد الهادي بيرم لطف الله به *

وكاتبني الصديق الوفي العلاّمة النحرير الماجد الشيخ سيّدي محمّد المكّي ابن عزوز بما نصّه :

حرس الله مجادة العزيز * العقيان الإبريز * فرع دوحة النبوّة * ومركز دائرة الأدب والمروءة * ذي الأخلاق الجميلة * والعلوم التي هي بخيري الدارين كفيلة * مَنْ أسَالَ المدامع بين البيت وعرفه * إسالة عالم اتّقى الله وعرفه * ليتني صحبته وما كلّ حاجّ أَوَدُّ موقفه * الناسك الشاكر * الذاكر إخوانه وفاء بالعهد بهاتيك المشاعر أبي عبد الله الشيخ سيّدي محمّد السنوسي شكر الله مسعاه * وقبل بمنّه دعاه *

أمّا بعد سلام زكي * بحقوق الوداد وفي * فقد سرّني ما به فزت * ولنعيمه من بيننا حزت * من زيارة المقام الجليل * ومشاهدة [250] مهبط الوحي [250]

والتنزيل * فهنيئا لك أيّها الخليل * حصول الأمن بدخولك مقام إبراهيم الخليل * ثـمّ أحمد الله حيث أبت ممتّعا بالصحـّة والعافية * وأهنّي الخضراء بطلوع بدركم في آفاقها السامية * وإنـي عن قريب إن شاء الله قادم للحضارة * وأتنعـّم بمجالسكم المونسة الزاهرة * ودمت سميّا * وبعين اللطيف مرعيّا * والسلام من أخيكم محمّد المكـّي بن عزوز » .

وبعد وفوده حرسه الله إلى الحاضرة واطلاعه على بعض آداب رحلتنا الزاهرة استحسن قصيدة المخترعات الجديدة واستجاد تقريظها التركي بما رآه من معانيه النضيدة فعمد لنظم ترجمة تلك القصيدة بأبيات فريدة أودعها تاريخا لطيفا من براعته المديدة وذلك قوله : (من الكامل)

العَالِمُ المَوْلى المُزَيّنُ عَصُورَهُ ... مَنْ ماطَ عَنْ أدبِ النُّهى دَيْجورَه
مَنْ للمَعارِفِ حافِظٌ وَمُحَبِّرٌ ... أعني السّنوسِيَّ ذا الحُلاَ المشكورَه
بقَصيدَةٍ وَصَفَ الذياخْتَرَعوهُ في ... عَصْرٍ جديد مُتْقَناً تَحْبِيرَه
فَبِكُلِّ بَيْتٍ مِنْهُ أثرٌ مُعْجِزٌ ... يَتعجّبُ المُتَدَبِّرُونَ شُذُورَه
مُتَجاوِزٌ أهلَ القَرِيضِ جميعَهُمْ ... بفَرَاسِخَ وَهوَ المُشيدُ قُصُورَه
بل جازَ وَادي الطِّينِ بالعَرَبَاتِ في ... طُرُقِ الحَديدِ وَمن يَنالُ عُبورَه
البَرْقُ مِنْ أفْكارِهِ يَأتِي عَلَى ... كُلِّ المَعَانِي مُحسناً تَفْكيرَه
ما مِثْلُ سُرْعَتِه تِلِغْرَافٌ لِذَا ... في اللحْظِ يقضِي وِرْدَهُ وَصُدُورَه
سَتَرَى له مِنْ شِعْرِهِ هَذَا صَدًا ... ذِكْرٍ يزينُ وَسُمْعَةً مَشْهُورَه
وَتَرَاهُ في تَلِفون حلقِ العَالَمِ العَالي يَعُمُّ بُرُورَهُ وَبُحُورَه
لاَ تَحْسَبَنَّ مَرْكَبَ السَّوْدَاءِ في ... طَبَقِ الرَّقيمِ إذا نظرْتَ سُطُورَه
بل عَنْبَرٌ مَنْ نالَ معناهُ اجْتَبَى ... لمَنَاشِقِ الفكرِ الجديدِ عَبِيرَه
هوَ من نتائجِ رِحلةٍ بالسَّعدِ في التّاريخِ تَجْلِبُ حَجّةً مَبْرُورَه

453 (1) 411 435

1299

---

(1) بالأصل كــذا : 441 .

[251] تقـــاريظ الـــرحلة (1)

الحمد لله والصلاة والسلام على أكمل خلق الله وعلى آله وصحبه ومن ولاه . أمّا بعد فبما أنّ الرحلات السنوسية * من المآثر التونسيّة * وهي الرحلة الحجازيّة * المذيّلة بالرحلة البارزيّة * وقد قرظها أدباء البلاد * وشهد لها بالفضل من طالعها من العلماء الأمجاد * وفحول الرجال الأنجاد * فهذه نبذة من ذلك العنوان * تنبىء على ما في طيّها من خبايا العرفان * التي لا يصل إلى إدراك لطائفها الغبيّ المعتوه * وانّما يعرف الفضل من الناس ذووه * فمن ذلك ما كتبه البارع الماجد المتفنّن الأريب الأكتب الشيخ سيّدي محمد بن مصطفى زرّوق (2) على الرحلة الحجازيّة ونصّه :

الحمد لله على نواله والصلاة والسلام على محمّد وآله

المقام الذي نجلّه * وفي سويداء القلب نحلّه * العالم الجليل * والحبر النبيل * الأديب الفاضل البارع * الذي انتهى إليه التحرير والتحبير بلا منازع * أستاذ الأدباء * ورئيس النبلاء * ذو القدر الفخيم المنيف * أخونا الشيخ سيّدي محمّد السنوسي الشريف * أدام الله أيّها الودود إجلالك * وحرس من كلّ

(1) الملاحظ أن هذه التقاريظ المثبتة بذيل هذا الجزء الثالث من الرحلة الحجازية من صفحة 251 إلى صفحة 267 هي تقاريظ عددها ثمانية عشر ولا يتعلق منها بالرحلة الحجازية الا تقريظان فاقتصرنا على اثباتهما في هذا التحقيق . أما بقية التقاريظ فهي تتعلق بكتاب المؤلف : الاستطلاعات الباريسية . انظر أسفله صفحة 252 .

(2) هو أحد أصدقاء المؤلف لم نعثر على ترجمته .

نقص كمالك * ما ذرّ شارق * ولمع بارق * السلام الأتمّ * العطر الأشمّ * عليكم مع رحمة الله وبركاته * وأزكى تحيّاته * هذا ولمّا اطلعنا على رحلتكم الحجازيّة * المحصّل صاحبها كلّ مزيّة عليّة * وجدناها تعبق بأزهار الربيع * وتزري ببديع اليواقيت يواقيت البديع * رحلة ترتاح إليها الأرواح وتعلق بها النفوس * صادحة فلا عطر بعد عروس * فالله يديم سيادتكم جنابا رفيعا * وكهفا منيعا * حاملا راية الأدب باليمين * ويرحم الله عبدا قال : آمين *

ويلي هذا أن يصل جنابكم السامي المقالة للتأمّل فيها والعثور على ما عسى
أن يكون خطأ . بورك فيكم كما بورك في [252] لاولا . والله يحفظكم بمنّه [252]
تعالى . أمّا القصيدة فتبلغكم غدا حيث لم تحضر الآن . والسلام من المخلص الودّ أخيكم محمّد زرّوق ، لطف الله بالجميع ، في صفر الخير سنة 1307 (1) .

ومن ذلك ما كتبه الأبرع الدّرّاكة النحرير اليلمع الشاعر المجيد سيّدي الشاذلي بن فرحات (2) عليها وهو قوله : (من الرجز)

قل للسنوسي الهمام   الألمعي أخي الطرف
لله سفر قد زها   بتراجم فيها تحف
رسائل في ضمنه   جليت فنلت بها الشرف
كالدرّ فزت بنظمها   لولاك كانت في الصدف (3)

---

(1) يوافق : أكتوبر 1889 .

(2) هو محمد الشاذلي بن فرحات المملوك . انظر ترجمة والده فرحات المملوك ، اتحاف ، ج 5 ص 138 ج 8 ص 133–135 .

(3) إلى هنا نهاية تقاريظ الرحلة الحجازية . أما بقية التقاريظ فهي تتعلق بالاستطلاعات الباريسية (بعد طبعها الذي كان لها به الاعتبار الاسنى عند علماء اللسان العربي في مجتمع العلوم بباريس وعند مجتمع اللغة العربية بمصر المحروسة ...) وهذه قائمة أصحابها :
1 – والي الجزائر . 2 – بول كامبون سفير فرنسا في الآستانة . 3 – شارل روفيي سفير فرنسا بتونس . 4 – أبو نضارة صاحب الصحائف الشهيرة : أبو صفارة ، أبو زمارة ، الحاوي ، الوطني المصري ، التودد ، المنصف . 5 – الكاتب العام بالدولة التونسية (المسيوروا) . 6 – الشيخ محمد ابن الخوجة . 7 – الشيخ حمودة تاج . 8 – الشيخ محمد المسعودي . 9 – الشيخ أحمد جابر . 10 – الشيخ عمر ابن أبي بكر . 11 – الشيخ حسن المزوغي . 12 – مدير الزراعة بالمملكة التونسية (المسيو بول بورد) . 13 – الشيخ محمد بن حسن العطار البغدادي. 14 – الشيخ الطيب عباس . 15 – ما كتبه أبو نضارة بصحيفته في باريس . 16 – ما كتبه عبد الرحمان الصنادلي بصحيفة الزهرة في العدد 179 .

فهرس الآيات القرآنية

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

فهرس الأحاديث النبوية

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

اللفظة	الحديث	الصفحة
أمتي	أمتي كمثل المطر لا يدري أولها خير أم آخرها...	17—49
ليعمل	ان أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى لا يكون بينه وبينها الا قدر ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها	20
المسلم	المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه...............	27
المؤمن	لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه	27
أنفق	لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم أو نصيفه	28
آل	آل محمد كل تقي	41
سلمان	سلمان منا آل البيت	41
يصوموا	يا بلال أذن في الناس أن يصوموا غدا...........	68
ارحموا	الراحمون يرحمهم الرحمان تبارك وتعالى ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء..........	96—163—165

فهرس القوافي

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

فهـرس المصنفات والصحـف الوارد ذكرهـا

في الجـزء الثالث من الرحلـة الحجازية

(تشيـر الارقـام الى صفحـات المخطـوط)

فهرس الأعلام

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

— أ —

— ت —

فهرس اسماء الاماكن الواردة في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

فهرس اسماء القبائل والامم والطرق والاحزاب الواردة في الجزء الثالث من الرحلة الحجازية

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

فهـــرس الصــــور

الصفحة

فهرس محتوى الجزء الثالث من الرحلة الحجازية

(تشير الارقام الى صفحات المخطوط)

الموضوع	الصفحة

الموضــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة